الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية

في ربع قرن

تأليف

أمين سعيد

المجلد الأول

النِضَالُ بَين العَرَب وَالتّرك

مكتبة مدبولى

اسم الكتـــاب : **الثورة العربية الكبرى**

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

اسم الـكـاتـب : أمين سعيد

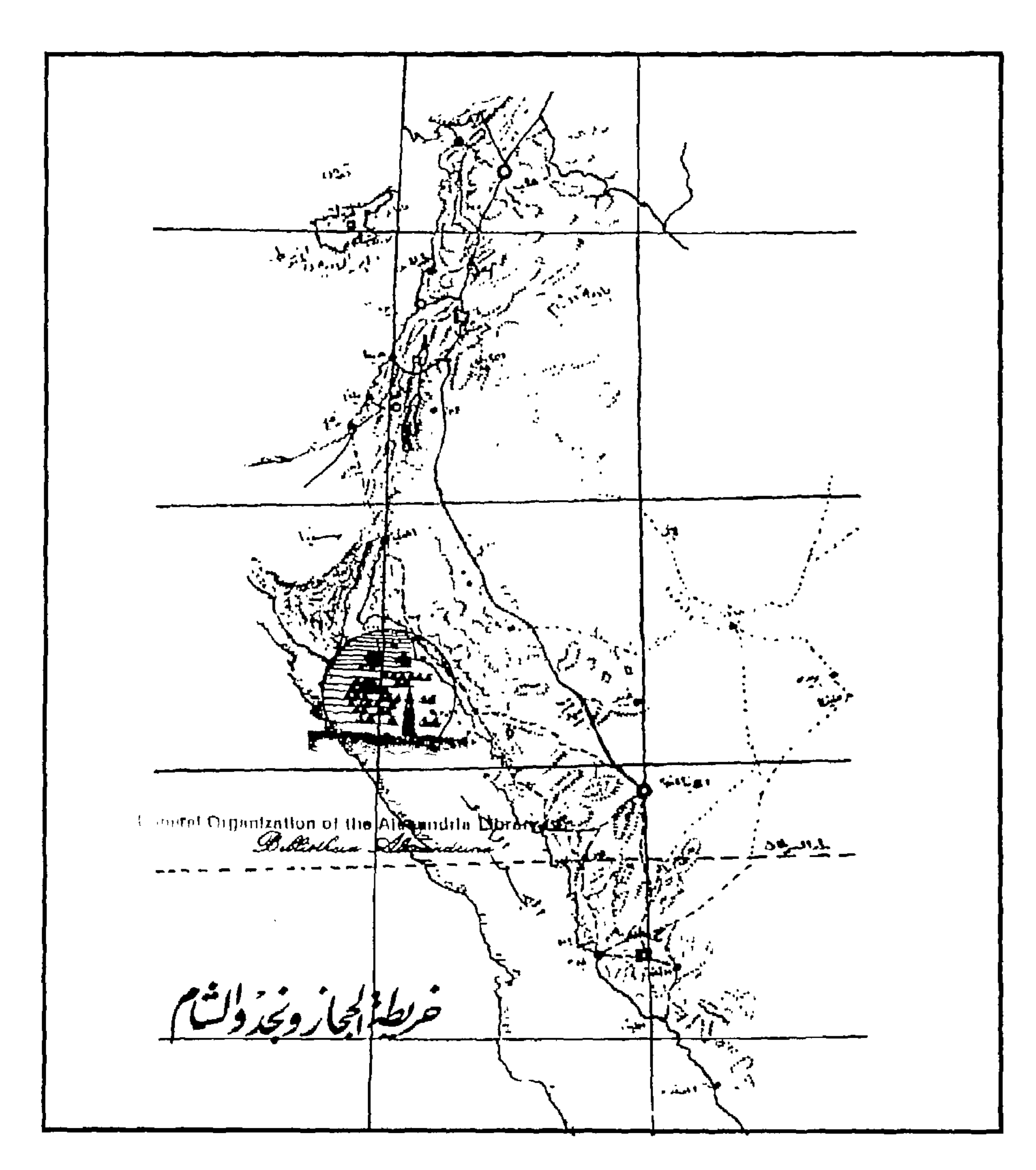
المجـلـــد الأول : النِضَالُ بَين العَرَب وَالتّرك

الـنـاشـــــــر : مكتبة مدبولى ٦ شارع طلعب حرب القاهرة

تليفاكـــــس ٥٧٥٦٤٢١ ت : ٥٧٥٢٨٥٤

الجمع التصويرى : أبو مسلم للكمبيوتر

ت : ٣٥٥٨٩٨٨



خريطة تبين أماكن القتال فى الحجاز وطريق زحف الجيش العربى



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه العربى وعلى إخوانه المرسلين وصحابته والتابعين

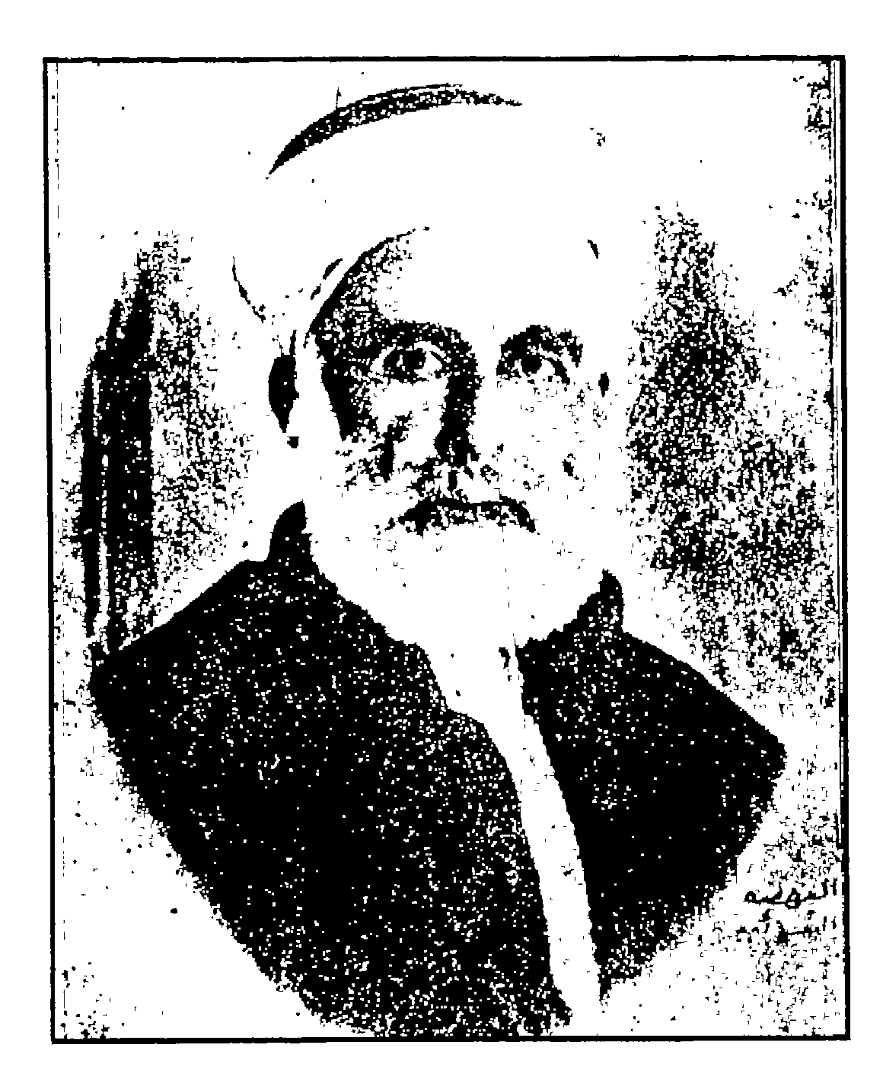
أما بعد فهذا الكتاب «النضال بين العرب والترك» وهو الحلقة الأولى من تاريخ القضية العربية، يضم أخبار الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ حتى قيام الحكومة الفيصلية فى دمشق سنة ١٩١٨وتتلوه الحلقة الثانية «النضال بين العرب والفرنسين والإنجليز» وتشمل أخبار الحكومة الفيصلية من قيامها حتى سقوطها مع تاريخ القضية العراقية من ابتداء الحرب العظمى حتى إنشاء الدولة العربية الجديدة فى العراق سنة ١٩٢١.

أما الحلقة الثالثة فهى خاصة «بإمارة شرقى الأردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهاشمية فى الحجاز وأحداث الشام» وتشمل تاريخ القضية العربية فى الفترة الممتدة من سنة ١٩٢١ حتى يومنا هذا وفيها بسط واف لتاريخ إمارة شرقى الأردن مع بيان مفصل عن القضية الفلسطينية والوطن القومى اليهودى، وعن سعى انجلترا لتصفية عهودها مع الحسين، ورفضه للحلول المقترحة وقيام الحكومة السعودية فى الحجاز، ويتلو ذلك تفاصيل ما حدث فى بلاد الشام من أحداث تبتدئ باحتلال الفرنسيين لعاصمتها. فتجد أخبار الثورة السورية مفصلة إلى جانب تاريخ النضال السياسى الداخلى فى هذه الفترة الطويلة بين السوريين والفرنسيين.

ولقد حرصت على مراعاة التسلسل التاريخى للحوادث، وألحقت بكل منها مستند - إذا كان هناك مستند - وختمت كل حلقة بملخص حللت فيه حوادثها تحليلا، وأبنت فيه ما خسرته القضية العربية وما كسبته فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث، ورائدى فى عملى النزاهة وخدمة التاريخ.

لقد مضى على إعلان الثورة العربية الكبرى ثمانى عشرة سنة ونيف لم يؤلف فيها مؤلف جامع يضم شتاتها، ويسجل حوادثها، وينظم وثائقها ومستنداتها حتى خيف أن تدفن أخبارها فى صدور الذين اشتركوا فيها، وقد لحق أكثرهم بربه، فتضيع معالمها وتطمس آثارها، ويتعذر التأليف فيها، فلا يجد الكاتبون العرب فى المستقبل سوى رسائل مبعثرة، أو مقالات منثورة، أو كتب ألفت باللغات الأجنبية، وقد وضعها واضعوها لخدمة غاية معينة أو للدفاع عن خطة استعمارية شأن الكتاب الأوروبيين فى كل مايكتبونه عن قضايا الشرق وشؤونه.

واغتنمت فرصة الرحلة التى رحلتها إلى العراق فى خريف سنة ١٩٣٣ فاتصلت بمعظم الأحياء من الذين اشتركوا فى الثورتين: ثورة الحجاز وثورة العراق، وعملوا فى الدولتين: دولة الشام ودولة بغداد، ودونت أقوالهم، وحصلت على جانب من الوثائق والمستندات التاريخية التى لم تنشر من قبل، كما اتصلت أثناء مرورى فى دمشق وعمان بالذين كانت لهم يد فى إعداد الثورة الكبرى وفى ما تلاها من حوادث، ولم يضن علىّ النازلون فى وادى النيل من أبناء القضية بما يعرفونه من معلومات ويحفظونه من وثائق، يضاف إلى هذا وهذا ما عثرت عليه فى الكتب المؤلفة باللغات الثلاث (العربية والتركية والفرنسية) عنها. فقد قرأت ما وصل إلى يدى منها، وترجمت ما رأيت الحاجة إليه من كتب اللغة الإنجليزية، ورجعت أيضا إلى مجموعات الصحف اليومية والمجلات الشهرية. وبالاجمال فلم أدع مصدراً من المصادر التى ظننت إن الرجوع إليه قد يفيدنى فى عملى إلارجعت إليه، وقد حرصت على أن يكون عملى كاملا متقنًا، فإذا ظهر نقص فرجائى أن يحمل على محمل حسن النية. فالكمال لله وحده، به نستعين، ومنه نستمد المساعدة والتوفيق.



الملك حسين بن على

ـ ١ ـ

مقدمات الثورة وعواملها
من سليم إلى عبد الحميد

لابد للباحث فى القضية العربية من درس صلات العرب والترك فى الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ حتى ختام الحرب العظمى فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ وقد أقدم قادة الإمبراطورية العثمانية على خوضها مع الألمان مجازفين بمستقبل دولتهم، وغير مصغين إلى نصائح العقلاء والحكماء الذين أشاروا عليهم بالتريث والتزام الحياد، فقد يساعد هذا الدرس، وهو ذو نواح متعددة على استخراج نتائج إيجابية تنير السبيل وتجلى الحقيقة التى ننشدها فى كتابنا هذا.

والباحث فى علاقات هذين الشعبيين منذ اتحدا فى ظل الهلال العثمانى خلال القرون الوسطى، يوم كان للوازع الدينى المقام الأول، وكان الشرق يعيش فى عزلة عن الغرب، ويدور فى دائرة ضيقة من التقاليد والأساليب تسلسلت إليه من أسلافه الأقدمين، يسلم بأن العرب لم يجدوا غضاضة فى الخضوع لسلطان العثمانيين حينما مزق يوم مرج دابق جيش السلطان قيتباى آخر المماليك المصريين، وتقدم إلى دمشق فالقدس فالقاهرة فاتحا، فقد رحبوا به فى كل بلد من بلدانهم وقطر من أقطارهم، وبلغ من أمر شريف مكة يومئذ وهو الأمير حسين ابن أبى نمى أن أرسل إلى القاهرة من حمل إلى السلطان المنتصر كتاب بيعته ودخوله فى حظيرة طاعته، وبهذا الاعتراف اكتسب لقب خادم الحرمين الشريفين.

والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة الاجتماعية، ماثل فى الفكرة الدينية، فقد سرى فى ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن فى تأييد السلطان الجديد تأييد للإسلام وهو خادمه وناصره، وإعلاء لشأن الشريعة وهو حاميها ومؤيدها، وجمعا للكلمة وهو مما يأمر به الدين ويحض عليه، فالتفوا حوله، وساروا تحت علمه، وبايعوه سيدا وإماماً.

ولم يقصر سلاطين العثمانيين من جهتهم فى احترام العرب، وفى إكرام ساداتهم وعلمائهم، فادنوهم منهم، ووطأوا لهم الأكناف، وولوهم المناصب. فكان منهم الوزراء والحكام يعملون وإخوانهم الترك فى خدمة الدولة وتعزيز شأنها، لا ميزة لعربى على تركى ولا تركى على عربى إلا بالكفاءة، وهكذا امتد حبل الود والولاء بين أمتين، وحد بينهما

الدين والإقليم والمصلحة. وهبت على أوروبا بعد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشرريح القومية واكتشف البخار فى أوائل القرن التاسع عشر، فاقترب الشرق من الغرب واختصرت المسافات، واتصلت الأمم بالأمم والشعوب بالشعوب، وكانت بضاعة القومية فى جملة صادرات الغرب الجديدة إلى الشرق، فجاءت تجرر ثوبا قشيبا يغرى ويفتن، إلا أن تأثيرها ظل محدودا خلال القرن التاسع عشر، بسبب الجهل الذى كان مستحكما وسائدا. بيد أن الفوز الذى أدركه فتيان الترك فى أوائل القرن العشرين على السلطان عبد الحميد - وقد تشبع بعضهم بفكرة القومية - كان مقدمة تحول عظيم فى صلات هاتين الأمتين، وقد ختم هذا الدور(ثورة ٢٣ يوليو - ١٩٠٨ -٣ أكتوبر سنة ١٩١٨) بانفصالهما عن بعضهما بعضا بعد ما عاشا متحدين سحابة أربعة قرون، يخضعان لنظام واحد، فانهار بهذا الانفصال بناء الإمبراطورية العثمانية، وقامت مقامها جمهورية أنقرة الجديدة، وقد اعتنقت مبدأ القومية، واتخذته شعار لها ودثارا، كما قامت هذه الدول العربية المنبثة فى بلاد العرب من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب.

فإعلان الدستور العثمانى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ هو فى الواقع خاتمة دور سياسى للوازع الدينى فيه المقام الأول، فقد عمل السلطان عبد الحميد سحابة حكمه الطويل وقد امتد جيلا كاملا على استرضاء العرب واستمالتهم، وعلى إطفاء كل جذوة عنصرية من نفوسهم، فأدناهم منه، وفتح لهم أبوابه وخزائنه، فسكنوا واطمأنوا.

وتبدل الحال، حينما قبض فتيان الترك على زمام الأمور، ومعظمهم قليل التجارب، بعيد عن الحنكة والدهاء، كما أن بينهم من أغرم بالمدينة الأوروبية غراما أذهله عما للشرق من تقاليد وعادات تختلف عن تقاليد الغرب وعاداته، فانصرف يعمل من الساعة الأولى على إنشاء إمبراطورية تركية تبتلع ما للعناصر الأخرى - وفى جملتها العرب - من مقومات وميزات فتدمجهم فى القومية التركية، وتجعل منهم أمة تركية تدين بدين الطورانية، وتعظم ذئبها الأغبر، وحجتهم أن ذلك أنفى للخطر، وأدعى إلى تماسك أجزاء السلطنة واتحادها.

وخاف عقلاء العرب ومفكروهم المغبة، وخشوا أن يؤدى هذا التحول الجديد فى سياسة الدولة إلى إضعاف القومية العربية، وبعض هؤلاء قد أبلى بلاء حسنا فى نصرة فتيان الترك إبان العهد الحميدى، فوصل حبله بحبلهم، وعمل معهم جنبا إلى جنب فى أوربا ومقدونيا، أملا بأن يتم على يدهم إصلاح الدولة وتجديد شبابها، ومعنى أن النقمة على العهد الحميدى والسعى لإنشاء حكم دستورى منظم، لم يك مما اختص به الترك

وحدهم. فقد شاركهم عدد كبير من أحرار العرب ومفكريهم، وكان العرب يعدون أنفسهم شركاء في الوطن العثماني العام، لهم ما للترك من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات أدبية ومادية. ولا أدل على هذا من المقابلة التي قابل بها أبناء العرب إعلان الحكم الجديد فقد سروا وابتهجوا، ونظم شعراؤهم القصائد وحبر كتابهم المقالات، وإذا استثنينا بعض أفراد خسروا ماديا بالانقلاب الجديد، فالأمة على اختلاف عناصرها، كانت مغتبطة به، فرحة بحصوله، ترجو الخير على يده وتأمل أن تسعد في ظله.

وازدحم الناس على أبواب جمعية الاتحاد والترقي مهنئين ومؤيدين فغصت بهم أنديتها، كما كثر هتافهم لرجالها وأبطالها. ثم صدر الأمر بانتخاب نواب يمثلون العرب في البرلمان الجديد فاختاروا نوابهم، ومعظمهم ممن رشحته الجمعية نفسها، وأرسلوهم إلى «دار السعادة» ليمثلوهم، ويشتركوا في بناء الدولة الجديدة. وكان مجلس النواب يتألف في دورته الأولى من ٢٧٣ نائبا للعرب منهم ٧٠ أي نحو ٢٥ في المائة، وكان فيه ٣٠ نائبًا للألبان ومثلهم لليونان والبلغار. وبالإجمال فقد كادت تتعادل نسبة العناصر غير التركية إلى نواب العنصر التركي فله ١٤٣ نائبًا مقابل ١٣٠ لأبناء العناصر الأخرى ٧٠ منهم للعرب.

وذر قرن القومية في حفلة استقبال نواب العرب حينما بلغوا العاصمة، فقد ازدحم على الرصيف إخوانهم النازلون فيها، وبينهم عدد من طلاب المدارس العليا، وقد ألمهم وجرح عزة قوميتهم تحامل الترك على الشعب العربي في شخص بعض موظفي العهد الحميدي، وساروا بهم إلى نادي جمعية الإخاء العربي - وسيأتي الكلام عليها، ولئن انقضت السنة الأولى من سني البرلمان الجديد من دون حادث يذكر، وكان الناس نشوى بخمرة السرور فقد تحول الحال منذ السنة التالية، حينما ظهر أن أقطاب العهد الجديد وسادته، يسيرون على نظام محكم في تعزيز قوميتهم التركية ورفع شأنها، وفي مقاومة العناصر الأخرى والقاء عليها ضاربين بمنطوق الحكم الدستوري الجديد - وشعاره المساواة والإخاء - عرض الحائط. ونحن في غنى عن القول أنه لولا ما رسخ في ذهن أبناء هذه العناصر وهو أن الحكم الجديد ينيلهم حقوقهم كاملة، ويشركهم في إدارة بلادهم، ويهيئ لها سبل التقدم والرقي، لما أيدوا الاتحاديين، فالغاية الحقيقية هي إبدال نظام الحكم القديم والتخلص منه، لا تغيير المظاهر والأشخاص.

وما كان الاغتباط بقيام الحكم الجديد على ضفاف البسفور قاصرا على سكان الإمبراطورية وحدها، بل شمل رعاياها النازلين في وادي النيل والضاربين في أوروبا

وأمريكا، كما شمل شعوب العالم الإسلامى، فاستبشرت خيرا بما وقع، وأملت أن يكون فاتحة طيبة للدولة، فتجدد شبابها وتنمى مواردها، وتستثمر كنوزها، وتستعيد مجدها.

ووقف خصوم الدولة وأعداؤها، وقفة الواجف المضطرب، لا عتقادهم إن صلاح حالها وتجديد شبابها يقضى على مطامعهم، ويقطع عليهم طريق التدخل فى شؤونها، وقد كانوا يكثرون منه. منتحلين شتى الأساليب والوسائل.

واغتنم خصوم العهد الجديد - وكانوا قلائل فى أول الأمر - فرصة التنسيق، فأخذوا يجاهرون بانتقاد الاتحاديين، وينسبون إليهم المحاباة والغرض، وخلاصة ما يقال فى قضية «التنسيق» هذه هو إن هؤلاء رأوا بعد ما استتب لهم الأمر، وصاروا أصحاب الحول والطول فى البلاد أن «يغربلوا» الموظفين القدماء الذين نشأوا وتدرجوا فى المدرسة الحميدية وبعضهم جهلة لم يبلغوا هذه المناصب عن طريق الكفاءة والاستحقاق، بل عن طريق الجاسوسية أو الرشوة أو غيرها من الطرق التى لا تشرف، فألفوا لذلك لجانا خاصة، فكانت فى عاصمة كل ولاية لجنة، تتبع لجنة عليا فى وزارة الداخلية، ووضعوا لها أنظمة تسير عليها وتهتدى بها، ثم أعلنت قرارتها وهى تقضى بالاستغناء عن بضعة آلاف من الموظفين، فرج ذلك البلاد رجة عنيفة، وكان موضع انتقاد وتذمر، لأن معظم الذين اقصوا كانوا من غير الترك - أى من العرب، وهم العنصر الأكبر، والكردوالألبان، وقد انقلب هؤلاء إلى بلدانهم بعد تجريدهم من وظائفم ينادون ويلا وثبورا، ويزعمون أنهم لم ينكبوا إلا عن طريق القومية، وإن الترك لم يخرجوهم إلا ليحل محلهم أبناء طوران، فأثر ذلك تأثيراً سيئًا فى النفوس.

ويجب أن لا ننسى ماكان للصحافة التركية الجديدة، وقد نشأت فى ظل الدستور من جولات فى الدعوة إلى تعزيز القومية الطورانية، وفى التحامل على القوميات الأخرى، وحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها، ويمكن القول إن الخلاف العنصرى - وقد ظهر أول ماظهر فى «التنسيق» و «الوظائف» - بلغ أشده عن طريق «الصحافة» فكان فاتحة عهد الشقاق، وكان الثغرة الأولى فى بناء الدولة الجديدة، وقد اندك صرحها وانهار، ولم تقصر صحافتا العرب والترك فى التراشق بالألفاظ والجمل - كما لم يقصر شعراء الأمتين فى نظم القصائد والمقطوعات التى تزكى نيران القومية فى الصدور.

ولا يخفى أن الصحافة فى تركيا - وقد ولدت مع هذا العهد وترعرت فى ظله - فهى لم تكن معروفة فى العهد الحميدى القديم وقد كممت فيه الأقلام وعطلت المحابر، ومنعت حرية

الاجتماعات، حتى جاء الدستور ففك عقالها ـ أثرت أثرًا لا ينكر فى النفوس، فقد انصرف كل عنصر فى هذا الدور إلى تأييدد صحافته القومية، ومناصرتها ، فكانت هنالك صحف عربية وأخرى أرمنية وروميـة وألبانية، وكلها تجهر بالشكوى من تصرفات أقطاب العهد الجديد، مطالبة بإزالة الحيف النازل بأبناء قومها، داعية إلى إنصافهم ورد حقوقهم إليهم، واحترام قوميتهم، عاملة على إذكاء الروح العنصرى، وما كانت صحافة الترك تقصر فى الرد على هؤلاء، وفى تفنيد أقوالهم ومدعياتهم، وهكذا شهد الناس فى السنة الثانية للدستور حربا قلمية شعواء. تدور بين صحافة الترك وصحافة العناصر الأخرى، وكل ينقر على وتر ويذكى نار الحماسة والغيرة القومية فى صدور أبناء جنسه.

ومما لا شك فيه أن حركة هذه العناصر وتشددها فى المقاومة والنضال أوحى إلى الاتحاديين ضرورة الاعتماد على العنصر التركى وحدة فى الدفاع عن دولتهم وتأييدها، فوجهوا عنايتهم إلى تنشيطه ـ كما وقفوا الجانب الأكبر من مناصب الدولة على أبنائه، وهكذا تحولت الدولة تدريجيًا من «حكومة عثمانية» تعامل جميع أبناء العناصر المنضوية تحت علمها بالتساوى إلى حكومة طورانية للتركى فيها المقام الأول، وللغة الترك الجانب الأعظم من عنايتها وللشبيبة التركية الحظ الأوفر من وظائفها ومناصبها، فزاد ذلك فى حقد العناصر واستيائها. لأنها كانت تعد نفسها شريكة للتركى لها ماله من حقوق، ولاريب أن اشتداد الخلاف بين العناصر والترك وتمسك كل فريق بقوميته وعنصريته لايحيد عنها عجل فى إضرام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ وفى خروج الترك من مقدونيا على تلك الحالة السيئة التى خرجوا عليها ـ كما عجل بخروجهم من بلاد العرب بعد ذلك، فانكمشوا فى داخل حدودهم القومية.

ـ ٢ ـ

الجمعيات العربية

من إعلان الدستور حتى الحرب البلقانية (١٩٠٨ ـ ١٩١٢)

ما كان اغتباط العرب بالعهد الدستورى الجديد، يقل عن اغتباط الترك. فقد ملأوا الجو هتافا وصياحا، ونظم شعراؤهم القصائد وحبر كتابهم المقالات فى التغنى بمزايا العهد الجديد وانضم رجالهم ومفكروهم إلى الاتحاديين موالين ومؤيدين، لاعتقادهم أن دولتهم ستجدد شبابها، وتسترد مقامها، وأن أمتهم ستنصف وكرامتها ستصان.

وأنشئ فى كل عاصمة من عواصم العرب فى الشام والعراق والحجاز واليمن، وفى كل بلد من بلدانهم ناد لجمعية الاتحاد والترقى يضم الصفوة المختارة، ويأتمر بأمر (المقر العام) للجمعية، وكان فى سلانيك، ثم نقل إلى الآستانة،وينفذ تعاليمه.

وتحول الحال حينما بدرت بوادر الخلاف العنصرى، وظهر أن الاتحاديين يسيرون على سياسة قومية سداها ولحمتها تعزيز الجامعة الطورانية وتأييدها، فأقفرت أنديتهم تدريجيا، وتفرق أنصارهم، وضعف نفوذهم، كما تخلى عنهم معظم نواب البلاد العربية وأنشأوا «كتلة» مستقلة اتحدت مع نواب الألبان والأرمن والكرد وبعض الترك من معارضى الاتحاديين، وقد انبثق عنها حزب الائتلاف العثمانى، وختم هذا الدور بإعلان الحرب البلقانية فى خريف سنة ١٩١٢ وتألفت فى خلال هذه الفترة جمعيات عربية عديدة فى الآستانة والقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد لتعزيز شأن العرب والمطالبة بحقوقهم ومساواتهم بالترك، واقتداء بهؤلاء فى تعزيز قوميتهم، فأثرت هذه الجمعيات أثرًا بليغًا فى تكوين الرأى العام العربى، وإليها يرجع معظم الفضل فى إنشائه وإعداده بالتعاون مع الصحافة العربية فى مصر والشام والعراق والآستانة. فقد ساعدت على تنمية الشعور القومى وإيقاظه ـ كما ساعد الشعراء بقصائدهم الحماسية على خلق النهضة الوطنية الجديدة.

وهانحن نورد أسماء هذه الجمعيات، وتاريخ إنشائها، وأسماء مؤسسيها، وبيان عن برامجها وأغراضها ـ مع بيان بأسماء الصحف العربية التى ساهمت فى تلك الحركة أو اشتركت فيها.

١ ـ جمعية الإخاء العربى

أجمع الذين دونوا تاريخ القضية العربية على أن جمعية الإخاء العربى هى أول جمعية عربية تأسست فى الآستانة بعد إعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ وأنشأت ناديا لها. وقالوا إن مؤسسيها هم عدد من كبار موظفى العرب فى العهد الحميدى، خافوا على مناصبهم فى الدور الجديد، فاستعانوا ببعض الشبان العرب المتحمسين، وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم. وهذه أسماء بعضهم: عارف بك المادرينى (والى دمشق فى العهد الاتحادى بعد ذلك) وصادق باشا المؤيد، وشفيق بك المؤيد، ويوسف بك شتوان، وشكرى باشا الأيوبى، وشكرى بك الحسينى، وغيرهم. وهذا نص المادة الأولى من قانونها الأساسى:

«جمعية الإخاء العربى العثمانى، نشأت فى دار الخلافة، مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم ويحق لكل فرد من أبناء العرب (والعربى كل من ينتسب إلى العرب مولدًا وموطنًا) أن يكون عضوًا فى جمعية الإخاء العربى العثمانى بشرط أن يكون متصفًا بحسن الخلق والشهرة. غير محكوم عليه بجرم جنائى أو إفلاس احتيالى، ولا ساقط من الحقوق المدنية.

«أما مقصد جمعية الإخاء العربى العثمانى فهو معاونة جمعية الاتحاد والترقى فى سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسى (الدستور) وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق فى الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم. وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية، وإصلاح الشؤون المختلة، ثم السعى لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها. كتأسيس معامل وشركات زراعية وصناعية وتجارية والاجتهاد بإقناع أهل البداوة للإقلاع عن عاداتهم المستهجنة، وعداواتهم المتسحرة بينهم، وإسكانهم فى محلات ثابتة وتعويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية، وتنوير عقولهم بالعلم، وصيانة حقوق أبناء العرب جميعا من الغدر والاعتساف، وتبليغ شكاياتهم ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية إذا لم تلق حسن القبول عند المأمورين المختصين بالنظر فيها، وصرف المقدرة بكل مايمكن من الأمور الخيرية، والسعى فى تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية، وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم».

وقد أيد الطلاب العرب فى الآستانة هذه الجمعية فى أوائل عهدها مسوقين بدافع الشعورين القومى والوطنى، فقد ساءهم تحامل الاتحاديين خاصة، والترك عامة على العرب فى شخص أبى الهدى الصيادى ونجيب ملحمة وأحمد عزت العابد من رجال العهد الحميدى. فكانوا إذا خطبوا ضدهم أضافوا إلى كل منهم كلمة «العرب» تميزاً له وتشهيراً به، فيقولون عرب عزت، أو عرب نجيب (يريدون نجيب ملحمة) مع أنهم ما كانو يضيفون هذه النسبة إلى رجال الترك من أبطال العهد الحميدى أمثال فهيم وتحسين وما كانا أقل شراً من عزت العابد وأضرابه، ولطالما أوقف الطلاب العرب فى الاستانة الخطباء الترك واحتجوا عليهم لإساءتهم إلى العرب. وأخذت جمعية الإخاء العربى على نفسها مهمة استقبال نواب العرب حين قدموا الاستانة للمرة الأولى. فأعدت لهم الحفلات، واستقلبهم أعضاؤها والطلاب العرب، واحتفوا بهم وساروا معهم إلى دار الجمعية فكانت أو مظاهرة عربية شهدتها الآستانة.

٢ ـ المنتدى الأدبى

لم تعش جمعية الإخاء العربى طويلاً، لأنها ولدت ضعيفة ولأن التجانس كان مفقودا من بين أعضائها، ولأن غاية بعضهم لم تكن خالصة لوجه الله والوطن، فماتت وحل المنتدى الأدبى محلها.

أنشئ المنتدى الأدبى فى سنة ١٩٠٩ ومؤسسوه هم عبد الكريم قاسم الخليل ويوسف سليمان حيدر وسيف الدين الخطيب وجميل الحسينى ورفيق رزق سلوم ـ وهو مسيحى من حماه ـ على أن يكون مثابة للشباب العربى فى فروق، ودار لهم يجتمعون فيها ويختلفون إليها فتلقى محاضرات، وتنشأ مكتبة، ويأوى إليه من لا تساعده حالته المالية من الطلاب العرب على المبيت فى الفنادق والدور. وقد سلم شكرى بك الحسينى لعبد الكريم الخليل ستين ليرة عثمانية كانت باقية عنده باسم جمعية الإخاء لتنفق فى إنشاء المنتدى، كما سلمه كل ماكان لها من أثاث ورياش. ومثل الطلاب العرب بعد ذلك رواية صلاح الدين الأيوبى فى مسرح دار الفرح وأرصدوا ريعها له، فدرت عليهم أرباحا زائدة، وهكذا تم افتتاح داره فى بار ماق قبو من «ديوان يولى» فى حفلة حافلة. ألقيت فيها القصائد الوطنية الحماسية، وقد عاش المنتدى حتى سنة ١٩١٥ فأغلقته الحكومة بعد ذلك، وأدى

خدمات عديدة للعرب، وبلغ شأوًا عظيمًا فى ميدان السياسة لم تبلغه جمعية من الجمعيات الأخرى وخصوصًا إبان عقد الاتفاق بين زعماء العرب والاتحاديين، وكان الوزراء والعظماء والكبراء يحضرون حفلاته بلا انقطاع. ولما ضاقت به داره القديمة فى بارماق قبو انتقل إلى دار فخمة واسعة فى حى كدك باشا.

٣ ـ الجمعية العربية «الفتاة»

أعظم الجمعيات العربية التى نشأت بعد إعلان الدستور. أسسها فى باريس ثلاثة من الطلاب العرب الذين قصدوها بعد ماأتموا دورسهم فى الأستانة، وهم الدكتور أحمد قدرى وعونى عبد الهادى ورستم حيدر، ثم انضم إليهم رفيق التميمى ومحمد المحمصانى وعبد الغنى العريسى وجميل مردم بك. وقد اكتفوا بإطلاق اسم «الفتاة» عليها فى أول الأمر، لئلا يلفتوا النظر، وأرادوا أن تكون للعرب بمثابة جمعية الاتحاد والترقى للترك.

وكان من خططها الداخلية أن لا يعرف الداخل فيها سوى الذى أدخله، وكانت تتألف من ثلاث هيئات: الهيئة الإدارية، وقوامها ٦ أعضاء تدير شؤون الجمعية. والهيئة العاملة، وهى التى تختار الهيئة الإدارية، وتتألف من أعضاء الجمعية الذين أمضوا مدة التجربة، وهى ستة أشهر. والهيئة الثالثة تضم الداخلين حديثا، ولا يعرف بعضهم بعضا كما قلنا.

وكان شعار الجمعية فى أول تكوينها: العمل للنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية، واغتنام الفرص لتحقيق هذه الأمنية، وعدم الانفصال عن الترك، على أن هذا البرنامج تعدل بعد إعلان الحرب العظمى. فاتجهت النية نحو العمل لاستقلال بلاد العرب وتحريرها ـ كما سيأتى بيانه.

وكان للجمعية كلمات رمزية اصطلحت عليها للمكاتبات والاتصال وهى: بزغ فجر وطنك مت لعضد شخص أحى ثقة ظذ.

وانتقل مركز هذه الجمعية إلى سوريا بعد عودة مؤسسيها إلى بلادهم فى سنة ١٩١٢، واتخذت بيروت مقرًا رئيسيًا لها لأن أكثر مؤسسيها من بيروت. وتولى الدكتور أحمد قدرى إدارة فرعها فى دمشق، فاتسع نطاقها، وكثر عدد الداخلين فيها، وضاعفت نشاطها بعد إعلان الحرب العظمى، وخصوصًا بعد انتقال مقرها العام من بيروت إلى دمشق بسبب الهجرة، ولأن معظم رجالها كانوا فى الأخيرة.

وكان لهذه الجمعية سجلات منظمة بإدارة سكرتيرها العام محمد المحمصانى، وكانت تجتمع أسبوعيًا بانتظام، وتدون قراراتها فى سجل خاص. ومن الذين دخلوا فيها بعد انتقالها إلى سوريا وقبل إعلان الحرب: نسيب البكرى، والأمير عارف الشهابى، وتوفيق الناطور ومحمد الشريقى، وعمر حمد، وتوفيق البساط، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وصالح حيدر، وابراهيم حيدر، والشيخ كامل القصاب، ودخل فيها بعد إعلان الحرب فيصل ابن الحسين، وعلى رضا باشا الركابى، وياسين الهاشمى ـ كما دخل فيها بعد ختام الحرب كثيرون، وكان من جملة قواعدها أن توعز إلى أعضائها بالاتصال بالجمعيات العربية الأخرى، والدخول فيها لتكون على معرفة بكل حركة تحدث.

٤ ـ الجمعية القحطانية

أنشئت هذه الجمعية فى الآستانة فى أواخر سنة ١٩٠٩ وبين الباحثين خلاف حول اسم مؤسسها، فيقول بعضهم أنه عبدالكريم الخليل، ويقول آخرون أنه خليل باشا حمادة أسسها حينما كان وزيرا للأوقاف بالاتفاق مع السيد عبد الحميد الزهراوى، ويقول غيرهم إن مؤسسها الحقيقى هو سليم بك الجزايرى وهى سرية وطنية. غايتها بث المبادئ الصحيحة بين أبناء الأمة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف.

وكانت الإشارة الرمزية بين أعضاء الجمعية هى أن يضغط المسلم على أحد أصابع يد المسلم ثم يضع الشاهدة والوسطى على الذراع الأيسر ويخفى بقية الأصابع، ويهجى كلمة «هلال» عند المحادثة. فإذا قال الأول هاء قال الثانى لام، ثم يقول الأول ألف فيقول الثانى لام.

وقد انتشرت مبادئ هذه الجمعية بين شباب العرب وضباطهم فى الجيش العثمانى وكثر عدد الداخلين فيها، وكان لكل واحد منهم أن يدخل عضوًا بدون استئذان المركز العام ومن الذين انضموا إليها: الدكتور عزت الجندى. وحسن حمادة، وعبد الكريم الخليل. وعلى النشاشيبى وعادل ارسلان. وأمين لطفى حافظ، وغيرهم. وقد عاشت حتى الحرب العظمى.

٥ ـ العلم الأخضر

أنشئت هذه الجمعية فى الآستانة أيضًا خلال شهر ايلول سنة ١٩١٢ والغاية منها

تقوية الروابط الوطنية بين الطلاب العرب فى المدارس العليا، وتوجيه قواهم إلى انتشال أمتهم من الوهدة التى سقطت فيها.

ومؤسسو هذه الجمعية: الدكتور اسماعيل الصفار، والدكتور فايق شاكر، والدكتور داود الديوانى، وعلى رضا الغزالى، وعبد الغفور البدرى، وأحمد عزت الأعظمى، وعاصم بسيسو ومسلم العطار، ومصطفى الحسينى، وشكرى غوش.

وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة «لسان العرب» لتكون لسان حال لها، ثم أبدل اسمها فصارت مجلة «المنتدى الأدبى» وعاشت حتى الحرب العظمى.

تلك هى الجمعيات العربية التى تألفت فى الآستانة لخدمة العربية وتعزيزها من سنة ١٩٠٩ حتى أواخرسنة ١٩١٢ وتحول الحال بعد ذلك فقد كان لانكسار الدولة العثمانية فى حرب البلقان، وانهزامها ذلك الانهزام الشنيع أمام دويلات البلقان أثر بليغ فى نفوس مفكرى العرب. جعلهم يعدلون كثيراً من خططهم وأساليبهم. ويتبعون سياسة جديدة وينشئون جمعيات جديدة كما تراه مفصلا.

أسماء الصحف العربية التى ناصرت الحركة القومية وأيدتها

فى خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٤

اسم الجريدة	اسم صاحبها أو أصحابها	محل صدورها
جريدة المفيد	عبد الغنى العريسى وفؤاد حنتس	بيروت
« الحقيقة	كمال عباس	«
« الاتحاد العثمانى	الشيخ أحمد طباره	«
« المقتبس	محمد كرد على	دمشق
« القبس	شكرى العسلى	«
جريدة كلمة الحق	إبراهيم سليم النجار	الآستانة
« الحضارة	عبد الحميد الزهراوى	«
مجلة لسان العرب	أحمد عزت الأعظمى	«
جريدة بيام (باللغة التركية)	نجيب شقير	الآستانة
« طرابلس	كامل البحيرى	طرابلس
« الأجيال	توفيق اليازجى	«
« الوطن	باتروباولى	بيروت

»	العرفان	أحمد عارف الزين	صيدا
»	الأهرام	جبرائيل تقلا	مصر
»	المقطم	نمر وصروف ومكاريوس	»
»	المنار	السيد رشيد رضا	»
»	المؤيد	الشيخ على يوسف	»
»	النهضة	مزاحم الباجه جى	بغداد

وهناك صحف عربية فى أمريكا أيدت الحركة أيضًا، وفى مقدمتها جريدة مرآة الغرب، وتصدر فى نيويورك.

ـ ١ ـ

مؤتمر باريس العربي

من الحرب البلقانية إلى الحرب العظمى (١٩١٢ ـ ١٩١٤)

خاضت الدولة العثمانية الحرب البلقانية مكرهة، ومن دون أن تستعد لها، وتأخذ أهبتها فالخزينة فارغة، والثكنات خالية، والمستودعات خاوية، والتناحر الحزبى على أشده فى داخل البرلمان وفى الصحف وفى الشوارع والمنتديات، وشكاوى العناصر من تصرفات الاتحاديين تصم الآذان، وليس من شأننا هنا أن ندرس العوامل التى عملت فى انكسار الدولة، وعجلت فى انتصار البلقانيين وفوزهم، فقد بلغوا أسوار الاستانة فى خلال أسابيع قليلة، وهددوا باحتلالها مما ذهب بهيبة الدولة العثمانية وأضعف نفوذها ومقامها، وإنما نقول إن هذا الانكسار حرك الكوامن، ومزق البراقع، وأهاج المطامع، فقد سمع السوريون للمرة الأولى خطيبًا يخطب فى مجلس الشيوخ الفرنسى، وهو المسيو بوانكاره وزير الخارجية يومئذ، ويقول بملء فيه «إن لنا فى سوريا ولبنان مصالح تقليدية نريد أن تجعلها محترمة، ويسرنى أنى أستطيع أن أضيف إلى ذلك بأن الظن بوجود خلاف على هذا الأمر بيننا وبين الحكومة الإنجليزية لا مبرر له. فقد صرحت لنا بمنتهى الود أنه ليس لها فى تلك الأقطار غرض فى عمل ولا مقاصد تنويها ولا أمانى سياسية ترغب فيها من أى نوع كان».

والواقع أن انتصار البلقانيين بعث المسألة الشرقية من رقادها. فاعتقد كثيرون أن زمن اقتسام تركة الرجل المريض[١] قد اقترب. فدارت مباحثات طويلة بين وزارات خارجية الدول الطامعة فى الشرق. وهى روسيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا. فطلب الانجليز أن يختصوا بالعراق فيكون منطقة نفوذ لهم لوفرة مصالحهم فيه، وطلب الفرنسيون مثل هذا الحق فى سوريا، وألح الروس فى أن تكون الآستانة وولايات الأناضول الشرقية من نصيبهم، وطلب الإيطاليون أن يختصوا بأزمير وشواطئ الأناضول الغربية. وقد اتفق الفرنسيون والانجليز مبدئيًا على أن يختص كل منهما بما طلبه، واعترف بهذا المسيو بوانكاره نفسه كما رأيت ولم يعقد الاتفاق النهائى مع الطليان والروس إلا بعد الحرب العظمى.

فهذه التصريحات وأشباهها، وما ظهرت به الدول العظمى يومئذ من الطمع فى أملاك

---

١ ـ كانوا يعبرون به عن الدولة العثمانية

لدولة، وعجز هذه عن الثبات والمقاومة، بل وسقوطها إلى الحضيض، جعل عقلاء العرب يحسبون حساب العواقب، ويفكرون فى مصير بلادهم، ويخافون أن يستهدفوا لحرب ماحقة لا تبقى ولا تذر، فيسوء مصيرهم ويسقطوا صرعى تحت سنابك خيل الغزاة، كما سقط مسلمو البلقان من قبلهم. لقد كانت عبر الحرب البلقانية فاتحة تحول خطير فى الرأى العام العربى. فقد أوجس العقلاء شرا من النتائج ـ سيما وقد كانت بلاد العرب مجردة من جميع وسائل الدفاع ـ كما كانت ثغورهم عاطلة من معدات الحرب والكفاح، لا تقوى على الثبات والوقوف فى وجه المغيرين، فإنشاء حزب اللا مركزية فى القاهرة وتأسيس الجمعيات الاصلاحية فى بيروت والبصرة وبغداد هو نتيجة طبيعية للحرب البلقانية ـ مما سنفصله تفصيلا.

١ ـ حزب اللامركزية العثمانى

كانت الجالية السورية بمصر، وتضم نخبة طيبة من المفكرين أول من تنبه إلى ما قد يولده انكسار الدولة فى البلقان من نتائج سيئة. فزار بعض أعضائها رؤوف باشا المفوض العثمانى فى مصر يومئذ منبهين إلى الخطر الذى تستهدف له سوريا من غارة تغيرها فرنسا على شواطئها، كما فعلت إيطاليا بطرابلس الغرب، وطلبوا إليه أن يكتب إلى الباب العالى لاتخاذ الأهبة والتدابير اللازمة للدفاع عن البلاد، واقترحوا إنشاء مستودعات للأسلحة، توزع على الأهلين عند الغارة. فيسرعون إلى الدفاع والنضال، وبعد أخذ ورد بين أعضاء هذه الجالية اتفقوا على إنشاء حزب سياسى سموه حزب اللامركزية العثمانى ومداره أن تتولى كل ولاية إدارة شؤونها الداخلية، لأن ذلك أدعى إلى النجاح، وإدخال الإصلاح ودرءا للخطر.

ومؤسسو حزب اللا مركزية هم رفيق العظم، والسيد محمد رشيد رضا، والدكتور شبلى شميل، واسكندر عمون، وسامى الجريدينى، وحقى العظم، ومحب الدين الخطيب.

وقد اختاروا له رفيق العظم رئيسًا، واسكندر عمون نائب رئيس وحقى العظم سكرتيرا عاما، ومحب الدين مساعدا للسكرتير. وهذا نص برنامجه:

المادة الأولى ـ ألف حزب سياسى باسم (حزب اللامركزية الإدارية العثمانى)

المادة الثانية ـ القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية فى السلطنة العثمانية للشعب العثمانى المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات

مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية فى جميع ولايات الدولة العثمانية.

المادة الثالثة ـ ليس هذا الحزب خفيا، وليس فيه مايعد من الأسرار، فهو ينشر مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من أحد، لاعتقاده يقينا أن الدولة لا تبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية.

المادة الرابعة ـ إن الدخول فى حزب اللامركزية مباح لكل عثمانى بلغ العشرين من العمر. على شرط أن يكون أولا من المتمعين بجميع الحقوق المدنية، ثانيا غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف، ثالثا غير مشتهر بسوء السيرة. رابعا أن يقبل القواعد المبينة فى برنامج الحزب

المادة الخامسة ـ يكفى لمن يريد الدخول فى الحزب أن يكون دليله أحد أعضاء الحزب، مع موافقة لجنة الإدارة المحلية على ذلك. ولايجوز قبول عضو مادام من حزب يخالف هذا الحزب فى المبدأ والغاية.

المادة السادسة ـ للمنتمى إلى الحزب أن يستقيل من عضويته فى أى وقت شاء

المادة السابعة ـ على العضو أن يدفع إلى الفرع المسجل فيه اسمه راتبا شهريا أقله قرشان ويقبل الحزب التبرعات ويعفى الفقراء من الراتب.

المادة الثامنة ـ لا يقيد الحزب أعضاءه بشيئ غير قواعد البرنامج السياسى الذى وضع لأجله

المادة التاسعة ـ على النواب (المبعوثين) المنتمين إلى الحزب أن يسعوا بكل مافى وسعهم لتنفيذ قواعد برنامج الحزب فى المجلس.

المادة العاشرة ـ لا يسوغ لأحد من المنتمين إلى الحزب مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء أنفسهم وإذا ثبت على أحد الأعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب.

المادة الحادية عشرة ـ إن مركز الحزب العام فى مصر «القاهرة» ويجوز لكل بلد أو قرية اجتمع فيها عشرة من أهلها على مبدأ اللامركزية الإدارية أن يؤسسوا فرعا له، ويخبروا المركز العام بذلك.

المادة الثانية عشرة ـ تتألف اللجنة العليا للحزب من ٢٠ عضوا، ينتخب منهم رئيس

ونائب رئيس، وسكرتير ومساعدان له، وأمين للصندوق، ويجوز لهذه اللجنة أن تضم إليها من ترى فيه فائدة للحزب.

المادة الثالثة عشرة - إذا غاب الرئيس ونائبه يرأس الجلسة أحد أعضائها.

المادة الرابعة عشرة - كل فرع من فروع الحزب يتبع المادتين ١٢ و ١٣ فى تأليف لجنته الإدارية، وانتخاب الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق.

المادة الخامسة عشرة - يعقد كل فرع مؤتمرا فرعيا محليا فى شهر يونيو (حزيران) من كل سنة يحضره جميع أعضاء الفرع، وتعقد اللجنة العليا مؤتمرا حزبيا عاما فى مصر القاهرة فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) من كل سنة يحضره أعضاء اللجنة العليا وأفراد الحزب فى المركز العام، ومندوبون ترسلهم اللجان الفرعية.

المادة السادسة عشرة - يرسل كل فرع للمؤتمر العام مندوبا من قبله.

المادة السابعة عشرة - تنتخب كل لجنة إدارية رئيسها وسكرتيرها وأمين صندوقها من أعضائها بالاقتراع السرى. وتعرف المركز العام فى القاهرة بنتيجة الاقتراع.

المادة الثامنة عشرة - على اللجان الإدارية الفرعية أن تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادئ الحزب وتعميمها بين الناس، وتكثير أفراد المحاربين، والاجتهاد فى سبيل انتخاب نواب لمجلس المبعوثين، وللمجالس العمومية والإدارية والبلدية من الأكفاء الذين على مبدأ الحزب.

المادة التاسعة عشرة - اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة اللامركزية وتسعى مع سائر اللجان والأفراد إلى إقناع الشعب والحكومة بها.

المادة العشرون - على اللجان الإدارية الفرعية ان تتخذ دفاتر لقيد قراراتها وأسماء الأعضاء وموظفى الحزب وأمواله.

المادة الحادية والعشرون - تجتمع اللجان كلما قضت الحال بدعوة من الرئيس أو نائبه، والعضو الذى لا يحضر الاجتماع أربع مرات متواليات من غير عذر يعد مستقيلا من عضوية اللجنة.

المادة الثانية والعشرون - على السكرتير وأمين الصندوق فى كل لجنة أن يقدما إلى تلك اللجنة فى آخر كل سنة كشفا ببيان إيرادات الفرع ونفقاته عن تلك السنة، وعلى كل لجنة أن ترسل صورة من هذا الكشف إلى اللجنة العليا.

المادة الثالثة والعشرون - لا تعد مذكرات اللجان القانونية إلا إذا اجتمع نصف

أعضائها على الأقل، وإذا كررت الدعوة اكتفى بمن حضر.

المادة الرابعة والعشرون - للجنة كل فرع الحرية التامة فى أعمالها، إلا ما قيدتها به قرارات اللجنة العليا أو المؤتمر العام.

المادة الخامسة والعشرون - على لجان الفروع أن ترسل إلى اللجنة العليا كل ثلاثة شهور كشفا يحوى أسماء الذين دخلوا فى خلال هذه المدة فى الحزب، وأسماء الخارجين منه، وسبب خروجهم، والمتنقلين من مكان إلى مكان، وكشفا آخر يحوى بيان أعمالهم فى المدة المذكورة.

المادة السادسة والعشرون - على اللجنة أن تراقب سير اعمال لجان الفروع، وحسن تنفيذ قوانين الحزب.

المادة السابعة والعشرون - على اللجنة العليا أن تهيئ لائحة عامة عن الحزب وأحواله بناء على مايرد عليها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع وترفعها إلى المؤتمر العام.

المادة الثامنة والعشرون - تجتمع الجمعيات العمومية والمؤتمر العام فى مواعيدها المقررة حسب المادة (١٥) ويرأسها فى كل مكان رئيس اللجنة الإدارية، وأما المركز العام فينعقد برئاسة اللجنة العليا.

المادة التاسعة والعشرون - تنظر كل جمعيية عمومية فى نتيجة الحسابات وفى بيان لجنة الإدارة عن أعمالها فى السنة الماضية، وتصادق على الحسابات الختامية، وتقرر مايجب العمل به فى السنة المقبلة، وتنتخب نصف أعضاء مجلس الإدارة، وتفض بعد انتهاء عملها.

المادة الثلاثون - على سكرتير كل لجنة إدارية أن يقوم بضبط المحاضر ومقررات الجمعية العمومية . وعلى سكرتير اللجنة العليا ومساعديه أن يقوموا بضبط أعمال المؤتمر العام.

المادة الحادية والثلاثون - من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا عن أعمال الحزب فى السنة الماضية، ورؤية حساباتها، والتصديق عليها، والمذاكرة فى كل ما يرفع إليه عن أعمال السنة المقبلة وتقريرها.

المادة الثانية والثلاثون - كل تغيير وتبديل فى برنامج الحزب السياسى الأساسى من حقوق المؤتمر العام، ولا يتم ذلك إلا بطلب تحريرى من اللجنة العليا، أو لجنة من لجان الفروع، ويعمل بغالبية الآراء.

المادة الثالثة والثلاثون ـ على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر كل منها فيما يخصه.

ولقد كان لهذا الحزب شأن خطير فى الحوادث التى تقدمت إعلان الحرب العظمى، وسنتكلم عنها فى موضعها.

ب ـ جمعية بيروت الأصلاحية

لمدينة بيروت، درة تاج آل عثمان، مقام خاص بين بلاد العرب. نشأ عن اعتبارات جغرافية واقتصادية ومذهبية، فهى واقعة فى منبسط صغير من الأرض بين البحر الأبيض وجبل لبنان ويكتنفها من جهاتها الثلاث، ولما كانت أكثرية سكانه من الموارنة فقد أوجس مسلمو بيروت ـ وهم أقلية ـ شراً من الحركة الجديدة التى ظهرت فى فرنسا إزاء سوريا، وخافوا أن تستغل الأكثرية المورانية وهى معروفة بالعطف عليها لصلة قديمة نشأت عن حوادث معروفة، فمراعاة لهذه الاعتبارات، ولما ظهر من عجز الدولة، وخوفا من أن تحتل فرنسا البلاد متذرعة بسوء الإدارة، وبما لها من نفوذ أدبى ومصالح اقتصادية، كان مسلمو بيروت أول من لبى الصوت الذى ارتفع فى مصر بالنداء إلى الإصلاح على أساس اللامركزية، لما توهموه من أنه الوسيلة الوحيدة لدرء الخطر المحدق بهم، ولانقاذهم من الوقوع فى براثن الاحتلال الفرنسى.

وفعلا اجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها، وبحثوا، الموقف وأبلغوا الوالى العثمانى ـ واسمه يومئذ أدهم ـ رغبتهم فى إدخال الإصلاحات العاجلة، فرفع أمرهم إلى الباب العالى ببرقية طيرها فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٢ وقال فيها «وإذا لم نأخذ بالإصلاح الصحيح فالبلاد ملفتة من يدنا لا محالة» فأجابه رئيس الوزارة وكان يومئذ الصدر الأعظم كامل باشا بأن يدعو الشعب إلى تقديم مطالبه للنظرف فيها، وعلى أثر ذلك اجتمع ٩٠ مندوبا فى دار بلدية بيروت يوم ٣١ يناير سنة ١٩١٣ ـ٢٣ صفر سنة ١٣٣١ ووافقوا على المطالب الآتية وأبلغوها إلى الوالى لإرسالها إلى وزارة الداخلية لتنفيذها وهى:

مادة أساسية ـ الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية

المادة الأولى ـ تقسم إدارة الولاية إلى قسمين: القسم الأول هو المشتمل على الأعمال المتعلقة بكيان السلطة وشؤونها الأساسية، وهى المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبريد والتلغراف وسن القوانين. ووضع المكوس.

والقسم الثاني ـ هو المشتمل على الأعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية الخاصة. فكل مايتعلق بالقسم الأول منوط تقريره وإجراؤه بالحكومة المركزية.

وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط تقريره بمجلس الولاية العمومي.

المادة الثانية ـ للوالي صفتان قانونيتان: الأولى تمثيل الحكومة المركزية، وبهذه الصفة يتولى إجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول، طبقا لقرارات الحكومة المركزية.

والثانية يمثل حكومة الولاية التي يرأسها، وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقا لقرارات المجلس العمومي . أما حقوق الوالي ووظائفه فهي:

أولا ـ تنفيذ قرارات المجلس العمومي

ثانيا ـ الاعتراض على قرارات المجلس العمومي طبقا للشروط الآتي بيانها في باب «الوالي والمجلس العمومي».

ثالثا ـ الاطلاع على المشروعات التي تعدها «لجنة المجلس العمومي» لإبداء ملحوظاته عليها قبل تقديمها إلى المجلس.

رابعا ـ تعيين المتصرفين والقائمين والمديرين بعد عرض أسمائهم على الحكومة المركزية، وفقا لنظام يضعه المجلس العمومي.

خامسا ـ تعيين الطلاب المتحنين الذين تعرض عليه لجنة الامتحان أسماءهم لأجل التوظف.

سادسا ـ دعوة المجلس العمومي في الميعاد المعين لاجتماعه. ويمكنه دعوته لاجتماع فوق العادة بمصادقة لجنة المجلس أو «مجلس المستشارين».

المادة الثالثة ـ يؤلف في الولاية مجلس عمومي من ثلاثين عضوا ينتخب نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة أربع سنوات، وهم ينتخبون منهم رئيسًا لهم بالاقتراع السري (أما سائر الانتخابات العمومية، فتبنى على قاعدة التمثيل النسبي العددي في دوائر الانتخابات).

أما حقوق المجلس ووظائفه فهي :

أولا ـ تقرير جميع أعمال الولاية الداخلية، والمذاكرة فيما يعرض عليه من قبل الوالي، أو لجنة المجلس أو عشرة من أعضائه.

ثانيا ـ وضع الأنظمة الداخلية بشرط أن لا تمس شؤون السلطنة الأساسية.

ثالثا ـ عقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية . أما

القروض التى تتجاوز قيمتها هذا المبلغ فيلزم لها مصادقة الحكومة المركزية.

رابعا - إعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة (آنونيم) عثمانية للمشاريع العمومية، كالنافعة والتجارة والصناعة والزراعة، وسائر الشؤون العمرانية داخل الولاية على شرط أن لا تتضمن امتيازًا. أما المشاريع التى تتضمن امتيازًا فيجب مصادقة الحكومة المركزية عليها. وتخول هذه الشركات الشخصية المعنوية. بمعنى أن يكون لها حق التملك.

خامسا - تقرير الضمائم الكسورية على المكوس المقررة.

سادسا - تقرير رواتب موظفى ومستشارى الدوائر التى هى بإدارة حكومة الولاية.

سابعا - حق استيضاح الوالى، وطلب عزله، ولا يتدخل المجلس العمومى فى الشؤون السياسية العامة مطلقًا.

المادة الرابعة - قرارات المجلس العمومى نافذة، مالم يعترض عليها الوالى، بمصادقة مجلس المستشارين فى خلال أسبوع من تاريخ تبليغه إياها، فيعيد المجلس النظر فى قراره، وإذا أصر عليه بأكثرية ثلثى الأصوات يكتسب القرار الصفة القانونية القطعية، وعلى الوالى تنفيذه.

المادة الخامسة - ينتخب المجلس العمومى بالاقتراع السرى لجنة من أعضائه من كل لواء واحد، واثنان من مركز الولاية لمدة سنة واحدة، فتجتمع بإدارة مستشار المجلس العمومى.

أما وظائف اللجنة فهى:

أولا - مراقبة تنفيذ قرارات المجلس

ثانيا - درس المشاريع اللازمة للولاية وإعداد لوائحها

ثالثا - تعيين مهندسين اختصاصيين للاستعانة بهم فى أعمالها

رابعا - حق الاعتراض على الممتحنين الذين تقدم إليها «لجنة الامتحان» أسماءهم قبل عرضها على الوالى.

خامسا - دعوة المجلس العمومى لاجتماع فوق العادة باتفاق ثلثى أعضائها، ومصادقة مستشار المجلس.

المادة السادسة - الوالى وحاكم الشرع فى مركز الولاية والدفتردار، وباشمدير الرسومات، وباشمدير البوستة والتلغراف، وقومندان الجندرمة وضباطها تعينهم الحكومة المركزية. على شرط معرفتهم اللغة العربية معرفة تامة، ويستثنى من هذا الشرط والى

الولاية لمدة خمس سنوات من تاريخ وضع مواد هذه اللائحة موضع الإجراء.

أما بقية الموظفين فينبغى أن يكونوا من أهالى البلاد، ويجرى تعيينهم على الوجه الآتى بيانه:

يمتحن طالبوا الوظيفة أمام لجنة مؤلفة من مستشار ورئيس الدائرة التى يطلبون الدخول فيها، فتقدم لجنة الامتحان اسمى الممتازين منهم إلى لجنة المجلس العمومى، وبعد مصادقتها يعرضان على الوالى فيعين أحدهما. ولدى تعيينه يبلغ الوالى اسمه للنظارة المنسوب إليها، فيقيد في سجلها، محافظة على حقوق ترقيته وتقاعده، وأما رؤساء العدلية فيعينون وفقا لنظام يضعه المجلس العمومى.

الموظفون المعينون من قبل الولاية ـ عدا رؤساء العدلية تكف يدهم بناء على طلب المستشار ورئيس الدائرة المنسوبين إليها معا. وأما رؤساء العدلية فتكف يدهم بناء على طلب المستشار ومصادقة مجلس المستشارين. وقرار كف اليد فى كلا الحالين ينفذه الوالى.

وللموظف المكفوفة يده الحق بمراجعة الوالى فى خلال سبعة أيام من تاريخ تبليغه ذلك إذا كان موظفا فى مركز الولاية، وخمسة عشر يومًا إذا كان خارج المركز. فيحيل الوالى دعواه إلى مجلس المستشارين ليحكم فى وجوب العزل أو عدمه. والموظف الذى يحكم مجلس المستشارين بعزله لايجوز استخدامه فى دوائر الحكومة ولا يعطى معاش معزولية. أما محاكمة المعزول جزائيًا فتجرى فى المحاكم العدلية بمذكرة كخاصة من المستشار إلى المدعى العمومى.

وأما موظفو الحكومة المركزية فتكف يدهم بطلب المستشار ومصادقة الوالى الذى يطلب عزلهم بعد حكم المستشارين عليهم من النظارة المنسوبين إليها، وينبغى أن يعين خلفهم فى مدة ثلاثين يومًا.

وأما المفتشون والمستشارين فيكون عزلهم بطلب الوالى من مجلس المستشارين، وبحكم صادر من هذا المجلس.

وأما الوالى فيكون عزله بناء على قرار المجلس العمومى بأكثرية ثلثى مجموع أعضائه فتعين الحكومة المركزية خلفه فى مدة أربعين يومًا.

المادة السابعة ـ تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية وذلك للدوائر الآتية فى مركز الولاية

وهى الجندرمة والمالية (وتلحق بها غرفة التجارة) والبوستة والتلغراف والجمرك. وتعين أيضا مفتشًا أجنبيًا عامًا لكل لواء من الولاية الداخلة تلك المسألة المراجع فيها ضمن دائرة اختصاصه.

ويعين المجلس العمومى من الدول التى ترضاها الحكومة المركزية مستشارين للدوائر الآتية. وهى مجلس الولاية العمومى، والعدلية، والنافعة والمعارف، والبلدية، والبوليس. ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثمانى فى أوقات العمل. أما مدة الاستشارة والتفتيش فخمس عشرة سنة يمكن تجديدها.

المادة الثامنة ـ واردات الولاية على نوعين: أحدهما يعود برمته إلى مركز السلطنة وهو حاصلات الجمارك والبوستة والتلغراف والبدلات العسكرية. والآخر وهو عدا ماذكر من الواردات يعود برمته إلى الولاية.

المادة التاسعة ـ ينظم المجلس العمومى ميزانية الولاية السنوية. فيدخل فيها رواتب جميع الموظفين والمستشارين، عدا موظفى ومستشارى الجمارك والبوستة والتلغراف.

المادة العاشرة ـ تسلم الأراضى المحولة والأملاك الأميرية الداخلة ضمن الولاية إلى المجلس العمومى، وتكون برمتها ملكا للولاية.

المادة الحادية عشرة ـ لا علاقة للإدارة ولا للمجلس العمومى فى الأوقاف. بل يسلم كل وقف إلى مجلس الملة المنسوب إليها، لاستخدامه بموجب قانونها (بناء عليه جميع أوقاف المسلمين فى الولاية تسلم إلى مجلس ملتهم أسوة بباقى الطوائف).

المادة الثانية عشرة ـ البلديات مستقلة بجميع أعمالها، ولها الحق فى وضع الرسوم البلدية بمصادقة المجلس العمومى دون مراجعة الحكومة المركزية

المادة الثالثة عشرة ـ يؤلف مجلس يسمى المستشارون ويكون أعضاؤه رئيس المجلس العمومى (أو من ينوب عنه من أعضاء لجنة المجلس) وجميع مستشارى الدوائر فى مركز الولاية.

أما وظائف هذا المجلس فهى:

أولا ـ تفسير مواد النظام الذى تضعه الحكومة المركزية (بناء على هذه اللائحة) كدستور لحكومة الولاية ومجلسها العمومى.

ثانيا ـ تفسير القرارات والأنظمة التى يضعها المجلس العمومى.

ثالثا ـ النظر والحكم فى وجوب عزل الموظف أو عدمه.

رابعا ـ النظر والحكم بناء على طلب الوالى أو أحد المستشارين فى كل خلاف فى الرأى يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومى أو أحدى لجانه أو أية دائرة كانت. ويكون حكمه مبرما، ويرأس هذا المجلس والى الولاية، وينوب عنه فى غيابة رئيس المجلس العمومى أو مستشار هذا المجلس.

المادة الرابعة عشرة ـ تعتبر اللغة العربية اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية، وتعتبر أيضا لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان.

المادة الخامسة عشرة ـ تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين، وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية، وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية، وللرديف الاحتياطى إلى عشرين ليرة.

ولابد لنا من الاعتراف بهذه المناسبة أن بعض العناصر المسيحية الموالية لفرنسا فى بيروت أرادت استغلال (الحركة الإصلاحية) لخدمة هذه الحكومة فتقربت من زعماء الحركة، وتظاهرت بالإخلاص لهم، والرغبة فى الخدمة الوطنية عاملة سرا على توسيع الخرق بين الدولة والإصلاحيين مما ستراه مفصلا.

ج ـ جمعية البصرة الإصلاحية

أنشأ هذه الجمعية فى البصرة السيد طالب النقيب نائب البصرة فى مجلس النواب العثمانى وأحد زعماء حزب الائتلاف، فانضم إليها عدد من كبار البصرة

كما أنضم إليها أحرار العراق وشبانه. وصدرت جريدة النهضة فى بغداد لتكون لسان حال لها فلم تعش طويلا.

ولما عقد مؤتمر باريس أبرق إليه السيد طالب مؤيدا ومشجعا فخاف الاتحاديون العاقبة فانتدبوا أحد رجالهم وهو القائمقام فريد بك وعينوه قائدا للبصرة وناطوا به مهمة اغتيال السيد طالب فجاء البصرة ومعه حاشية كبيرة، فأسرع هذا وأرسل إليه من اغتاله.

فرأى الاتحاديون أن من مصلحتهم الجنوح إلى المسالمة فاستمالوا السيد طالب وأرسل إليه طلعت بك وزير الداخلية يومئذ برقية مفرغة فى قالب المجاملة فأذاع على الأثر البيان الآتى:

أعلن بكمال الفخر إلى عموم أهالى الولاية والملحقات بأننا قد اتفقنا فى أمر تشريك المساعى، وكأننا روح واحدة وجسد واحد لأجل رفع شأن وشوكة حكومتنا السنية، التى

قدرت صداقتنا رسميا، ولم يبق خلاف بيننا بأى صورة كانت . وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالا قطعيا، وصرنا كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا الأبدية، ونسعى فى محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا، حتى لايبقى منا فرد واحد، وللبيان حررت الكيفية وأعلنت فى ٧ ربيع الأول سنة ١٣٣٢.

د ـ النادى الوطنى العلمى فى بغداد

أنشئ هذا النادى فى الزوراء سنة ١٩١٣ على أثر إنشاء حزب اللامركزية العثمانى فى مصر، ليكون فرعا له ورئيسه هو مزاحم الباجه جى ودخل فيه كثير من الشبان فنشر المبادئ القومية وغرزها، وكان يستظل بظل السيد طالب النقيب رئيس جمعية البصرة الإصلاحية الذى نشطه، فأنشاء جريدة النهضة وكان يصدرها مزاحم نفسه، فلما عطلها الاتحاديون ولم يصدر منها سوى ١٢ عدداً وأمروا بالقبض على صاحبها ففرّ إلى البصرة ودخل فى حمى السيد طالب.

هـ ـ مؤتمر باريس العربى

شعر الشبان العرب فى باريس بما شعر به إخوانهم وآباؤهم فى سوريا ومصر والعراق والآستانة من ضرورة السعى للإصلاح وتحقيقه، ودرء الغوائل ففاوضوا فريقا من رجال العرب النازلين تلك العاصمة فلقوا منهم استحسانا وتحبيذا، فألفوا على الأثر لجنة تحضيرية هذه أسماء رجالها.

عبد الغنى العريسى. ندرة المطران . شكرى غانم. عونى عبد الهادى. جميل مردم بك . شارل دباس. محمد المحمصانى. جميل معلوف. واختصوا الأول بوظيفة السكرتارية

وكان فى مقدمة مهام اللجنة فى جلستها يوم الثلاثاء ١١ مارس سنة ١٩١٣ الارتباط بحزب اللامركزية بمصر، وفى يوم ٤ إبريل «دنيسان» من تلك السنة أرسلت كتابا إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية اقترحت فيه عليها أن تكون قدوة للمؤتمر ومصدر عمله وهذا نصه:

نحن الجالية العربية فى باريس نقدم إليكم عواطف الشكر والمنة لتأليفكم حزب اللامركزية الإدارية، فقد جمعتم فى برنامجكم الأمانى التى يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيتهم فى كل حين، أما قد عهدنا فيكم خيرة المواطنين حدة وغيرة وإقداما فقد أوقفنا

أنفسنا لخدمة عنايتكم النبيلة واعتبرنا كم مصدرا لما نتوقع أن نقوم به فى هذه الديار إزاء مناظرات الجرائد، ومغامز الخطباء فى الأندية السياسية، ومجرى المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية

ذلك ماحمل الجالية العربية وعددها ينيف على الثلاثمائة فى هذه المدينة ـ على الاجتماع والبحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ، وإصلاح أمور بلادنا على قاعدة اللامركزية. وبعد المناقشات ارتأت الجالية أن تعقد مؤتمراً للعرب يقوم به السوريون فى هذه المدينة فانتخبت لجنة إدارية مؤلفة من شكرى غانم ومحمد المحمصانى وندره مطران وعونى عبد الهادى وجميل معلوف، وشارل دباس وجميل مردم وعبد الغنى العريسى تظهر فيه للأجانب أن العرب يدرأون عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحتفظون بحياتهم الوطنية، وتصارح الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الإصلاحات اللامركزية فى بلاد العرب، فاجتمعت اللجنة الإدارية وقررت أن ترتبط واياكم فى العمل، وأن تنفذ ما يوعزه إليها مركزكم فى مصر خدمة للمصالح العربية.

وإن المؤتمر سيجتمع فيه وفود من البلاد الأمريكية الشمالية والجنوبية، ومن المقيمين فى البلاد الأوربية ومن بلادنا العربية وأخصها سوريا، فنتقدم إليكم طالبين أن توفدوا من قبلكم من ينوب عن السوريين المقيمين فى مصر، ولرئاسة المؤتمر بصفتكم مصدراً لأعمالنا، وإليكم ماتدور حوله مباحث المؤتمر.

الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال

حقوق العرب فى المملكة العثمانية

ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية (كما هو مفصل فى برنامجكم)

المهاجرة من سوريا وإلى سوريا.

وسيعهد بهذه الموضوعات إلى خطباء يبحثون فيها بحثا مدققا بحضور المواطنين وممثلى الصحف الأوربية وبعض كبار الأوربيين. حتى إذا انتهى المؤتمر قررت اللجنة مع الوفود حمل الطلب إلى مؤتمر السفراء فى لندن، وهو الاعتراف بحياة العرب الوطنية، ودرء احتلال الأجانب، ووجوب الإصلاحات اللامركزية فى البلاد العربية، أو حمله إلى سفراء باريس فما إذا انفرط عقد مؤتمر لندن، أو الاكتفاء بعقد مؤتمرنا أمام الأجانب دون حمل قراراته إلى السفراء وذلك راجع إلى ما يقرره مركزكم العام.

فتكرموا علينا بالمؤازرة برأيكم حتى إذا كانت فكرة المؤتمر صالحة فى نظركم بعثتم

ممثلا عن مركزكم لنبوئه المكانة الرفيعة ونعضده على الغاية المنشودة.

وحسبنا الله أن يأخذ بأيديكم وأيدينا لوقاية الأمة والبلاد من فساد البداية والمعاد والسلام عليكم.

وفى يوم ١٤ إبريل كتبت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر إلى لجنة باريس شاكرة عواطفها وأبلغتها إنها قررت إرسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم المشاركة والنظر فى موضوعاته حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجه. وقالت إنها «ترجو أن يكون هذه الاتفاق مبدأ دور سعيد للأمة العربية بتضافر أبنائها».

وعلى أثر ذلك أذاعت لجنة المؤتمر فى باريس المنشور الآتى فى أنحاء العالم العربى:

نحن الجالية العربية فى باريس قد أوقفتنا مناظرات الأجانب الأوربية ومغامزات الساسة فى الأندية العمومية على استقراء ما يجرى من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية وأخصها زهرة الوطن سوريا ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم أن ذلك نتيجة سوء الإدارة المركزية.

فحدا بنا الأمر إلى الاجتماع، وعددنا ينيف على الثلاثمائة فى هذه المدينة فجرى البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بدم الآباء العظام ورفات الأجداد الإباة من عداء الأجانب، وإنقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد، وإصلاح أمورنا الداخلية على مايتطلبه أهل البلاد من قواعد اللامركزية حتى يشد بها ساعدنا، وتستقيم قناتنا، فينقطع بذلك خطر الاحتلال أو الاضمحلال، وتنفى مذلة الرق، وتخفت نأمة الاستعباد، ويظهر للاعبين بحياة الشعوب أننا أمة تأبى الضيم، ولا تستسلم ولا تستكين لمسكنة.

وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون فتفد إليه وفود أكابر من البلاد العربية، وعقلاء أفاضل من المهاجرين السوريين لمصر وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية والبلاد الأوربية، فتمثل فيه الأمة العربية المنتشرة فى أقطار الأرض، وتحق كلمة التضامن الاجتماعى والسياسى لهذه الأمة فى هذا المؤتمر. حيث نبسط للأمم الأوربية أننا أمة مستمسكة ذات وجود حى لا ينحل، ومقام عزيز لا ينال، وخصائص قومية لا تنزع، ومنزلة سياسية لا تقرع، ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا وأن حياتنا أقدس حق من حقوقنا، وأن العرب شركاء فى هذه المملكة، شركاء فى الحربية، شركاء فى الإدارة، شركاء فى السياسة، وأما فى داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم.

ومن ثم انتخبت الجالية لجنة إدارية (هى الموقعة على هذا) لتقوم بالعمل فوضعت خطة المؤتمر، وما سيجرى فيه من المباحث على مشهد من أبناء الوطن المجيد وبعض من كبار الأوربيين وممثلى الصحف الأوربية والأمريكية، وهذه هى المسائل التى ستكون قاعدة المذكرات:

١ ـ الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

٢ – حقوق العرب فى المملكة العثمانية.

٣ ـ ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

٤ ـ المهاجرة من سورية وإلى سوريا.

ومتى تمت المناقشات حمل المؤتمر قراراته إلى حيث يتحتم عليها التصديق ويحق التنفيذ.

وبعد فإننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيرا أو كبيرا أن يلبى داعى الوطن لاسيما أرباب الزعامات فى مقاعد الجمعيات، فعليهم نعتمد، وإليهم نتجه، فإما أن يتضامنوا إلى وفود المؤتمر، وإما أن يبعثوا إليه بالرسائل البرقية أو الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنبل الغاية واشتراكهم فى شريف المقصد حتى يدلى المؤتمر لدى الأمم بحجته وتستوثق قوته بقوة أمته، وهناك ينبثق اليقين، فيطل على هذه الأمة فجر الحياة من بين اتساق الغسق وركام الظلمات

وسلام على من تلقى هذا النور فغشاه، ومن عرف واجبه فأداه.

اجتماع المؤتمر وقراراته

وفى يوم الأربعاء ١٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٣ افتتح المؤتمر جلسته الأولى فى منتصف الساعة الثالثة فى قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن من برئاسة السيد عبد الحميد الزهراوى وهذه أسماء المندوبين الذين شهدوه:

السيد عبد الحميد الزهراوى واسكندر عمون عن حزب اللامركزية بمصر. سليم على سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد حسن طبارة والدكتور أيوب ثابت عن الجمعية الاصلاحية ببيروت وتوفيق السويدى وسليمان عنبر عن العراق. ومحمد حيدر وإبراهيم حيدر عن بعلبك.

وعبدالكريم الخليل عن جالية الآستانة. ونجيب دياب ونعوم مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين السوريين إلى الولايات المتحدة. وعباس بجاتى عن المهاجرين إلى المكسيك

وشكرى غانم وعبد الغنى العريسى وندره مطران وعونى عبدالهادى وشارل دباس وخير الله خيرالله وجميل مردم ومحمد محمصانى عن جالية باريس.

وعقد المؤتمر أربع جلسات كان آخرها مساء يوم الأثنين ٢٣ يونيو، وقد خطب فى هذه أحمد مختار بيهم باللغة الفرنسية، فلخص أقوال الخطباء وترجم قرارات المؤتمر ثم أعلن ختامه وهذا نص القرارات:

١ - إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للملكة العثمانية، فيجب أن تنفذ بوجه السرعة.

٢ - من المسلم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوافى الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا.

٣ - يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها.

٤ - كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم ٣١ يناير سنة ١٩١٣ بإجماع الآراء، وهى قائمة على مبدئين أساسين، وهما توسيع سلطة المجالس العمومية، وتعيين مستشارين أجانب فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين.

٥ - اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية.

٦ - تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية. إلا فى الظروف والأحيان التى تدعو إلى الاستثناء الأقصى.

٧ - يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفيه لبنان وسائل ماليتها.

٨ - يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية. ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم، ويحيى العراق.

٩ - يجرى تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية.

١٠ - وتبلغ هذه القرارات أيضا للحكومات الأوربية ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها.

ملحق لهذه القرارات

١ - إذا لم تنفذ القرارات التى صادق عليها هذا المؤتمر فالأعضاء المنتخبون فى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب كان فى الحكومة العثمانية، إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التى ينتمون إليها.

٢ - ستكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه.

٣ - المؤتمر يشكر مهاجرى العرب على وطنيتهم فى مؤازرتهم له.

وفى يوم ٣٠ يونيو زار وفد مؤلف من السيد عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر، وشكرى غانم نائب الرئيس، واسكندر عمون، وسليم على سلام، والشيخ أحمد طباره، وأحمد مختار بيهم ،وخليل زينيه وزير الخارجية الفرنسية المسيو بيشون فشكر الرئيس مالقيه المؤتمر من ترحيب الأمة الفرنسية قائلا:

اننا إذا كنا نستحق هذا الإكرام بصفتنا أبناء دولة صديقة لفرنسا من قديم الزمان فإننا نستحقه أيضا بصفتنا سكان بلاد ما زالت فرنسا تظهر نحوها كل انعطاف وتودد، وإننا اعتمادا على هذا وذاك نعتقد أن فرنسا وكل أوربا تمدان لنا يد المعونة فى تحقيق الإصلاح الذى وعدتنا دولتنا العثمانية فى إجرائه، وأن الاتحاد والإخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة وبين السوريين واللبنايين من جهة ثانية هما أعظم برهان على ارتقائنا وكفاءتنا لإدارة أعمالنا مع استعانتنا بتجاريب أوربا، واستظلالنا بظل الراية العثمانية. لهذا نحن واثقون من أن أوربا لا بد أن تصغى بارتياح إلى مطالبنا الإصلاحية النافعة.

فرد عليه المسيو بيشون شاكرا «وقال إن فرنسا تشعر بعاطفة الولاء الأكيد والصداقة الثابتة نحو الدولة العثمانية، وهى تحب الخير للسوريين، وأنه معجب بما أظهره طلاب الإصلاح من التعقل فى مطالبهم، وأنه لجدير بأوربا كلها أن تكون ضامنة لتحقيق الإصلاح. كافلة لمستقبل تلك البلاد. وإن فرنسا تقبل بكل رضى وسرور أن تكون محامية (Avoeal) سوريا لدى أوربا، وأنها تفعل ذلك للعثمانية لا ضدها.

وقال أحمد مختار بيهم أيضا «إننا نحترم فرنسا، ولكن لانرضى أن تكون أكثر من معضدة لنا فى إصلاح شؤوننا بشرط أن نظل عثمانيين».

وقصد الوفد بعد ذلك قصر السفارة العثمانية فقابل السفير وسلمه نسخة من قرارات المؤتمر مع الكتاب الآتى:

«إنفاذا للقرار الصادر من المؤتمر العربى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩١٣ نتشرف بأن نرسل لدولتكم مع كتابنا هذا نسخة من القرارات التى صادق عليها المؤتمر، راجين أن تتفضلوا بإطلاع الحكومة العثمانية عليها، واقبلوا فائق احترامنا».

ولابد لنا من التنبيه هنا إلى أمر جوهرى قد لايستوقف نظر القارئ المسرع. فقد أراد السيد عبد الحميد الزهراوى وأحمد مختار بيهم بما فاها به من تصريحات بحضور الوزير الفرنسى أن يقطعا الطريق على الذين اندسوا بين رجال المؤتمر، وزعموا أنه ماعقد إلا لخدمة السياسة الفرنسية، وإن غايته هى طلب المساعدة الفرنسية، وليبين له أنهما عثمانيان لا يرغبان عن العثمانية بديلا.

ولقد أدرك الوزير مارميا إليه فكتب كتابا سريا إلى قناصل فرنسا فى سوريا يقول فيه : لقد تحقق لدينا من تصريح الوفد الذى زارنا باسم المؤتمر العربى أن هذه الحركة قد انقلبت علينا، فاظهروا أنفسكم أنكم تساعدونها لاكتساب ثقة الشعب، واسعوا فى الخفاء لقتلها (يريد الحركة الإصلاحية).

حكومة الأستانة والمؤتمر

لم تقابل حكومة الأستانة عقد المؤتمر فى عاصمة فرنسا بالارتياح. ويقال إنها سعت عند الحكومة الفرنسية لحملها على عدم السماح باجتماعه، فلم تفلح فانتدبت جمعية الاتحاد والترقى مدحت شكرى بك أحد أقطابها، فسافر إلى باريس، واجتمع إلى رجال المؤتمر، وبعد مباحثات ومناقشات تم الاتفاق بين الفريقين على الشروط الآتية:

١ - يكون التعليم بالدورتين الإبتدائية والثانوية فى جميع البلاد العربية باللغة العربية ويكون بالتركية فى القسم العالى.

٢ - يكون جميع رؤساء المصالح والموظفيين ماعدا الولاة عارفين اللغة العربية، ويكون تعيين القضاة ورؤساء القضاء الذين ينصبون بإرادة سنية من العاصمة. أما من عداهم من الموظفين فيعينون من الولاية.

٣ - تترك إدارة الأوقاف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية لمجالس الجماعات المختلفة.

٤ - تترك الأمور النافعة (الأشغال العامة) للإدارة المحلية.

٥ - يخدم المجندون فى المناطق العسكرية القريبة من بلادهم، ويختار الجند الذى تدعو الحاجة إلى إرساله إلى اليمن وعسير بنسبة عادلة من جميع أبناء السلطنة العثمانية.

٦ - مقررات المجالس العمومية تكون نافذة فيما هو من اختصاصها القانونى.

٧ - يكون مبدئيا فى الوزارة ثلاثة من أبناء العرب، ويعين منهم عدد من المستشارين والمعاونين فى الوزارات، ويكون منهم اثنان أو ثلاثة فى كل مجلس من مجالس شورى الدولة ومحكمة التمييز (النقض والإبرام) والمشيخة الإسلامية وبقية المصالح الأخرى. ويكون منهم أربعة أو خمسة على الأقل فى الدوائر المختلفة من كل وزارة.

٨ - يعين خمسة ولاة على الأقل من العرب وعشرة متصرفين، وينصف الذين لم يرقوا منهم، ويعاملون معاملة زملائهم من موظفى الملكية والحقانية والشرعية الترك.

٩ - يعين عددم من العرب فى مجلس الشيوخ (الأعيان) بنسبة أثنين من كل ولاية.

١٠ - يستخدم مفتشون أخصائيون من الأجانب فى كل ولاية بنسبة الحاجة، وتحدد وظائفهم واختصاصتهم بنظام خاص.

١١ - تكون المعاملات الرسمية فى البلاد العربية باللغة العربية، على أن يُنفذ ذلك تدريجيا.

هذا ماتم الاتفاق عليه فى باريس بين مندوب جمعية الاتحاد - وكانت هى القابضة على زمام السلطنة - ورجال المؤتمر، وقد حمله المندوب وعاد به إلى الآستانة وعاد معه عبد الكريم الخليل أحد أعضاء المؤتمر للإشراف على الحالة عن كثب.

ولم يطل الأمر حتى أعلنت الحكومة الاتحادية عزمها على إدخال الإصلاحات المطلوبة فاستصدرت يوم ٣ أغسطس سنة ١٩١٣ مرسوما سلطانيا هذا تعريبه:

أنه بالنظر إلى الضرورات، واختلاف الأمزجة فى الولايات العثمانية، وإلى وجوب ترقية البلاد وإسعاد أهلها وزيادة رفاهم تقرر بعد الاتكال على الله ومفاوضة الولايات مايأتى:

١ - يعهد فى إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلى المشروط صرف ريعها على الجهات الخيرية، مع مراعاة شروط الواقف إلى مجالس الجماعات فى الولايات، وذلك بموجب قانون خاص سينشر قريبا.

٢ - يؤدى الجنود خدمتهم العسكرية زمن السلم فى دائرة التفتيش التابعين له. وإذا رأت الدولة أن الحال تقضى بزيادة عدد الجنود المحتشدة فى جهة من جهات الحدود فلها أن تسوق جميع الصفوف العسكرية من دون قيد ولاشرط. ويؤخذ الجند الذى تمس

الضرورة إلى سوقه لليمن والحجاز وعسير ونجد وأمثال هذه المقاطعات ـ من البلاد العثمانية بنسبة صحيحة.

٣ ـ يكون التدريس باللغة العربية فى جميع الولايات التى تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب الرقى والحضارة حالا ومستقبلا. على أن يبدأ ذلك منذ الآن فى المدارس الابتدائية والثانوية مع جعل تعليم اللغة التركية إجباريا. وينظر من الآن فى الوسائل التى تؤدى إلى جعل التعليم العالى فى البلاد العربية باللغة العربية. على أنه يجب أن يظل باللغة التركية فى المدارس الثانوية فى مراكز الولايات لتعم هذه اللغة.

٤ ـ يجب أن يلاحظ فى تعيين الموظفين للبلاد العربية معرفتهم لغتها عدا اللغة التركية وتعين الحكومات المحلية الموظفين من الدرجة الثانية، طبقا لما نص عليه فى القوانين الخاصة بذلك، والذين يعينون بإرادة سنية يناط تعيينهم بالحكومة المركزية فى الآستانة».

وأذاعت وزارة الداخلية فى الوقت نفسه بيانا رسميا على الولايات استهلته بقولها:

لما كانت الغاية التى وضعناها نصب أعيننا هى ارتقاء جميع الولايات العثمانية، وضمان راحة سكانها ورفاههم بحسب أمزجتهم وحاجاتهم المحلية فقد دارت بعد الاتكال عليه سبحانه وتعالى مكاتبات مع الولايات بشأن الإصلاحات اللازمة، وتقرر الشروع فى تنفيذه تدريجا، بحسب قرار مجلس الوزراء الآتى:

ثم أورد البيان نص المرسوم الآنف الذكر وزاد عليه «أنه حبا فى الإصلاح تقررجلب مفتشين من الأجانب بقدر الحاجة على أن يعينوا فى كل ولاية، ووضع قانون خاص لذلك وإنه عملا بقانون الولايات تقرر ضم جانب من الإيرادات العامة إلى ميزانية كل ولاية لسد العجز الواقع عن قيام ميزانيتها بالواجبات الملقاة عليها، وخصوصا فى الأشغال العامة والمعارف، وأن المقرر أيضا تنفيذ القرارات التى تقررها المجالس العمومية ضمن دائرة اختصاصتها بلا إبطاء».

ولقد ارتاح بعض رجال العرب النازلين فى الآستانة إلى هذه المقررات ـ على مافيها من غموض وإبهام، وعدوها خطوة فى سبيل الإصلاح الذى ينشدونه، وتألف وفد منهم قوامه الشريف على حيدر باشا ونجلاه محيى الدين وعبد المجيد ومحيى الدين باشا الجزايرلى وإبراهيم صبوصة بك وشكرى باشا الأيوبى وبديع بك المؤيد ونجيب بك شقير والشيخ عبدالعزيز شاويش والدكتور حسين حيدر ومعروف الرصافى وسامى العظم وعبدالكريم

الخليل فقصد الباب العالى يوم الثلاثاء ١٥ أغسطس، وقابل الصدر الأعظم سعيد حليم باشا فخطبهم باللغة التركية معربا عن ارتياحه إلى إزالة سوء التفاهم بين العرب والترك، وقال إن غاية وزارته إسعاد الشعب العربى الكريم أخلص الشعوب العثمانية للخلافة العظمى، وخطب أيضا الشيخ عبدالعزيز شاويش وعبد الكريم الخليل.

وأدبت الشبيبة العربية فى الآستانة مساء ذاك اليوم مأدبة فخمة فى فندق طوقاتليان لخمسة وأربعين مدعوا حضرها كبار العرب والترك فحضر من هؤلاء طلعت وأنور وجمال وخليل وفتحى، وحضر من أولئك الشريف على حيدر معربا عن سروره بإزالة سوء التفاهم من بين الشعبين وحض أقطاب الحكومة على التعجيل بتنفيذ الإصلاحات فأجابه طلعت إنه وزملاؤه يخدمون العرب بإخلاص من زمن بعيد، وأنكر وجود سوء تفاهم، وخطب فتحى بك سكرتير جمعية الاتحاد العام باسمها فشكر للشبيبة العربية كرمها وبسط رغبة الجمعية فى الإصلاح وقال: إنها عقدت العزم على إنجاز ماوعدت به، وخطب آخرون.

ولما وصلت الأمور إلى هذا الحد أبرق عبدالكريم الخليل إلى باريس داعيا رجال المؤتمر العربى إلى زيارة الآستانة فجاءها سليم سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد طبارة يوم الجمعة ١٥ أغسطس وقصدوا دار المنتدى الأدبى، واجتمعوا بمعتمدى الجمعيات العربية وقفوا منهم على الحالة.

واتصل القادمون برجال الحل والعقد، ثم تشرفوا يوم ٢٣ منه بمقابلة جلالة السلطان، وأعربوا له عن تعلق العرب بالعرش العثمانى، ورجوا منه أن يأمر الحكومة بتنفيذ الإصلاح على جناح السرعة، لأن الإصلاح هو الطريق الوحيد لترقية البلاد، وتنمية ثروتها، واسعاد سكانها فوعدهم خيرا. وكذلك زاروا ولى العهد يوم ٢٧ منه وخطبوا بين يديه. وفى مساء ذاك اليوم أدبت جمعية الاتحاد والترقى مأدبة شائقة للشبيبة العربية دعت إليها رجال الإصلاح وأقطاب الدولة. وخطب فتحى بك فى ختام المأدبة باسم الجمعية فقال:

«تبادلنا فى اجتماع سابق عواطف السرور بحصول ما حصل من اتفاق وتفاهم بين العرب والترك. وأعيد الآن ماقلته فى ذاك الاجتماع أمام وفد المؤتمر العربى، وأشكر لهم مساعيهم الحميدة وغيرتهم الصادقة، وأرجو أن يكون هذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للدولة والأمة».

وخطب الشيخ أحمد طبارة باسم الوفد خطبة طويلة نثبتها هنا لنفاستها قال:

حيا الله هذا الجمع الشريف وأحياه، وبارك فى هذا الاتفاق وأنماه

أيها السادة/

«يقول الحكماء العرب فى أمثالهم: صديقك من صدقك لامن صدقك. وهى لعمرى حكمة بالغة يجدر بكل عاقل أن يضعها نصب عينيه، وأن يجعلها نبراسا يستضئ به فى حياته الاجتماعية فإن دولتنا العلية أيدها الله باتت فى أشد الحاجة إلى رجال يصدقونها فى أقوالهم وأعمالهم. لا أن يصدقوها فى كل شيئ نافعا كان أو ضارا. وحسبنا ماتجرعناه من مرارة هذه السياسة الخرقاء قبل الدستور وبعده.

أنا إن رأيت الخطر محدقا بصديق تهمنى حياته فالمروءة تقضى علىّ أن أنبهه إليه، وأن أسعى لأنقاذه منه. حرصا على حياته العزيزة، أما انكارى للخطر - وأنا أراه - فلا يلتئم مع الصداقة والمروءة فى شيئ. فنحن نعتقد أن العرب والترك إخوان صنوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، وإن حياة هذا الملك تتوقف عليهما، فمن مصلحتها ومصلحة الدولة أيضا أن لا يكون بينهما سوء تفاهم على الإطلاق، فإنكار سوء التفاهم مع وجوده مضربهما معا، ومنكره غير محب لهما معا، وإنما المحب هو الساعى إلى إزالة سوء التفاهم بين الفريقين. وتوثيق عرى المحبة والوداد بيهما هو أساس نجاح الملك، هو الثقة بين الأمة والحكومة. وعلى قدر هذه الثقة يكون حظ الملك من التقدم والنجاح. وأساس الثقة هو عدم الاستئثار بشئ، وإعطاء كل ذى حق حقه. على هذه القاعدة الأساسية بنينا طلبنا للإصلاح حفظا لهذا الملك بعد ما رأينا العيون شاخصة إليه، والأطماع حائمة حوله. فكنا فى طلبنا هذا أكثر حبا له من الذين كانوا يقولون: إن الوقت غير مناسب للإصلاح. مع أن الإصلاح ليس له وقت معين، بل كلما اشتد المرض على المريض كان استقدام الطبيب له ألزم، وتناول العلاج له أحوج وأكفل.

لقد صرحنا بملء أفواهنا، ونصرح الآن، وفى كل زمان ومكان، أننا نشأنا تحت ظل الهلال العثمانى (تصفيق) ونريد أن نعيش تحت ظله ونموت تحت ظله (تصفيق) واعنى «بنحن» العرب، وأعنى بالعرب كل ناطق بالضاد. لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم (تصفيق) لا نرضى من دولتنا العلية بديلا. وأننا نفديها بأرواحنا وأموالنا (تصفيق) وإنما نطلب لها الحياة السعيدة والعيشة الرضية، لنعيش وإياها فى سعادة وهناء ورخاء على قاعدة الاشتراك فى الحكم وتبادل الحقوق.

ولا نحتاج فى هذا المقام إلى زيادة إيضاح بعد ما حصحص الحق وبان، وظهر الصبح

للعيان، وصرح فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وغيرهما من كبار رجال الدولة بأمور خطيرة الشأن، وقدروا أهمية القائمين بالإصلاح حق قدرها، وأثنوا على وطنيتهم أطيب ثناء. على أن هؤلاء يعتقدون أنهم إنما فعلوا ما يفرضه عليهم الواجب والصداقة والإخلاص لدولتهم ووطنهم وأمتهم.

لقد سر جميع العقلاء من العرب والترك بالاتفاق الذى تم بين عنصريهما وبات الكل ينتظر تنفيذه ليجنى الوطن ثمره النافع، ولا سيما بعد ما أكد لنا فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية تأكيدا ماوراءه زيادة لمستزيد أن هذا الهدف واقع لا محالة فى القريب العاجل، وأن الدولة لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد، بل تزيده، وتعززه كلما سنحت الفرصة.

ونحن نعتقد إن هذا الاتفاق النافع لا تنحصر فوائده فى العرب، بل فى العرب والترك معا، وأن القائمين به عربا كانوا أو تركا إنما هم يعملون لسعادة الفريقين معا، وسعادة الملك العثمانى، لأنه على قدر ارتقاء العرب فى سلم الحضارة والعمران يكون ارتقاء هذه الدولة ونجاحها من أجل ذلك أهنئ الترك والعرب معا بهذا الاتفاق السعيد المبنى على المشاركة فى الحقوق المدنية والسياسية، وأضرع إلى الله سبحانه أن يجعله فاتحة عصر جديد مجيد للدولة العليا وأن يوفق رجالها إلى كثير من الإصلاحات الحقيقية التى يحيا بها الوطن العثمانى حياة سعيدة راقية، واشكر للساعين فيه غيرتهم الوطنية. وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ويتساءل فريق من الناس أيها السادة قائلين: أتظهر الحكومة هذه الإصلاحات من حيز الوعود إلى عالم الوجود؟ فالذى أراه أنه ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد والوفاء فقط بل وأن تسبق أعمالها أقوالها من الآن، وأن تعتمد على الله وعلى نفسها وعلى الأمة فى إنجاح الوطن. فتصبح الأمة العثمانية على اختلاف مذاهبها يدا واحدة فى إنهاض الوطن وإسعاده، ولنا فى عظم استعداد أبنائها خير كفيل للنجاح فى أقرب آن.

وفى الختام نسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى مافيه خير الدولة وسعادة الوطن وألا يجعل للأغراض الذاتية سلطانا علينا، وأن نرى فى النوائب الأخيرة خير واعظ لنا لأننا إن لم نعتبر بها فلا حياة لنا بعدها. وكثيرا ماتكون النوائب سببا فى الفوائد والله ولى التوفيق»

وفى أوائل شهر سبتمبر غادر المندوبون الآستانة عائدين إلى وطنهم بيروت وأذاعوا حين سفرهم البيان الآتى على الجمعيات العربية العاملة فى سوريا ومصر

والآستانة. قالوا:

جئنا الآستانة لتحقيق وعود الإصلاح وطلب تنفيذها فى أقرب آن، وقد سمعنا من جلالة السلطان وسمو ولى العهد وفخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وسائر رجال الحكومة وجمعية رجال الاتحاد والترقى وعودا صريحة قاطعة لا نستطيع أن نظهر ارتيابا فيها. وأكد لنا فخامة الصدر الأعظم والناظر غير مرة أن تنفيذ الإصلاح واقع لا محالة فى القريب العاجل وأن الدولة العليا لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد بل تزيده وتعززه كلما سنحت الفرصة وساعدتها الأحوال. فرأينا من المصلحة أن نتظاهر بالرضا، لأن السياسة تقضى علينا بذلك، وعزمنا على السفر إلى بلادنا لعرض المسألة برمتها على مسامع الأمة وإعدادها لقبول الإصلاح إذا برت الحكومة بوعدها، أو لاتخاذ التدابير اللازمة الفعالة للوصول إلى غايتنا الشريفة. وقد أفهمنا رجال الحكومة حقيقة الحال وقلنا لهم إن هذه آخر مرة نرضى فيها بالوعود. فإن لم يبروا بها فى أقرب آن كانوا هم وحدهم المسئولين عن تفاقم الأمر وسوء العاقبة».

وفى يوم الثلاثاء ٢٨ أكتوبر من تلك السنة وصل إلى الآستانة السيد عبدالحميد الزهراوى رئيس المؤتمر العربى قادما من باريس، بدعوة من عبد الكريم الخليل.

وفى يوم الخميس ٣٠ منه بدأت المفاوضات بينه وبين مدحت شكرى بك رسول الاتحاديين إلى باريس لتنفيذ الشروط التى تم الاتفاق عليها. وضاق صدره حينما أدرك أنهم يسوفون ففاه يوم ٢١ نوفمبر بحديث صحافى قال فيه:

«لقد جئت الآستانة وفاوضت فريقا من رجال الحل والعقد فى تنفيذ اتفاقهم مع مؤتمر باريس، فسمعت من وعودهم ماسمعه طالبوا الإصلاح من قبل. ولكن ما الفائدة ونحن نريد أعمالا لا أقوالا. لم يعد لى من الوقت متسع للإقامة فى الآستانة. ويرى أصدقائى أن سفرى منها أمر واجب، وفى كل يوم أتلقى كتبا وبرقيات تستحثنى على التعجيل فى السفر إلى مصر. ومع أننى لم أفقد الثقة بحسن نية الحكومة، إلا أن سير الأمور على منوالها الحالى يوهن عزمى، ويثبط همتى، ويمنعنى من الرد على سؤالك. ولما كان سفرى يعد بمثابة قطع رجاء من الحكومة، فإننى أتحاشاه وقد أفهمتها ذلك، ولا عذر لها إذا تجاهلته فى مستقبل الأيام. ويلوح لنا أن السبب فى مماطلة الحكومة هو خلاف داخلى بين جمعية الاتحاد والترقى ففريق من أعضائها يؤيد مطالبنا، ويروم معاملتنا بالحسنى، وفريق يرفض مطالبنا ويشير باستعمال الشدة معنا، ولانعلم فى أى جانب يكون الرجحان، فإن استطاع

أولهما اقناع ثانيهما كان لنا ماطلبنا، وإلا ساءت العاقبة».

واستؤنفت المفاوضات على أثر نشر هذا الحديث، وظلت دائرة حتى أواخر شهر ديسمبر، ففيه تم الاتفاق على أن يعين هو وعدد من رجال العرب في مجلس الشيوخ (الأعيان) العثماني، وفي يوم ٤ يناير سنة ١٩١٤ صدر مرسوم بتعيينه وتعيين عبد الرحمن اليوسف ومحمد بيهم ويوسف سرسق ومحيي الدين النقيب وأحمد الكيخيا أعضاء في ذاك المجلس. فلم يرق هذا التعيين ـ وخصوصا تعيين السيد الزهراوي ـ في عين الشبيبة العربية، ولا في عين طلاب الإصلاح، وعدوه خرقا لقرارات مؤتمر باريس. فقد جاء في المادة الأولى من ملحق القرارات ما نصه «إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر، فالأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون إليها».

وأبلغ السيد الزهراوي الشبيبة حينما شعر باستيائها أنه مستعد للاستقالة إذا أصرت على ذلك، وقال أنه لم يقبل هذا المنصب إلا بالإتفاق مع بعض زعماء العرب الذين تم الاتفاق على تعيينهم قريبا في مناصب عالية، ولمساعدة الحكومة على الإصلاح. فأبلغته الشبيبة أنها قطعت صلاتها السياسية به، وأن حزب اللامركزية هو المسؤول عن أعماله. وما عليه إلا أن يرجع إليه في أمر الاستقالة أو البقاء.

واستدعت الشبيبة عبد الكريم الخليل معتمدها، وقد رأت انه لم ينهج النهج الملائم في صلاته بالحكومة، وفي الخطة التي يسير عليها، واستوضحته عما تم في قضية الإصلاح وذلك في اجتماع حافل في دار المنتدى الأدبي شهده نيفو ألف عربي. فأعلن أنه لا يستطيع أن يبوح بما يعرفه من أسرار خاصة بالسياسة العربية أمام مثل هذا الحفل فاختار الحاضرون لجنة قوامها نجيب شقير وسيف الدين الخطيب وأسعد داغر وجلال البخاري وصبحي حيدر للاجتماع به وسماع أقواله. فتم الاجتماع يوم ٧ يناير في جلسة سرية امتدت أثنتى عشرة ساعة من الساعة الثالثة بعدالظهر حتى الثالثة والنصف بعد نصف الليل فدافع عن سياسته وقال: إن انتظام السيد الزهراوي في مجلس الأعيان خير من عدمه. لأنه يفيد في داخل المجلس أكثر من فائدته في خارجه، وإنه لم يقبله إلا عملا بالاتفاق السري المعقود بينه وبين الاتحاديين باسم المؤتمر[1] وأنه يحتوي على فوائد عظيمة للعرب لا سبيل للوصول إليها إلا تدريجا ومع الزمن، خوفا من هياج العنصر التركي والعناصر الأخرى على الحكومة ومطالبتها بمثل مانال العرب منها. فمثل هذه

١ ـ انظر ص ٣١.

الفوائد العظيمة يجب أن نقضى فى سبيل الحصول عليها طويلا من الوقت، وأن لا نتألم من الانتظار، فقد أخلصت جمعية الاتحاد والترقى لنا، ووضعت يدها فى أيدينا.

ثم قال «ولا أخفى عليكم أن فى مقدمة الأسباب التى اضطرتنا واضطرت السيد الزهراوى إلى قبول هذا المنصب هو رغبتنا فى توطيد الاتفاق العربى - التركى وإقامة الدليل على اتحاد العنصرين لمقاومة أطماع الأجانب فى بلادنا العربية، فهم يعملون عل استغلال خلافنا لتحقيق آمالهم».

وفى يوم ٩ يناير أذاع أعضاء اللجنة المنتدبة البيان الآتى، وقد نشر فى صحف الأستانة وبيروت والقاهرة وهو:

«اجتمعنا نحن الموقعين أسماءنا أدناه بمعتمد الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل اجتماعا طويلا فى جلسة خاصة، وبعد البحث معه وجدنا مبادئ الإصلاحات العمومية الأولى حسنة على مايظهر، ولكن أمر التنفيذ لم يصل إلى درجةالمطلوبة، وليس فيه مايوجب السرور، ولكننا نرى أن الوقت الحاضر لا يساعدنا على إظهار الاستياء من سير الأحوال لأن ذلك يشوش على المصلحة العامة، وربما يقف عقبة فى طريقها، فلا يجوز الآن عدم اعتماد عبد الكريم أفندى بل يجب انتخاب لجنة استشارية من أربعة أشخاص تشد أزره ويرجع هو إليها يستشيرها فى مفاوضاته استشارة خاصة، ولا صلة لهذه اللجنة بالحكومة، وإنما صلتها بعبد الكريم أفندى، ويظل الرسول الوحيد بين الشبيبة والوزارة وجمعية الاتحاد والترقى، لأن ذلك أقرب إلى المصلحة العامة».

الخلاف بين الإصلاحيين

لم يرق بعض الهيئات السورية العاملة فى أمريكا ومصر وسوريا ماجرى، فاحتجت عليه وانتقدته، ونحن نثبت هنا نص الاحتجاج الذى أرسلته جمعية الاتحاد السورى فى نيويورك يوم ١٩ فبراير سنة ١٩١٤ إلى لجنة حزب اللامركزية العليا بمصر قالت:

إن جمعية الاتحاد السورى فى نيويورك الممثلة للسواد الأعظم من العثمانيين المهاجرين فى الولايات المتحدة تحتج بلسانها ولسان فروعها والجمعيات المشتركة معها فى المبدأ احتجاجا قويا على تعيين بعض أعضاء اللجان الإصلاحية فى سوريا ومصر لوظائف مختلفة فى الحكومة، وعلى قبولهم هذه الوظائف فى الأحوال الحاضرة. وفى أثناء سعى رجال الحكومة بكل مافى وسعهم من الوسائل غير المشروعة والمخالفة لروح الدستور لقتل

الحركة الإصلاحية فى سوريا والبلاد العربية، وتعتبر الجمعية هذا العمل مخالفا لروح النهضة. ومضرا بمصلحة الشعب و الأمة. ذلك لأن المقصود منه ذر الرماد فى أعين البسطاء وإيهاهم أن قبول بعض أعضاء اللجان المعروفين فى بلادهم وظائف فى هذه الحكومة ـ وهى على شكلها الحاضر ـ يعنى وجود التفاهم بينها وبين المطالبين بالإصلاح، وقد يكون المقصود من هذه الحركة ما هو أفظع من ذلك أى استمالة بعض من يظن فيهم الزعامة لفصلهم عن حظيرة الإصلاحيين.

نحن نجل أعضاء اللجان المذكوريين عن معرفة هذا القصد فى السابق والقبول له أو الاشتراك فى تنفيذه، ومع هذا فإن جمعية الاتحاد السورى وفروعها والجعيات التى تعزز مبدأها فى ديار الهجرة، ترفع أصواتها بالاحتجاج والاعتراض مطالبة رجال الإصلاح فى سوريا ومصر بمراعاة منطوق ما تقرر فى مؤتمر باريس العربى فيما يتعلق بقبول أو نبذ الوظائف قبل تنفيذ «اللائحة» الإصلاحية، ولا سيما البند القائل بوجوب تعيين المستشارين الأجانب تنفيذا قطيعا، وعدم الاكتفاء بالقول والوعود.

وترجو هذه الجمعية من شقيقاتها اللجان الإصلاحية التصريح بهذا المبدأ علانية، واعتبار من يخالفه منفصلا عن جسمها، ليوقن المصلحون المخلصون فى كل قطر ومصر أن النهضة الوطنية لا تزال على حالها، ولا يؤثر فى مرماها الشريف تصرف أفراد، فلا تثبط العزائم الشديدة ولا تخور القوى العاملة فى هذا الجهاد المقدس الشريف.

فرد عليها رفيق بك العظم رئيس اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالجواب الآتى:

«اطلعت على الكتاب المرسل من قبل جمعية الاتحاد السورى، وفيه تجتج باسمها واسم فروعها فى بلاد المهجر على قبول الجمعيات الإصلاحية فى سوريا وبلاد العرب مايخالف قرارات مؤتمر باريس إلى آخر ماجاء فى الاحتجاج، فسرنى ثبات إخواننا فى المهجر على مبدأ المطالبة بالإصلاح سرورا لا مزيد عليه، إلا أننى رأيت فى الاحتجاج تسرعا فى الحكم على الإصلاحيين فى مصر. فأرجو أن يكون البيان الآتى وسيلة لإصلاحه من قبل إخواننا أعضاء الاتحاد السورى، وسببا لتأكيد حسن ظنهم بالإصلاحيين فى سوريا ومصر.

إن من جملة قرارات مؤتمر باريس أن لايقبل أحد من أعضاء الجمعيات الإصلاحية وظيفة إلا برضى جمعيته، ويظهر أنه بناء على هذا القرار قبل بعض الجمعيات ماعرضته الحكومة من تعيين أفراد من الإصلاحيين فى بعض المناصب العليا اعتمادا على ضرورة وجود المصلحين فى الوظائف لتطبيق قوانين الإصلاح التى تصدرها الحكومة، وافقت

مطالب الإصلاحيين أو كانت دونها، وسواء صح رأى هذه الجمعيات أو لم يصح، فإن جمعية اللامركزية فى مصر لم تشترك فى هذا الرأى إلا فى أمر واحد وهو الرضى بتعيين السيد عبد الحميد الزهراوى عضوا فى مجلس الأعيان، ولهذا السبب لا نخال منصفا يخالفنا فيه قط وإليكم البيان:

رأت الحكومة أن الحركة الإصلاحية فى سوريا وبلاد العرب صحيحة لا ريب فيها، وسواء علمت إن الإصلاحيين إنما يريدون مصلحة الدولة نفسها وأنهم حسنو النية والقصد أو لم تعلم، فإنها رغبت فى التفاهم مع جمعيات الإصلاح وطلابه، وهم كثيرون فى سوريا وبلاد العرب. بل وفى الآستانة نفسها، فتفاهمت مع مندوب الشبيبة العربية فى الآستانة، ومع غيره فى غيرها، ثم أرادت التفاهم مع جماعتنا الذين يديرون معظم الحركة العربية، فاستدعت إلى الآستانة السيد عبدالحميد الزهراوى فكانت اللجنة العليا بمصر تلح عليه بالبقاء خارج البلاد ريثما يستوثق من وعود الحكومة، ولما استوثق منها سافر إلى الآستانة وأخذ بالتفاهم مع الحكومة، فوضعت بعض مواد اتفاق باريس موضع الإجراء كمسألة وجوب معرفة الموظفين اللغة العربية، وبقيت هناك مواد وعدوا بتنفيذها تدريجيا فكان بقاؤه ضروريا ثمة لأجل المطالبة بتنفيذ بقية مواد الإصلاح، ولما عرضت مسألة الوظائف على بساط البحث وأرادت الحكومة أن تعين السيد الزهراوى فى الأعيان رأت اللجنة العليا أن ترضى بهذا التعيين ليكون واسطة لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة وماعدا هذا فإنه لم يعين أحد فى وظيفة من أعضاء اللجنة العليا، بل ولا من الحزب كله فى سائر البلاد وليس بين أعضاء اللجنة من يرضى بدون إصلاح قط.

عل أننا مادمنا طلاب إصلاح لاطلاب عنت أو وظائف فلا نرى من حسن الرأى أن تطلبنا الحكومة للتفاهم وتلين لنا القول، وتعترف لنا بالكثير من الحقوق التى لم تك ترضى أن تصغى لطالبها منذ سنين، ونرميها بالكذب ونباعد بيننا وبينها لغير سبب مالم يقم لنا دليل قاطع على أنها تفعل ذلك رياء لا صدقا، وإنها تفعل فى غد ضد ماتقوله اليوم، ومتى قام لنا الدليل على ذلك كان لنا معها شأن غير شأننا اليوم، وليس فى قرارنا على تعيين السيد الزهراوى فى الأعيان مانع يمنعنا من الاستمرار فى الخطة الصالحة لقومنا ووطننا متى ثبت لنا أنها تريد الوقوف عند هذا الحد من الإصلاح. كما أنه ليس فى تعيين السيد الزهراوى ما يوجب ريب إخواننا أعضاء جمعية الاتحاد السورى فيمن تظن فيهم الزعامة كما جاء فى احتجاجهم المذكور.

هذا إذا كان الاحتجاج يعنى فيما ورد فيه إخوانهم الإصلاحيين بمصر الذى أقوله عن نفسى وعن إخوانى هنا: هو أنه «ليس هناك شيئ يفصلنا عن حظيرة الإصلاحيين، وليس لأحدنا مطمع بغير الإصلاح الذى ننشده بكل وسيلة من الوسائل المشروعة والسلام».

ونرى من المفيد هنا أن ننشر فقرات من كتاب مطول كتبه السيد عبدالحميد الزهراوى يوم ١٦ يناير ١٩١٤ بعد الضجة التى قامت حول تعيينه إلى السيد رشيد رضا فى مصر يبسط فيه موقفه ويدافع عن سياسته قال:

«كنت قد فصلت لكم إذ جئت إلى باريس كيف وجدت أمر مؤسسى فكرة المؤتمر فوضى، وكيف تعبنا فى ستر الأمر وإيجاد المؤتمر مرونقا بتوفيق من الله فوق المأمول، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذى لفق تلفيقا، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين فذهبوا إلى بلادهم وبقيت ياعـزيزى وحدى أمـثل الفكرة، وبقى خليل زينيه وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإنما همهما بيروت وحدها لا شريك لها، ولكن لأنهما متعلمان سايرانى وسايرتهما وتوادنا جيدا حتى سفرى، ولم يك مثل هذا التواد ولا ربعة بينهما وبين رفقتهم البيروتيين المسلمين»

ثم قال «جئت بعد ذلك إلى استامبول لأرى ماجد فيها، لأن المعرفة بالقديم لا تغنى، والمعرفة عن بعد كثير من مأخذها غير صحيح ، وما أضر العلم المبنى على مأخذ غير صحيح. وبعد وصولى بقليل عرفت كثيرا من الأحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر، وكدت أظن أنى اكتفيت وأحطت كل الإحاطة، ولكن الآن تبين لى أنه لولا الصبر والتأنى اللذان مكننى الفاطر سبحانه وتعالى منهما، لرجعت بمعرفة غير كافية ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت إحاطتى وإنما أقول أصبحت يجوز لى أن أفصل وأشرح بشيئ من الطمأنينة، وأن تأخير هذا الشرح والتفصيل كان أنفع وجاء اليوم فى وقته».

الشرح هنا يتعلق بثلاثة مواضع:

١ ـ أوروبا والعثمانية

٢ ـ الاتحاديون وغيرهم

٣ ـ رجال الإصلاح الحقيقى وأبناء العرب هنا وفى الجهات الأخرى

وبعد ما تكلم عن الموضوع الأول بإيجاز انتقل إلى الثانى فقال «والاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة، وهم اليوم يتسلحون بعزائم ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب

الدولة بقدر ماتسمح لهم الظروف، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية، وينوون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان لأدلة كثيرة ظهرت لي. ولكني مرتاب من جهة قابليتهم تطبيق العمل على النية، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم، ويرجى أن تقوى قابليتهم فإن شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن إلى هذه الدرجة كما أشرتم إلى ذلك في كتابكم المرسل إلى الشيخ إسماعيل الحافظ فإني لا أخطئكم بالتخطئة لأني أجل رأيكم أكثر من رأيي، وإنما أرجو أن يكون في خطئ شيئ من البركة .. إلخ.

ثم تكلم بعد ذلك عن رجال الإصلاح وقال «ماأظنكم ـ استغفر الله ـ ماأعتقد أنكم في حاجة إلى بيان أن رجال الإصلاح الحقيقي غير كثيرين، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، وأعني برجال الإصلاح الحقيقي من جمعوا في موضوع الإصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ومن كثرت تجاربهم. ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم. ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين: الأول السبات الذي فيه الأمة، والثاني الجشع الذي فيه أوربا.

ثم تكلم عن أبناء العرب في الآستانة وقال أنهم ثلاثة أصناف. متاجرون، ومتعلمون ومأمورون، فالصنف الأول لا في العير ولا في النفير. والصنف الثاني أولاد في ناشئه العمر لايليقون للسياسة ولا تليق لهم. والصنف الثالث أربعة أقسام الضباط والموظفون وطلاب الوظائف والمتقاعدون.

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسألة البتة، والأولى عدم دخولهم فيها فإن هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا، ذلك أن عزيز بك على ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا وهو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له، لأنه على زعمه يؤخر حركات العرب ولا أدري ماهي حركات العرب وأين تسير؟ وهو يجتهد أن: يجمع حوله بعض الأولاد وينفرهم منا ومن صنعنا، ولكن لا ينجح بحوله تعالى، ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور وحينئذ يرضى عن كل شئ، فأنظر ياعزيزي إلى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا.

وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لايرضيهن شيء، ولا يستطعن عمل

شيء، وأما المأمورون المنصبون فلا هم لهم إلا حفظ مناصبهم.

وأما العرب فى الجهات الأخرى فهم أهل سوريا وأهل العراق وأهل الجزيرة فالسوريون والعراقيون حضر. ألفوا الذل وتعودوا الاستخذاء والاستكانة. لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا، لا يهبون ولايروق لهم أن يوقظوا، وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الأهل وقاهم الله كل شر وشد سواعدهم، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم.

أنظر ياعزيزى أنا لازم لهناك كما تشير ولازم إلى هنا، فإن هنا محل عمل ليس بقليل. فإنى أرجو أن يكثر بوجودى هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم فإن رضيت عن هذا الرأى فعليك عملان معجلان، وعمل يمشى مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر، فالأول من المعجلين تبشيرى ببرقية عن رضائك خاصة - وهو الأهم - ورضاء الرفاق عامة - وهو المهم - والثانى حملك الرفاق على تقديم برقية للصدارة يحبذون فيها هذا التعيين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقية، أما الثالث فهو مابيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر مايساعد الزمان والمكان لبث الإصلاح العلمى والعملى.

هذه هى الخلاصة المفصلة. أما خلاصة الخلاصة وهى: إن اليأس لايجوز بحال من الأحوال، ولكن الأمة فى كل أطرافها ليست فى حالة يعتمد عليها فى شيئ، وأنه مع هذا لا يجوز أهمالها، وكذا لا يجوز إهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم لوحدهم، وإنه لابد لنا من رجال هنا، وإن أكثر مايتصرف به الرواة من الأخبار غير صحيح، وأنى منتظر أمركم بسرعة واقبلوا..

و - جمعية العهد

أنشأ هذه الجمعية فى الآستانة البكباشى عزيز على المصرى يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ بعدماضم إليه نخبة من ضباط العرب فى الجيش العثمانى هذه أسماء بعضهم: محمد إسماعيل الطباخ، ومصطفى وصفى، وسليم الجزايرى، ونورى السعيد، ويحيى كاظم أبو الشرف، وعارف التوام، ومحيى الدين الجبان، وعلى النشاشيبى، وياسين الهاشمى، وطه الهاشمى، وجميل المدفعى، وتحسين على، واسماعيل الصفار، وعلى رضا الغزالى،

ومولود مخلص، وأمين لطفى الحافظ، وعلى جودت الأيوبى، وعبدالله الدليمى، والدكتور عبدالقادر سرى.

وهذه الجمعية سرية فى الأصل ، وقد أقسم أعضاؤها على أن لا يبوحوا بشيئ عنها وأن يعملوا لإدراك أغراضها وهذا نص برنامجها:

١ ـ إن جمعية العهد جمعية سرية أنشئت فى الآستانة وغايتها السعى للاستقلال الداخلى لبلاد العرب. على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا.

٢ ـ ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدى آل عثمان.

٣ ـ لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وأن الشرق لايعيش إذا اقتطعتها دولة أجنبية فهى تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها.

٤ ـ لما كان الترك يؤلفون من ٦٠٠ سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب فعلى العرب أن يعملوا للحصول على مايؤهلهم لأن يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر.

٥ ـ على رجال العهد أن يفرغوا قصارى جهدهم فى إنماء المزايا المحمودة، وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة، فالأمة لا تحتفظ بكيانها السياسى القومى ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القويمة».

ولقد أحدث إنشاء هذه الجمعية ضجة شديدة فى دوائر الآستانة لما عرف به منشئوها من الصلابة والقوة، ولأنها ولدت فى ظرف توترت فيه العلاقات بين الاتحاديين والشبيبة، فلقيت تأييدا من الشبان والضباط العرب الذين التفوا حولها، وأنشأوا لها فرعين فى بغداد والموصل، وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تخشاها، وتحسب حسابها، وتفرق رجالها قبل أن يشتد ساعدها.

ففى يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٤ عقد اجتماع خاص فى دار وزارة الحربية بالآستانة حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، ومحافظ الآستانة العسكرى أحمد جمال باشا، وذلك قبل أن يعين لوزارة البحرية ومدير الأمن العام عزمى بك فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة، وجمعية العهد عامة وقرروا المواد الآتية:

١ ـ إقصاء ضباط العرب المقيمين فى الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا، ينتمى ٣١٥ منهم للعهد إلى المناطق التركية، وهى تراقية والأناضول فلا يعود فى إمكانهم القيام بأى عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

٢ - تولية القيادة فى البلاد العربية إلى الضباط الترك، وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الإمكان.

٣ - الإسراع فى تنفيذ سياسة تتريك العناصر

٤ - يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر

٥ - مقاومة الحركة الإصلاحية التى ظهرت فى بيروت وباريس

٦ - إلغاء الأحزاب العربية كلها، وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية، وتدبر الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال، وترقب حركاتهم بدقة زائدة

٧ - إقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الآستانة، واستمالة من يمكن استمالته منهم

٨ - تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية، والإكثار من المنتسبين إلى أنديتها.

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد اقصاء الضباط العرب، وقد أقصوا فعلا غداة صدور هذا القرار. بل أصدرت يوم ٩ فبراير من تلك السنة أمرًا بالقبض على عزيز بك وأحالته إلى المحكمة العسكرية متهمة إياه بأنه أساء التصرف فى ٣٠ ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حين مغادرته طرابلس الغرب وطلبت منه حسابا عن طريقة انفاقها وعن سياسته فى اليمن وطرابلس الغرب، والمفهوم أن أنور باشا كان ينوى إعدامه لزعامته حركة الضباط العرب، ولينتقم منه لعدم تنفيذه الأوامر التى كان يصدرها إليه حينما كانا فى طرابلس الغرب يحاربان إيطاليا فى ابتداء غارتها عليها.

ولقد أثار اعتقال عزيز بك على هذا المنوال وتقديمه إلى المحاكمة وقد حكمت عليه بالإعدام ضجة شديدة بين العرب فى الآستانة خاصة، وفى جميع بلاد العرب عامة. وأقيمت المظاهرات والاحتجاجات. فاضطرت الحكومة إزاء ضغط الرأى العام وتشدده إلى إصدار عفو عنه. فأطلق سراحه على أن لا يقيم فى الآستانة، وأن لا يتدخل فى الشؤون السياسية العثمانية، وقد جاء على الفور إلى مصر.

س - الجمعية القحطانية فى مصر

كان حقى العظم السكرتير العام لحزب اللامركزية فى مصر يطمع فى منصب سام

فريق من قدماء المشتغلين بالحركة العربية



رفيق العظم — طالب النقيب — نسيب البكرى

توفيق السويدى — الدكتور أحمد قدرى — الدكتور إسماعيل الصفار

محمد الشريقى — شريف الفاروقى — عبد الغفور البدرى

يقلده فى الدولة العثمانية بعد اتفاق الآستانة، باعتباره من رجال الإصلاح والعاملين له، فلما عين السيد الزهراوى لعضوية مجلس الأعيان وعين غيره لوظائف كبيرة، ولم يفكر أحد فيه، ثار ثائره على السيد الزهراوى والقائلين بقوله من دعاة التفاهم مع الدولة وأنصار سياسة التدرج، وحمل على هؤلاء حملات شديدة فاقصاه حزب اللامركزية عن حظيرته فازداد حقدا على حقده. وألف جمعية أسماها الجمعية القحطانية بالاشتراك مع الشيخ فؤاد الخطيب. وكان يتردد على مصر فى زمن العطلة الصيفية قادما من الخرطوم حيث يدرس اللغة العربية فى كلية غوردون، وانضم إليهما الدكتور عزت الجندى، وكان أيضا من الموتورين الناقمين. وكان شعار هذه الجمعية مقاومة الترك، وتحريض العرب على الثورة والانتفاض، وكانت توزع المنشورات بلا انقطاع على البلاد العربية فتوقعها تارة باسم الجمعية القحطانية، وتارة باسم الجمعية الثورية. والاثنان لمسمى واحد. ولعل السبب فى تسميتها بالجمعية الثورية ما جاء فى أحد منشوراتها وكانت توزعها بالألوف كما قلنا:

«أيها العرب عموما: اعلموا أنه تأسست جمعية فدائية تقتل كل من يقاتل العرب، ويقاوم الإصلاح العربى. ماهو الإصلاح على مبدأ اللامركزية الذى يطلبه البعض مع التابعية لغلمان الآستانة؟ يجب أن نعمل على مبدأ الاستقلال التام، وتأليف دولة عربية لامركزية تعيد سالف مجدنا الغابر، وتحكم البلاد بالحكم الذاتى فى كل مقاطعة بما يليق بها، وتبدأ عملها بإزالة وجود بعض الثعالب المتزلفين من العرب الذين كانوا ولايزالون سببا لدوس الحقوق تحت أقدام أولئك الغلمان السفاكين، وسيرى العالم ذلك عند مايشرعون فى تنفيذ ما أعدوه لنا من المهالك».

ح - جمعية الجامعة العربية

أنشأ هذه الجامعة فى القاهرة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء بعد عودته من رحلته إلى الآستانة سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ وقد رجع منها معتقدا بعدم إمكان دوام اتحاد العرب والترك. وقد رمى إلى غرضين: أولهما - السعى لاتحاد حلفى بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق. وثانيهما التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإيجاد صلة بين الجمعيات العربية والسورية والعراق وغيرهما.

وهذا نص القسم الأول الذى وضعه لها السيد رشيد مؤسسها. إذ كانت خاصة بالأمراء والزعماء، وكلهم من المسلمين.

«أقسم بالله العظيم القهار، المنتقم الجبار، العالم بسرى وعلانيتى، القادر عل سلبى كل ماأعطانى من المواهب والقوى، وبكتاب الله المجيد أننى أبذل جهدى وما فى وسعى لجمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم، بحسب القواعد التى وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية، التى انتظم فى سلكها اليوم. وأننى أسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والاخلاص، وأننى لا أبخل فى سبيل ذلك بمالى ولا بنفسى ولا يلفتنى عنه هواى وحظى الشخصى ولاحظ أحد من أهلى وولدى، وأننى أحافظ عل مقاصد الجمعية وأسرارها بأشد ما أحافظ به على دينى وشرفى وعرضى. فلا أفشى لها سرا، ولا أعارض لها عملا، ولا أقول ولا أعمل عملا يخالف مقاصدها أو يحدث فيها خللا أو يوقع فيها فشلا لعلة من العلل أو سبب من الأسباب، وأننى أقوم بكل عمل يلكفنى إياه مركزها العام من مقاصد هذه الجمعية أو وسائلها بحسب استطاعتى ، على عهد الله وميثاقه لأبر بقسمى هذا بلا تأويل ولا عذر ولا كفارة، وإن حنثت بشىء مما تضمنه أو غدرت أو أفشيت سرا أو قلت أو فعلت مايضر هذه الجامعة أو أحدا من العاملين لها أو يخل بشئ من مقاصدها فعلى إثم من حقر اسم الله ونبذ كتاب الله وبرئ من الدين والشرف ومن ذمة العرب، واستحق انتقام الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين وانتقام الجامعة العربية وكل من يغار على ملته وأمته، وكان من من الخائنين والملعونين إلى يوم الدين والله على ما أقول شهيد».

وقد عدل هذا القسم بعد الحرب العظمى.

وكاتب السيد رشيد الإمام يحيى بن حميد الدين والإمام عبد العزيز السعود والسيد محمد على الإدريسى باسطا أغراض الجامعة وغايتها. فكتبوا إليه موافقين ومحبذين، كما اجتمع إلى الإمام الأمير عبد الله بن الحسين خلال زيارته لمصر، وأدخله عضوا فيها، وأقسم اليمين بين يديه وكان من أعضاء الجمعية العاملين بمصر قبل الحرب الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، ورفيق العظم، ودخل فيها بعد إعلان الحرب الدكتور عبد الرحمن شهبندر وشريف الفاروقى وغيرهم.

ـ ٤ ـ

النضال الداخلي بين العرب والترك

انقسام الاتحاديين إزاء الحركة العربية ـ تدابيرهم فى سوريا ـ جمال باشا فى دمشق ـ العرب يؤيدون الدولة

ما كان زعماء جمعية الاتحاد والترقى ومن يواليهم ويؤيدهم من دعاة الطورانية يعطفون على الحركة العربية الجديدة، إذا لم نقل أنهم كانوا يوجسون خوفا من نتائجها، ويرون فيها خطراً على الدولة يجب الإسراع فى درئه، قبل استفحاله وتفاقم خطره.

على أن واجب الانصاف يدعونا إلى الاعتراف بأنهم ما كانوا سواسية فى هذا الرأى، فقد كان منهم من يميل إلى تطبيق الإصلاح وتنفيذه من دون نظر إلى أشخاص المطالبين به لشدة حاجة البلاد إليه، كما كان بينهم من يقول باسترضاء العرب، وأخذهم باللين والمسالمة فلا يخرجوا على الدولة أو ينفضوا من حولها، أما فريق الغلاة والمتطرفين فيقول بالبطش والتنكيل ويدعو إلى مقاومة الحركة الجديدة والقضاء عليها.

ولقد كان السيد عبد الحميد الزهراوى أول من تنبه إلى وجود هذا الاختلاف فى الرأى بين أقطاب الجمعية بشأن القضية العربية فقال فى حديث صحفى «إن بين أقطاب الاتحاديين خلافا حول مطالب العرب فبعضهم يرى قبولها وتنفيذها، ويرى آخرون غير ذلك».

ويمكن القول أن أقطاب الجمعية كانوا ينقسمون إزاء المسألة العربية إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ فريق يقول بمنحهم استقلالا داخليا فى داخل إمبراطورية طورانية للترك فيها المقام الأول، وزعيم هؤلاء أنور باشا[1] وبينهم الصدر الأعظم سعيد حليم باشا وشقيقه عباس حليم باشا وجاويد بك وزير المالية يومئذ.

٢ ـ فريق الطورانيين الغلاة ويقول بأخذ العرب بالشدة: وتتركيهم والتنكيل بزعمائهم ومفكريهم. ومن القائلين بهذا الرأى أحمد جمال باشا وحسين جاهد بك صاحب جريدة طنين والدكتور ناظم بك وأحمد رضا بك رئيس مجلس النواب، والمعلم ناجى وطلعت الصغير.

١ ـ يقال إن من جملة ماكان يفكر فيه هذا إصدار جريدة باسم «جهان» باللغات الأربع: العربية والتركية والفارسية والأوردية لنشر الدعوة لهذا المشروع فى العالم الإسلامى، وقد دعى الأستاذ حامد المليجى المصرى لتحرير القسم العربى. ولم يتم تنفيذه

٣ ـ فريق المعتدلين وهو أقلية، ويقول بالتساهل مع العرب، ومنحهم لا مركزية نوعية تنفذها الحكومة مباشرة من دون أن تستعين برجال الإصلاح، وزعيم هؤلاء طلعت باشا، ولما كانت الدولة منهوكة القوى، مهدودة الحيل في تلك الأيام لأنها كانت خارجة من حربين (الطرابلسية والبلقانية) فقد اتفق هؤلاء وهؤلاء على مصانعة رجال الإصلاح واستمالتهم، بيد أنها ما لبثت أن تنكرت لهم حينما تنفست الصعداء، واستردت جانبا من قوتها ونفوذها وبدأت فألبت عليهم العناصر الموالية لها من العرب، وبعضهم من ذوى النية الحسنة، وعملت على أن تسترد بالشمال ما منحته باليمين، وإليك حوادث مادية لا يمترى في صحتها، ولا تدع شكا في صحة هذا الاستنتاج:

١ ـ بينما كان الإصلاحيون يعقدون مؤتمرهم في بارس، تألف في دمشق حزب دعى حزب الإصلاح الحقيقي وقد جاء في بيانه ما نصه:

«كل منا يطلب الإصلاح ويريده، وكل منا يسعى وراءه ويجتهد للحصول عليه، غير أننا لم نر من الكياسة والحزم أن نقوم في وجه دولتنا العلية التي نتفيأ نعيمها وخيراتها في نكبتها الأخيرة بعد أن تألبت عليها دول البلقان، بمساعدة الأعداء فأنزلوا بها الويلات والمحن، ولكن الأمر الذي دعانا إلى المطالبة الآن هو قيام فريق لافي العير ولاالنفير في أيام محنتها بحجة المطالبة بالإصلاح، وهم يريدون الكيد لها وتمهيد الطريق لاستيلاء الأجانب عليها وعلى بلادها، وأسطع برهان على ذلك أنهم ذهبوا إلى فرنسا لعقد مؤتمرهم في عاصمتها وهذا مادعانا لتأسيس حزبنا لنضرب على أيدى هؤلاء الخونة المارقين، ونطلب الإصلاح من حكومتنا العلية بلا واسطة، ونعقد مؤتمرا في عاصمة بلادنا المحبوبة» ورئيس هذا الحزب محمد فوزى باشا ومن أعضائه عبد الرحمن اليوسف والأمير شكيب ارسلان والشيخ أسعد الشقيرى والدكتور حسن الأسير وطه المدور، وقد ذهبوا إلى الآستانة فعلا وانضموا إلى الشريف على حيدر باشا والشريف جعفر باشا والشيخ سليمان الباروني والشيخ عبدالعزيز جاويش والشيخ صالح التونسي وعبد العزيز الثعالبي ويوسف شتوان والشيخ اسماعيل الصفايحي التونسي وغيرهم من الذين كانو يرون وجوب تأييد الدولة وشد أزرها في كفاحها الخارجي، وعدم أزعاجها بإثارة مشاكل داخلية. وقد شنوا غارة كبيرة على طلاب الإصلاح في عاصمة السلطنة وشوهوا سمعتهم في نظر الرأى العام التركي وأظهروهم وهم بمظهر المأجورين للأجانب. المتطوعين في خدمتهم. العاملين على تسليم البلاد إليهم.

٢ - أقال الاتحاديون على أثر اغتيالهم ناظم باشا يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١٣ وإسقاطهم وزارة كامل باشا، واستيلائهم على مقاليد الحكم - أقالوا أدهم بك والى بيروت الائتلافى وأحد أنصار الحركة الإصلاحية وعينوا حازم بك أحد رجالهم خلفا له،وكان أول ما عمله حل الجمعية الإصلاحية فى شهر مارس من تلك السنة بموجب البلاغ الآتى:

«بما أن الجمعية التى تألفت من شهر ونصف من بعض الذوات فى بيروت باسم الجمعية العمومية الإصلاحية، والتى أتفق أن أعطى لها إيصالا من مقام الولاية قد كان تأليفها مغايرا لما نص عليه صراحة فى قانون الجمعيات. فضلا عن أن بين المطالب التى يطالب بها هؤلاء باسم الإصلاح ماهو مناف لأحكام الدستور. وبناء عليه فكان من الطبيعى منع اجتماعها.

«ولقد شرعت الحكومة بتطبيق قانون إدارة الولايات الذى أعدته طبقا لمبدأ توسيع السلطة، وتوسيع الوظائف طبقا لما تص عليه فى المادة ١٠٨ من الدستور وصدرت إرادة الحضرة السلطانية بمراعاة أحكامه. فجاء محتويا على المساعدات الواسعة التى تتطلبها الإصلاحات المطلوبة لبيروت وسائر الولايات العثمانية، ومتضمنا لأحكام خاصة تضمن الاحتياجات المحلية لكل ولاية ، ومن الثابت أنه إذا وجدت نواقص فى هذا القانون وهو يضمن تحقيق الإصلاحات التى تود الحكومة السنية انفاذها بإخلاص عند تطبيق بعض أحكامه الفرعية. فلا شك أنها تتم هذا النقص بالاشتراك مع مجلس الأمة، وسيجتمع قريبا إن شاء الله.

«والخلاصة أنه قد منع بموجب أحكام القانون اجتماع هذه الجمعية، وليس لها كيان ذاتى قانونى، ولم يبق حاجة لدوامها بعد الآن، وإذا حاول القائمون بها الاجتماع خلافا للمأمول، فتضطر الحكومة إلى إجراء ما يقتضيه القانون بحقهم من المعاملات».

وقابل البيروتيون هذا التدبير الحكومى بالاحتجاج فصدرت صحفهم بيضاء يوم نشره لا تحمل سواه مجللا بالسواد فعطلتها الحكومة، وحاكمت بعض رجالها. فأضربت بيروت ثلاثة أيام احتجاجا على هذه المحاكمة، واشتد النضال بين الحكومة ورجال الإصلاح، ولم يقف إلا بعد عقد اتفاق، وظهور الاتحاديين بمظهر الراغب فى الإصلاح والوفاق.

٣ - إقصاء الضباط العرب وإرسالهم إلى الأقطار التركية النائية ومنع استخدامهم فى

بلادهم.

٤ ـ تعزيز مقام جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية، وإنشاء الأندية والفروع لها والاستكثار من الأنصار، وتحامل هؤلاء على رجال الإصلاح وطلابه، وتشويه سمعتهم فى نظر أمتهم ونظر العرب.

٥ ـ تدخلهم فى الانتخابات النيابية التى جرت سنة ١٩١٣ وعدم وفائهم بما عاهدوا عليه من ترك الانتخابات حرة فى بلاد العرب، وإخراج ٧٠ نائبا عربيا. فقد فرضوا النواب فرضا على البلاد، ومعظمهم من الترك أو المتتركين ـ وإذا استثنينا نواب ولايتى بيروت والبصرة وبعض نواب ولاية دمشق. فمعظم النواب الآخرين من الذين عينهم الاتحاديون، ولم يخرجوا سوى ٥٠ نائبا لبلاد العرب بدلا من ٧٠.

٦ ـ بينما كان عزيز بك على زعيم الضباط العرب يقاسى الآلام فى الآستانة، وقد تمثل شبح الموت بين عينيه ـ كان أمير الآلاى وهيب بك الألبانى وهومن المعروفين بكره العرب وبغضهم، وقد اشتهر بالخطبة التى خطبها تلك الأثناء فى وزارة الحربية وقال فيها: «إن فى استطاعته اكتساح سورية بستة أورط تركية والقضاء على كل حركة عربية» يقطع الطريق إلى مكة لتقلد منصبه الجديد، وإلى الحجاز وقائده العام ـ وقد زوده الاتحاديون بتعليمات تقضى بالقضاء على كل ما للشريف من نفوذ ومقام واغتياله إذا لزم الأمر، وأمدوه لتنفيذ هذه الخطة بسبعة أورط وآلاى مدفعية، ووعدوه بإجابة كل ما يطلبه.

ووصل وهيب بك إلى مكة فى شهر فبراير سنة ١٩١٤ يحمل تعليمات صريحة بإلغاء كل ما للحجاز من امتيازات محلية نشأت عن وضعه الجغرافى والاقتصادى والدينى، وإفراغه فى شكل ولاية عادية، وتطبيق قانون الولايات الجديدة فى أرجائه، وإنشاء سكة حديدية بين المدينة ومكة.

وزيادة فى البيان نقول إن الحجاز ما كان يدفع ضرائب للحكومة بسبب فقره وشدة حاجة أهله، وكانوا معفيين أيضا من الخدمة العسكرية حرمة لبلادهم. كما كانوا يحكمون بنظام عرفى تواضعوا عليه من زمن طويل لشريف مكة فيه المقام الأول، فلما قبض الاتحاديون على زمام الأمر فى الدولة بعد الحرب البلقانية وتقلد أنور باشا وزارة الحربية وجمال باشا وزارة البحرية، واتجهت النية إلى مقاومة الحركة العربية والتخلص من رجالها

كان إلغاء شرافة مكة فى مقدمة الأغراض التى رموا إليها فيتخلصوا من قوة عربية كبيرة كانوا يخافونها. وقد هز هذا التدبير الحجاز وأقلق سكانه وكاد يجر إلى فتنة عمياء لو لم تسرع الحكومة إلى تلافيها بالايعاز إلى وهيب بالكف عن خططه وتدابيره

وكذلك أرسلوا إلى البصرة قائدا قوى الشكيمة اسمه فريد بك للقضاء على الحركة الإصلاحية فى العراق والفتك بزعيمها السيد طالب النقيب، وقد فصلنا ذلك من قبل كما بدأوا يعدون العدة لارسال حملة كبيرة بقيادة جاويد باشا لفتح العراق فتحا جديدا، وضرب عشائره العربية ضربا قاضية. ولولا مفاجأة الحرب العظمى لهم لما توانوا، وهكذا فقد اختاروا لكل قطر عربى واليًا أو قائدًا من أكفأ رجالهم لمحاربة الحركة الجديدة. سواء بمقاومتها مقاومة غير مباشرة بتأييد العناصر المعادية لها، أو أساليب أخرى تبعا لظروف الزمان والمكان.

ولقد أثرت هذه العوامل والاعتبارات الإيجابية فى نفوس العرب. سيما بعد ما امتزجت بها عوامل سلبية أخرى ذات شأن. فقد نشطت فى هذا العهد الدعاية الطورانية نشاطا مشهودًا. فصدرت فى الآستانة كتب تركية مختلفة حملت مطاعن جارحة فى عظماء الإسلام العرب، وقام خطباء الترك يدعون إلى نبذ كل ما هو عربى، وإحياء كل ماهو طورانى، ونكتفى بإيراد فقرة كنموذج لما قالوه وكتبوه تحت سمع الحكومة الاتحادية وبصرها إثباتًا لدعوانا:

فقد عبيد عبيد الله أفندى أحد شيوخهم كتابًا سنة ١٩١٣ سماه «قوم جديد» وطبعه ونشره رمى فيه إلى تنفير الترك من الدين الإسلامى وإقصائهم عن حظيرته القدسية، ومما قاله منتقدا وضع أسماء الصحابة الكرام فى المساجد «ماهذا الجهل ما هذه الغفلة التى استولت عليكم، تعلقون أسماء خلفاء العرب فى مساجدكم، ولا تذكرون بالاحترام أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة إلخ»

وقال فى مكان آخر: «ياللحيرة من عقولكم واعتقاداتكم تتركون تقديس سلطان قوى الشوكة كحضرة الفاتح (السلطان محمد الفاتح) صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، وتوجهون احترامكم لشخص خيالى موهوم كالخضر». إلخ

وقال فى مكان آخر: إن الشبيبة التركية لا تنكر الصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة، ولكنها لا تعدها من أركان الدين التى استخرجتها من أحكام القرآن والأحاديث

وهي:

١ ـ العقل

٢ ـ كلمة الشهادة الحسنة

٣ ـ الأخلاق الحسنة

٤ ـ الجهاد والحرب مالا وبدنا

٥ ـ السعي لإعداد معدات الحرب

وألف الكاتب التركي جلال نوري كتابا سماه «تاريخ المستقبل» قال فيه «يجب على الحكومة أن تكره السوريين على ترك أوطانهم، وأن تحول اليمن والحجاز إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية، التي يجب أن تكون لغة الدين، ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية. لأن النشء العربي الحديث صار يشعر بعصبية جنسية، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها»

وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك مجلة تركية اسمها «اجتهاد» لصاحبها الدكتور عبد الله جودت جعلت تنفير الترك من الدين الإسلامي والتحامل على العرب دأبا لها وديدنا مما زاد في استياء هؤلاء ونفرتهم، على أن إعلان الحرب العظمى فجأة في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وإسراع الدولة إلى حشد جيشها، ثم اضطرارها إلى خوض غمرتها في جانب الألمان عملا بإحكام معاهدة التحالف المعقودة بينهما جعل رجال العرب يطيلون البحث والتفكير في الخطة التي يسيرون عليها خلال المرحلة الجديدة فرأوا بعد إنعام النظر والإحاطة بالموقف العام أن يؤيدوا الدولة في نضالها ويشدوا أزرها في كفاحها فلا تسقط تحت سنابك خيل الغزاة من الأجانب وهم لم يطالبوا بالإصلاح ولم يتجشموا الأهوال والمصاعب في سبيله إلا لمقاومة كل احتلال أجنبي وإتقائه، ويصونوا بلادهم من أن ينتهك كرامتها الأغيار، وهكذا تدافع العرب وفي مقدمتهم عرب سوريا إلى تأييدها، رجالاوشيوخًا وشبانا وفتيانا متغافلين عن كل اعتبار حزبي ونزعة قومية، جاعلين مصلحة الوطن فوق كل مصلحة، وافتتحت التعبئة العامة للجيش في بلاد العرب من دون حادث يذكر. وتسابق زعماء الإصلاح إلى تأييد الحكومة والانضواء تحت علمها. وننشر هنا نص كتاب كتبه عبد الكريم الخليل من الآستانة إلى أحد أصدقائه يوم ٦ أغسطس سنة ١٩١٤

---

١ ـ سافر عبد الكريم يومئذ إلى سورية بناء على اقتراح زعماء الاتحاديين، وفي مقدمتهم جمال باشا نفسه ليضمن للحكومة ولاء العرب وإقبال شبانهم على التجنيد.

أى بعد إعلان التعبئة العامة فى تركيا بأربعة أيام قال[1]:

أيها العزيز/

أنا على وشك السفر إلى سوريا، لأن التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءا لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده فى سبيل تنفيذها على أحسن مايرام. وستكون مهمتى فى سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة، والسعى لمنع كل مايحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية. وقد وعدتنى الحكومة أن تشد أزرى فى هذه المهمة وتجيبنى إلى كل المطالب العادلة باسم الأمة العربية، أو باسم الأحرار من أبنائها. فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية، وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها. لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنا وأعلى مقاما».

وكتب أحمد مختار بيهم من بيروت يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٤ أى قبيل دخول الدولة الحرب ببضعة أيام إلى صديق له فى مصر يقول:

«يخيل لى أن الحرب واقعة لامحالة بين الدولة العليا ودول الحلفاء. والأمل عظيم جدا بأن تكون حربا قومية ظافرة تعوض الدولة من الخسارة التى منيت بها فى السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين فى نظر العالم، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية. لأن المصلحة المشتركة تقضى بذلك، وسوف يرى إخواننا الترك، ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب مايظهر لهم عظيم إخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك، ونحن الآن على أحسن مايرام مع حزب الحكومة الذى أظهر وطنية عظيمة فى هذه الأزمة الشديدة، وسنظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد. فكن على ثقة بإن سورية ستكون فى إبان الحرب أحسن منها قبلها فلا يقع ما يكدر من جانب الأهلين مادمنا أحياء»

جمال باشا فى سوريا

قسمت الامبراطورية العثمانية إلى ست مناطق عسكرية أضيفت كل منطقة إلى الجيش المرابط فيها. فكان الجيش الأول فى الدردنيل وقد تقلد قياده المشير ليمان فون ساندرس باشا الألمانى، وجعل مركز الجيش الثانى فى الآستانة، والجيش الثالث على حدود البلقان،

أما الجيش الرابع فكانت دمشق مقره. وكانت دائرة نفوذه العسكرية والإدارية تشمل البلاد الممتدة من جنوبى طوروس حتى اليمن - أى أنها كانت تضم ولايات أطنة وحلب والشام وبيروت وجبل لبنان والقدس والحجاز أى مقاطعات كيليكية وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز.

وتولى الفريق زكى باشا الحلبى، وهو عربى قيادة هذا الجيش فى ابتداء الحرب فتمت التعبئة فى عهده، ووضعت الخطط العسكرية تحت إشرافه، على أنهم مالبثوا أن أبدلوه بأحمد جمال باشا وزير البحرية يومئذ، وأحد أقطاب الاتحاديين، فغادر الأستانة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٤ قاصداً دمشق بطريق الأناضول وأطنه وحلب فبلغها يوم ٥ ديسمبر ودخلها باحتفال رسمى، أما زكى باشا فعين ياورا للامبراطور غليوم - أى أنهم أخرجوه من خدمة الجيش العامل.

وتقرب جمال باشا فى ابتداء هذا الدور من الإصلاحيين، وسعى لاستمالتهم. فاتصل برجالهم وزعمائهم وقربهم إليه وأدناهم منه فاتخذ الدكتور عبد الرحمن شهبندر طبيبا خاصا له، كما فتح أبوابه فى وجه عبد الكريم الخليل؛ فكان يدخل ويخرج أى وقت أراد، ونفح محمد كرد على مبلغا كبيرا من المال باسم جريدة المقتبس وجاد بمثل ذلك على عبد الغنى العريسى صاحب جريدة المفيد - وكلتا الجريدتين من أعظم صحف الإصلاحيين يومئذ - فانضما إلى الحكومة عملا بالخطة المرسومة. ودعا فى أوائل شهر يناير سنة ١٩١٥ إلى حفلة أدبية أقيمت فى النادى الشرقى لتكريم الشيخ عبد العزيز شاويش وحضرها شبان العرب ورجالهم، ولما جاء دوره وقف وخطب قائلا:

«يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية. أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التى وجدت قبل الإسلام. عضوا على عربيتكم بالنواجذ، ودافعوا عنها بكل قواكم. اعملوا على ترقية العرب والعروبة. جددوا مدينتكم . قوموا قناتكم . كونوا رجالا كاملين.

« إن البرنامج الذى عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب لأوسع كثيرا مما قد يخطر ببالكم، ولست لأوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد . بل من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين».

«ويجب علينا أن نعمل كثيرا لإدراك هذه الغاية. فنطرد قبل كل شىء من صفوفنا أولئك

المنافقين الذين باعوا وطنهم للعدو ونضيق الخناق على الذين يعملون لمصلحته»

ثم قال «واليوم أراني قادرًا على أن أؤكد لكم أن الأماني التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقا، فالترك والعرب ليسوا سوى إخوانا في غايتهم الوطنية، وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إن غرض رجال تركيا الفتاة هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل، وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم»

«وإني أناشد الشبان العرب والترك قائلا:

إن هذين الشعبين مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلون فيها، فالنزاع والخلاف بين عمودي الإسلام لابد أن يؤدي إلى سقوط ذلك الدين، ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافي.

«وإنه لمن أشد بواعث الأسف والحزن أن تنجح المحاولات الشيطانية التي يحاولها أعداء الدين والوطن في بذر بذور الشقاق بيننا. فعلى الترك والعرب أن يحبوا بعضهم بعضا فيجنوا ثمار مجهوداتهم المشتركة. وإني محذركم عواقب التخاذل فإنه مؤد حتما إل استعبادكم وإفنائكم»

وفي نفس الليلة التي خطب فيها هذه الخطبة أصدر أمرًا عسكريًا بتفريق كتيبة ضباط العرب الشبان في دمشق وعددها ٨٠ شابًا من خريجي المدارس العالية. وقد جاءوا بهم على أثر إعلان الحرب العظمى ودربوهم ليكونوا ضباطًا. فقد أزعجته أناشيدهم الوطنية الحماسية في تلك الحفلة. فأمر بحل الكتيبة وإرسال رجالها إلى ميادين القتال في الدردنيل والقوقاز والأماكن النائية، وبأن يوضعوا في خطوط النار فنفذ أمره. ولم ينج من رجالها سوى أفراد قلائل.

وغادر دمشق بعد ذلك إلى القدس ليشرف على إعداد المعدات لحملة القناة، وقد باءت بالفشل على إثر هجوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ فعاد إلى القدس وأقام فيها معلنا أنه يعمل لإعداد حملة أخرى، وشاعت إشاعات عديدة في دمشق عن فشل الجيش وانكساره فسافر الدكتور عبد الرحمن شهبندر وعبدالكريم الخليل إلى القدس في شهر إبريل سنة ١٩١٥ بدعوة منه وقابلاه فألفياه مضطربًا، فأخبرهما أن حالة الجيش على مايرام، وإنه لا محل للتشاؤم مطلقًا، وكلفهما إبلاغ ما شهداه إلى إخوانهما.

وبينما كانت الأحوال تسير على هذا المنوال، وكان الهدوء يرفرف على بلاد العرب

والتعاون على أتمه بين الحكومة والشعب فوجئ الناس فى أواخر شهر يونيو سنة ١٩١٥ بنبأ اعتقال عبد الكريم الخليل وعدد آخر من دون إبداء أى سبب. فوجموا واضطربوا ووقفوا يرقبون نتائج التحقيق، وكان يدور سراً فى عالية أمام المجلس العسكرى «ديوان الحرب العرفى» وكان الاعتقاد السائد بأنه لابد أن يطلق سراحهم عاجلا لعدم وجود ما يستوجب إدانتهم، على أن دهشتهم كانت أعظم حينما عرفوا إنهم علقوا على أعواد المشانق فى بيروت صباح ٢١ أغسطس سنة ١٩١٥ بقرار أصدره ديوان الحرب وصدق عليه جمال باشا وهذه أسماؤهم:

عبد الكريم الخليل وصالح حيدر ومسلم عابدين ونايف تللو محمد المحمصانى ومحمود المحمصانى وعبد القادر الخرسا ومحمود العجم وسليم عبد الهادى ونور الدين القاضى وعل الأرمنازى.

وإليك ماجاء فى كتاب الايضاحات السياسية، وقد أصدره جمال باشا عن هؤلاء (ص ١١٥ ـ ١٢١)

١ ـ عبد الكريم الخليل: كان مع رضا الصلح فى كل تحريكاته أثناء الحرب العامة، وخلاف ذلك فإنه كان من الداخلين فى جمعية اللامركزية وفى تشكيلاتها السرية وسافر إلى مصر واشترك فى مذاكرات اللامركزية

٢ ـ صالح حيدر: كان رئيسا لبلدية بعلبك، وهو ذو نفوذ وسطوة فى المنطقة التابع لها ووجوده على رأس بلدية بعلبك ساعده على تعزيز موقف الحزب اللامركزى ونشر الدعايات له. وقد كان عاملاً خطراً ضد الدولة العثمانية، ومن أكبر المساعدين على إيجاد التفرقة بين الترك والعرب

٣ ـ مسلم عابدين: كان يكاتب حقى العظم، وكان من الداخلين فى جمعيته، وكان معتمدا للجمعية فى اللاذقية

٤ ـ نايف تللو: كان من ضمن الداخلين فى الجمعية ومعتمد لها فى البقاع وقد اعترف أنه أدخل أشخاصاً فيها.

٥ ـ محمد المحمصانى: أحد مؤسسى فرع بيروت للامركزية. وقد أبرزت له له نصوص الكتب التى كتبها فى الطعن بالإدارة العثمانية، وفى الشكاية من ظلم الترك وأذاهم فاعترف بصدورها منه.

٦ ـ محمود المحمصاني: كان من الذين دخلوا فى اللامركزية، وأحد دعاتها السريين وقد أدخل فيها عدداً من الأشخاص، وتسلم أختام فروعها فى سوريا ووزعها، وكان يدير فرع بيروت.

٧ ـ عبد القادر الخرسا: كان من الداخلين فى اللامركزية وجاء بأختامها من مصر إلى بيروت، وكان نفسه من أعضاء فرع بيروت.

٨ ـ محمود العجم: كان من الداخلين فى فرع بيروت للامركزية كما اعترف هو نفسه وكان يؤدى التقاسيط الشهرية بانتظام واعترف بأنه قرأ المنشورات.

٩ ـ سليم الأحمد عبد الهادى: كان معتمدا للامركزية فى قضاء جنين

١٠ ـ نور الدين القاضى: كان من أعضاء اللامركزية، وكان يأخذ أختام الفروع ويسلمها إلى الفروع المختصة بها، كما كان يتسلم الكتب والمنشورات الواردة من البريد الفرنسى.

١١ ـ على الأرمنازى: اعترف بأنه كان على صلة باللامركزيين ثم أدعى بأنه انفصل عنهم كان معمتداً للحزب فى حماه وقد جاءه نورى القاضى بالختم.

وحكم فى هذه القضية نفسها بالإعدام على حافظ بك السعيد نائب يافا فى مجلس النواب العثمانى، والشيخ سعيد الكرمى مفتى قضاء طولكرم وحسن حماد وغيرهم. وقدأبدل حكم الإعدام الصادر على الأول والثانى بالسجن المؤبد لتقدمهما فى السن ومات الأول فى السجن وأفرج عن الثانى فى نهاية الحرب بعد إقامته نحو أربع سنوات فى قلعة دمشق سجينا.

وحكم فى هذه القضية أيضا غيابيا على كل من رفيق العظم وحقى العظم والشيخ رشيد رضا وداود بركات وفارس نمر والدكتور شبلى شميل وخليل المطران وإبراهيم البحار وجورج عبد المسيح وجبرائيل ناصيف ونجيب عازورى والفريد عازورى وجورج بحرى والأمير خليل أبى اللمع وخليل بولاد وهنرى حبيب بولاد ونجيب البستانى وأمين البستانى ويوسف البستانى وفيليب سمان ونجيب قطان ونجيب قريصانى وجورج دومانى وجورج قريصانى وكميل أده وجان عيد ونجيب غناجة والدكتر غرزوزى ونعمة الله غانم ورفائيل غره وميشيل لطف الله والدكتور يوسف كميل والشيخ يوسف الخازن وجورج خير ورشيد خياط وأدمون ملحمه والدكتور خليل مشاقه ويوسف سمعان صيدناوى وإلياس حنين وسليم شميل وماريوس شميل ويوسف حبيب زنانيرى وإلياس زهار وألفونس زينيه

وفؤاد الخطيب وقسطنطين ينى وحسن حمادة وعبد الحفيظ الحسن ورزق الله أرقش وسليم ثابت وعزت العابد وشكرى غانم وعزيز على المصرى وجميعهم من السوريين الذين كانوا ينزلون مصر وأوربا فى تلك الأيام باستثناء الأخير فهو من أصل مصرى وبعضهم من المتصلين باللامركزية ـ كما أن بينهم من كان متصلا بالحكومة الفرنسية ويعمل فى خدمتها.

وحكم أيضا بالإعدام غيابيا على كل من بشارة البوارى واسكندر سرسق وإدوارد كرم وجبرائيل حداد وسيمونى أبى شنب وقيصر أبى شنب وأسعد باسيلا ونجيب أيوب وألفريد ليان وأسعد مفرج وانطون أرقش ونجيب موسى دياب (أمريكا) وسليم بولس والأمير أمين مجيد أرسلان وسعيد مخيبر ورشيد تقى الدين ويوسف صموئيل.

هذه هى أسماء الذين حكم عليهم بالإعدام غيابيًا ومواجهة فى السنة الأولى للحرب. ويلوح لنا أن هنالك اعتبارات سلبية وإيجابية حملت جمال باشا على ركوب هذا المركب نوجزها فى مايلى:

١ ـ ميل زعماء تركيا إلى التخلص من الحركة العربية والقضاء عليها وهى فى المهد وكانوا يعتقدون أن فرصة الحرب من الفرص السانحة التى لايجود الزمان بمثلها، ولذلك لم يحجموا عن اهتبالها.

٢ ـ ما أدركه الترك من نصر فى الدردنيل على الحلفاء فى تلك الأيام فقد والى هؤلاء الهجوم، وكانوا يعتقدون أنه لابد لأساطيلهم من اقتحام حصونه ودكها ثم مجيئهم بعد ذلك بالجيوش وانهزامها مما شجع الترك وقوى عزائمهم وجعلهم يعتقدون بأن الفوز سيكون فى جانبهم وأنه يجب التخلص من أذكياء العرب ليعيشوا مرتاحين زمن السلم.

٣ ـ ما أثبتته الوثائق السرية التى نشرها البلاشفة فى سنة ١٩١٨ من سجل وزارة الخارجية الروسية عن وجود صلة بين جمال باشا والأرمن فى تلك الأيام، وتوسيطه إياهم لحمل الحلفاء على الاعتراف به سلطانًا على تركيا مقابل قضائه على الدولة (وقد نشرنا نصوصها فى الباب السادس) فقد أراد أن يغتنم الفرصة فيقضى على الأحرار النابهين من أبناء البلاد.

يؤيد هذا الاستنتاج ماصرح به عبد الكريم الخليل ساعة الإعدام وهو قوله «إنى أعرف لماذا يقتلنى جمال باشا فقد قيل إنه أراد التخلص منه لأنه وقف على جانب من خطته وكان يكتمها عن كل الناس.

٤ ـ تلك هى مجموعة الأسباب السلبية أما الأسباب الإيجابية ففى مقدمتها الكتب السرية التى ظل حقى العظم يرسلها حتى بعد إعلان الحرب العظمى، وقبل اشتراك الدولة فيها إلى محمود المحمصانى فى بيروت. وقد صادرتها المراقبة وسلمتها إلى قائد الجيش. ونحن ننشر أحدها وهو أهمها قال:

إلى السيد المبجل سيد أفندى شكرى:

تحية وسلامًا: وبعد ففى هذه الساعة الخطيرة التى تدور فيها رحى الحرب العظمى بمنتهى الشدة ينتظر الوطن المقدس من أبنائه بذل ضحايا أكبر مما بذل فى الماضى، إ ن الحرب العالمية قد تطير منها شرارة فى الشرق، فتصبح بلادنا شعلة من نار فتلتهم البرئ والمذنب لا فرق بين العرب والأتراك، فما لاريب فيه أن الحكومة ـ على العكس من المتوقع ـ لو اشتركت فى الصراع العام أن تخرج إلا مخضودة الشوكة، مما يقرب أجلها فلو ختمت الحرب بانتصار الحلفاء فإن هذه النهاية تصبح ولا مفر منها، وبذلك يسهل حل المسألة الشرقية بواسطة روسيا، وإذ ذاك تصبح الأراضى العربية عرضة لنفس الأخطار التى تهدد الأراضى التركية، وبما أن الأتراك سوف يبذلون قصارى جهدهم ويستخدمون كل مواردهم الدفاعية للذود عن امبراطوريتهم وممتلكاتهم، فإن الخطر الذى يهدد العرب سيكون أعظم، والبلية أشد وهذا هو المنتظر وقوعه فعلا، إذن فمن المهم أن يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد.

إن جمعيتنا التى لديها هيئة خاصة، والتى تتألف من نفر اشتهروا بالوطنية، وعرفوا بالتضحية، ترى أن واجبها المقدس يقضى باتخاذ الوسائل الفعالة فى الحال لصيانة الوطن وأبنائه، فلهذا السبب نرجو الإجابة على الأسئلة الآتية:

١ ـ كم لديك من القوات التى يمكنكم ـ إذا دعت الضرورة ـ لبدء التمرد العام بها.

٢ ـ أفى استطاعتكم إمدادنا بالأموال أو جمع الاكتتابات التى يمكنكم شخصيا استعمالها عند الضرورة؟ وكم مقدار الأموال الممكن جمعها؟

٣ ـ أمن المستطاع إيجاد ملجأ حصين لإخواننا السريين الذين يناط بهم البدء فى التمرد والذين سنساعدهم بكل مالدينا من الوسائل؟

٤ ـ إن الممكن إرسال رجل ثقة إلينا يمثل حزبكم للذهاب إلى جهة معينة لانتظار تعليماتنا.

٥ – وإذا لم تجدوا ذلك الثقة أفترون من اللازم أن نبعث إليكم بمن يبلغكم تعليماتنا؟.

«فالمرجو الإجابة على هذه الأسئلة بتفصيل، إن كل دقيقة تضيع سدى معناها فقد روح عربية. فالبدار البدار فلقد حان وقت التضحية الشخصية من أجل الواجب والوطن والسلام»

ملحوظة:

«أرجو وقت الإجابة أن تلاحظوا كتابة اسمى مع العنوان، ويجب وضع الظرف داخل ظرف آخر بهذا العنوان:

(القاهرة ـ شارع الدواوين: الشيخ حقى خلف فراش مسجد برلانتى هانم أمام سراى المرحوم شريف باشا)

ويجب تسليم الخطاب لرجل ثقة وهو يسلمه بيده إلى أى مكتب أجنبى على الساحل فإن استحال ذلك فليس ثمة ضرر إذا أرسلتم الخطاب بواسطة البريد المحلى».

ولا يخامرنا أدنى شك فى أن حقى العظم قد استغل صلته بحزب اللامركزية فكتب تلك الرسائل، كما أذاع تلك المنشورات بدون أن يطلع عليها رجال الحزب أو يأخذ رأيهم ـ ولو فعل لما أقروه ولما وافقوه ـ سيما وقد فترت العلاقات بينهم وبينه فتوراً ظاهراً فى تلك الأيام، يؤيد هذا أن هؤلاء الأقطاب لم يسلسوا القياد للإنجليز يوم جاؤا يخطبون ودهم ويسألونهم تأييدهم ومساعدتهم فاشترطوا إعلان استقلال العرب رسميا قبل القيام بحركة ما، وسنفصل ذلك عند الكلام عل المفاوضات بين الإنجليز والعرب.

ويلوح لنا أن حقى أراد من إثارته تلك الضجة، ومن إرساله المنشورات الكثيرة إلى سورية قبل الحرب أن يحمل الاتحاديين على استرضائه وتعيينه فى إحدى الوظائف التى كان يسعى للوصول إليها، فلما وقعت الحرب، وحدث ما حدث، اتخذت منشوراته ـ وقد اعت فى الأصل لاقتناص الوظيفة، وسيلة للفتك بأبرياء لا ذنب لهم سوى أن حقى عرف أسماءهم بالواسطة فكاتبهم وأحسنوا الظن به فكاتبوه.

والكتاب الذى اعتمد عليه جمال باشا فى القبض على الذين قبض عليهم وحاكمهم بتهمة الاتصال باللامركزيين وأعدمهم صادر من حقى نفسه، ومرسل يوم ١٦ إبريل سنة

١٩١٤ إلى محمود المحمصانى ببيروت وهذا نصه

«حسب أمركم تم قبول مصطفى أفندى سميسمه عضواً فى الحزب، وكذلك اقترحت على اللجنة قبول الأخ محمد أفندى (المحمصانى) فقبل بكل سرور وارتياح وأملى منه أن يغفر لى أقدامى على هذه الجرأة قبل أن أستأذنه بذلك، وقدمت المكاتيب والبطاقات فالرجاء تسليمها إليهما.

«ويوجد للحزب فروع فى مدن حماه وجنين ونابلس وبعلبك والبقاع ووادى العجم والموصل والبصرة. فإذا مر الأخ فى سفرته على المدن السورية المار ذكرها فليقابل الإخوان المذكورة أسماءهم فيما يلى ذلك بعد أن يبرز لهم بطاقة الحزب لإثبات هويته وانتسابه، ففى حماه يقابل على أفندى الأرمنازى (صاحب جريدة نهر العاصى) أو خالد أفندى درويش البرازى

وفى حمص يقابل قسطنطين أفندى ينى صاحب جريدة دليل حمص

وفى بعلبك يقابل صالح بك حيدر رئيس البلدية

وفى جنين يقابل سليم أفندى الأحمد عبد الهادى

وفى نابلس يقابل حسن أفندى حماد

وفى البقاع يقابل نايف أفندى تللو مأمور التحصيلات

وفى يافا يقابل حافظ بك السعيد

كيف وصلت أوراق اللامركزية إلى الترك

وسيلاحظ القارئ من مطالعة أخبار تلك الأيام أن الوثائق والمراسلات التى عثر عليها الترك واتخذوها مداراً للتحقيق هى أوراق حزب اللامركزية والجمعية القحطانية والجمعية الثورية، وكانت محفوظة بيد حقى العظم، وكذلك أوراق القنصليتين الفرنسوية فى دمشق وبيروت، وما عدا ذلك فلم يوفقوا إلى معرفة سر جمعية واحدة من الجمعيات العربية الكثيرة التى كانت تعمل فى تلك الأيام ولم يصادروا ورقة واحدة من أوراقها

وقد أكد لنا بعض الثقات أن محمد الشنطى اليافى ـ أحد مساعدى حقى العظم ومعتمديه هو الذى حمل هذه الأوراق إلى الترك. فقد اغتنم إحدى الفرص فسافر فى أوائل

الحرب إلى أثينا فسلم الأوراق بكاملها، إلى السفير العثمانى غالب كمال بك أملا بأن تمنحه الدولة مكافأة مالية كبيرة، فأرسله هذا على الفور إلى طلعت بك وزير الداخلية، فأحاله هذا إلى جمال باشا، فقصد دمشق ونزل ضيفا مكرما على الحكومة، فكان يتناول الأموال من صندوقها ويتصل برجالها من دون انقطاع، والظاهر أنه اتخذ صلته هذه وسيلة لابتزاز الأموال من الشبان العرب، وكانوا يومئذ فى أزمة نفسية شديدة، فذهب المرحوم الحاج سعيد الشوا وكان مقربا من جمال باشا لما أسداه من خدمات كبيرة للجيش التركى أثناء تراجعه عن القناة، وقص عليه قصص الشنطى فأمر باعتقاله وإرساله إلى سجن عالية وقد شنق فى بيروت يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ مع رجال الرعيل الثانى، وورد اسمه غير مرة فى أوراق اللامركزية.

والأقوال مختلفة فى طريقة وصول أوراق القنصليتين الفرنسويتين فى بيروت ودمشق إلى الترك ولن لم يحاكم أحد من الذين وردت أسماؤهم فى القضية الأولى فقد حوكم من قبلهم نخلة باشا المطران أمام ديوان حرب عرفى دمشق فحكم عليه بالأشغال الشاقة فى السجن المؤبد، وطيف به فى أسواق دمشق وشهر به.

ويقول جمال باشا فى مذكراته أن نخلة المطران سلم إلى المحكمة العسكرية قبل وصوله مع وثائق خطيرة فحكم عليه بالسجن المؤبد فسيق مخفوراً إلى ديار بكر وقتله الحراس قرب جرابلس لأنه حاول الفرار.

وهذا نص الوثيقة التى أشار إليها جمال باشا وقد وجدت فى قنصلية فرنسا فى دمشق وهى كتاب أرسله القنصل إلى سفير فرنسا بالأستانة يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٣:

جناب المسيو بمبار

أتشرف أن أحيط سعادتكم علما بأن نخلة باشا المطران، وهو من ذوى النفوذ فى بعلبك زار هذه القنصلية مرتين خلال الأسابيع الأخيرة.

وقد كان ذلك السيد من عامين سكرتير السفارة التركية فى باريس، وله معرفة بمعظم رجالنا السياسين، وهو عضو فى الكنيسة الكاثوليكية للروم الملكيين، وفى جمعية الاتحاد والترقى، ولو أنه نفى ذلك فى أحاديثه معى عند ما أشار إلى إخفاق سياسة اللجنة ووقاحة الاتحاديين.

فقد انتهز فرصة السفر إلى دمشق لطلب إعادة محاكمة أحد أصدقائه وحضر لزيارتى للمناقشة - كما قال - «فى مسألة تهم الدولة التى اختارتها الطبيعة لحماية لبنان وسورية»

ثم أكد لى أن كبير الساسة الفرنسويين (يريد المسيو بوانكاره) له شأن فى الموضوع نفسه».

ومما قاله:

«إن الحالة الحاضرة أصبحت لا تطاق، وإننا عزمنا على إدماج بعلبك وسهل البقاع فى لبنان لارتباط تلك الجهات جغرافيا. بيد أننا نفتقر لتحقيق هذه الغاية إلى مساعدة الحكومة الفرنسوية وحمايتها، وقد وطدنا العزم نحن المسلمين والمسيحيين على إدراك النجاح، وإنا نعرف كيف نحقق غايتنا إذا فكرت الحكومة العثمانية أن تقاومنا بالسلاح، وينتمى إلى حزبنا فريق من أهالى بعلبك وعلى هذا فمدينتنا لها مركز خاص، فهى مفتاح قلب سوريا والطرق المؤدية إلى الداخل، وأنا وأسعد بك حيدر رئيس المناولة وأكبر الرجال نفوذا فى تلك الجهة وعبد الغنى بك الرفاعى زعيم المسلمين قد عقدنا النية على أن تكون جهتنا جزءا من لبنان، وقد قررنا أن نذهب إلى بيروت لنخبر المسيو كوجيت بنياتنا. لأنه على الدوام مهتم اهتماما شديدا بكل ما يتعلق بلبنان، ونظرًا لأن بعلبك فى دائرة قنصليتك رأيت من الواجب علىّ أن أطلعك على هذه الأمور بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن أسعد بك وعبد الغنى بك.

«وإنى طبعا أتقبل تأكيدات نخلة باشا بكل احتياط، بقطع النظر عن أننى قابلته بالحفاوة التامة. وقد زارنى مرة أخرى وأكد لى من جديد إخلاصه لفرنسا. ووعد أن يقدم لى أى خدمة يستطيعها فى بلاده».

وبين الرواة اختلاف فى كيفية وصول أورق هاتين القنصليتين إلى الترك. فهنالك من يقول: إن يقول إن رجال الحكومة فى بيروت ذهبوا إلى دار القنصل الأمريكى وطلبوا منه أن يسمح لهم بتفتيش دار القنصليتين الفرنسوية والإنجليز. لأنهما كانتا تحت إشرافه بعد سفر القنصلين فى ابتداء الحرب. فأجاب بالرفض لأنهما ختمتا بالشمع الأحمر. فقال الموظفون الترك أنهم لا يريدون دخول الغرف المختومة بل يكتفون بتفتيش مالم يختم فاستمهلهما ريثما يراجع السفير فى الآستانة، وقد راجعه فأجاز الطلب ففتشوا غرف الدارين فعثروا فى دار القنصل الفرنسوى على هذه الأوراق فأخذوها، ولم يعثروا على شيئ فى دار القنصل الإنجليزى لأنه لم يترك شيئا بعكس قنصل فرنسا.

وهنالك رواية أخرى مؤداها أن الموظفين الترك فى بيروت دخلوا دار القنصلية

الفرنسوية وفضوا أختامها غير مراعين القواعد الدولية فأبلغ القنصل الأمريكى - وكانت الدار موضوعة تحت حمايته - سفير دولته فى الآستانة وهذا رفع الأمر إلى الحكومة الأميركية فاحتجت فى شهر يوليو سنة ١٩١٦ احتجاجا رسميا على خرق القواعد الدولية.

ويقال أيضا إن أحد تراجمة قنصلية بيروت اللبنانيين هو الذى أرشد الترك إلى مكان هذه الأوراق فحصلوا عليها، وكذلك فقد اتخذت الأوراق التى استخرجت من دار القنصلية فى بيروت مدارا لاتهام يوسف الهانى وهو من موارنة لبنان، وتقديمه إلى المحاكمة أمام الديوان العرفى بعاليه. فحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم فشنق فى بيروت يوم ٥ إبريل سنة ١٩١٦ وسنأتى على الوثيقة الخاصة به.

ومما يستحق الذكر أن السيدة زوجة يوسف الهانى أقامت حفلة راقصة فى منزلها عشية الليلة التى أعدم فيها زوجها لجمال باشا وحاشيته دعت إليها نساء الطبقة الراقية فى بيروت وبعد انتهاء الرقص وشرب الشمبانيا ركعن بين يديه طالبات العفو عن الهانى المعتقل فوعدهن بإجابة ملتمسهن، وأرسل من فوره فأمر بشنقه فلم تشرق عليه الشمس إلا وهو جثة هامدة فى ساحة البرج.

ومن الذين قدموا إلى المحاكمة بتهمة التجسس للحكومة الفرنسوية الشيخ فيليب والشيخ فريد الخازن فقد حكم عليهما بالإعدام ،فأعدما فى بيرت يوم ٥ يونيو ١٩١٦ فذهبا كما ذهب الهانى ونخلة المطران من قبل فى سبيل استيلاء فرنسا على سوريا ولبنان.

قضية عالية الثانية

استقر جمال باشا فى دمشق فى خريف سنة ١٩١٥ بعدما ضرب ضربته، وأعدم الذين أعدمهم ، وفى جملتهم صديقه وحميمه عبدالكريم الخليل، وهو الذى جاء سورية بناء على طلبه فأخذ فى هذا الدور يولم الولائم، ويؤدب المآدب لكبار القوم وذوى المقامات ويتصل بالمشايخ ورجال الدين، ويوزع عليهم الهدايا والأعطيات ليستميلهم، أو ليأمن جانبهم على الأقل. محاولاً تسكين الأفكار وتهدئة الأعصاب - كما أخذ من جهة أخرى يقصى الضباط العرب الذين كانوا فى سورية. فلم يبق واحداً منهم بل أرسلهم جميعا إلى ميادين القتال المختلفة.

ووقع خلاف فى هذه المرحلة بينه وبين خلوصى بك والى دمشق يومئذ وهو من أفاضل الترك وكان قد تعهد للدكتور عبد الرحمن شهبندر ولغيره من رجال النهضة العربية بأنه لا خوف عليهم مادام هو فى دمشق، فوثقوا به وأقاموا بضمانته.

وبيان ماحدث أن خلوصى بك احتج إلى طلعت باشا على تصرفات جمال باشا فقد أمر بإعدام بكباشى شركسى اسمه أحمد بك بحجة أنه عذب المهاجرين الأرمن وآذاهم، وقال إن إطلاق يده على هذا المنوال يقتل ويشنق من دون استئذان معناه انتهاك حرمة القوانين والأنظمة واعتداء عليها، وطلب أن يؤذن له بالسفر إذا لم يوقف جمال باشا عند حد فأذن له فأرسل على الفور فدعا الدكتور شهبندر وقال له لقد عزمت على السفر لأننى مصدور لا يناسبنى هواء هذا المحيط، وأظنك وأنت دكتور تدرك أن حالك كحالى فالهواء لم يعد يوافقك فإذا أردت أن تحضر معى إلى الآستانة فتفضل.

وعقيب ذلك غادر خلوصى بك دمشق قاصداً الآستانة وخرج الدكتور شهبندر لوداعه فأبى أن يكلمه فى المحطة خوف الجواسيس والرقباء بل غمزه بعينه لمقابلته فى الجانب الآخر من القطار حيث أشار عليه بالرحيل، فلم يطل المقام بعدها فى دمشق بل قصد البصرة ومنها جاء إلى مصر.

وهنالك حادثة أخرى سابقة تدل على نية جمال باشا وعلى رغبته فى الانتقام. وخلاصتها أن إمبراطور ألمانيا أهدى فى السنة الثانية للحرب قنديلا ليعلق على ضريح السلطان صلاح الدين بن أيوب فتقرر أن يحتفل فى الجامع الأموى بوضعه ليلة القدر من سنة ١٣٣٣هـ (إيلول سنة ١٩١٥) وأن يخطب فى هذه الحفلة الدكتور شهبندر بالعربية وخلوصى بك (الوالى) بالتركية والبارون أوينهايم مندوب الإمبراطور غليوم بالفرنسوية ويختم الحفلة جمال باشا بخطبة باللغة التركية، وانتهز الدكتور الفرصة فتكلم عن تاريخ صلاح الدين وعدله وسعة صدره وإنصافه حتى فى معاملة أعدائه، وقال وما على جمال باشا إذا أراد أن يحفظ التاريخ اسمه كما حفظ اسم صلاح الدين إلا أن يسير على منواله، وما كاد ينتهى من خطبته حتى تقدم جمال باشا غير متقيد بالنظام الموضوع للحفلة وقال ليس السلطان صلاح الدين الذى أسهب فى مدحه الدكتور شهبندر الخليفة الوحيد فى عظمته. بل أن التاريخ حفظ اسم السلطان سليم بين كبار الخلفاء مع إنه فتك بإخوته وبأهله وبرجال دولته، لأنه وجدهم قد تآمروا عليه وهددوا المملكة الإسلامية وسيأخذ القانون فى معاقبة الذين تجرأوا على معاداة الدولة والتآمر على سلامتها.

وقد خاطب خلوصى بك الدكتور شهبندر راجيا منه أن لايثير مسألة المعتقلين ثانية، وأن لا يعود لمثل هذا البحث أمام جمال باشا.

ولم تنقض بضعة أشهر حتى كان أتم جميع التدابير، فأقصى الوحدات العربية وأرسلها إلى ميادين القتال، لأنه لم يأمن جانبها بعد كل ما جرى منه ـ كما أرسل معظم الأسر الكبيرة إلى الأناضول، وملأ السجون بالمعتقلين وبث الرعب والإرهاب فى القلوب.

وهذا نص البلاغ الذى أصدر فى ختام القضية الثانية:

«لما جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المؤلف فى مصر والممالك العثمانية تحت عنوان (حزب اللامركزية) والذين حوكموا أمام ديوان الحرب فى عالية كتبت فى البيان الذى نشرته فى شهر أغسطس سنة ١٩١٥ أن التحقيقات تجرى بصورة دقيقة بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلا.

«إن الوثائق السياسية التى عثرنا عليها واعتراف عبد الغنى العريسى صاحب جريدة المفيد الذى ألقى القبض عليه أخيرًا بعد أن ذكرنا فى البيان خبر فراره واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا السابق ورفيق رزق سلوم ضابط الاحتياط ورفقائهم الآخرين قد نور المسألة من جميع أطرافها، فسيق إلى ديوان حرب عالية الذين ظهر أن لهم علاقة فى هذه المسألة بدرجات متفاوتة مع من تبين أن لهم دخلا فى المساعى الخائنة بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها. وفى ختام التحقيقات والمحاكمات التى أجراها الديوان العرفى صدرت الأحكام اللازمة بحق المتهمين من الموقوفين والفارين كل حسب اشتراكه فى ترتيبات هذه الجمعية التى غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة، فحكم على شفيق بن أحمد العظم، والأمير عمر بن عبد القادر الجزايرى وعمر بن مصطفى حمد ورفيق بن موسى رزق سلوم ومحمد بن حسين الشنطى وشكرى بن بدرى على العسلى وعبد الغنى بن محمد العريسى وعارف بن محمد الشهابى وتوفيق بن أحمد البساط وسيف الدين بن أبى النصر الخطيب والشيخ أحمد بن حسين طبارة وعبد الوهاب بن حسين الإنجليزى وسعيد بن فاضل عقل وباترو باولى وجرجى بن موسى حداد وسليم بن محمد سعيد الجزائرى وعلى بن محمد حاج عمر ورشدى بن أحمد الشمعة وأمين لطفى بن محمد حافظ وجلال بن سليم البخارى بالإعدام لثبوت اشتراكهم فى هذه التشبثات بالدرجة الأولى وبصورة عملية. وحكم على كل من تبين دخولهم فى الدسيسة فرعيًا وهم سالم بن مصطفى المظلوم

بالاعتقال فى القلعة لمدة خمس سنوات وتوفيق بن محمد الناطور ويوسف بن مخيبر سليمان بعشر سنين وحسين بن خليل حيدر بخمس عشرة سنة ورياض بن رضا الصلح بنفى مؤيد والأمير طاهر بن أحمد الجزايرى بعشر سنين معتقلا فى القلعة وحكم على الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد والتشبث الحقيقى، وثبت وجود مساع لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة إما بسائق الجهل أو الصلف وإنما لم توجد عليهم وثائق تنور وجدان الهيئة الحاكمة وثبتت مجرميتهم واشتراكهم، وهم رضا الصلح وأسعد حيدر بإعادتهما إلى منفاهما . وتقرر منع محاكمة وبراءة كل من محمد كامل الهاشم وإبراهيم القاسم وسامى العظم ورشدى الشوا وعاصم بسيسو وعزت الأعظمى ومصطفى الكيلانى وعبد الرحيم حنون والدكتور حسام الدين ونجيب شقير والشيخ فتح الله على أديب والدكتور أحمد قدرى وسليم الطيارة وجميل الحسينى والشيخ سعيد البانى وسليم الشمعة وسليم البخارى وفايز الخورى ورشيد الحشيمى وعمر الأتاسى والبكباشى على رضا والدكتور أمين قزما وسعيد عدره والدكتور عبد الحفيظ واليوزباشى محمد جميل الألشى وفريد باشا الباقى وعثمان العظم.

«ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام وهم شفيق المؤيد والأمير عمر وشكرى العسلى وعبدالوهاب الإنجليزى ورشدى الشمعة ورفيق رزق سلوم أعدموه هذا الصباح فى دمشق والآخرون أعدموا فى بيروت وأرسل المجرمون الآخرون إلى منافيهم وسجونهم وعلى هذا المنوال استقر الأمن فى سورية وفلسطين وهما فى حاجة إليه إلى الأبد. وسينشر كتاب حاو جميع الوثائق على حدة مع اعترافات المتهمين وتاريخ صغير لهذه القضية»

«ومن أنعم النظر فى الوثائق يفهم أولا: أن هؤلاء الأشخاص قد ضحوا بلا تردد بما لديهم من المقدسات الدينية والوطنية إزاء منافعهم الخسيسة المادية وأنهم قد أشركوا مساعيهم ونفوذهم وقدرتهم أعداء الدولة وسعوا فى إعداد الطاعة فى الداخل إزاء اعتداء الأعداء فى الخارج، ومما هو جدير بالتقدير إن إدارة هذه التشبثات لم تتسع بالنظر لما جبل عليه العنصر العربى النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية عن شوائب الظنون، بل انحصرت بين أشخاص مسلمين ومسيحيين لا أهمية لهم، ولايكاد يتجاوز عددهم المائتين من المحكوم عليهم حديثا وقديما وحضورا وغيابيا

«وبناء على السلطة التى تخولنى إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ ١٤ مايو سنة ١٩١٥ وتنص على التدابير التى ينبغى للسلطة العسكرية التوسل بها زمن النفير العام ضد

الخارجين على الحكومة وإجراءاتها فأنا ساع لإبعاد أولئك الأشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة فى سبيل منافعهم الشخصية مع من لهم علاقة معهم من أسرهم وعائلاتهم، وقد اتخذت الأسباب الكاملة لإعاشة هذه العائلات ورفاهيتها فى الأماكن التى ينقلون إليها تحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها وسيعطون هنالك أراض وأملاكا تعادل قيمتها قيمة أراضيهم وممتلكاتهم فى سورية. وإنى أوصى جيمع الأهلين فى سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة. على أنه من الآن فصاعدا لم يبق محل لإجراء التعقيبات والإبعاد إلى الولايات العثمانية فى حق أحد مطلقا، مالم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته»

قائد الجيش الرابع وناظر البحرية

أحمد جمال

ولقد اقترنت أحكام الإعدام والنفى والسجن بأحكام النفى والإبعاد فشملت نحو ٣٠٠ أسرة - من أسر الشام (سورية وفلسطين ولبنان) قبض على أعضائها. نساء ورجالا وأطفالا بأمر جمال باشا فى شهر مارس وإبريل سنة ١٩١٦ وأرسلوا إلى الأناضول - أى قبل صدور الأحكام بعد ماصودرت أملاكهم وأموالهم فوزعوا فى مدنه وقراه قاصيها ودانيها، فمنهم من أرسل إلى ولاية قونية ومنهم من أرسل إلى أنقرة وغيرهم إلى ديار بكر وبروسة وأطنة وسيواس وقسطمونى حتى لم تبق مدينة من مدن الأناضول إلا ونزلتها عائلة أو أكثر من العائلات السورية، والغاية من هذا التدبير - وهم لم يقصوا سوى الأسر الغنية والكبيرة . اضعاف العصبية العربية فى بلاد الشام باقتطاع العناصر القوية من جسمها فتتفكك وتفقد قوميتها وتندمج فى الطورانية

لقد عامل جمال باشا العرب كما عامل طلعت باشا وأنور باشا الأرمن، وهكذا تعاون الثلاثة - على الفتك بخيرة أبناء هذين العنصريين وتشتيتها ليخلوا لهم الجو بعد الحرب فنقلوا الأرمن إلى بلاد العرب ونقلوا العرب إلى منازل الأرمن الخالية فى الأناضول. وقد اعترف جمال باشا نفسه فى كتاب الإيضاحات السياسية بما وقع من أسر وتغريب، وعلله بأنه تدبير احتياطى وإنه إنما أرسل النساء والأطفال مع الرجال لكى يعيشوا بشكل عائلة، ولا يكونوا فى حالة سيئة (أنظر ص ١١٣ - ١١٥ من كتاب الإيضاحات) وإذا كان هنالك فرق بين العملين، فهو فى أن جمال ومنزلته فى الدولة ما كانت دون منزلة أنور، وطلعت كان يدافع عن الأرمن ويسعى لكف الأذى عنهم، ويعمل على حمايتهم، مع أنهم كانوا

يحاربون الدولة يومئذ فى صفوف الروس ويقاتلونها. بينما كان العرب يهجمون على القناة بقيادة جمال باشا نفسه.

وهذا ما كتبه فى مذكراته بهذا الموضوع (ص٥٠٤) تعريب على أحمد شكرى: «ولما وصلت إلى السلطات المدنية - بعد نفى أرمن الأناضول الأوامر - بنفى جميع الأرمن من أطنه وحلب، عارضت فيها معارضة شديدة ولم أكتف بذلك بل كتبت تقريرا مفصلا عن هذه المسألة وبعثت به إلى الآستانة، وقد ذكرت فيه أننى لا أرى ضرورة ما لذلك العمل الذى لابد أنه يؤثر تأثيراً سيئًا فى المركز الاقتصادى والزراعى بصفة خاصة للمنطقة التى يرابط فيها الجيش الرابع، ولكنى وقد أمرت بألا أتعرض لما لا يعننى أو أدخل فى شؤون السلطات المدنية بل أمدها بالمساعدة فقط، هل كنت أستطيع أن أحول دون تنفيذ هذه الأوامر أو أن أعطلها؟ ولما كنت موقنا بأن نفى جميع مهاجرى الأرمن إلى العراق سيذيقهم من الكروب ألوانا، رأيت أن أحول كثيرا منهم إلى ولايتى بيروت وحلب فنجحت بعد الاحتجاجات التى أرسلتها إلى الآستانة فى الحصول على الإذن بما طلبت، وبهذه الوسيلة استطعت أن أبقى فى هاتين الولايتين زهاء ١٥٠ ألف مهاجر. وبعد ما أسهب فى ذكر خدماته للأرمن قال: إن بطريرك الأرمن صافن أفندى زاره فى الآستانة عند رجوعه إليها فى ديسمبر سنة ١٩١٥ وسلمه مذكرة شكر من البطريركية باسم الأمة الأرمنية بأسرها. ولا ريب أن أقوال جمال باشا فى مذكراته تؤيد ما قيل عن توسطه الأرمن للاتفاق مع الحلفاء على مهاجمة الدولة كما سيأتى:

ديوان حرب عاليـــة

ولقد آن لنا أن نتكلم قليلا عن ديوان حرب عرفى عالية، وعن المآسى التى مثلت على مسرحه. فنقول إن جمال باشا أنشأ هذا الديوان على أثر وصوله إلى سورية سنة ١٩١٤ لمحاكمة المتهمين بالقضايا السياسية وغيرها من الذين يدخلون تحت طائلة الأحكام العرفية وكانت البلاد خاضعة لها بسبب حالة الحرب.

لقد كان الديوان العرفى يتألف من هيئتين: هيئة تحقيق يرأسها ضابط اسمه صلاح الدين، وهيئة قضاة يرأسها قائمقام اسمه شكرى بك.

وما كانت هنالك جلسات علنية ولا مرافعات ولا دفاع بالمعنى المفهوم من هذه الألفاظ وإنما كانت هيئة القضاة تسترشد فى جميع أعمالها بأوامر جمال باشا نفسه. وكانوا

يكتفون في الغالب بدرس نفسيه القادم وأخلاقه وأطواره، فإذا تبينوا أنه من الأذكياء الذين يخشى جانبهم أشاروا إلى ذلك في جانب اسمه فيأمر الباشا بإعدامه للتخلص منه، ومعنى ذلك أن الكفاءة وعدمها كانت القاعدة في إصدار الأحكام بالنسبة لأكثر المتهمين ومعظم الذين نجوا من قبضة الديوان العرفي هم من الذين تظاهروا بالبلة أو أنكروا نسبتهم العربية، أو قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق فشهدوا ببلاهتهم، أو جاءوا بوسائط أخرى. وقد اعترف شكري بك نفسه بعد انفضاض الديوان العرفي، وقد فض بعد ٦ مايو سنة ١٩١٦ أن الحكم في القضية الكبرى عدل أربع مرات بأمر جمال باشا، فكان في كل مرة يخرج أناسا من قائمة المعدمين، ويدخل غيرهم، وأخيرا أبلغه بشكله النهائي يوم ٥ منه فنفذ كما أمر.

ولابد لنا أيضا من التنبيه إلى أمر خطير آخر، وهو أنه رغم وسائل التعذيب والإرهاق - وقد تفنن فيهما الترك ليحملوا المعتقلين من رجال القضية العربية على الاعتراف والاقرار - لم يفوزوا بطائل فلم ينبس أحد ببنت شفة، بل ظلت أسرارهم محفوظة في صدورهم وحسبك أنهم تفننوا في ضرب عبدالكريم الخليل وتعذيبه، لانتزاع اعتراف عن إخوانه وشركائه فلم يبح بسر وكذلك فعلوا مع عمر حمد وعبد الغني العريسي وشكري باشا الأيوبي وسيأتي الكلام على قضيته.

وإذا قيل لنا إن عبدالغني العريسي ورفيق رزق سلوم وسيف الدين الخطيب أفضوا بأشياء ذات شأن أوردها جمال باشا في كتاب الإيضاحات السياسية. نجيب أن ما أفضوا به لا يزيد عن معلومات مبهمة عن جمعيتي اللامركزية والإصلاحية كانت تلوكها الألسنة ولا تدين أحدا فالتحقيق في الدورين قام على أوراق اللامركزية وقد جاء بها الشنطي بسبب تفريط حقي العظم وعدم حسبانه حساب العواقب، وعلى ماعثروا عليه في قنصليتي فرنسا. ومما يؤيد هذا الاستنتاج إنه لم يدر أي تحقيق حول جمعية العربية الفتاة مع أن بين الذين أعدموا كثيرين من رجالها، والذين ورد ذكرهم في أقوال العريسي وغيره هم من الذين لا تنالهم طائلة العقاب كالسيد رشيد رضا ورفيق العظم وغيرهما من البعيدين.

ونقول بهذه المناسبة إن أوراق جمعية العربية الفتاة السرية، وكانت في عهدة محمد المحمصاني ظلت مدفونة في ضريح أحد الأولياء في بيروت قرب البسطة حتى ذهبت إحدى سيدات آل حيدر إلى منزل آل المحمصاني فاتفقت مع إحدى سيداتهم وذهبن إلى مقام الولي واستخرجن الأوراق وحرقنها.

وجملة القول أننا من الذين يعتقدون بإن جمال باشا لم يعمل ما عمله إلا ليتخلص من العنصر العربي المنور، وإذا كان انتصار الترك فى الدردنيل قد عجل فى إعدام الرعيل الأول فإن انتصار كوت العمارة هو الذى عجل فى الكارثة الثانية، ودفعه إلى ضرب العرب هذه الضربة الكبرى فقتل رجالهم، وسبى نساءهم ويتم أطفالهم، وشردهم فى الأناضول وظن أنه تخلص منهم إلى الأبد.

ولكى لا يرمينا القارئ بالتحامل ننقل ما أورده على فؤاد باشا رئيس أركان حرب جمال باشا فى مذكراته عن هذه الحوادث قال:

«لقد قلت فيما تقدم إن جمال باشا لم يكن مخطئا فى إجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام برجال القافلة الأولى. فقد كان فى موقف حرج يبرر عمله، ولو لم يقدم على عمل ما عمله لما استطاع أن يسيطر على الموقف، ويحول دون اتساع نطاق الثورة، وكانت تهدد البلاد العثمانية فى البقعة العربية منها.

«لقد كان عليه أن يقف عند هذا الحد. خصوصا وقد لمس تأثير عمله فى البلاد فقد هابه رجال الحركة الثورية، ووقفوا جانبا، ولكنه لم يفعل ذلك بل واصل الكتابة إلى أنور باشا وطلعت باشا ملحا بطلب تخويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم فى الأوراق التى صودرت فى القنصلية الفرنسوية وهذا خطأ فادح ارتكبه وجعل العرب يمقتونه حتى لقبوه بلقب سفاح سورية، وهم على حق».

وزيادة فى الانصاف ننشر ماكتبه جمال فى مذكراته عن هذه الحوادث تبريراً لسياسته ـ بعد أن نشرنا الخطير من الوثائق والبيانات التى أذاعها ليقابل القارئ بين الأقوال كلها، ويحكم بنفسه، فإننا نحاول أن نرسم صورة كاملة لذاك العهد غير مشوبة بشائبة تحامل أو افتراء. فالحق أحق بالاتباع قال:

«يوم وصولى إلى دمشق أخبرنى خلوصى بك والى سورية أن لديه أموراً خطيرة يريد محادثتى فيها، فاجتمعنا فى مساء اليوم نفسه فسلمنى وثائق ذات شأن وجدت فى دار القنصلية الفرنسوية. وقال إنها تجعل عدداً من رجال سورية ومن كبار موظفى العرب مسؤولين، وإنه لم يعمد إلى اتخاذ تدابير ضدهم بل أرجأ ذلك إلى مابعد حضورى».

«وتدل هذه الوثائق إن أحرار العرب كانوا يعملون تحت حماية فرنسا وبإرشادها ولمصلحتها، وقد رأيت أن اتخاذ تدابير إجراءات قضائية بحقهم قد يعرض حركة الوحدة الإسلامية وهى ضالتنا المنشودة للخطر، فقررنا إخفاء الأمر وكتمانه».

«وقبل وصولى إلى سورية سلمت إلى المحكمة العسكرية وثائق خطيرة حكمت بموجبها على نخلة باشا المطران البعلبكى بالأشغال الشاقة المؤبدة فسيق مخفورا إلى ديار بكر وقتله الحراس ذات ليلة قرب جرابلس لما حاول الفرار».

«ومع أن الأدلة التى وجدتها تجعل كثيرين من كبار السوريين مسئولين إلا أننى فكرت فى أن هؤلاء سيدركون فى المستقبل أن الحرب العظمى ليست إلا مسألة حياة أو موت للعالم الإسلامى، وأنهم سيقلعون عن أعمالهم، فلذلك قررت أن لا أتخذ إجراءات ضدهم، وبما إنى كنت شخصيا موافقا مبدئيا على استعمال اللغة العربية، ومنح العرب امتيازات فى الشؤون الإدارية فقد اجتمعت بعبد الكريم الخليل أحد زعماء الحركة العربية فلاطفته ثم اجتمعت بواسطته بالدكتور عبد الرحمن شهبندر وبعبد الغنى العريسى وبمحمد كرد على وغيرهم فبسطت لهم خطة الحكومة، وأكدت لهم أن تحرير العالم الإسلامى من النير الأجنبى ممكن التحقيق لو انتصرنا. فوافقوا على صدق كلامى وأقسموا بالله وبشرفهم أن يظل عرب سورية على الولاء للدولة مادامت الحرب، وقد أعطيت عبد الكريم ومحمد كرد على وعبد الغنى العريسى أموالا طائلة - بناء على طلبهم وما أظهروه من الاحتياج، فأصبحوا بعد ذلك مطيعين لأوامرى».

ثم قال «وفى أواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩١٥ زارنى الشيخ أسعد الشقيرى مفتى الجيش الرابع وقال: إن الثورة بدت علاماتها فى سورية، وإن فى استطاعة كامل بك الأسعد نائب بيروت أعطائى المعلومات عنها. فأحضرته. فقال لى «إنكم وضعتم ثقة كبيرة فى جماعة الإصلاح وخولتموهم حرية مطلقة فى البلاد، ولكننى أخشى أن يكونوا أساءوا استعمال تلك الثقة، فإن رضا بك الصلح، وعبد الكريم الخليل ينظمان عصيانا فى جهتى الطيبة وصيدا، ولو تفضلتم بإجراء تحقيق لتبينتم صحة كلامى».

«وقد أمرت بإجراء تحقيق فاثبت صحة ما قيل. فأمرت بالقبض على رضا الصلح وعبد الكريم وشركائهما».

«وعثر موظفوا المراقبة على كتب واردة من القاهرة تحث متنورى العرب على الثورة، بدعوى أن تركيا سوف تخرج من الحرب مخضودة الشوكة فتصبح البلاد العربية عرضة لاستيلاء الأجانب، فيقتضى أن يزود العرب عن استقلالهم المهدد، وقد استنتجت من ذلك أن جماعة الإصلاح لم يعدلوا عن العصيان فى سورية وفلسطين، كما عجبت لما أظهره عبد الكريم وجماعته من الولاء للحكومة منذ إعلان الحرب حتى الآن».

تلك هى مجمل الأسباب التى سردها فى الدفاع عن سياسته. ولا ريب أن القارئ المنصف يسلم معنا بأنها لا تبرر ماوقع. فوجود صلة لأفراد ينتمون إلى حزب الإصلاح - وما كان نخلة باشا المطران منهم - بالقنصلية الفرنسوية لايجوز أن يتخذ ذريعة لاتهام الجميع بالخيانة بعد مابرهنوا منذ ابتدأت الحركة الإصلاحية فى سنة ١٩١٣ حتى بدء عهد الإرهاب فى صيف سنة ١٩١٥ على إخلاص وطنية اعترف هو بها فى أقواله، كما أن كتاب حقى العظم إلى محمود المحمصانى، وقد أرسل قبل دخول الدولة فى الحرب لم يرد به سوى مجرد التشويش. يضاف إلى هذا أن مجرد رواية يرويها كامل بك الأسعد عن اشتغال رضا الصلح وعبد الكريم الخليل بإعداد الثورة - وعداوته لهما مشهورة معروفة بسبب السياسة المحلية - لا يجوز أخذها قضية مسلمة. وإلا فأين هى الوثائق التى تثبت الخيانة على عبد الكريم ورضا الصلح لو كان ما أتهمهما به صحيحا، ولماذا لم ينشرها كما نشر الوثائق الأخرى.

هذا من جهة واحدة. أما من الجهة الأخرى فالوثائق التى نشرها سواء فى مذكراته الخاصة أو فى كتابه «الإيضاحات السياسية» وقد اقتبسنا الخطير منها، وما سماه اعترافات المجرمين لا تصح أن تكون بحال من الأحوال مدارا لتقديم الذين قدمهم للمحاكمة، فضلا عن محاكمتهم والحكم عليهم بالإعدام - إذا لم يكن المقصد التخلص منهم والقضاء على الفكرة العربية بأشخاصهم.

ولو تساهلنا مع جمال باشا، وقلنا بجواز تقديم الذين وجدت وثائق ضدهم فى دار قنصلية فرنسا من أمثال نخلة يوسف الهانى وأضرابه، ولا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة، فبماذا يجيب لو سئل عن الوثائق أو الأدلة المادية التى تدين الآخرين، فقد بحثت طويلا بين كل مانشره عن وثيقة تدين السيد عبد الحميد الزهراوى، وكان عضوا بمجلس الشيوخ، ويتمتع بالحصانة البرلمانية فلم أعثر إلا على وثيقتين - كما سماهما - الأولى برقية أرسلها إليه حزب اللامركزية بمصر يوم تعيينه عضوا بمجلس الشيوخ ونصها:

قرر حزبنا باتفاق الآراء قبولكم لعضوية الأعيان، واعتمد الحزب عليكم بأن تكونوا واسطة لدى الحكومة لأجل المطالبة العربية الأخرى.

رفيق

والثانية كتاب توصية أرسله إليه الإمام يحيى بشأن موظف وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«أوحد النبلاء الأعاظم، أكمل العظماء الأفاخم. حائز مناقب الفخار عبد الحميد أفندى الزهراوى عمدة الخيار، ألبسه الله ملابس التوفيق والإقبال وأعاد على حضرته أتم تحية وإجلال.

إنه وصل المحرر العالى الذى جمع مع الإيجاز جزالة المعانى، وأفصح عما لحضرتكم من علو الجناب وشكرنا حسن الائتلاف وحسن النية فى شأن الائتلاف المبارك إن شاء الله وإنا لنرجو الله سبحانه أن يجعله فاتحة خير لجمع كلمة الموحدين، وإعزاز جامعة المسلمين ونؤمل كافة أن لا يبقى أثر للاختلافات الداخلية، الناشئة عن الأغراض والأحقاد الشخصية التى جلبت على الدولة العليـة والبلدان الإسـلامية ما قد علم من العلل والأمراض، وإنى لأشكر خاصة ما أبديتموه من التوجهات العلية، كما سررت بالقاء النظر العالى من حضرتكم على الشهم الغيور إلياس شكرى بك قائمقام أب فإن المومأ إليه قد سبقت له الخدمة فى اليمن ووفق لنيل الثناء على حسن الخدمة والإدارة زاده الله كمالا ووفقنا وإياكم لصالح الأعمال، وهذا مرسل أيضا بواسطة القائمقام المومأ إليه، ومستمد صوالح الدعوات المرضية، ودمتم موفقين وشريف السلام عليكم».

وهكذا فقد حاسبه على كتاب ورده من الإمام واتخذه حجة للفتك به. كما حاسبه على برقية حزب اللامركزية، وهو حزب رسمى معترف به، ومما يستحق الذكر أنه لم يرد للسيد الزهراوى ذكر فى البلاغ المنشور يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦[1] لأنه لم يقدم إلى التحقيق ولم يحاكم، وإنما سيق مع الذين سيقوا إلى دمشق مساء ٥ مايو وأعدم فيها فى الصباح، ثم تداركوا له هذه البرقية والرسالة فنشر وهما تبريرا لعملهم فى كتاب الإيضاحات فكانتا حجة عليهم لا لهم.

وكذلك فلم يسق جمال باشا فى كل ما كتبه برهانا يدين كل من عبد الوهاب الإنجليزى وشكرى العسلى ورشد الشمعة وسيف الدين الخطيب والشيخ أحمد طبارة وجرجى الحداد وسليم الجزائرى وعلى حاج عمر وأمين لطفى حافظ وجلال بخارى وسليم الأحمد عبد الهادى ومحمد المحمصانى ومحمود المحمصانى ومحمود العجم ونور القاضى وعبد القادر الخرسا ونايف تللو ومحمد مسلم وصالح حيدر وعلى الأرمنازى.

نعم: لا ننكر أن بين الوثائق التى عثروا عليها فى دار القنصلية الفرنسوية ـ وقد نشرنا

---

١ ـ انظر ص ٧٠.

واحدة منها آنفا ـ مايثبت وجود صلة بين الفرنسويين وشفيق المؤيد أحد الذين أعدموا فى دمشق فى مايو سنة ١٩١٦ وها نحن نثبتها بنصها:

من المسيو بمبار سفير فرنسا بالآستانة إلى وزارة الخارجية الفرنسوية بباريس الآستانة فى ١٥ يناير سنة ١٩١٣.

«سعادة الوزير:

«استقبلت شفيق بك المؤيد نائب دمشق وسليل أسرة كبيرة فى دمشق، ويتنبوأ اليوم مقاما كبيرا، وكانت زيارته للمفاوضة فى القضية السورية التى برزت على أثر كارثة مقدونية».

«وبعد مقدمة طويلة ملؤها المجاملة كما هى العادة فى الشرق، أخذ فى بيان القصد الذى دعاه إلى زيارتى فسألنى أولا وبطريق الابهام عن المعنى الذى ترمى إليه بياناتكم عن المسيحيين القاطنين فى البلاد العثمانية وشموله وكان يحاول أن يفهم هل يكون اهتمام فرنسا وشفقتها محصورين فى المسيحيين فقط أم يشمل مسلمى سورية الذين اعتادوا أن ينظروا إلى فرنسا كوطن ثان لهم فأجبته إنكم أحببتم أن تذكروا الواجبات الخاصة المترتبة على فرنسا إزاء المسيحيين الكاثوليك، وإن فرنسا صادقة فى مودتها ومظاهرتها القديمة لأهالى سورية من غير تفريق فى الدين والمذهب.

«وكان يظهر على شفيق بك أنه متأثر جدا من المساعى المصروفة بين المسلمين لاستمالتهم إلى انجلترا وقد كان كلامه عن المسيحيين ذا فائدة عظيمة بالنسبة لهذه المساعى ولقد شفت غليله الإيضاحات التى أعطيتها له، فأعرب عن شكره العظيم بعد أن طلب منى تكرارها مرات متعددة.

«لقد أوغل شفيق بك فى روح المسألة وبحث معى فى الإصلاحات الواجب تنفيذها فى الإدارة السورية، وعن اللامركزية، وعن قلب الولايات السورية الثلاث إلى إمارة وعن عدم تعيين الترك فى الوظائف العامة، وقال: إن الحكومة العثمانية لن تتأخر عن إرسال قوة لمقاومة هذه الأمانى. ثم سألنى هل فرنسا مستعدة لسوق جيش إلى حلب على فرض أن الحكومة العثمانية ساقت قوة لإبقاء سورية تحت سلطانها؟ فأجبته بإن الحكومة تنظر فى الحقيقة إلى اللامركزية بعدم ارتياح. لأنها تخشى أن تؤدى حركتهم إلى الانقسام، ولهذا يتحتم على الإصلاحيين قبل كل شيئ أن يقنعوا الحكومة بحسن نيتهم».

ويرى هو أن استقامة أهالى سورية لاتحتاج إلى مناقشة، وإنه متى كان موظفوهم

الملكيون والقضائيون ممن يتكلم بلسانهم، وكانت واردات ولاياتهم وبلدياتهم تحت أيديهم يتم لهم الإصلاح المطلوب. على أن تتولد من هذه الإصلاحات الأمور الأخرى. فأوصيته بالحذر والتأنى وتأخرت عن السير معه فى الساحة المحرقة التى أراد أن يجرنى إليها إما عن حسن نية أو عكس ذلك.

«ولقد سافر شفيق بك إلى مصر فى نفس ذلك اليوم ولا ريب إنه سيكرر للحكومة الإنجليزية نفس البيانات التى رددها أمامى وسيقابل بين جوابها وجوابى وإنى لأرجو أن تكونوا صريحين معه. وسيسافر من مصر إلى بيروت فيتحدث مع الإصلاحيين الذى جمعهم الوالى، وعند وصوله إلى دمشق سيبدأ العمل مع أصدقائه الذين تركوا المجال للبيروتيين».

«لقد بلغت القضية السورية كمالها فى الساحل بكل سهولة، ولا يلبث الهياج الحاصل من جرائها أن يتسع فى الداخل. فسكانه أحد مزاجا، وأشد من سكان السواحل المتمدنين المسالمين».

وكتب قنصل فرنسا فى بيروت إلى وزارة الخارجية يوم ٢٢ إبريل سنة ١٩١٣ بشأن زيارة شفيق بك ماترجمته:

«وصل شفيق بك المؤيد إلى هنا بعد توقفه قليلا فى مصر، وأمس زارنى وقد اجتهدت أن أخاطبه بنفس اللهجة التى خوطب بها فى دار السفارة فى الآستانة. على أن حديثنا انحصر فى حركات الإصلاحيين الأخيرة».

«وقد اعترف شفيق بك أن القادة أظهروا العجز، ودلوا على عدم دراية، وأنهم لم يصنعوا شيئًا سوى تنظيم اللائحة الإصلاحية، وقد وافقت الحكومة المركزية على تطبيقها، كما أدركوا ذلك. وأفادنى أيضا أن بعض الوكلاء وفيهم أحمد مختار بيهم وهو أذكى رجل مسلم فى بيروت سيتوجهون إلى الآستانة للمفاوضة مع ممثلى الحكومة العثمانية بشأن المسألة السورية، ومع ممثلى الدول فى لندن وباريس. ويجزم شفيق بك بأنه حصلت نتيجة مهمة حتى الآن وأن الأهالى المنقسمين إلى أحزاب متعددة قد اشتركوا فى المسألة السياسية مع ما بينهم من حزازت دينية قديمة. ويريد شفيق بك السفر إلى دمشق حيث حركات الإصلاح متأخرة عن بيروت وسيعمل لإنشاء حزب اللامركزية لا حزب للإصلاح، ويتعاون مع اللامركزية بمصر».

وكذلك فهناك وثيقة خاصة بالأمير عمر الجزائرى فقد جاء فى برقية أرسلها سفير

فرنسا فى الآستانة يوم ٢٧ يناير سنة ١٩١٣ إلى قنصل دمشق مانصه: وأظن أن الأشخاص الذين رجوك بواسطة الأمير عمر هم ممن يفكر بالاطمئنان على نفسه زيادة عن كل شيئ. فيجب عليك أن تصغى بمحبة ووداد لأن معرفة السوريين من مسلمين ومسيحيين بأنه يسوغ لهم أن يثقوا بنا من الأهمية على جانب عظيم إلخ إلخ..

ولا يوجد فى الوثائق الأخرى المنشورة ما يدل على وجود أى صلة لأى رجل من رجال الإصلاح واللامركزية بفرنسا سوى الذين ذكرنا أسماءهم هنا وأوردنا نصوص الوثائق الخاصة بهم لنضع الأشياء فى مواضعها.

كيف نفذت أحكام الإعدام

بقى علينا أن نصف حالة الشهداء حين إعدامهم، وطريقة الإعدام، ومافاه به كل واحد منهم، فقد نقل رجال الرعيل الأول بالعربات من عالية إلى ديوان الشرطة فى بيروت منتصف ليل ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٥ فأدركوا على الفور ما أعد لهم، فلم يجزعوا، ولم يهنوا، وتوضا معظمهم كما اغتسل أحدهم، وتقدم عبد الكريم من مفوض الشرطة وقال له:

- ألا يحضر الوالى إعدامنا
- كلا. فمدير البوليس ورضا باشا كافيان
- أتريد أن تدعو لى قليلا مدير البوليس
- حبا وكرامة

وذهب المفوض إلى مدير البوليس فدعاه وشد ما أسرع إلى مقابلة عبد الكريم، وكان أثناء إقامته فى الآستانة قد أنقذه من السجن مرتين فلما تقابلا التفت إليه عبد الكريم شامخ الرأس وقال له:

- أتذكر أننى أنقذتك مرتين من الموت.

فقطب مدير البوليس حاجبيه وقال:

أذكر ذلك، ولكننى عاجز الآن عن مكافأتك فقد حكم عليك من يد فوق يدى

- أنا لا أطلب منك أن تنقذنى الساعة لأننى أعرف الحد الذى يبلغ إليه عرفان الجميل عند الأتراك، ولو كلفوك أن تضع الحبل فى عنقى لما تأخرت ولفاخرت أقرانك بعملك

- والآن ماذا تطلب
- أطلب منك أن تقابلنى بالوالى عزمى

ـ ذلك مستحيل

ـ أتمنعون عن محكوم عليه بالموت رغبة يرجوها قبل موته

ـ قل ما تريد أن يعرفه الوالى منك وأنا أبلغه أياه حرفا حرفا.

ـ لا أريد ذلك إذا كان هو لايجسر أن يقابلنى وجها لوجه. ولكنى أريد منك أن تمنع كل تركى من الدخول على، وهذه هى إرادتى الأخيرة

ثم أدار ظهره وأخذ يمشى بسرعة وهو واضع يديه فى جيوبه

وأحب مدير البوليس أن يرضيه فى آخر ساعات حياته فمنع عن الدخول إلى غرفته فى تلك الساعة الرهيبة التى سبقت الإعدام كل مأمورى البوليس الترك.

وكان الجميع فى غرفة واسعة والجنود تطوق المحل من الخارج. وكانوا يسمعون من حين إلى آخر وقع حوافر الخيل وصلصلة السلاح وأوامر الضباط لجنودهم

وماهى إلى هنيهة حتى وصل إلى تلك الغرفة بوليس يحمل حبرا وأقلاما وقال للمحكومين.

ـ اكتبوا وصاياكم إذا شئتم.

وترك الأقلام والحبر على طاولة كبيرة فى الغرفة وخرج فجلس الشهداء يخطون على الطروس آخر ما تمليه عليهم الوطنية والعاطفة قبل ساعة الموت.

كتب كل واحد وصيته وتركها وديعة عند دار البوليس لتسلمها إلى أهله

وأعلنت الساعة الرهيبة فصدرت الأوامر إلى الجنود بتنكب السلاح ونادى منادى الويل فى المحكومين.

وأول من وقف تحت حبل المشنقة المرحوم عبد الكريم الخليل. أجرأ الشهداء، وأثبتهم جنانا، وأعفهم لسانا فقال بصوت جهورى وجمل متقطعة.

ـ قوانين العالم كلها تجيز للمحكوم عليه بالموت أن يقول إرادته الأخيرة قبل ساعة موته فهل يجيز لى قانونكم إيها الباشا (يريد رضا باشا قائد جبل لبنان يومئذ) أن أتكلم قبل أن يوضع الحبل فى عنقى.

فتوقف رضا باشا بضع ثوان لا يحير جوابا ثم أذن له فى الكلام فقال:

«أشهدكم أيها القوم أننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفتنا هذه، وإنى آسف على ماأظهرته من الإخلاص للدولة منذ نشوب الحرب، ولكن الاتحاديين أبوا إلا أن يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذى لا يملك من أمره شيئا. فإذا كان جمال باشا يتهمنا

بإضرام الثورة لاستقلال العرب فلابد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولنكن نحن أول هذه الضحايا».

«أنني أعرف السبب الحقيقي الذى شنقني جمال باشا لأجله وسيعرفه التاريخ»

ولما جئ بالأخوين محمد ومحمود المحمصاني إلى الساحة تعانق الأخوان طويلا قبل الصعود إلى منصة المشنقة ثم أخذ كل منهما يشجع الآخر على الموت وهما يبتسمان وصعدا معا إلى المشنقة بقدم ثابتة وكانت عين الواحد منطبعة على عين شقيقه»

ونادى المرحوم محمد، المأمور الموكل بتنفيذ الحكم وقال له:

- لى رجاء إليك قبل موتى وهو أن تتكرم وتنفذ الحكم بى وبأخى فى وقت واحد حتى لا يتعذب الواحد منا بمرأى أخيه يموت أمامه

ولما وقف محمد تحت الحبل أجال نظره فى الجمع وقال بصوت جهورى:

- يشهد الله إنى لم أخن وطنى دقيقة واحدة. يشهد الله أن مافعلته وقمت به من الحركات التى اتهمت بها إنما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع بأنى أخدم بلادى وأنجيها إنى أموت شهيدا. فلتحيا أمتى وليحيا العرب.

ودفعت الطاولتان بحركة واحدة من تحت أقدام الأخوين، وما هى إلا خمس دقائق حتى كانا كرفاقهما الشهداء جثة بلا حراك.

ثم جئ بالمرحومين عبد القادر خرسا ونور الدين القاضى فوقف نور الدين تحت الآلة وقال:

- إنى برئ ياناس مما اتهمت به، فأرجوكم أن تبلغوا أخى سلامى، ثم قولوا له أن لا يتأثر ولا يبكى على. لأنى مت ميتة الأبطال وأنى لم أسود لاسمى صحيفة لافى الحياة، ولا فى الممات وهوى الكرسى من تحته فقضى مثل رفاقه

وكان كل شيئ قد انتهى عند الساعة الرابعة، وصعدت أرواح أحد عشر شابا من خيرة أبناء البلاد تلاقى ربها.

أما الذى كان يقرأ أمام رضا باشا ومدير البوليس وهيئة الديوان العرفى فرمانات الإعدام فهو ضابط مغربى برتبة يوزباشى. كان عضوا فى الديوان العرفى واسمه عبد الله.

وعند الصباح جئ بإحدى عشرة عجلة فانزلت الجثث عن الأعواد ووضعت كل واحدة منها فى عربة وجلس عن جانبيها بوليسان وساروا بالجميع إلى الرمل حيث حفروا لكل واحد حفرة واروه فيها

أما الأخوان محمد ومحمود محمصانى فقد وضعا معا فى حفرة واحدة وقد أبقى الأتراك فرقة من رجال البوليس والجندرمة حيال القبور حذرا من سرقة أجساد الشهداء، غير أن بعضا من عائلة حيدر صمموا النية على سرقة جثة المرحوم صالح فجاءوا الرمل وغافلوا البوليس الواقف أمام حفرة فقيدهم، أو بالأحرى اسكتوه وأخذوا الجثة بعد دفنها بنهار واحد

شهداء ٦ مايو سنة ١٩١٦

ولم انتهت المحاكمة الصورية فى شهر مايو وتقرر الإعدام نقل الذين سيعدمون فى بيروت إلى ديوان شرطتها ليلة ٦ مايو. فأدركوا على الفور مايراد بهم. ونقل الآخرون إلى دمشق. وكان الذين نقلوا إلى بيروت يملأون الفضاء بنشيد:

نحن أبناء الألى   شادوا مجدا وعلا
نسل قحطان الأبى   جد كل العرب

واستمروا على ذلك طول مدة وجودهم فى دار الشرطة، وكانوا كأنهم فى حلقة أدب فلا خوف ولا جل.

وعند الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل تحفز الجنود ورجال البوليس ونادى المنادى فى الجنود «السلاح» فتجمعت تلك الفرق المسلحة المبثوثة فى كل أنحاء البلاد كأنها على أهبة الدخول فى المعركة.

ودخل البوليس إلى غرفة الشهداء، ونادى ثلاثة منهم هم المرحوم سعيد عقل والمرحوم باترو باولى والمرحوم جرجى حداد، فلما سمع الجميع صوت البوليس، وكانوا قد جمعوهم فى غرفة واحدة علا ضجيجهم وأخذوا ينادون: حبذا الموت حبذا المشنقة فى سبيل الوطن، خذونا كلنا سوية إلى آلة الإعدام.

وأخذوا يتمشون صفوفا فى الغرفة ذهابا وإيابا وهم يرددون بصوت عال جهورى نشيد: نحن أبناء الألى

أخذ الجند الرفاق الثلاثة مكبلين بالقيود إلى ساحة الإعدام وكان الظلام دامسا والسكينة المخيفة سائدة على تلك الساحة لا يسمع فيها سوى صدى الشهداء الذين كانوا

يرددون نشيدهم فى دائرة البوليس، أو صهيل جواد جندى، أو طقطقة سيف ضابط على بلاط الشارع.

تقدم الثلاثة بقمصانهم البيضاء إلى الصف الأول من المشانق التى كانت منصوبة فى جهة ساحة الاتحاد الغربية ففحص الطبيب أجسامهم (لأن القانون يقضى بعد إعدام المريض)وكان ضابط الديوان يتلو نص الحكم بالإعدام فى ذلك الوقت وهو يحرك رأسه ويديه بطريقة غريبة مزعجة.

فغضب المرحوم باترو باولى من كل هذه الحركات و«الرسميات» وصرخ فيهم بصوته الجهورى:

- عجلوا بنا وخلصونا من وجوهكم اللعينة، كان الأولى بكم بدلا ن أن تفحصوا أجسامنا بدقة أن تحاكمونا بعدل.. أننا لانخاف الموت.

ومن لا يمت بالسيف مات «بحبلة»: تعددت الأسباب والموت واحد

... خلصونا.. عجلوا

وصعد هو من تلقاء نفسه إلى منصة المشنقة ورفس الكرسى برجله فأهوى وقضى، وجاء دور المرحوم سعيد عقل فوقف على منصة المشنقة والتفت إلى الواقفين حوله قائلا: -

غفر الله لمن ظلمنى، وأسأل ربى أن يكون دمى الذى يراق الآن سببا فى المستقبل لحياة بلادى وشرفا لعائلتى وأولادى.

ثم التفت إلى الطبيب الواقف أمامه وقال له:

- رجائى إليك، وأنت من أهل بلادى، أن تهوى بكل قوتك علىّ حال تعلقى لأن خفة جسمى تمنع انقطاع حبل حياتى بسرعة

وجاء الجنود بثلاثة رفاق جدد للإعدام هم المرحوم عمر حمد والمرحوم عبد الغنى العريسى والمرحوم الأمير عارف الشهابى

وكان البوليس قد طلب من عبد الغنى أن يخرج من الدائرة إلى الساحة مع عمر حمد وحدهما فالتفت إليه عبد الغنى وقال له:

- إذهب وقل لرئيسك إن عبد الغنى يطلب أن يعدم مع رفيقه الأمير عارف، ولا يحب أن يفترق عنه حتى فى الموت.

فذهب البوليس ثم عاد وقال له:

- حسن فليذهب معك

فريق من شهداء العرب



عبد الحميد الزهراوى — الشيخ أحمد طباره — عبد الغنى العريسى

شكري العسلى — عبد الوهاب الإنكليزى — رشدى الشمعة

جرجى الحداد — سيف الدين الخطيب — جلال البخارى

ولما خرج الثلاثة من الدائرة أخذوا يرددون بصوت عال النشيد الذى ذكرنا مطلعه عدة مرار وكان صوت المرحوم عمر حمد الجهورى يرن بنبراته الشديدة فى ذلك السكون المظلم فتردد صداه جدران منازل بيروت.

وكتب المرحوم عمر حمد على الطاولة قبل خروجه من دائرة البوليس ثلاثة أبيات حماسية من الشعر أخذ يرددها وهو صاعد إلى المشنقة.

ولما وقف ذلك الشهيد على منصة الإعدام خاطب رضا باشا ومدير البوليس باللغة الفرنساوية ماتعريبه:

أنى أكلمكما باللغة الفرنسوية لأنكما لا تفهمان العربية. فبلغا حكومتكما الظالمة أن هذا العمل الذى تعمله الآن سيكون سببا فى خرابها وتقويض أساساتها

ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة العربية

- إنى أموت غير خائف ولاوجل. أموت فداء الأمة العربية، فليسقط الأتراك الخونة وليحيا العرب.

ولما وصل الشهيد إلى كلمة «فليسقط الأتراك الخونة» أشمأز منه الموكل بأمر إعدامه فضرب الكرسى من تحته قبل أن يتمكن الحبل من عنقه فأهوى المسكين إلى الأرض وهو بين حى وميت، فما كان من لؤم ذلك الوحش إلا أن وخزه بسيفه شاتما لاعنا، ثم حمله مع رفيق مثله، ووضع الحبل فى عنقه رغما عن سيلان الدم بغزارة من جرح بالغ أصابه فى رأسه أثناء الوقوع والضربة

والتفت عبد الغنى عند هذا الحادث إلى الواقفين من مأمورى الحكومة وقال لهم

- عار عليكم أن تعذبوا المحكوم بالإعدام إلى هذه الدرجة، إن الإنسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال.

فشزره الشرطى بخشونة ولؤم قائلا بشراسة:

- هذا لا يعنيك ومن يخن دولته ينله أكثر من ذلك

وجاء دور المرحوم عبد الغنى العريسى فوقف على المنصة وحاول البوليس أن يعجل فى وضع الحبل فى عنقه فالتفت إليه عبد الغنى وقال له باشمئزاز:

- دعنا نتكلم ياهذا واحترام إرادة رجل يموت

- ولماذا الكلام؟ ومن يسمعك ويعتبر كلامك الآن؟ دعنا من هذا الخلط ياعبد الغنى

وأسرع إلى وضع الحبل فى عنقه، فنفر منه عبد الغنى والتفت إلى الناس وقال بصوت جهورى:

- بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب وأن أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون فى المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك

إن الدول لا تبنى على غير الجماجم، وإن جماجمنا ستكون أساسا لاستقلال بلادنا

وكان الكرسى قد هوى من تحت الشهيد، فتغلغل صوته فى صدره، وانتفض جسمه قليلا ثم قضى

وعجل البوليس بإعدام المرحوم الأمير عارف فلم يتركه يتكلم أكثر من بضع كلمات، وجئ بعد ذلك بالقافلة الثالثة فكانت مؤلفة من المرحوم الشيخ أحمد طبارة ومحمد الشنطى وحدث فى هذه الأثناء حادث مؤثر، وهو إن عائلة المرحوم الشيخ أحمد طبارة كانت معتقدة بأن الشيخ سيحكم عليه بالنفى فقط، ولكن همس الناس فى الآذان ولد فى صدر عائلته شكا فلم يغمض لأخوة المرحوم فى تلك الليلة جفن، وجاء إثنان منهم إلى ساحة الاتحاد ليشاهدا المحكوم عليهم، ولم يكونا قادرين على معرفة القادمين إلى الإعدام بسبب الظلام من جهة وصفوف الجنود من جهة ثانية.

وصعد الشيخ المرحوم إلى منصة المشنقة وأخواه واقفان ينظران إلى جهته ولا يعرفانه حتى بدأ بالكلام فشعرا بالضربة الهائلة وأهوى الصغير على صدر أخيه ينتحب ثم عادا إلى البيت يحملان للأرملة والأم والأطفال والإخوان ذلك الخبر المفجع.

وظل الجنود يقودون الشهداء اثنين اثنين إلى المشانق حتى جاء دور المرحوم توفيق البساط، فوصل إلى أمام الساحة - وكان الفجر قد بدأ بأنواره يكشف حلك الليل - وهناك شاهد أحد عشر شابا من خيرة شبان البلاد كانوا من ساعة يكلمونه فإذا هم الآن جثث معلقة لا حراك بها ولا حياة. شاهد ذلك المشهد المؤثر فتجسمت فيه إذ ذلك تلك الروح العالية روح الشجاعة الحقيقية، والتفت إلى إخوانه المشنوقين وإلى شانقهم وقال بصوت جهورى ووجه بسام:

- مرحبا بأرجوحة الشرف! مرحبا بأرجوحة الأبطال! مرحبا بالعمد التى تسند إليها الأمم فى استقلالها، مرحبا بالموت فى سبيل الوطن الحر..

وكان يمشى بسرعة أثناء كلامه هذا إلى المشنقة فما أنتهى من جملته الأخيرة حتى كان

قد أصبح على منصة المشنقة فوضع الحبل فى عنقه وبسرعة البرق رفس الكرسى فأهوى ومات شهيداً.

ولما قضى توفيق البساط التفت رضا باشا إلى البوليس وقال له:

من بقى عندكم؟

فأجابه - الضابطان سليم الجزائرى، وأمين لطفى

(وكان المرحومان من كبار ضباط الجيش العثمانى ومن أركان حرب الجيش)

فلما سمع رضا باشا اسم الضابطين نهض مسرعا إلى دار الشرطة، وقابل المرحومين هناك، ودامت المقابلة نصف ساعة تماما، وكان المرحوم أمين لطفى فى أثناء المقابلة يتكلم بهلجة قوية ويقول لرضا باشا:

- ليقل لنا الديوان العرفى على الأقل كيف حكم علينا بالإعدام. لماذا لم يستنطقونا؟ لماذا لم يسمعوا كلامنا؟ أهذا هو جزاء خدماتنا للدولة؟

وأخيرا قال لهما رضا باشا:

- سأخابر القيادة العليا بشأن العفو عنكما

وجلس حالا إلى التليفون وطلب مخابرة جمال باشا فأجيب: إنه متغيب وأن فخرى باشا وحده فى القيادة. فطلب محادثته ودامت المحادثة عشر دقائق حاول رضا باشا فى أثنائها طلب العفو عن المرحومين بصفة كونهما من كبار ضباط الجيش. غير أن الجواب كان يرن دائما من بوق التليفون بهذه الكلمة.

- أولماز (غير ممكن)

ولما يئس رضا باشا من استجداء العفو عنهما التفت إلى سليم الجزائرى وقال له متأثرا

- ماذا تريد أن أفعل بعد الآن ياصديقى! تعال أنت وخاطب فخرى باشا

فاقترب سليم من آلة التليفون وطلب مخابرة فخرى فلم يسمع غير هذه الكلمة

- أولماز!!

فرفع يده مهددا غاضبا ورمى الآلة فحطمها والتفت إلى رفيقه وقال له:

- هلم بنا....

وتقدم رضا باشا من المرحوم سليم الجزائرى فصافحه وعاد أدراجه ليحضر مشهد إعدامه بصفته الرسمية

وكان الجزائرى مهابا محترما فى الجيش. حتى أن الضباط كانوا يحترمونه ويهابونه

وهو فى الديوان العرفى سجينا بل أن رهبتهم منه لم تنقص حتى ساعة إعدامه

ومشى الضابطان معا بثيابهما العسكرية ومهاميز أحذيتهما الطويلة ترن على بلاط الشارع وكان سليم الجزائرى يردد نشيده المشهور

ولما اوصل الرفيقان إلى أمام المشنقة كان قد مضى ساعة على إعدام الإثنى عشر شهيدا قبلهم وكانت أنوار الفجر قد انبسطت على بيروت المرعبة الحزينة، وحاول البوليس أن ينزع (قلبق) الشهيدين عن رأسيهما والشارات العسكرية عن أكتافهما. فأبيا، وأمر رضا باشا البوليس أن يتركا على حالهما

فصعد المرحوم سليم أولا إلى منصة الإعدام ونظر إلى الحضور من تحت نظارتيه البلوريتين بعينين تكاد البطولة الصادقة تلمس خلال لمعانهما ثم قال لرضا باشا

- قل لهذا الخنزير الكلب جمال باشا أن لايفرح بموتى لأن روحى ستظل حية، وتعلم أبناء البلاد من وراء القبر دروس الوطنية وبغض الأتراك

ولما جاء البوليس ليضع الحبل فى عنقه أراد أن ينزع نظارتيه عن عينيه فمانع وقال لهم بنبرة الأمر:

- إعدمونى على حالى كما عشت لأنى لا أريد أن أموت وفى شيئ ناقص

فلم يستطيع البوليس إلا الطاعة، وقضى ذلك الشهيد البطل فى الثوب الذى كان يلبسه وهو يقود الجيوش!

ولما جاء دور المرحوم أمين لطفى صعد إلى منصة الإعدام وهو يضحك ويردد النكات المضحكة هازئا بالدولة التركية. وتلبك البوليس فى وضع الحبل فى عنق الشهيد فالتفت إليه وقال له ساخرا باللهجة المصرية:

- ألم تعلم طرق الإعدام كما يجب ياواد؟ ضع الحبلة فى عنقى بفن ونزاكة على الأقل جزاء خدماتنا للدولة.

ولما لم يحسن البوليس وضع الحبلة أخذ المرحوم الحبل منه ووضعه هو بنفسه فى عنقه ولكن البوليس رفس الكرسى من تحت رجليه قبل أن يمكن الشهيد الحبل من جوزة العنق فأهوى وظل يتعذب مدة عشر دقائق.

هذا فى بيروت أما فى دمشق، وقد أعدم فيها كل من عبد الحميد الزهراوى وشفيق المؤيد، وعبد الوهاب الإنجليزى، وشكرى العسلى، والأمير عمر الجزائرى ورفيق رزقى سلوم فى نفس الوقت الذى أعدم فيه شهداء بيروت - أى فى صباح ٦ مايو - فقد تقدم

المحكوم عليهم بجأش رابط إلى المشنقة. فأبان شفيق المؤيد بكلمات موجزة الغاية الشريفة التى سعى إليها رجال العرب، وطلب فى الختام قراءة الفاتحة على أوراحهم وقال المرحوم شكرى العسلى «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» ولما أزيح الكرسى من تحت أقدام المرحوم السيد الزهراوى أنقطع به الحبل فرفع مرة ثانية وشد من رجليه شدا قويا. ففاضت روحه إلى بارئها.

قضية خان الباشا

رغم إعلان جمال باشا فى بيانه الرسمى الصادر يوم ٦مايو انتهاء دور القضايا السياسية، ورغم حل ديوان عرفى عالية وتفرق رجاله، فقد برزت على الأثر قضية ثالثة كانت دمشق مسرحا لها، وقد سميناها قضية خان الباشا. لأن الذين أوقفوا فيها أعتقلوا فى خان يسمى بهذا الاسم فى دمشق

وخلاصة هذه القضية أن أمير اللواء شكرى باشا الأيوبى، وكان رئيسا لمصلحة المطاحن فى الجيش الرابع، والذى ذكرنا خبر الجلسة التى عقدت فى بيته لتأييد الدولة اضطرب اضطرابا عظيما وجزع أشد الجزع حينما جاءه نبأ إعدام الذين أعدموا فى بيروت ودمشق ظلما وبغيا، فاقسم لينتقمن لهم وليحاسبن جمال باشا حسابا غير يسير على ما اجترح وارتكب.

واتصل الخبر بولاة الأمور الترك فأصدروا تعلميمات بوضعه تحت مراقبة شديدة وإحصاء حركاته وسكناته. فظلوا على ذلك نحو شهر وفى ذات يوم من شهر يونيو سنة ١٩١٦ استوقفه أحد رجال الأمن ومد يده إلى جيبه فانتشل محفظته وفتشها فعثر فيها على خطاب حماسى مرسل إليه من عمر الرافعى الطرابلسى، وفيه يحمل على الترك حملات شديدة، ويصفهم بالقسوة والوحشية، ويقول لابد لنا أن نثأر منهم تحت لوائك وقيادتك وقد مزج كتابه باصطلاحات صوفية. فاعتقل شكرى باشا على أثر هذا الاكتشاف فى فندق من فنادق دمشق النائية، ووضعوا على باب غرفته شرطيا لمنعه من الاتصال بالناس. وجاءه ذات يوم نجمله الصغير «فصيح» فكلمه باللغة التركية ـ وكان الشرطى الواقف على الباب يصغى إليهما رغم تظاهره بالنوم ـ وقال له إذهب إلى والدتك وقل لها أن تبلغ شكرى القوتلى بإن يعد لى معدات السفر فى جرمانا لأننى أود الفرار إلى الحجاز للالتحاق بالثورة.

وما كاد الغلام يخرج من الفندق حتى انطلق الشرطى فأبلغ الأمر إلى مدير الشرطة فبعث الشرطة فقبضوا عليه وهو فى طريقه إلى البيت وسألوه عما قال له والده فأنكر فضربوه ١١ قضيبا فاعترف بما قاله له، فأرسلوا قوة أحاطت بقرية بالا حيث يقيم شكرى القوتلى وقبضت عليه وجاءت به إلى السجن.

وبدأ التحقيق على الأثر مع شكرى باشا فأنكر وجود أى صلة له بأحد فضربوه حتى أدموا رجليه ويديه وسحبوا أظافره وتفننوا فى تعذيبه وهو يصر على الانكار.

وقبضوا فى تلك الفترة على عبد الغنى الرافعى وكان يتردد على شكرى باشا ويتصل به وزجوه فى السجن، وضربوه ضربا مبرحا ثم عثروا على أمتعته فى فندق من فنادق دمشق (عدن بالاس) فوجدوا مشروع منشور أعده بالاتفاق مع شكرى باشا بالدعوة إلى اضرام نار ثورة عربية طلبا للانتقام من جمال باشا.

واتسع نطاق التحقيق فقبض على الشيخ صالح الرافعى، وفارس الخورى نائب دمشق يومئذ، وعمر الرافعى والشيخ عبد القادر كيوان وسعدى المنلا سكرتير شكرى باشا، ورشيد الرافعى وعبدالحميد باشا القلطقجى، وصدر الأمر باستدعاء الدكتور أحمد قدرى من معان فجئ به على الأثر.

ولما هددوا شكرى القوتلى بالضرب اعترف اعترافا مؤولا على أنه مالبث أن حاول الانتحار فقطع إحدى شرايين يده اليسرى بموسى بعد ماوضع كتابا تحت وسادته كتب فيه أنه ينتحر تخلصا من المسؤولية الوجدانية لاتهام أبرياء خوفا من القتل والتعذيب وقد تداركه الأطباء وأنقذوه.

وحوكم المتهمون فى هذه القضية أمام ديوان حرب دمشق، وكان مؤلفا برئاسة القائمقام فخر الدين بك وعضوية مصطفى بك وهو بكباشى فى المشاة ومن أهالى طرابلس الغرب وضابط تركى آخر اسمه واثق بك برتبة أميرالاى فى الفرسان وبعد أخذ ورد امتد أشهرا أصدر الديوان قرار ببراءتهم جميعا.

وحمل الرئيس هذا القرار إلى جمال باشا فألقاه فى وجهه وقال له: إذهب فأنا أريد عقوبة لا براءة. فعاد إلى زملائه وأبلغهم ما وقع فتمثل الضابط المغربى العربى يقول المتنبى:

يقضى على المرء فى أيام محنته * * * حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

وجرت المحاكمة مجددا فحكم بالإعدام على كل من شكرى باشا الأيوبى وعبد الغنى الرافعى وعمر الرافعى وباعتقال الشيخ عبد القادر كيوان فى إحدى القلاع لمدة أربع سنوات وتبرئة الباقين، ولما كانت التعليمات الجديدة التى أصدرتها القيادة العليا فى تلك الأيام تقضى بعدم جواز إعدام المحكومين السياسيين قبل إرسال قضاياهم إلى الآستانة وفحصها وتدقيقها، وقد لجأوا إلى هذه التدابير على أثر فظائع جمال باشا فضيقوا بذلك نطاق سلطته الواسعة. أرسل أعلام الحكم إلى ديوان التمييز العسكرى المؤلف برئاسة فؤاد باشا فعاد منقوضا، وقد كتب عليه أنه لا وجه لإقامة الدعوى على المتهمين لأن الجرم المنسوب إليهم لم يخرج إلى حيز التنفيذ، وحفظ جمال باشا النقض فى ديوانه ولم يبلغه إلى الديوان العرفى لتنفيذه، ولما قرب زمن مغادرته لسورية (خريف سنة ١٩١٧) دعا فخرى بك وأبلغه القرار، واشترط عليه أن يظل شكرى باشا وكيوان وعبد الغنى وعمر الرافعى فى الاعتقال إدارة. فتم له ما أراد وأطلق سراح الآخرين ولم يفرج عن عمر وعبد الغنى الرافعى والشيخ كيوان إلا عشية دخول الجيش العربى إلى دمشق فقد جاء شكرى باشا الأيوبى بنفسه بعد ظهر الاثنين ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ وكان قد أفرج عنه قبل ذلك ببضعة أشهر ـ وفتح باب السجن وأسطلق سراح المسجونين باسم ملك العرب ، وكان قد تسلم المدينة قبل ذلك بساعات من الترك الذين جلوا نهائيا عنها ظهر ذلك اليوم.

ومما يستحق الذكر أن جمال باشا استدعى شكرى باشا الأيوبى إلى مقره، وذلك بعد اعتقاله ببضعة أشهر، وطلب إليه بعد مقدمة طويلة أن يسافر إلى الحجاز ويقابل الحسين ويتوسط للصلح وحقن الدماء على أن تنظر الدولة فى مطالبه بعد الحرب وتنصفه، فقال له أنه لايسافر إلا إذا حمل شروطا صريحة. فأجابه جمال باشا أن مثلنا الآن كمثل سكان منزل يحترق بالنار. فبدلا من أن يبادروا إلى إطفائه يشتغلون باقتسام الغرف فيذهب المنزل طعمة للنيران بتهاونهم، وانتهى هذا السعى بالاخفاق لأن الباشا أبى التوسط، وكذلك عرض عليه مثل هذا الاقتراح من جانب جمال باشا الصغير على أثر توليته القيادة العامة فاعتذر أيضا.

وكانت هذه القضية خاتمة القضايا الكبرى الثلاث، التى شغل أمرها سورية والعالم العربى.

جمال باشا يشهد نتائج أعماله

ونرى من الواجب علينا ونحن نختم هذا الفصل أن نشير إلى أن أحمد جمال باشا لم يغادر سورية إلا بعد أن شاهد ماكان لعمله الفظيع من نتائج سيئة عجلت فى القضاء على الدولة وإخراجها من بلاد العرب، وقد اعترف بذلك ضمنا فى مذكراته، كما اعترف بأنه لولا اتفاق الإنجليز مع الحسين لما عبروا القناة إلى الضفة الثانية ولما تقدموا فى فلسطين وسورية لمحاربة الترك الذين أضطروا كما قال جمال باشا لأن يشطروا قواهم إلى شطرين: شطر كان يحارب الإنجليز وشطر كان يحارب العرب. مما عجمل فى انكسارهم وأدى إلى انتصار العرب والإنجليز. وها نحن ننقل ماكتبه بقلمه فى مذكراته تعريب على أحمد شكرى ص٢٨٩:

«وكان جل همى فى ذلك الوقت (فبراير سنة ١٩١٦) أن أعمل لحمل الشريف على إرسال كتيبة إلى فلسطين بقيادة أحد أبنائه. ولتحقيق هذه الغاية كاشفت الشريف فيصل وفاوضته مليا، وتبادلنا مع الشريف حسين سلسلة رسائل وافية، وفى النهاية أصبحت يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٦ أمام ثورة الشريف حسين فكانت ضربة قاضية على حملة القناة.»

«وقد أخذت أفكر فى أمر الإنجليز. فرأيت أنهم لو أرادوا مهاجمة فلسطين برًا لتعين عليهم إنشاء خط مواصلات بين القناة وفلسطين كما فعلنا، وربط هذين القطرين بسكة حديد، ولم تجرؤ كتيبة إنجليزية فى عام كامل على أن تطأ ضفة القناة الشرقية ١٩١٥ - ١٩١٦»

«وأول ما اكتشفناه من أعمال الإنجليز الدفاعية كان فى أواخر شهر يناير سنة ١٩١٦ فقد أنشأوا استحكامات عند رؤوس الجسور فى ضفة القناة الشرقية تجاه القنطرة والإسماعيلية ويوافق تاريخ إنشاء هذه الاستحكامات تاريخ آخر خطاب أرسله الحسين إلى الإنجليز، وأكد لهم فيه خروجه علينا، ومن هذا يتبين أنهم لم يقرروا العبور إلى الشاطئ الشرقى، أو بعبارة أخرى لم يبدأوا بالهجوم على فلسطين إلا بعد أن استوثقوا من الشريف، وتأكدوا أن ثورته ستضطرنا إلى اتخاذ تدابير خاصة لحماية الحجاز. بل إلى أن نسحب من فلسطين بعض قواتها. وفضلا عن ذلك فقد كانوا واثقين أن البدو الذين أغروهم بالأموال الطائلة المرسلة بواسطة الشريف سيثورون ضدنا، وأن ثورتهم ستضعفنا كثيرا».

وقال فى مكان آخر «والتضحيات الهائلة التى اقتضاها تموين حامية المدينة، وإمداد

فريق من شـــهداء العرب



أمين لطفي



سليم الجزايري



الأمير عارف الشهابي



عبد القادر الخرسا



نايف تللو



محمد المحمصاني

الجنود المرابطة بين المدينة ومعان بالمؤونة والذخيرة حتمت علينا أن نشطر المؤن المخصصة لفلسطين إلى شطرين، وحالت دون تعزيزنا لهذه الساحة بالقوى اللازمة متى شئنا وكيفما أردنا».

ووصف فى مكان آخر إخلاص العرب للدولة وماأبدوه من ضروب الشجاعة والإخلاص فى خلال حملة القناة الأولى (يناير وفبراير سنة ١٩١٥) أى قبل أن يضرب ضربته الكبرى ويفتك برجال العرب فقال (ص ٢٦٣):

«ويعجز اللسان عن أن يوفى القوات العثمانية ـ لا فرق بين ضباطها وجنودها الذين اشتركوا فى حملة القناة الأولى حقهم من الثناء على مابذلوه من المجهودات، وأظهروه من ضروب الوطنية العالية. وأرى من واجبى إظهار إعجابى بأولئك الجنود البواسل الذين قاموا بذلك الزحف، غير مبالين بما لاقوه من ضروب الضنك وتحملوه من المشاق فى سحب المدافع. فضلا عن الجسور المتحركة وسط بحر الرمال . وقد ساد بين رجال الحملة ـ لا فرق بين الترك والعرب ـ شعور العطف الأخوى، ولم يكن بينهم من يضن بحياته دفاعا عن إخوانه. والواقع أن الحملة الأولى على القناة كانت برهانا ساطعا على أن أكثرية العرب الساحقة انضمت إلى الخلافة بقلوبها وجوارحها».

«أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم (فرقة دمشق) بمنتهى الشجاعة والإخلاص. فلذلك لا يمكننى مطلقا تخفيف الحقد والسخط اللذين أشعر بهما نحو الشريف لبذره بذور الخلاف فى تلك الكتلة التى توحد شعورها».

وقال فى مكان آخر ص ٢٨٠: «وقد أدت فرق التموين واجبها بدقة تامة، ووصلت فى مواعيدها المضروبة. ومسألة المسائل التى تعتبر على جانب عظيم من الأهمية هى أنه لم تحدث خيانة واحدة، أو فرار واحد بين عرب سورية وفلسطين، الذين تكونت منهم وحدهم فرق التموين».

هذا بعض ماكتبه فى صدد الأعمال العسكرية، وهو يؤيد ما ذهبنا إليه فى فاتحة هذا الفصل، وهو أن العرب أخلصوا للدولة فى بدء الحرب، وتقدموا للدفاع عنها بكل قواهم وبذلوا الغالى والرخيص فى سبيلها فلما جازاهم جمال باشا بالشنق والقتل والنفى والتغريب والتعذيب ومصادرة الأموال وهتك الأعراض، انقلبوا عليه فكانت النتيجة التى وصفها بقلمه أبلغ وصف. وقد كان عليه أن يرجع باللائمة على نفسه بدلا من أن يحمل التبعة غيره. فلولا تصرفاته لما ثار العرب على الدولة، ولما شهروا السلاح فى وجهها.

وثمة جريمة أخلاقية أخرى ارتكبها جمال باشا، فقد وصم جميع الذين شنقهم ونفاهم أو حكم عليهم بالإعدام غيابيا، بتهمة الخيانة للدولة والتآمر عليها، ولئن صحت هذه التهمة بالنسبة لنخلة مطران ويوسف الهانى وبيتر باولى وقد كانوا يمهدون لاستيلاء فرنسا على سورية ولأبناء الخازن ولشفيق المؤيد من بعض وجوه وللأمير عمر الجزائرى ـ ولهذا بعض العذر باعتباره من رعايا فرنسا ـ فإنها لا تصلح بالنسبة للشهداء الآخرين الذين لم يقترفوا ذنبا، ولم يرتكبوا خيانة يستحقون أن يحاكموا عليها فضلا عن إعدامهم[1] لولا الرغبة فى التخلص منهم والقضاء على الحركة العربية فى أشخاصهم.

وهذا نص الوثيقة الخاصة بيوسف الهانى وهى التى عثروا عليها فى دار قنصلية فرنسا ببيروت:

إلى جناب المسيو كوجيت قنل فرنسا العام فى سورية:

سيدى القنصل العام:

نظرا لأن فرنسا هى الحامية الطبيعية للمسيحيين العثمانيين والوطن الثانى لمسيحى سورية نتشرف نحن الموقعين على هذه العريضة الأعضاء المسيحيين باللجنة التنفيذية فى الجمعية العمومية المنتخبة بواسطة مجالس النقابات بولاية بيروت لوضع مشروع إصلاح لتلك الولاية بأن نعرض على أنظار قنصل فرنسا العام فى سوريا الملاحظات الآتية:

١ ـ موقف المسيحيين العثمانيين

٢ ـ الإصلاحات التى اقترحتها اللجنة التنفيذية

٣ ـ أمانى وآمال المسيحيين السوريين

ولنا وطيد الأمل فى أن يعرض جناب القنصل العام هذه الملاحظات على حكومة جمهورية فرنسا، ويؤيدها بكل نفوذه

١ ـ موقف المسيحيين العثمانيين

لقد كانت حالة المسيحيين فى الإمبراطورية العثمانية سيئة بل محزنة، ولربما تزداد الحالة سوءا عقب الحرب البلقانية والهزائم التركية لأن النتائج المباشرة لتلك الهزائم هى:

---

١ ـ يقول الأمير شيب أرسلان فى مقالات نشرها فى مجلة المنار سنة ١٩٢٢ دفاعا عن سياسته فى العهد التركى أن جمال باشا لما صمم على شنق المعتقلين استدعى شكرى بك رئيس ديوان الحرب العرفى إلى دمشق وسلمه أسماء ٤٠ شخصا يجب الحكم عليهم بالإعدام فراوده شكرى بك كثيراً وداقع كثيراً فهدده بالقتل كما قال. ولما قال له إن وجدانه لايرتاح إلي الحكم بالموت إلا على ثلاثة وبالأكثر على خمسة استحضر أعضاء الديوان وهم ضباط شبان لايخرجون على إرادته وكانت النتيجة الحكم على ٢١ فقط..

١ ـ زيادة الضرائب

٢ ـ بعث روح التعصب الدينى بين المسلمين

٣ ـ حمل مسيحيى سورية من جديد على الهجرة

أما من حيث زيادة الضرائب فإن الحكومة التركية على أثر ضياع ممتلكاتها فى أوربا ستسعى ـ بل هى ساعية الآن فعلا ـ إلى نقل العبء الذى كان على كاهل الولايات الأوربية إلى الولايات الأسيوية، والعارفون بحيل الإدارة التركية ووسائل إرهاقها فى فرض الضرائب يعلمون جيد العلم أن الأعباء الجديدة لن تقع إلا على كواهل الأهالى المسيحيين وحدهم

وأما من حيث التعصب الإسلامى فإنه كان أقوى وأنفع سلاح فى أيدى الساسة العثمانيين، وهم لم يحجموا عن استعماله فى الحوادث الأخيرة فى البلقان، فقد كان المسلمون يعتبرون الحرب البلقانية حربا دينية بين الهلال والصليب تألبت فيها الدول المسيحية على الإسلام.

وعلى ذلك ليس أيسر على المسلمين من أن يظنوا أن وجود المسيحيين فى الدولة العثمانية هو السبب الرئيسى فى هزيتمهم وتضعضعهم، والمسيحيون العثمانيون هم فى نظر المسلمين أصل الشر وسبب البلايا التى نزلت بالدولة. فهم أعداؤها الطبيعيون، إذن فمن المحتم أن يصيروا فى المستقبل موضع الإهانة والاضطهاد، ونحن بالطبع لا نقصد ذلك الاضطهاد الظاهر الملموس الذى قد يترتب عليه تدخل دولة من الدول ـ كلا إذ التركى من أشد الناس مكرا وأحرصهم على ذلك ـ بل نقصد ذلك الاضطهاد البطئ الخفى الذى تفوقت فيه السلسطات العثمانية اعتمادا على مافى القوانين التركية من مرونة

وأما من حيث هجرة مسيحيى سورية فينبغى أن لايغرب عن البال أن عددا عظيما من المسلمين هاجر منذ الحرب البلقانية من مقدونية وتراقية إلى سورية، ولا تزال حركة الهجرة آخذة بالازدياد تؤيدها السلطات التركية، ومعنى هذا ـ وبالسوء الحظ ـ أن التوازن العددى بين مسلمى سورية ومسيحييها قد اختل ومال لغير مصلحة هؤلاء . ومن المنتظر أن تزداد أنانية المسلمين وأثرتهم ـ وهم مستبدون فعلا بمقتضى أوامر دينهم ـ بعد مايتضاعف عددهم ولقد ثارت ثائرة مسيحيى سورية لهذا، حتى أن كثيرا منهم نزح إلى أمريكا، فيمكن القول إذن أن الحالة الحاضرة تساعد على الهجرة المزدوجة: هجرة المسلمين إلى سورية وهجرة مسيحيى سورية إلى أميركا. فإذا استمرت الهجرة ولو إلى

أمد قصير فنتيجتها إبادة العنصر المسيحى فى سورية.

ولما ألقى الرئيس بوانكاره، ذلك السياسى المسموع خطابه الأخير مطالبا تركيا بإدخال الإصلاحات فى ولاياتها الآسيوية، نزلت الحكومة التركية على مقترحه، وكلفت الولاة وضع مشروعات الإصلاح فى ولاياتهم، ولما كان المسيحيون العثمانيون يعرفون بسبب التجارب الماضية مايتوقعونه من وراء تلك النيات الخالصة من الحكومة، يقولون أن الغرض الوحيد من وضع تلك المشروعات هو منع أوربا من الإلحاح فى طلب إدخال إصلاحات معينة فى تركيا. فالحكومة التركية تريد أن تتخذ تلك المشروعات - التى وإن كانت فى الظاهر من وضع الأهالى فهى فى الواقع من وضع الحكومة - وسيلة لرفض الإصلاحات التى تطلبها أوربا بإدعائها أنها لا تتفق وروح المشروعات التى وضعها الطرفان المختصان.

ولقد أعرب مسيحيو بيروت - على الرغم من كل ذلك - عن رغبتهم فى العمل بالاتفاق مع المسلمين لتنفيذ تلك الاصلاحات للسببين الآتيين:

١ - احباط نيات الحكومة التركية ومنعها من الاستئثار بوضع المشروع بالطريقة التى تريدها.

٢ - ليتضمن المشروع مبدأ المراقبة الإدارية فى كل فرع من فروع الإدارة.

فلو قبل هذا المبدأ جميع أعضاء اللجنة لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم لقام الدليل بصفة قاطعة على أن السكان بأسرهم يرون أن الاصلاح فى تركيا من الأمور المستحيلة، مالم يمكن بمساعدة أوربا.

ولو فرضنا أن من المستطاع الوصول إلى الإصلاحات بدون مساعدة أوربا فما كان هذا بمطفئ غلة مسيحيى سورية. ذلك لأنهم متحدون مع فرنسا اتحادا لا انفصام له، وأنهم لن ينسوا مطلقا فرصة إعجابهم بها، وبخبرتها العالية، ولا ماهم مدينون لها به من المساعدة فى أوقات الشدة.

فأقصى مايبتغيه مسيحيو سورية هو أن تحتل فرنسا القطر السورى، ولهذه الأسباب يعرض الموقعون أسماءهم من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيى بيروت بحسب مراتبهم الاقتراحات التالية التى يعتقدون أنها الوحيدة الكفيلة بإصلاح الحالة السياسية الحاضرة فى سورية: -

١ - احتلال فرنسا لسورية

٢ ـ استقلال ولاية بيروت استقلالا تاما تحت حماية فرنسا ووصايتها
٣ ـ إدماج ولاية بيروت فى لبنان، الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية

ميشيل توينى. يوسف الهانى. بترو طراد. الدكتور أيوب ثابت. رزق الله أرقش. خليل زينيه

وقد رفع القنصل العام هذا الكتاب بتقرير إلى وزارة الخارجية قال فيه:

جناب المسيو بيشون:

سلم إلىّ بترو[1] محرر جريدة الإصلاح العربية، بالنيابة عن الموقعين صورة عريضة أتشرف بإرسالها إليك طىّ هذا الكتاب نظرا لأهمتها السياسية، مع العلم أنها وضعت بعد موافقة زعماء اللجنة التى تعمل سرا لتنفيذ الإصلاحات فى سورية. كما أخبرتكم بذلك مرارا، وقد وقعها أكبر أولئك السادة نفوذا فالمحامى مسيو بترو طراد ومترجم القنصلية مسيو توينى من الروم الأرثوذكس. والمسيو هانى من الموارنة والدكتور ثابت من البروتستانت، وقد أظهروا فى خطابهم المرسل إلىّ بالنيابة عن الطوائف الدينية التى يمثلونها اهتماما شديد بتحقيق أمانى المسيحيين، كما أكدوا شدة تعلقهم بفرنسا.

«إن هذه الوثيقة الجديدة هى بمثابة دليل آخر على مايشعر به مسيحيو تلك اللجنة، وهى تبرهن من جهة أخرى على الأثر العظيم التى أحدثته الوعود الفرنسوية والآمال الكبيرة التى أثارتها فى نفوس تلك الطوائف»

والخلاصة أنه لو اكتفى جمال باشا بمعاقبة أمثال هؤلاء الذين كانوا يعملون للأجانب لما وجد اعتراضا من الأكثرين ولالتف الناس حوله وأيدوه.

ولا ريب أن العرب معذورون بانفضاضهم من حوله وفى قتاله بعد ما أصلت سيف النقمة وفتك بكبرائهم وعظمائهم ومفكريهم ظلما وبغيا غير مراع فيهم إلا ولا ذمة وعاملا عل التنكيل والتعذيب بدون شفقة ولا رحمة.

---

١ ـ هو بترو باولى أحد الذين شنقوا فى بيروت يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ وجريدة الإصلاح هى جريدة الشيخ أحمد طبارة أحد الذين أعدموا فى ذلك اليوم أيضاً، وقد خلت محل الاتحاد العثمانى.

ـ ٥ ـ
المفاوضات بين الحسين والاتحاديين
الحسين يطلب إمارة الحجاز لأبنائه والنظام اللامركزى لسورية

ريع العالم العربى وجزع لما نزل بعرب الشام، وكان لبعض رجالهم من الذين أفلتوا من قبضة الظلم والإرهاق، فلجأوا إلى العراق ومصر والحجاز، يد كبيرة فى إثارة الرأى العام العربى على الترك وتنفيره منهم، وفى إعداده للثورة طلبا للانتقام والثأر، كما بكى شعراؤهم وكتابهم فى مصر والحجاز والعراق وأميركا الشهداء مستنزلين سخط العالم المتمدن على الطغاة، ومنادين بوجوب انقاذ العرب من يد الظلمة ومحاسبتهم حسابا غير يسير.

ومن تحصيل الحاصل القول أن تصرفات جمال باشا ومظالمه عجلت فى إضرام الثورة قبل أن تعد معداتها، وقبل الانتهاء من تهيئتها، بل وقبل أن يأتى أوانها. مما أثر فى تطورها وحال بين العرب وبين اجتناء الثمرات التى كانوا يرجون اجتناءها فى ختامها، كما كانت سببا فى تنفير الرأى العام المتمدن من الاتحاديين، واحتقاره لحكومتهم.

ولا نرى بدا قبل التبسط فى هذا البحث من درس العلاقات التى كانت قائمة بين شريف مكة والاتحاديين قبل الحرب. وقد أشرنا إليها لماما فى الفصل الماضى، ثم نتكلم عن زيارة الأمير فيصل الأخيرة للاستانة وما دار بينه وبين رجال الدولة من مفاوضات، وعودته إلى دمشق، واتصاله برجال الأحزاب العربية، والمباحثات التى دارت بينه وبينهم، والخطط التى وضعوها، معتمدين فى إيراد ذلك كله على المصادر الموثوقة، وعلى أقوال رجال مشهود لهم بالصدق والأمانة ملتزمين جانب الحياد والنزاهة فى كل ما نكتب وندون، وهو ما يجب أن يكون شعار كل مؤلف فنقول:

منصب شرافة مكة من المناصب الكبيرة فى الدولة العثمانية. ويأتى صاحبه بعد الصدر الأعظم وخديوى مصر. ويتصل بمقام الصدارة مباشرة، وهو المرجع الأكبر فى الحجاز للعربان، وصاحب الكلمة العليا فى تصريف أمور باديته.

وانحصر هذا المنصب فى أواخر العهد العثمانى فى الإشراف من آل أبى نمى انتقل إليهم من ذوى زيد عل يد المرحوم محمد على باشا إبان الحملة المصرية إلى الحجاز سنة ١٨١٢ وظل فيهم يتوراثونه حتى إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ وكان يتبوؤه الشريف

على باشا ابن عبد الله بن محمد عبد المعين، فاستقال خوفا من فتك الاتحاديين سادة العهد الجديد، وغادر الحجاز على عجل فهبط مصر واتخذ القاهرة دار مقام له، فعينت الحكومة العثمانية الشريف عبد الإله باشا خلفا له فمات بعد تعيينه بيومين فاتجهت الأنظار إلى الشريف حسين باشا بن على ابن محمد عبد المعين فعين لهذا المنصب الخطير. فغادر الآستانة قاصدا مكة مع أنجاله، وكان يقيم فيها بأمر السلطان عبد الحميد نفسه فقد استقدمه سنة ١٨٩٨ على أثر خلاف حدث بينه وبين عمه الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة يومئذ، وقد شكا هذا منه فاقطعه قصرا فى أسينية، وعينه عضوا فى مجلس شورى الدولة.

قدم الشريف الجديد مكة وللاتحاديين فى دوائر الدولة نفوذ ومقام، سرى إلى المتصلين بهم والمنتسبين إليهم فى الولايات والأقاليم، فبدأ عمله فوضع حدا لتداخل اتحاديى مكة وأنصارهم فى شؤون الحكومة وضرب على أيديهم، فشكوا منه وضجوا من أعماله وتصرفاته ورموه بحب الاستبداد والسيطرة وشنوا عليه غارة فى الصحف، فلم يأبه لذلك

ولم يحمله على تعديل خططه وأساليبه، فرأى المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى، وقد أوجس شرا من صلابة الشريف وشدة شكيمته أن يهاجمه بواسطة أمير الحج الشامى، وهو يومئذ عبد الرحمن بك اليوسف فأعلن هذا سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) أن طريق دمشق - المدينة المنورة غير مضمونة وأنه يخشى اعتداء العربان، ولذلك يقترح أن يرجع المحمل الشامى بطريق البحر فيركب السفن من جدة إلى سواحل الشام، وعارض الشريف فى تنفيذ هذا المقترح لأن معناه عجزه عن حماية الأمن وتوطيده فى داخل الحجاز، وهو فى مقدمة مهامه، وفقده كل نفوذ على العربان - وهو مالا يرضاه. وانتهت هذه المشادة بأن تولى الأمير بنفسه إرسال المحمل الشامى بطريق المدينة المنورة إلى دمشق وقد عهد بقيادته والسهر عليه إلى شقيقه الشريف ناصر باشا وإلى نجله الأمير عبد الله وصهره عبد الله باشا بن محمد والشريف شاكر ابن زيد معلنا أنه يحمل كل تبعة تنشأ عن هذا التدبير، وهكذا سافر المحمل برا إلى دمشق فدخلها من دون حادث ونزل الأمراء ضيوفا على عطا باشا البكرى فى منزل خاص أعده لهم فاحتفلت بهم دمشق احتفالا كبيرا وأدبت لهم المآدب، ووصل عبد الرحمن اليوسف أمير الحج وحاشيته بطريق البحر إلى بيروت ودمشق ودعا الأمراء إلى مأدبة عشاء فاعتذروا.

وقد توطدت العلاقات بين آل الحسين وبين بنى البكرى فى دمشق على أثر هذه

الزيارة، وكان من أثرها أن سعى الحسين وبين بنى البكرى فى دمشق على أثر هذه الزيارة وكان من أثرها أن سعى الحسين فاستصدر إرادة سنية تجيز لشبان آل البكرى أن يؤدوا الخدمة العسكرية فى مكة حينما يدعون إليها، وبالفعل فقد سافر أحمد فوزى بك البكرى كبير أنجال عطا باشا إلى مكة فى صيف سنة ١٩١٤ لتأدية الخدمة العسكرية ـ على أثر إعلان النفير العام تنفيذا للإرادة. فحل ضيفا على الحسين، وقص على مسامعه وجود جمعيات عربية قوية منظمة فى سورية تعمل لاستقلال العرب، وللحصول على حقوقهم.

فيصل فى دمشق والآستانة ووثائق وهيب باشا

وللمرة الأولى زار الأمير فيصل دمشق قادما من مكة فبلغها يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٥ وحل ضيفا على آل البكرى، ولم يطل الإقامة بل سافر إلى الآستانة لمقابلة ولاة الأمور، ليطلعهم على تصرفات وهيب باشا، وعلى المكاتبات والوثائق التى عثر والده عليها.

وخلاصة أمر هذه الوثائق، أنه بينما كان الأمير على بن الحسين مسافرا إلى المدينة المنورة ومع وهيب باشا قائد الحجاز وواليه، فى شهر يناير سنة ١٩١٥ ووجهتهما قناة السويس للاشتراك فى حملة جمال باشا، فيقود الأمير متطوعى العربان، ويقود وهيب الجند العثمانى المرابط فى الحجاز، وقد صدر له الأمر بالاشتراك فى الأعمال العسكرية فى صحراء التيه سقطت ـ قضاء ـ محفظة الأوراق السرية الخاصة بهذا من السيد محمد نائب

الحرم وهو حجازى اشتهر بممالأة الاتحاديين وتأييدهم حتى نال ثقتهم المطلقة، وكان قد ائتمنه عليها لثقته به، فلم ينتبه إلى سقوطها، فعثر عليها أحد رجال الأمير على وجاء بها إليه ففضها واطلع على مافيها من مكاتبات سرية كانت تدور بين حكومة الاستانة والوالى للفتك بالشريف وأولاده والقضاء على استقلال الحجاز «النوعى» وعلى ماكان يدبر هنالك من خطط وتدابير لم يحل دون تنفيذها سوى إعلان الحرب العظمى واشتغال الدولة بها عن كل ماعداها.

وتوقف الأمير على عن متابعة السفر بعد عثوره على هذه الوثائق الخطيرة واعتذر وبقى فى المدينة ثم عاد بها إلى مكة فسلمها إلى والده فقرأها، وبعد انعام النظر فيها قرر انتداب نجله الثالث الأمير فيصل، وكان معروفا بالميل إلى الترك والحرص على استبقاء

مودتهم، للسفر إلى الآستانة ومقابلة ولاة الأمور والسعى لإيجاد طريقة للاتفاق والتفاهم فغادر مكة إلى دمشق فبلغها فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ ولم يقم فيها طويلا بل قصد دار الخلافة.

وزار الأمير على أثر بلوغه العاصمة الصدر الأعظم، وأطلعه على الوثائق والكتب التى وجدوها، وشكا من تصرف الاتحاديين، وقال إنهم يعملون للتنكيل بنا، ودس الدسائس ضدنا مما أفقدنا الثقة بهم، وقابل طلعت وأنور وحدثهما بما حدث به الصدر فطيبوا خاطره وأصدروا أمرا بنقل وهيب باشا من الحجاز إرضاء له ولوالده، وعينوا الجنرال غالب باشا مكانه وهو رجل طيب القلب، مشهور بالمسالمة، وسلموه تعليمات تقضى عليه بأن يتقرب من الشريف، وينشئ معه علاقات طيبة ويعمل للتفاهم والوفاق.

ويقول على فؤاد باشا رئيس أركان حرب الجيش الرابع فى مذكراته «إن الأمير فيصلا أبلغ أقطاب الحكومة الاتحادية أنه على استعداد لأن يذهب على رأس قوة حجازية للاشتراك فى حملة القناة الثانية [1] وإنه حادث أنور باشا بشأن رجال العرب المعتقلين فى عالية (رجال الرعيل الثانى الذى أعدم يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦) طالبا إطلاق سراحهم والعفو عنهم، فوعده خيرا، كما حمل على سياسة جمال باشا حملة شديدة، ووصفها بأنها سياسة عداء للعرب، وإنه ليس فى إمكان العرب السكوت عنها كما سلم إلى سعيد حليم باشا الصدر الأعظم، باعتباره صديق بيتهم، ويمت إلى أسرة كبيرة مستعربة، مذكرة بسط فيها مطالب العرب ورغبتهم فى الحرية والاستقلال، وقال إنهم على استعداد لتأييد الدولة إذا اعترفت باستقلال الحجاز على أساس اللامركزية، وبالشريف حسين أميرا على أن تكون الإمارة إرثا فى أولاده من بعده، وقد أطلع الصدر زملاءه الوزراء على ماوقع».

ولم يطل الإقامة فى الاستانة بعد مافاز بعزل وهيب باشا بل غادرها إلى دمشق فى شهر فى شهر نوفمبر ليكون على مقربة من جمال باشا وليقود متطوعة الحجاز، وفعلا أبرق أنور باشا إلى جمال باشا يدعوه إلى الحفاوة الزائدة به، وأن يتخذه كمستشار له يساعده على تهدئة الحالة فى البلاد العربية، وأن يحل أراءه فى المكان اللائق بها. كما أبرق إليه طلعت باشا وزير الداخلية بما كان من شكايته منه ومن حملته على سياسته وطالب إليه أن يستميله ويتودد إليه. وقد كان من أثر هذه التوصيات أن ذهب جمال باشا بنفسه إلى

---

١ - الأولى هى التى هاجمت القناة يوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ كما جاء فى الصفحة ٦٠ وكان الترك فى تلك الأيام يعلنون أنهم يعدون حملة غيرها لاحتلال مصر.

المحطة لملاقاته حين وصوله إلى دمشق، وأعد له حفلة استقبال فخمة للغاية فى مقر القيادة حضرها أمراء الجيش وكبار القوم، وأدب له فى المساء مأدبة عشاء فخمة أيضا متوددا إليه ومظهرا له كل حفاوة وإكرام.

وحل فيصل ضيفا فى دار آل البكرى. ثم لم يلبث أن غادر دمشق إلى القدس مع جمال باشا، وحل ضيفا فى مقر قيادة الجيش، ثم زار ميدان الحرب فى سيناء، وخطب فى المأدبة التى أدبت لتكريمه، واشترك فيها الضباط والقادة خطبة مطولة. ومما قاله: «يجب على الأمة العربية أن تشترك فى الجهاد، وأنا ذاهب إلى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المتطوعة فيشترك فى الحملة الثانية» ثم عاد إلى دمشق ومنها قصد الحجاز. وقد تم الاتفاق بينه وبين جمال باشا على أن يأتى بألف وخمسمائة متطوع.

فيصل والجمعيات العربية

وللمرة الأولى اتصل فيصل برجال الجمعيات العربية السرية، ولا سيما رجال جمعيتى الفتاة والعهد فاجتمع بهم سرا فى منزل آل البكرى فكانوا يترددون عليه بين الساعة ١١ والواحدة بعد منتصف الليل أى أنهم كانوا يزورونه تحت ستار الظلام خوف الرقباء.

ولقد تكلمنا فى الفصل الثانى عن هذه الجمعية وعن طريقة إنشائها، وقلنا إنها كانت تضم نخبة ممتازة من رجال العرب العاملين، وإنها نقلت مقرها بعد إعلان الحرب العظمى من بيروت إلى دمشق، فكان رجالها يجتمعون سرا فى تلك الأيام لبحث الحالة والنظر فيما يجب عمله، وخصوصا بعد ماظهرت نيات الترك جلية ووضح أنهم يترقبون دوائر السوء برجال العرب ويكيدون لهم كيدا

وكانت الآراء فى دمشق مضطربة غير مستقرة على حال من الأحوال، وفيها نزعة إلى الاستمرار على معاونة الدولة لانقاذ البلاد من الفتح الأوربى، وما يؤدى إليه من الحماية أو الاستعمار، وذلك قبل استفحال المظالم ونصب المشانق، فقد عقد فى شهر مارس سنة ١٩١٥ اجتماع سرى فى منزل شكرى باشا الأيوبى اشترك فيه الدكتور عبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم وسليم الشمعة والشيخ تاج الدين الحسنى وعبد الكريم الخليل وغيرهم فبحثوا الموقف من جميع وجوهه وأخيرا أجمعت الكلمة على وجوب مساعدة الدولة فى حربها، وعلى تأليف عصابات من أهل البلاد للدفاع عنها يوم يضطر الترك إلى الانسحاب، وهذا كله جرى قبل أن يكشر الاتحاديون عن أنيابهم ويظهروا أمام العرب من

غير قناع يستر سوآتهم. ونرى من الجهة الأخرى أن جمعية الفتاة عقدت أيضا اجتماعا في دمر برئاسة رضا باشا الركابي قررت فيه انتداب الشيخ كامل القصاب للسفر إلى مصر والاتصال برجال الحركة العربية والاتفاق على خطة معينة فسافر بحرا وذلك في شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ أي قبل دخول الدولة الحرب، فاتصل بهم وعاد من دون أن يعمل شيئًا معينا، فانزلته الباخرة في أضاليا بالأناضول، فجاء إلى دمشق، واتصل أمره بالسلطة العسكرية فاعتقلته وأرسلته إلى عالية وحققت معه كثيرا ثم أطلقت سراحه ـ بعد سجنه مدة من الزمن ـ ولم يقفوا منه على شيء.

وصل فيصل إلى دمشق من الآستانة في طريقه إلى مكة، وكان رجال العرب يبحثون عن وسيلة تساعدهم على الخروج من المأزق الذي صاروا إليه، فقد عاجلتهم الحرب قبل أن يستعدوا لها، وتخفف من ضغط جمال باشا وشدته، وكان قد فتك برجال الرعيل الأول وبدأ بالقبض على رجال الرعيل الثاني والتحقيق معهم فحل في دار آل البكري، واتصل برجال الجمعيات وخلا إليهم، وخلوا إليه ودرس معهم التدابير التي اتخاذها.

وكان في مقدمة الذين اتصلوا به في هذا الدور الدكتور أحمد قدري معتمد جمعية العربية الفتاة في دمشق وأحد مؤسسيها، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ومحمد الشريقي وياسين الهاشمي (رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر يومئذ) وعلي رضا الركابي وغيرهم، وقد سر بما سمعه من أقوال وتصريحات، وبما لمسه من حماسة وغيرة، فقد أفهموه أنهم مستعدون للعمل، ولا ضرام ثورة عربية في سورية لتحرير البلاد العربية الخاضعة لتركيا، لأنهم وثقوا أنها ستكون معرضة لاحتلال أجنبي لما شاهدوه من تصرفات الترك، ولما كان يصلهم من أخبار الحرب في أوربا، وقالوا إنهم لا يطلبون منه ألا أن يكون قائدا لهذه الثورة وزعيما

وزاره في إحدى الليالي ياسين الهاشمي وقضى معه زمنا غير قصير فسأله عما يطلبونه من الحجاز وعن نوع المساعدة التي يقترحونها.

فأجابه ياسين بقوله لا نطلب شيئا ولا نحتاج إلى شيئ فعندنا كل شيئ وما عليك إلا أن تقودنا تسير في الطليعة.

ـ إننا متفقون مع رؤساء القبائل الحجازية، وهم مخلصون لنا ومستعدون للعمل معنا

ـ لا حاجة لنا بهم فعندنا كل شيئ.

وقد سر كثيرا بما سمع واقتنع إن في سورية حياة وإن في العرب رجالا ومنح جمعية

الفتاة على الأثر ألف ليرة عثمانية ذهبا لإنفاقها فى أعمالها. والواقع إن رجال دمشق كانوا يعملون حتى ذاك اليوم لتكون الثورة سورية تعلن فى سورية لا فى الحجاز، ولإدارك هذه الغاية سعى رجال جمعية الفتاة فاتصلوا بزعماء القبائل وذوى المكانة وضموهم إلى صفوفهم فكان من رجال الجمعية نواف الشعلان بن نورى الشعلان شيخ قبائل الرولا من عنزة، ونسيب الأطرش من كبار شيوخ الدروز وفرحان الميدا شيخ مداين صالح وأبو سليم فرحان المغوش شيخ قبيلة قرية خلخلة فى جبل الدروز وغيرهم من ذوى النفوذ فى البلاد السورية على اختلاف الطبقات والمذاهب.

وغادر فيصل دمشق عائدا إلى مكة فى شهر ديسمبر من شهور سنة ١٩١٥ وهو ممتلئ نشاطا وحماسة وقد أثر فى نفسه ماسمعه من أقوال وما شاهده من روح قومية. كما حمله الشيخ بدر الدين الحسنى وعلى رضا باشا الركابى ختميهما الذاتيين إلى والده علامة موافقتها على إعلان الثورة، فبلغ مكة وقص على والده ما سمعه ووصف له ما شاهده، وأبلغه مااستقر عليه القرار من إضرام ثورة فى بلاد الشام لإنقاذ العرب وإنشاء المملكة العربية وسلمه الختمين المرسلين.

ولم يطل فيصل المقام فى مكة بل غادرها على الأثر إلى الطائف ووافاه إليها والده وأخواه (على وعبد الله) فعقد الأربعة مؤتمرا عائليا سريا، بعيدا عن أعين الرقباء والجواسيس وكان الترك يرقبون حركاتهم وسكناتهم ويحصون عليهم أنفاسهم فاتفقوا فيما بينهم على أن يتولوا أمر الثورة وأن يتموا الاتفاق مع الإنجليز، وكانت رسلهم تتردد على الحجاز للاتصال بالشريف، وإقناعه بالانضمام إلى صفوفهم، ويعدونه بتأييده فى سياسته الرامية إلى تحرير العرب وإنقاذهم.

وعاد الأربعة إلى مكة بعد مااتفقوا على الثورة كما قلنا، فقضى الشريف فيصل أياما يستعد للرجوع إلى دمشق ليكون على صلة برجال الثورة وليرقب حركات الترك وسكناتهم.

وفى شهر يناير (كانون الثانى) من شهور سنة ١٩١٦ وصل إلى دمشق ومعه ٥٠ فارسا من أتباعه بينهم عدد من الأشراف فنزل وإياهم فى ضيافة آل البكرى هو فى المدينة وهم فى قرية القابون (من ضواحى دمشق) وعاد إلى ماكان عليه من الاتصال برجال العرب ومفكريهم ودرس الخطط والأساليب والاستعداد للثورة. وفى شهر فبراير (شباط) من تلك السنة وصل إلى دمشق أنور باشا وكيل القائد العام فاحتفلت الحكومة بوصوله. ثم

سافر إلى الحجاز فرافقه فى رحلته جمال باشا وفيصل فبلغ المدينة المنورة وقضى فيها أياما ومع أنه أظهر رغبة فى الاجتماع بالشريف حسين، وطلب إليه أن يوافيه إليها، ويقال أن الترك كانوا يفكرون فى القبض عليه ونفيه لو أجاب دعوتهم ـ إلا أنه اعتذر عن المجئ وأرسل هدايا ثمينة إلى أنور وجمال فسلمها فيصل إليهما. ثم عاد معهما إلى دمشق. وكان ديوان حرب عالية مشغولا بمحاكمة المعتقلين من كرام العرب وأحرارهم،س فسعى عنده كثيرا لإطلاق سراحهم والعفو عنهم ولما أخفق أبلغ ذلك إلى والده.

برقية الشريف الأولى إلى أنور باشا

وفى شهر مارس أرسل الشريف إلى أنور باشا البرقية الآتية:

«إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف عل اشتراك جميع العناصر فيها ولاسيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال فى بلادهم، وتأييدهم لها قلبا وقالبا فى نضالها».

ويلوح لى إن إرضاء الشعب العربى يتوقف على مداواة قلبه الذى جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتى:

١ـ إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين

٢ ـ إنالة سورية ماتطلبه من نظام لا مركزى

٣ ـ جعل إمارة مكة وراثية فى أولادى، وإبقائها على حالتها الحاضرة. فإذا قبلت هذه المطالب فأتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائى فى ميادين العراق وميدان فلسطين وإذا لم تقبل فأرجوكم أن لا تنتظروا منى شيئًا سوى الابتهال للحق جل وعلا بأن يهب للدولة النصر والتوفيق».

فرد عليه أنور باشا بالرد الآتى:

«وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة أن إحراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلبا وقالبا».

«ولما كان طلب إعلان عفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية فى سورية واستبقاء إمارة مكة فى شخصكم السامى وفى أولادكم خارجا عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار فى طلبه ليس من مصلحتكم فى شيئ».

«وإنى أبلغكم أنه لابد من أن ينال الموقوفون عقابهم كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل فى الحجاز على ماكانت عليه، وكما هى فى جميع الممالك الشاهانية وأوصيكم ملحا بأن تستدعوا ولدكم عليا الموجود فى المدينة إلى مكة فورا وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم حتى نهاية الحرب. والأمر لمن له الأمر سيدى»

فأرسل إليه الشريف الرد الآتى:

«لقد أرسلت نجلى فيصلا إلى دمشق اعتمادا على شرف الدولة، ولست أرجو أن يعود إلىّ الآن. على أن سوق المتطوعة إلى دمشق يتوقف على وصوله إلى المدينة ورؤية هؤلاء له. وسيدعى نجلى على إلى مكة قريبا » [1].

ويقول جمال باشا فى مذكراته عن هذا الحادث ماتعريبه «ولقد استمرت محاكمة المعتقلين إلى مابعد رجوع أنور باشا إلى الاستانة وعندئذ ظهر الشريف حسين بمظهره الحقيقى فأرسل برقية رقمية إلى أنور باشا وهذا أبلغنى إياها وقد جاء فيها:

«إذا كنت ترغب فى التزامى جانب الهدوء والسكينة فيجب الاعتراف باستقلالى فى الحجاز من تبوك حتى مكة وحصر الإمارة فى أبنائى والعدول عن محاكمة أحرار العرب وإعلان عفو عام فى سورية والعراق»

«وعلى أثر وصول هذه البرقية أرسلت فى طلب فيصل، واستحضرت على فؤاد باشا ليكون شاهدا على محادثتنا وقلت له «لما سمعت حين رجوعى من المدينة بأن أخاك عليا يتدخل فى شؤون الحكومة، ويدعى لنفسه حقوقا ليست له أبلغت المحافظ أن يطلب إليه الكف عن هذه الأعمال، لاعتقادى أنه لم يقدم عليها إلا لحداثة سنه وقلة تجاربه، وأبلغت والدك أن يكفه، وقلت لك فى محادثاتنا أننى أبذل مافى وسعى للمحافظة على منصب والدك وقد أبلغته ذلك شخصيا . كما أخبرك وكتب إلىّ معربا عن عظيم شكره وامتنانه. ولا أظنك

---

١ - أملى سمو الأمير عبد الله على المؤلف نصوص هذه البرقيات باللغة التركية وترجمها إلى العربية.

تجهل أن لأبيك خصوما لا يستهان بهم من أبناء عمومته فى الآستانة وهم يعملون لإيغار صدر الحكومة عليه فخير لكم وأبقى الاقلاع عن الاتيان بأى عمل يكون حجة لخصومكم. ثم أطلعته على برقية والده إلى أنور باشا فاضطرب وأظهر تألمه وأسفه وقال: إن ماوقع ليس سوى سوء تفاهم. فوالدى لا يقصد شيئا ضارا، ولست تجهل أنه لايجيد اللغة التركية ويلوح لى أن هذه البرقية ترجمها مترجم عاجز عن فهم النص العربى فحرفها. ثم وعد أن يكتب إلى أبيه فى الحال يسأله العدول عن مطالبه وأرسلت إليه البرقية الآتية:

«لقد نمى إلىّ خبر برقيتكم إلى أنور باشا تطلبون أن تكون الإمارة وراثية فى أسرتكم وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والأمة.

«وليس بممكن إجابة الجزء الثانى من طلبكم لضرره بالمصالح العامة. فالحكومة التى تصفح عن الخونة جديرة أن تتهم بالضعف، كما أن عفوها يغرى كثيرين بالخيانة ولو أطلعت على الوثائق التى ظهرت فى المحكمة لرأيت إلى أحد وصل أولئك المتهمون»

«وأما فيما يختص بجعل الإمارة وراثية فى أسرتك فالفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك، وأظنكم تعترفون بأن الإعراب عن مثل هذه الرغبات ونحن فى إبان الحرب حيث تستهدف جميع قوى الإنسان عقلية وجسمية لأشد العناء - من رجل يتبوأ مركز الشرافة وفى أعظم بقعة من بقاع الدولة العثمانية لابد أن يكون له أسوأ وقع فى نفوس الجمهور، وأعتقد أنه ماكان ينبغى لكم أن تطلبوا مثل هذا الطلب ولو كنتم على حق، فموارد الأمة ينبغى أن تحشد لغرض واحد وهو إحراز النصر النهائى».

ولو فرضنا أن الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة فى الحصول على مصادقتك فى هذه الأوقات العصيبة. فماذا يمنعها أن تعاملك بالشدة والقسوة لو انتصرت فى ختام الحرب؟. وعلى كل فيجب أن تعلم أن الرجال الذين أسسوا الحكومة الحاضرة، والذين تجرأوا على القيام فى وجه السلطان عبد الحميد لايصفحون عمن يجترئ على شل حركتهم فى هذه الحرب، وقد دخلوها لمصلحة العالم الإسلامى، وهم فى الوقت نفسه لا يتأخرون عن استحصال جزيل الإنعام من جلالة الخليفة لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله ولتحقيق غاياتنا المقدسة».

ويستطرد جمال باشا فى منكراته بعد ذلك ويقول: «وأصدرت محكمة عالية حكمها فى

القضية الكبرى (قضية ٦ مايو سنة ١٩١٦) ونحن لانزال نتبادل الرسائل مع الحسين فجاهد فيصل لينال عفوا للمحكوم عليهم وكان يزورني كل يوم لعدم سعيهم لإنقاذ مواطنيهم، ودعاني ذات يوم للغداء معه في القانون (قصر آل البكرى وقد دمره الفرنسويون أثناء الثورة السورية سنة ١٩٢٥ بالديناميت) وكان ذلك في أوائل شهر إبريل فدار الحديث حول موضوع العفو أيضا فسألته هل عرفت تفاصيل مافعله هؤلاء؟ فقال كلا. فقلت لو عرفت التفاصيل لأسفت أشد الأسف على توسطك للحصول على عفو لهم».

«وتلقيت بعد أيام رد الشريف حسين على برقيتي إليه وهو يلح في إصدار عفو، لأن صدوره في مصلحة الحكومة، ويشكو من تصرفات محافظ المدينة (بصرى باشا) ويقول إنه يأبى أن تسلب منه حقوق منحه إياها الخليفة.

«وكثرت في الوقت نفسه شكاوى بصرى باشا من تصرفات الشريف على (وكان يقيم معه في المدينة) وسعيه لتأليب العربان واستمالتهم فدعوت فيصلا وأطلعته على رد أبيه وعلى سلوك أخيه وقلت له:

«لا أستطيع إدراك غرض والدك من استعماله اللهجة الواحدة التي يستعملها في هذه الأيام، ولاغاية أخيك من الخطة التي يسير عليها في المدينة، فمن الجهة الواحدة تعلنون أنكم عاملون على تجهيز المتطوعين وإرسالهم للاشتراك في حملة القناة فتمدكم الحكومة بالمال والرجال، وتدل أعمالكم من الجهة الأخرى على ميلكم إلى الانفصال، وقد بدرت بوادره من ناحية أبيك وأخيك. فإذا أردتم أن تظلوا أصدقاء فيجب أن تراعوا قوانين الصداقة، وإلا فأعلنوا ثورتكم وأحملوا سلاحكم».

«وإذا كنتم لا تضمرون الشرف فاكتب إلى أخيك فليحضر إلى هنا في الحال، وليكف عن الاعتداء على سلطة المحافظ. فأجابني بأنه سيسوى الخلاف بين هذا وأخيه وسيدعوه للقدوم إلى دمشق ـ كما أنكر مانسبته إليهم من الميل إلى الثورة».

فيصل ينجو من الشرك

وكان جمال باشا يريد من استقدام على إلى دمشق أن يقرنه إلى أخيه فيصل فيظلان رهينة لديه يمنعان أباهما من الإتيان بأى حركة ضد الدولة، وتلك كانت الغاية من استقدام

فيصل ولم تخف هذه الاعتبارات على هذا، فأخذ يفتل خيوط الرأى مع إخوانه فى دمشق باحثا عن وسيلة يتوسل بها ليفلت من الشرك، ويشترك مع أخوانه فى الحركة المقبلة، لأنه أدرك عدم إمكان إضرام ثورة فى الشام بعدما فرق جمال باشا ضباط العرب، وقذف بهم إلى كل ميدان سحيق من ميادين القتال، وملأ سورية بجنود جاء بهم من الأناضول، كما قبض على نخبة الرجال وساقهم إلى تلك الربوع، ولذلك اتجهت الأنظار فى هذه المرحلة إلى الحجاز.

وكانت المكاتبات السرية تجرى بدون انقطاع بين فيصل وأبيه وإخوانه فيوافيهم بكل مايحدث فى دشق ويطلعهم على مايدور بينه وبين الترك، ويوافونه أيضا بما عندهم، وقد تم الاتفاق فى مابينهم على أن يوعز الشريف على إلى المتطوعة الذين جاءوا معه من الحجاز ـ وكان يقودهم بنفسه ـ ويقيم فى المدينة انتظارا لتكامل عددهم فيسير بهم إلى القناة، أن يقترحوا استقدام فيصل من دمشق ليسير إلى ميدان القتال، وفعلا أبلغ زعماء هؤلاء الترك أنهم فى شوق إلى الزحف وأنهم يرجون أن يكون فيصل على رأسهم ـ كما جاء فى برقية والده، وقام هو بمثل هذه الحركة فى دمشق فزار جمال باشا وأبلغه أن أخاه عليا تلقى أمرا من أبيه بأن يسافر إلى القناة، وأنه يود أن يذهب إلى المدينة فيجئ مع أخيه والمتطوعة إلى القدس، فأجاز له جمال باشا ذلك، وقال له : سر على رأس وفد، واستقبلهم باسمى وعد معهم واسع ـ للإصلاح والتوفيق.

وقد تألف هذا الوفد من الشريف فيصل رئيسا، ومن كاظم بك مفتش المنزل وآصف بك المستشار العدلى للجيش الرابع ونسيب بك البكرى والشيخ عبد القادر الخطيب، وقصد المدينة المنورة بالسكة الحديدية فى منتصف شهر مايو (أى بعد تنفيذ حكم الإعدام فى الرعيل الثانى بنحو عشرة أيام) وفيصل يكاد يطير فرحا وسرورا، لأنه أفلت من القفص ونجا من قبضة الترك، واستقبل استقبالا باهرا حين وصوله، وانضم إلى أخيه وأقام معه فى منزله، ويقول نسيب بك البكرى أحد أعضاء الوفد أن آصف المستشار القضائى قابل فيصل فى الحرم النبوى غداة وصولهم وقال له ودموعه تسيل على خديه: إذا كنت تستطيع أن تنجو بنفسك فإنج، ولا تعد إلى دمشق فهم يضمرون لك الشر، وإنى أقول لك هذا القول كرامة لجدك الراقد فى هذه الروضة.

تأهب الترك فى المدينة

وما كاد فيصل يستقر فى المدينة حتى وصل إليها فخرى باشا وكيل قيادة الجيش الرابع منتدبا من قبل جمال باشا للإشراف على الحالة، وليتولى القيادة بالذات، وكانت فيها يومئذ قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى، عززوها بنجدات جديدة أخرى، تحت ستار إرسالها إلى اليمن. مما زاد فى مخاوف الشريف وأولاده. لأنهم أدركوا أن حشد هذه القوة الكبرى فى المدينة وتوالى وصول النجدات إليها معناه أن الترك يريدون الفتك بهم وضربهم الضربة القاضية، فيزحفون بهذا الجيش إلى مكة ـ بحجة السفر إلى اليمن، ويدخلونها بالاتفاق مع القوة التركية الباقية فيها، وهكذا تنهار آمال الشريف وأولاده، ويضعف مركزه. إن لم نقل أن حياته تصبح فى خطر، ولذلك قرر التعجيل بإعلان الثورة، مع أنه لم يستعد لها الاستعداد الكافى، خوفا من مفاجأة يفاجئه بها الترك، ولما أبلغ أمره هذا إلى نجله فيصل فى المدينة كتب إليه تقريرا مطولا يطلب تأجيل إعلان الثورة إلى شهر أغسطس (كان ذلك فى شهر مايو سنة ١٩١٦) بحجة أن المواسم الزراعية تكون قد انتهت وتكون العرب قد اكتالت وأدخرت مؤونتها من الحبوب فتشترك فى الثورة وتكون عامة شاملة لأهل الحجاز والشام، فرد عليه ملحا بضرورة الإسراع فى العمل مهما كانت الظروف والاعتبارات لأنه لم يبق مجال للانتظار.

واعتذر فيصل لرجال الوفد الذين جاءوا معه من دمشق لاستقبال وفود المجاهدين باسم الجيش الرابع لتأخره عنهم وصرفهم قائلا: إن مشاغل ضرورية تحمله على البقاء بضعة أيام أخرى فى جانب أخيه، وأنه لايزال يفاوض جمال باشا المتطوعة، وهل يركبوا فى سفرهم القطار إلى دمشق أم يذهبوا رأسا إلى القناة، ومتى انتهت هذه المفاوضات جئت دمشق حالا .فلا تنتظرونى، فعاد هؤلاء وبينهم نسيب بك البكرى، وقد اتفق مع الأمير سرا على أن يرسل إليه إذا تم الاتفاق على إعلان الثورة برقية هذا نصها «أرسلوا الفرس الشقراء».

وكان أول ما فعله نسيب بك على أثر بلوغه دمشق أن أرسل أسرته إلى مكة بالسكة الحديد استعدادا للطوارئ، وأخذ يتأهب للسفر وماهى إلا ثلاثة أيام حتى تلقى البرقية المتفق عليها، وذلك فى الأسبوع الأخير من شهر مايو سنة ١٩١٦ ونصها: «أرسلوا الفرس الشقراء» فأدرك أن كل شيئ قد انتهى. فقصد قرية القابون وكانت مقر الرجال الذين

جاءوا مع فيصل يوم قدم من مكة، وفى منتصف تلك الليلة غادرها إلى الحجاز وقد انضم إليهم فى رحلتهم خالد الحكيم فسار بهم دليلهم بطريق العراق، وكان جمال باشا يومئذ فى بيروت فلما عاد بعد يومين وعرف أنهم سافروا أمر بمطاردتهم فتبعتهم القوى المختلفة ولم تعثر لهم على أثر.

خروج الأميرين من المدينة

ولما تم الاتفاق نهائيًا على إعلان الثورة قابل على وفيصل فخرى باشا يوم ٣٠ مايو وأطلعاه على صورة البرقية الأخيرة التى أرسلها أنور باشا إلى والدهما وقد هدده فيها وتوعده بقوله: «يجب على كل موظف أن يلزم حدود وظيفته فلا يتجاوزها ولا يتدخل فى شؤون الدولة، وإلا اضطرت لاتخاذ الإجراءات المقتضية فى مثل هذه الأحوال، وأنه يجب إرسال المتطوعين بلا تردد واستدعاء على من المدينة» وقالا له بعد هذه البرقية لم يعد فى إمكانهما الاستمرار فى العمل، وإن أحدهما «عليا» سيعود إلى مكة طبقا لإشارة والده فاعتذر فخرى باشا وقال : إن ماجاء فى البرقية نتيجة تسرع وإنه لابد من تسوية هذه الأمور فى المستقبل، ثم تقرر أن يبقى فيصل فى المدينة لقيادة المجاهدين بدلا من أخيه، ويسير بهم إلى القناة.

بدء القتال حول المدينة

وفى يوم أول يونيو غادر على المدينة إلى سيدنا حمزة حيث معسكر المتطوعة بعد ماودع فخرى باشا وبصرى باشا على أن يقضى فيه ليله ويسافر فى الصباح فرافقه أخوه لوداعه، على أن يعود بعد سفره إلى مقره فى المدينة فقضيا الليلة هنالك وفى الصباح (٢ يونيو) كتبا كتابا مشتركا إلى فخرى باشا وبصرى باشا حمله مرافق فيصل ـ وهو ضابط تركى قالا فيه:

«حيث إن رجال الحكومة أساءوا فينا الظن، ولما كان ذلك يحول بيننا وبين الاستمرار فى التعاون مع الحكومة فقد عدنا إلى مكة بناء على البرقية التى تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء».

وركبا على الفور مع حاشتيهما و٢٠٠ هجان إلى مكة فسلكا الطريق الشرقى وظلا فى مسيرهما حتى بلغا الخانق (إحدى المراحل على طريق المدينة ـ مكة) فنزلا فيها وفى صباح ٣ يونيو عادا إلى الحسا (بيار على) قرب المدينة وأرسلا الرسل إلى القبائل يدعوانها لموافاتهما، ولم ينقض أسبوع حتى وافاهما نحو ستة آلاف مقاتل فهاجما السكة الحديد بين محطة المدينة ومحطة المحيط يوم ٩ يونية منه، فدارت أول معركة بين العرب والترك الذين خرجوا لقتالهم، وعاد هذا الجيش فى الغد فهاجم محطة المحيط نفسها فخرج فخرى باشا بنفسه للقتال على رأس قواته واشتبك مع العرب، واستمر القتال من الفجر حتى الظهر وانتهى بارتداد العرب حتى بير الماشى لنفاد ذخائرهم ومنها رجعوا حتى الغدير، وهنالك افترق الأميران فذهب فيصل إلى جهة ينبع وبقى على وحده وأخذا يستعدان للنضال، وذلك قبل أن تعلن الثورة رسميا.

أقوال جمال باشا عن مقدمات الثورة

ويقول جمال باشا فى مذكراته عن هذه الحوادث. وقد اعتمدنا نحن فى كتابة ماكتبناه هنا على ماسمعناه من جلالة الملك على، ومن سمو الأمير عبد الله ومن نسيب بك البكرى ـ مانصه:

«ولما وصل إلى المدينة كتب إلىّ معربا عن سروره لأن أخاه عليا سيقابلنى قريبا، وبما أن الشريف حسينا سألنى أن أرسل إليه مبلغا من النقود لانفاقه على المجاهدين. أبرقت إلى محافظ المدينة بأن يسلمه ما طلب، وذلك قبل إعلان الثورة بيوم أو بيومين [١]

«وبينما أنا فى بيروت يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٦ دعانى فخرى باشا من المدينة لمحادثتى فى التليفون وقال لى «مازالت علاقاتى حسنة مع الشريفين على وفيصل منذ وصولى إلى هنا وقد دعوانى أول أمس لزيارة مقام سيدنا حمزة (يقع فى ضاحية المدينة) حيث معسكر المتطوعة فذهبت وتغدينا معا ولعب هؤلاء ألعاب الفروسية وأنشدوا الأناشيد الحماسية. ودعيت مساء أمس إلى منزل الشريف على فقضيت وقتا فيه. ومع أننا اتفقنا على أن تسافر أول كتيبة من كتائب المتطوعة فى هذين اليومين إلى درعا، فقد تغير الموقف صباح اليوم تغيرا كبيراً، فقد جاء إلى أحد رجال الشريف على وأعطانى ثلاثة كتب: الأول لى والثانى والثالث من الشريف حسين. أحدهما لك، والثانى للصدر الأعظم وبما أنهم مكتوبان

١ ـ يقول نسيب بك البكرى إنهم سلموه يومئذ ١٨ ألف بندقية و ٢٠ ألف ليرة عثمانية ذهبا.

بالأرقام فقد عجلت بإرسالهما إليك أما الكتاب المرسل إلى فهذا نصه:

«بناء على الأوامر الصادرة من والدى سيقف نقل المتطوعة إلى فلسطين، ولهذا عقدت النية على العودة بالموجودين إلى مكة، بدلا من ضياع الوقت هنا، وإنى آسف لاضطرارى إلى الرحيل بدون أن أودعك فأرجو قبول عذرى».

ويقول جمال باشا أن الشريف حسينا فى كتابه إليه «إنه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك فى حملة القناة قبل أن تجاب المطالب التى طلبها فى برقيته، قبل أن تكف الحكومة عن اتباع خطة الإيهام حوله» ويقول فى كتابه إلى الصدر الأعظم «إنه لا يعرف أى الرجلين يصدق: أهذا السياسى الذى يتعامل معه مباشرة (يريد به جمال باشا) ولطالما أظهر المجاملة والود، أم ذاك الذى استعمل معه ألفاظا مهينة جارحة (يريد به أنور باشا) وإنه لذلك مضطر إلى قطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى طلبها من أنور باشا قبل شهرين».

ويقول جمال باشا أنه تلقى رسالة بالأرقام من الشريف فيصل، وكان قد سلمه مفتاحا لها قبل سفره إلى المدينة قال فيها: «لقد صدر إلى الأمر بوقف نقل المتطوعة إلى سورية لأسباب أؤمل أن أبسطها لك شخصيا متى تشرفت بلقائك. وقد ساءتنى كثيرا الحالة الجديدة التى نشأت، ولما كان من بواعث الألم أن لا تقع عينى عليك ثانية قبل تسوية الأمور تسوية مرضية، فأتشرف بإخبارك إننى ذاهب إلى مكة لقضاء بعض الوقت».

ـ ٦ ـ
عوامل الثورة المباشرة

لم يبق فى استطاعة الحسين أن يتجنب الاصطدام بالترك، وأن يحجم عن مصارحتهم الشر والعدوان بعد ماواصلت الحالة إلى الدرجة التى وصفناها من الجفاء والفتور خلال المرحلة السابقة، رغم اصطناع المودة، وقد ظل كل فريق يبديها للفريق الآخر حتى اللحظة الأخيرة، لظهور نيات الترك واضحة جلية إزاءه وإزاء أولاده أولا، وإزاء قومه وأبناء جنسه ثانيا، وما كان هؤلاء يضمرون شرا للدولة، وما كانوا يتمنون زوالها أو الخروج عن طاعتها لولا إنها بادأتهم الشر وصارحتهم العدوان، وكشفت لهم عن وجه المكر والانتقام.

لقد كانت هنالك جملة عوامل بعضها شخصى، وبعضها محلى، وقومى، وبعضها دينى ترغم الحسين على ركوب هذا المركب، وتضطره إلى أن ينقض عهده مع الدولة، وتسوقه إلى محالفة الإنجليز بعد ما جاءوه متطوعين وعرضوا عليه من الشروط ما يغرى، وأعلنوا استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه من مطالب بلا قيد ولا شرط وقالوا له: عليك أن تكتب وتشترط، وعلينا أن نوقع ونصدق، وإذا كانوا لم يفوا بعهودهم ومواثيقهم فليس الذنب ذنبه، وليس هو أول مخدوع بهم.

ولعل فى مقدمة **العوامل الشخصية** اعتقاده بإن رجال الدولة انتزعوا كل ثقة منه ومن أولاده، وأنهم يتحينون الفرص للقبض عليه وإقصائه، ولا يخفى أن الغاية الأصلية للترك من إرسال وهيب باشا إلى الحجاز وتزويده بما زود به من سلطة واسعة خضد شوكة الحسين والقضاء على كل ماله من نفوذ. ويعترف جمال باشا فى مذكراته أن وهيب باشا طلب من الحكومة إرسال فرقتين من الجند ليتولى تنفيذ مشروعه، ولولا مفاجأة الحرب العظمى وقد جاءت على حين غرة ـ لنفذ ولقضوا على الحسين قضاء أبديا ـ يضاف إلى هذا مايردده البعض وهو أنه كان للحسين عيون فى ديوان حكومة مكة وفى مكتب برقها وفى الباب العالى، يوافونه بكل ما يدور بشأنه من مكاتبات بين الآستانة ومكة ويطلعونه على جميع الخطط والتدابير. وما كان باستطاعة الاتحاديين معرفة شيئ من أسراره وخططه فقد كان حذرا شديد التكتم، وقد ظل يحاسنهم ويلاطفهم حتى اضطرهم إلى استبدال وهيب باشا بغالب باشا فى أوائل زمن الحرب فارتاح من خصم شديد، وخلا له الجو فى مكة فتصرف كما أراد وتسنى له أن يبتز كمية كبيرة من السلاح فى خلال سنتى الحرب الأوليين ومبلغا كبيرا من المال لا يقل عن ٦٠ ألف ليرة عثمانية من جمال باشا، ولعل خوفه من الانتقام هو الذى جعله يشترط على الاتحاديين فى خلال المفاوضات التى دارت بينه وبينهم جعل

الإمارة وراثية فى أولاده، لأنه كان يخشى اقصاءه فى أول فرصة تسنح فأراد أن ينال من الدولة عهدا باستبقاء الإمارة فى بيته وذريته فيطمئن ويرتاح، فأبى عليه رجالها ذلك.

ويأتى **العامل المحلى** بعد العامل الشخصى، ويجب أن يحسب حسابه، وقد نشأ عن مركز الحجاز الاقتصادى، وعن حالته الاستثنائية.

إن الحجاز قطر مجدب، أو واد غير ذى زرع كما وصفه القرآن، وقد اعتاد سكانه أن يعيشوا مما يدره عليهم موسم الحج، فإذا كان خصبا رتعوا فى بحبوحة الراحة وحسنت حالتهم وأدخروا لسنتهم الجديدة مايدفع عنهم غائلة الحاجة والجوع، بعكس ما إذا كان عدد الحجاج قليلا ووارده ضئيلا.

ولا يخفى إن الحرب العظمى أعلنت فى شهر رمضان من شهور سنة ١٣٣٢ هـ أى قبيل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريبا، ولما كان الإنجليز وحلفاؤهم غير واثقين من إخلاص الدولة العثمانية، لهم ومعتقدين إنها متحالفة مع الألمان، وأنها لابد أن تخوض الحرب فى جانبهم فقد ضربوا الحصر البحرى على سواحلها، ومن جملتها سواحل الحجاز فى البحر الأحمر. فتعطل بذلك موسم الحج، ولم يرد من الحجاج سوى عدد قليل لا يذكر فشعر أهل الحجاز وسكانه بالضائقة، ولكنهم صبروا على أمل أن تنتهى الحرب فى سنتهم فيلغى الحصر البحرى وتقبل وفود الحجاج فيعوضوا ماخسروه ويستدركوا مافاتهم، وحل الموسم الجديد وانتهى ورحى الحرب لا تزال دائرة والحاجة تحز فيهم حزا، وقد أكلت جميع ما أدخروه وجمعوه فارتفعت أصواتهم بالشكوى والاستغاثة وشعروا بألم الجوع والمسغبة فكاتب الشريف الحكومة وبسط لها مايعانيه أهل مكة وجدة من جوع وضنك بسبب تعطيل موسم الحج. فاعتذرت بسوء الحالة، وبحاجة الجيش إلى القوات، ولم ترسل شيئا يهون على الناس أمرهم، ولما ضاقوا ذرعا ولم يجدوا مايأكلونه ويقتاتون به حتى أن بعضهم انتزع أبواب منزله وأخشاب السقوف ليبيعها ويقتات بثمنها، جاءوا إلى الحسين يتوسلون إليه أن يعمل لانقاذهم من الموت جوعا ويكشف عنهم مايعانونه من الكرب والغم بعد مارفضت الدولة أن تمدهم وتساعدهم، وغنى عن البيان أن الوسيلة الوحيدة للخلاص من تلك الحالة هى محالفة الإنجليز والاتفاق معهم فيلغوا الحصر البحرى وتعود السفن والبواخر إلى زيارة الحجاز حاملة الميرة والزوار.

هذا مجمل مايقال فى العامل المحلى، وهو جوهرى لا سبيل إلى إنكار خطورة شأنه، ويأتى بعده العامل القومى. وخلاصة مايقال فيه أن الحسين ـ وقد كان العرب ينظرون إليه كأكبر زعيم عربى فى ذلك العهد ـ كبر عليه أن تساق الحرائر من أبناء أمته إلى الأناضول

سبايا تحت ستار النفى وأن يقتل كبار قومه ويصلبوا ويمحوا من الأرض ويشتت شملهم لا لذنب جنوه، ولا لإثم اقترفوه، وإنما لأنهم طالبوا الدولة بإصلاح بلادهم خوفا من أن يؤدى الاهمال إلى تدخل الدول العظمى فى شؤونها باسم الاصلاح ـ كما جرى من قبل فى البلقان ـ ثم ينقلب هذا التدخل إلى احتلال أو استعمار كانوا يخافونه ويعملون على تجنبه وإتقائه، ولذلك لم يجد بدا حينما وقعت الواقعة وأصم الاتحاديون آذانهم عن إجابة ملتمسة بالعفو عنهم من الثورة، انتقاما لهم وطلبا للثار، ولانقاذ البقية الباقية، وقد كانت مهددة بالفناء والاضمحلال.

وهنالك إجماع بين الباحثين فى الشؤون العربية على أن إسراع الحسين فى إعلان ثورته بعد الفتك بالرعيل الثانى ونفى الأسر الكبيرة، حمل الاتحاديين على تغيير سياستهم وأساليبهم كما اضطرهم إلى استقدام جمال باشا وتنحيته عن عمله فى سورية فعاد إلى الآستانة يجز أذيال الانكسار والخيبة بعد ما فشلت مساعيه وخابت آماله فى إنشاء عرش فى دمشق يتبوؤه ويورثه لأبنائه من بعده. وسنستوفى الكلام عن مطامعه فى الفصول الآتية.

هذا من الجهة الواحدة، أما من جهة أخرى فقد كان الاعتقاد سائدا بين العقلاء أن النصر فى ختام الحرب سيكون للإنجليز وحلفائهم، فتدور الدائرة على الألمان وعلى الترك وتنقرض الدولة العثمانية، ويستولى الحلفاء على أراضيها، وبلاد العرب فى جملتها، وهكذا يقع العرب، بين أنياب الاستعمار الأوربى الظالم، وهو ما يحاذرونه، ولذلك كان لابد للحسين بصفته زعيم العرب الأكبر من الاتصال بخصوم الترك وعقد المواثيق معهم لإنقاذ بلاد العرب وإنشاء الدولة العربية الكبرى ـ فتحل فى الشرق محل الدولة التركية الزائلة وتجدد مجد العرب، وتحيى دولتهم فلا ينتقلون من سيد إلى سيد.

ويجب ألا ننسى العامل الدينى أيضا فقد كان الحسين ـ وهو صلب فى دينه شديد التمسك بإحكامه مغرقا فى المحافظة على تقاليده ـ يعتقد بكفر الاتحاديين وخروجهم على الإسلام لأعمال بسطها بسطا وافيا فى المنشور الذى أذاعه على العالم الإسلامى بإعلان الثورة، وقد تخلص من هذه المقدمة السلبية إلى نتيجة إيجابية، هى وجوب قتالهم على كل مسلم والجهاد فيهم انقاذ للأمة من شرورهم . وقد قام بهذا الواجب حين ثار عليهم.

تلك هى خلاصة العوامل التى نعتقد إنها عجلت فى إعلان الثورة العربية ودفعت الحسين إلى قتال الترك والانضمام إلى الإنجليز وقد بذلوا له الوعود بسخاء وبلا حساب كما ستراه مفصلا.

ـ ٧ ـ

المفاوضات بين العرب والإنجليز
نصوص المكاتبات التي دارت والعهود التي قطعت

ما كان الإنجليز بغافلين عما هنالك من نضال داخلي وتشاد سرى بين الحسين والاتحاديين ذاع خبره واشتهر أمره.

ولما كان الألمان قد استمالوا هؤلاء الاتحاديين واجتذبوهم إليهم، وارتبطوا معهم برابطة وثقى لا انفصام لها، فقد اتجهت أنظار الإنجليز نحو مكة للاتصال بأميرها، خصم الاتحاديين العنيد، ومنافسهم الشديد واجتذابه فتتعادل الكفة، وتتوازن القوى، هنا العرب، هنالك الترك. وكان كل فريق منهما (الإنجليز والألمان) يستكثر من الأنصار والأعوان لاعتقاده أن يوم الحرب العظمى قد اقترب، وأن زمن النفخ فى صورها أزف ودنا.

ولقى الإنجليز أعراضا ونفورا من الحسين وأبنائه فى أول الأمر. لأن فكرة الثورة المسلحة والانفصال عن الترك، وإنشاء دولة عربية مستقلة لم تك قد اختمرت فى رؤوسهم ولأن كل ما جرى كان فى نظرهم من المسائل الداخلية التى تحل وتسوى مع الوقت، بيد أن وقوع ماوقع قبل الحرب وعثورهم على ماعثروا عليه من تقارير سرية وكتب رسمية، جعلهم أكثر يقظة فجاهروا بالمطالبة بالاستقلال الداخلى للحجاز وبإمارة وراثية، تكون فى بيتهم وأعقابهم، ولو نالوا ماطلبوه واقترحوه ولم يرتكب جمال باشا ما ارتكبه من مظالم فى ديار الشام لما جردوا سيفا، ولما أطلقوا على الترك قذيفة، ولما تبدل الموقف الحربى فى بلاد العرب ذلك التبدل الذى عجل بإخراج الترك وانهيار دولتهم.

كيف أنشئت الصلات بين الحسين والإنجليز

وكان اللورد كتشنر معتمد بريطانيا فى مصر قبيل الحرب، ووزير حربيتها فى إبانها أول سياسى بريطانى عمل للتقرب من آل الحسين، وسعى لإنشاء صلات ودية بينهم وبين حكومته، أملا باجتذابهم واكتسابهم بعدما اكتسب الألمان الترك، فقد اغتنم فرصة مرور الأمير عبد الله بن الحسين ممثل مكة يومئذ فى مجلس النواب العثمانى بالقاهرة ـ وكان يمر بها فى غدوه إلى الآستانة ورواحه منها فيقضى فى ربوعها أياما انتظارا لسفر الباخرة، وينزل ضيفا على الخديوى عباس حلمى باشا فى قصر عابدين. فزاره سنة

١٩١٣ مصحوبا بالمستر ستورس السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية يومئذ زيارة شبه رسمية من دون أن يحدد موعدها من قبل فتردد الأمير فى استقباله، تجنبا لما تثيره من القيل والقال متى ذاع خبرها، بيد أن إلحاح الخديوى عليه ـ والظاهر أنه كان متفقا مع اللورد على هذه الزيارة من قبل ـ جعله يستقبله ويدخل البهو الذى أجلس فيه، فقال له بعد السلام والتعارف: لقد اغتنمت فرصة مرورك بالقطر المصرى فجئت لأبلغك شكر حكومتى على مايلقاه الحجاج الهنود رعاياها من عناية والدة ورعايته إبان قيامهم بتأدية فريضة الحج. فنحن مغبتطون لهذا التبدل فى معاملة الحجاج» فشكره الأمير على زيارته ومجاملته ووعده بأن يحمل إلى والده ماسمعه. وقصد على الفور دار الوكالة العثمانية فقابل المفوض السامى العثمانى، وقص عليه ماجرى بالتفصيل، ورجا منه أن يبلغه الباب العالى فلا يكون هنالك مجال لتفسير أو تأويل. كما قصد فى الغداة مع تشريفاتى الخديوى إلى قصر الدوبارة، فوضع بطاقته للعميد البريطانى ردا على لزيارته له، وقد اختار زمنا يتغيب هذا فيه.

ومر الأمير بالقاهرة أيضا فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩١٤ وكان النضال على أشده بين الشريف الحسين، وبين وهيب باشا الوالى والقائد العسكرى الجديد للحجاز، وقد حل محل الوالى كامل بك والفريق خيرى باشا ـ أى أنه جمع السلطتين فى يده وجاء مزودا بسلطة واسعة ومعه سبع أورط مشاة وأورطة مدفعية يعتمد عليها فى تنفيذ سياسته الجديدة القائمة على مقاومة الشريف، والقضاء على كل ماله من نفوذ، وتطبيق أحكام قانون الولايات الجديد فى الحجاز وذلك بإلغاء العرف القديم وهو يقضى بإعفاء أهل الحجاز، من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ولأنشاء السكة الحديد بين مكة والمدينة.

وكان أول ما عمله الوالى الجديد أنه كتب إلى الشريف يطلب منه أن يسلم إلى السلطة العسكرية ١٠٠ بندقية يسلح بها حرسه، فلم يرد عليه فألح فأصر الشريف على عدم الرد، ودار فى تلك الأثناء شجار بين الجند وحرس الشريف استعمل فيه الرصاص وسقط عدد من القتلى، فاعتقد الناس أن يوم الفتنة قد اقترب، سيما وقد اقترنت هذه الحوادث بإضراب أهل مكة وجدة وإغلاقهما المخازن احتجاجا على تصرفات الوالى الجديد وخططه، وأدرك أقطاب الاتحاديين فى الأستانة أن وهيب باشا تسرع وأن نيران الفتنة تكاد تتقد فأوعزوا إليه بأن يكف وأذاعوا أن الحكومة عدلت عن تطبيق قانون الولايات، وعن تطبيق الخدمة العسكرية فى الحجاز، وعن مد السكة الحديدية. فاستقرت الأمور

وهدأت النفوس فى الظاهر وإن كانت منطوية على حقد وضغن.

واشتدت الأزمة والأمير عبد الله فى القاهرة ينتظر حلول موعد سفر باخرة البريد ليبحر فيها. فتلقى برقيات من ولاة الأمور فى الآستانة تستعجله بالسفر، واجتمع يومئذ باللورد كتشنر والمستر ستورس، وسلمه هذا كتابا، وقال له أن مستر فيتز موريس رئيس تراجمة السفارة البرطانية فى الآستانة سيأتى إلى الباخرة فى أزمير لمقابلتك ولتسلم هذا الكتاب منك وسيضع تحت تصرفك مدة إقامتك فى الآستانة باخرة خاصة تبحر بها متى أردت فتسلم الأمير الكتاب وسلمه إلى كبير التراجمة فى أزمير ولم ير حاجة لطلب الباخرة

ودار فى خلال هذا الاجتماع حديث بين الأمير واللورد حول السياسة التى تنوى انجلترا إتباعها إزاء العرب فأجابه أن انجلترا حريصة على إبقاء علاقاتها ودية بالترك وإنها تساعد العرب ضمن هذه الدائرة مراعاة لتقاليدها القديمة.

ووصل الأمير عبد الله إلى الآستانة فى منتصف شهر يوليو ضمن ويقال إن الغاية من استقدامه كانت للبحث فى إنشاء إمارة لمكة، ولم يستقر به المقام حتى أعلنت الحرب العظمى، وأغلق البرلمان وأهمل كل مشروع. فغادر الآستانة يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩١٤ ومعه شقيقه الأمير فيصل نائب جدة فى البرلمان فبلغا القاهرة يوم ٢٢ منه وحلا فى قصر عابدين فزار المستر ستورس الأمير وسلمه كتابا من الحكومة الإنجليزية إلى شريف مكة «تشكره فيه على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج وتقول أيضا إنها لا تعارض فى إرجاع الخلافة إلى العرب» ولم يجتمع باللورد كتشنر لأنه كان فى انجلترا يتقلد وزارة الحربية.

ابتداء المكاتبات

فى أواخر شهر سبتمبر وصل إلى مكة تاجر مصرى من حى الجمالية اسمه على أفندى أصغر [١] يحمل إلى الشريف عبد الله من المستر ستورس السكرتير الشرقى لدار الحماية الكتاب الآتى:

«أمرنى اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية أن أكتب إلى سيادتكم لأسألكم فيما إذا كنتم وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب، وقد

١ – هو من أنسباء حسين روحى البهائى الموظف فى قلم الترجمة بدار المندوب السامى يومئذ، وهو الذى اختاره لهذه المهمة، ويعتمد الانكليز على هؤلاء البهائيين المستعربين فى أعمالهم السرية ببلاد العرب، ويثقون بهم لما خبروه من إخلاصهم.

سبق له أن أجابكم بعدم إمكانه مساعدتكم فى تحقيقها. فإن فى استطاعة حكومة جلالة الملك أن تقدم لكم المساعدات اللازمة، بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول فى زمرة الأعداء، وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين».

ولم يشأ الأمير إطلاع والده على هذا الكتاب لما يعرفه من صلابته وإخلاصه للدولة ونفوره من الاتصال بكل ماهو أجنبى، فصرف الرسول من دون أن يكتب له جوابا

ورجع الرسول بعد أسبوعين يحمل كتابا آخر من ستورس هذا مضمونه:

«بما أن الترك عزموا عزما نهائيا على دخول الحرب فى جانب الألمان، وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب فأنا آسف لترككم كتابى بلا جواب آملا الإسراع فى إرسال الرد على سؤالى».

فأطلع الأمير والده على الكتابين وسأله بماذا يجيب فضحك وقال أكتب له «الصيف ضيعت اللبن».

فكتب الأمير هذه الجملة وسلمها إلى الرسول فعاد بها إلى القاهرة.

وفى شهر نوفمبر - أى بعد دخول تركيا الحرب - عاد على أفندى إلى الحجاز يحمل كتابا ثالثا من المستر ستورس هذا مضمونه:

«بما أن الترك دخلوا الحرب فى جانب الأعداء فنحن على أتم استعداد لمساعدة شريف مكة فى قضيته، وتقديم كل ما يريده من مساعدة» فأطلع الأمير والده عليه فقال له «ليس فى استطاعتى أن أعمل شيئا قبل أن أستشير العرب وأسألهم رأيهم» فكتب الأمير بذلك إلى المستر ستورس متمهلا وواعدا بتقديم اقتراحات معينة فى المستقبل.

***

وانصرف الحسين فى خلال هذه الفترة إلى درس الموقف وإنعام النظر فيما يجب عمله فرأى أن يوفد نجله فيصلا إلى الشام والآستانة للإشراف على الحالة هنالك وللاجتماع برجال العرب فى دمشق وحلب، وللاتصال بأقطاب تركيا، فسافر إلى المدينة ومنها إلى دمشق والآستانة وفعل مافعله وقد بسطناه فى الفصل السابق ثم عاد إلى مكة فأطلع والده وأخوته عل ماتم معه، فذهب الكل إلى الطائف وعقدوا مؤتمرهم فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٥ وفيه قرروا إعلان الثورة بالاتفاق مع الإنجليز على أساس استقلال العرب وتحريرهم. ومما قرروه فى هذا المؤتمر أن يعود فيصل إلى الشام فيتصل برجال العرب فيها، وكانوا يفكرون فى أن تبدأ الثورة هنالك فيدرس التدابير، ويضع الخطط لتكون عامة

تشتمل الحجاز والشام، وأن يسافر على إلى المدينة ويقيم فيها تحت ستار قيادة المتطوعين. فيتفق مع شيوخ القبائل وينظم أمرهم استعدادا للثورة، وأن يتولى الأمير عبد الله تنظيم قبائل، الطائف والقبائل المجاورة لمكة ويعدمعدات العمل، وأن يشترك مع والده فى المكاتبات التى تدور مع الإنجليز. ولما رجعوا من الطائف انصرف كل منهم إلى إتمام ما اختص به.

اتصال الإنجليز باللامركزيين بمصر

وبينما كانت المكاتبات السرية دائرة بين دار الحماية بمصر وشريف مكة كان المستر ستورس يتصل بأقطاب حزب اللامركزية فى القاهرة ويباحثهم ويدعوهم إلى زيارته فى قصر الدوبارة، ويسألهم عن خططهم فيما لو دخلت تركيا الحرب، وماذا يكون موقفهم لو عمل الحلفاء على استقلال بلاد العرب. وهل يستطيع العرب مؤازرتهم والنهوض بأعباء استقلالهم؟. فأجابوه أن العرب يتمنون استقلالهم وإعادة غابر مجدهم إذا كان لابد من انهيار دولة الترك. وهم على استعداد لتأييد كل حركة ترمى إلى استقلال العرب مهما كان شأنها.

وبعد محادثات عديدة تم الاتفاق على أن يكتبوا شروطهم الخاصة باستقلال العرب وأن يعرض اللورد كتشنر هذه المطالب على بريطانيا حتى إذا وافقت عليها أعلنتها رسميا بواسطة شركة روتر، فيعرفها العالم على أن تتعهد بحمل حلفائها على قبول هذا العهد للأمة العربية، حتى لايكون ثمة مجال للطمع فى الأقطار العربية، وفى مقابل ذلك تتعهد الهيئات العربية السياسية بالسعى لإيقاد الثورات فى البلاد العربية لشل حركة الجيش العثمانى، وفعلا كتب هذا البيان وأرسل إلى لندن.

وكان من مقتضى هذه الحركة أن ينتدب رجال اللامركزية إلى البلاد العربية رسلا يثقون فيهم لدرس الحالة فيها، وللاتصال بزعمائها ومفكريها لاطلاعهم على ما وقع، على أن تتولى دار الحماية دفع نفقاتهم، وهكذا غادر القاهرة إلى البصرة محب الدين الخطيب، كما سافر الشيخ محمد القلقيلى إلى سورية وفلسطين، وذلك قبل دخول تركيا الحرب طبعا، وقد عاد ثانيهما على الفور ولم يطل الإقامة فى دمشق وبيروت لأنه خاف سوء العاقبة. أما الأول فقد قبض عليه الإنجليز فى البصرة وألقوه نحو عشرة أشهر فى غياهب السجون، وبعد أسابيع عاد البيان من انجلترا مشوها مبتورا فلم يرض ذلك اللامركزيين، فقطعوا المفاوضات وأمسكوا عن العمل.

نصوص المكاتبات السرية

وهانحن نثبت نصوص المكاتبات السرية التى دارت يومئذ بين الشريف والإنجليز مراعين تسلسلها التاريخى.

١

من الشريف حسين إلى السير هنرى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣ (١٤ يوليو سنة ١٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه اللّه:

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتى واحتراماتى، وأرجو أن تعملوا كل مافى وسعكم لتنفيذ المذكرة إليكم طيه، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية

وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة.

ثم يجب أن لا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب، لإلقاء المناشير، وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد قررت الآن.

وأنى لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية، لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضى المقدسة «مكة والمدينة» التى أوقف إرسالها منذ العام الماضى.

وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام، والعام الفائت، سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة. وأعتقد أن هذا يكفى لاقناع رجل ذكى مثلكم، أطال الله بقاءكم.

حاشية ـ أرجو أن لاتزعجوا أنفسكم بإرسال أى رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا ، خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه.

ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا، كما نرجو أن تعطوه بطاقة ليسهل عليه الوصول إليكم عند مانجد حاجة لذلك.

والرسول موثوق به.

المــذكرة

لما كان العرب بأجمعهم - دون استثناء - قد قرروا فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا، وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بأيديهم. ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إل أمانيهم المشروعة، وهى الأمانى المؤسسة على بقاء شرفهم، وكرامتهم وحياتهم..

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافى، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا..

أنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولا - أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - أدنه، حتى الخليج الفارسى شمالا، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى - ومن البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى سينا غربا.

على أن توافق انجلترا أيضا على إعلان خليفة عربى على المسلمين.

ثانيا - تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انجلترا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية ، إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

ثالثا - تتعاون الحكومتان الإنجليزية والعربية فى مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظا لاستقلال البلاد العربية. وتأمينا لأفضلية انجلترا الاقتصادية فيها...

على أن يكون هذا التعاون فى كل شيئ، فى القوة العسكرية، والبحرية، والجوية..

رابعا - إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشب بينه وبينها قتال وعراك، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد. على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب فى إشراك الفريق الآخر معه ففى وسع الفريقين أن يجتمعا معا وأن يتفقا على الشروط.

خامسا - مدة الاتفاق فى المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة.

وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء «مدة الاتفاقية بعام».

هذا ولما كان الشعب العربى بأجمعه قد اتفق «والحمد لله» على بلوغ الغاية وتحقيق

الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلبا أوإيجابا فى خلال ثلاثين يوما من وصول هذا الاقتراح. وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جوابا فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء.

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا - إذا لم يصل الجواب - أحرارا فى القول والعمل من كل التصريحات، والوعود السابقة التى قدمناها بواسطة على أفندى.

٢

من مكماهون إلى الشريف

مصر فى ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥)

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين باشا، وسيد الجميع، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين، عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انجلترا. وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالك برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انجلترا ومصالح انجلترا هى مصالح العرب.

وأود بهذه الرسالة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة على أفندى، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربيا عندما تعلن الخلافة، ونصرح مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربيا عريق العروبة. أما مايتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل - والوقت قصير والحرب قائمة - سابقا لأوانه. وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسما كبيرا من الأراضى التى أشرتم إليها فى اقتراحكم احتلالا تاما.

ثم يجب أن أضيف إلى ذلك، أننى علمت بدهشة وألم أن بعض العرب فى هذه الأقسام لا يرغبون فى مساعدتنا، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك، أعنى للهدامين الجدد، الظالمين القدماء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضى المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسلمها، ونحن نهيئ الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام.

وتفضلوا بقبول احتراماتنا

التوقيع «أ. هـ ماكماهون».

٣

من الشريف إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٩ سبتمبر سنة ١٩١٥).

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ فى ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعورى بغموضه وبرودته فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية. أعنى نقطة الحدود.

وأرى من الضرورى أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع فى كل الشؤون، وفى أى شكل، وفى أية ظروف، ويجب أن أؤكد لكم أيضا أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التى ذكرتها لكم.

ويعذرنى فخامة المندوب إذا قلت بصراحة أن «البرودة» و «التردد» اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله أن البحث فى هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت، وإن تلك الأراضى لاتزال بيد الحكومة التى تحكمها.. يعذرنى فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شيئ من هذا القبيل.

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه، ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهى بريطانيا العظمى.

وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه فى سبييل الصالح المشترك. وهم يرون أنه من الضرورى جدا أن يتم تنظيم الأراضى المجزأة، ليعرفوا على أى أساس يؤسسون حياتهم. كيلا تعارضهم انجلترا أو إحدى حليفاتها فى هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة

معاكسة، الأمر الذى حرمه الله.

وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا - فى تلك الحدود - مناطق يقطنها شعب أجنبى. بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها.

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها، وييسر الناس بها

وأنا على ثقة ياصاحب الفخامة، أنكم لا تشكون قط بأنى لست أنا شخصيا الذى يطلب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا، بل هى مقترحات شعب بأسره، يعتقد أنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية.

أو ليس هذا صحيحا يا فخامة الوزير؟

وبالاختصار فإننا ثابتون فى إخلاصنا، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا - كما قيل - أو غاضبين!

أما مايتعلق فى قولكم بأن قسما من شعبنا لايزال يبذل جهده فى سبيل تأمين مصالح الأتراك، فلا أظن أن هذا يبرر «البرودة» و«التردد» اللذين شعرت بهما فى كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلا مثلكم ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى لحياتنا الأدبية والمادية.

وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية فى كل عمل أقوم به، وأراه مفيدا وصالحا لبقية المملكة، وإنى سأستمر فى هذا إلى أن يأمر الله بغير ذلك!

وأود هنا ياصاحب الفخامة، أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب - ومن جملته هؤلاء الذين تقولون أنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا - ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على ديانتهم، وحمايتهم من كل أذى أو خطر.

وكل ماتجده الحكومة البريطانية موافقا لسياستها، فى هذا الموضوع، فما عليها إلا أن تعلمنا به، وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها

ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها.

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هى آمن على مصالح انجلترا من خطة انجلترا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء «الجيران» فى المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها.

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء، وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة، تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة.

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة.

وأنا أصرح بهذا، رغم أنى أعتقد وأؤمن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم

ويستطيع معالى الوزير، وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لانزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورس منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا، وخاصة فيما يتعلق بالحركة التى أضحت قريبة، والتى يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح، لنكون حجة ـ نحن والذين يرون رأينا ـ فى العمل ضد تركيا، ودون أن نتعرض للوم والنقد.

وأعتقد أن قولكم «بأن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للإسراع فى حركتكم مخافة أن يؤدى هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم» لا يحتاج إلى إيضاح.. إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة...

أعتقد الآن أن فى هذا كفاية....

٤
من مكماهون إلى الشريف

القاهرة فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣)

إلى شريف مكة «مع الألقاب»

تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور، وكان للعبارات الودية المخلصة التى وردت فيه أكبر تأثير فى نفسى.

وأنه ليؤسفنى إنكم لاحظتم فى كتابى الأخير، وحديثى عن قضية الحدود، شيئا من «البرودة» والتردد. مع أننى لم أكن أقصد ذلك، بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثا منتجا.

هذا كل ماأردت قوله. وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود، وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة

البريطانية، وأنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية، التي أثق كل الثقة بإنها ستفوز برضائكم

إن «مرسين» و«اسكندرونة» وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص، وحماه، لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة.

فيجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات، على أن لاتنفض شيئا من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب.

أما الأراضي التي تستطيع انجلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضررا بحليفتها فرنسا فإن لي السلطة التامة باسم الحكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جوابا على كتابكم:

١ ـ إن انجلترا مستعدة ـ على أساس تلك التعديلات ـ أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة.

٢ ـ تحمي بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي، وتعترف بوحدتها.

٣ ـ تقدم بريطانيا للعرب ـ عند الحاجة ـ كل مساعدة، أو نصيحة تلزم، وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر من التبعة الإنجليزية.

أما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مراكز انجلترا ومصالحها فيها، تتطلب شكلا إداريا خاصا، ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الانحاء من الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة، واطمئنان السكان، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها.

وإني لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ماتكونون عن الشك في عطف بريطانيا على أماني أصدقائها «التقليديين» العرب، ويؤدي حتما إل التحالف، والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية، وإنقاذ العرب من النير التركي. الذي كان ومايزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام.

لقد قصرت كتابي هذا على الشؤون العظيمة الأهمية، فإذا كان لديك شؤون أخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها، ولم أشر إليها في كتابي هذا، فإن في وسعنا البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل.

وقد تلقيت بالسرور والرضاء، نبأ وصول المحمل الشريف، والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والارشادات القيمة التى قدمتموها، وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التى خلقتها الحرب الحاضرة.

أرجو من الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعا إلى جميع الشعوب.

لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان، وهو سيطلعكم على بعض الشؤون التى لم أذكرها فى كتابى.

«أ. هنرى مكماهون»

٥

من الشريف إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ (٥ نوفمبر سنة ١٩١٥)

إلى السير ماكماهون «مع الألقاب»

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ فى ١٥ ذى الحجة، وها أنا أجيبكم عليه بما يلى:

١ - رغبة فى تسهيل الاتفاق، وخدمة الإسلام، واجتناب كل مامن شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتمادا على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن اصرارنا فى ضم مرسين وأدنه، إلى المملكة العربية.

أما قضية حلب وبيروت، وسواحلها فهى عربية صرفا، وليس هنا فرق بين المسلم العربى، والمسيحى العربى، فكلاهما من نسل واحد.

وسنسير - نحن المسلمين - على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الذين فرضوا على المسلمين - بموجب الديانة الإسلامية - أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملوا أنفسهم. وقد قال سيدنا عمر فى حديث له عن المسيحيين بإن لهؤلاء مالنا من حقوق وواجبات.

وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق، بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع.

٢ ـ لما كان العراق قسما من المملكة العربية، وكان مركز حكوماتها فى عهد على ابن أبى طالب، والخلفاء الذين تبعوه، ولما كان هذا القطر مهدا لحضارة العرب ومدنيتهم، وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى، وفيه عظمت قوتهم، فإن العرب القريبين والبعيدين، ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة، ولا يستطيعون أن ينسوا تقاليدهم وذكرياتهم.

ولذلك أعتقد أنه ليس فى المستطاع إقناع الشعب العربى بالتنازل عن هذا القطر. إنما رغبة فى تسهيل الاتفاق واعتمادا على عهودكم فى المادة الخامسة من كتابكم، وحفظا لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضى التى تحتلها الجيوش الإنجليزية، تحت إدارة انجلترا، لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة، واحترام اتفاقكم مع شيوخها.

٣ ـ إذا كنتم ترغبون فى الاسراع بالثورة فإننا نرى أمامنا كثيرا من المخاوف، وأول مانخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلومونا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية.

ثم هناك أمر آخر نخشاه، وهو أننا إذا وقفنا فى وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية، فإننا لا نستطيع أن نعرف، إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المخالفة وتطلب الصلح تتركنا انجلترا وحدنا أمام الأتراك أم لا؟

٤ ـ إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلا الانتقام منا فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا.

٥ ـ عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هى حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح وتمد يدها دوما لمساعدتهم والدفاع عنهم، عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيئ من الخوف والحذر

٦ ـ إن كتابنا المؤرخ فى ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ يغنينا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على أن لا يكون ـ كما صرحتم ـ تدخل فى الشؤون الداخلية.

٧ ـ إننا ننتظر وصول جوابكم النهائى الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع مايمكن فقد أبدينا كل تساهل فى الموضوع فى سبيل الوصول إلى اتفاق يرضى الفريقين ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب أما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم،

أو انقراض فى سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم.

ولو لم أكن أعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوصول إلى أمانيهم، لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوى فيه، ولكن العرب بأسرهم يصرون علىّ بأن أقود حركتهم حتى النهاية.

وليحفظكم الله، وينصركم...

٦

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)

وبعد. فقد وصلنى كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذى الحجة وسرنى مارأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتى مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية، وقد تلقيت أيضا بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين، التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء. هذا وفى قولكم إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعا أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى - كما سبقت فأخبرتكم - مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة، وإننا نستصوب تماما رغبتكم فى اتخاذ الحذر، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم، ولكنا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جدا أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان. فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى

التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها الاسعاف غرضنا عندما يجئ وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته. وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا قد فوضت إلىّ أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك.

هذا وعربونا على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه. وأقدم فى الختمام عاطر التحيات القلبية.

٧

من الشريف إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٥ صفر سنة ١٣٣٣ (أول يناير سنة ١٩١٦)

تلقينا كتابيكم المؤرخين فى ٩ صفر فسرنى ماجاء فيهما، وذهب ماكان يقلقنى وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم بإن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية، بل إن كل شيئ كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه

وهذه الحقائق هى دوما فى فكرى أهتم لها كل الاهتمام، وأرجو أن تجد فى نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار.

إن ما يتعلق بقضية العراق، وقضية التعويض الذى اقترحناه لقاء احتلاله فإننى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا فى القول والعمل، أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها.

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها أبدينا لكم فى كتابنا السابق أقصى مايمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التى يريدها الله العلى الأعلى أن تتحقق.

وهذا الشعور هو الذى حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيئ إلى تحالف انجلترا أو فرنسا، والاتفاق المعقود بيهما خلال هذه الفترة ومصائبها.

٨

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ ٣٠ يناير سنة ١٩١٦

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ فى ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به، واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية.

وأننا لنقدر حق التقدير الدوافع التى تقودكم فى هذه القضية الهامة، ونعرف جيدا أنكم تعملون فى صالح العرب، وأنكم لا ترمون إلى شيئ ـ فى عملكم ـ غير صالحهم وحريتهم وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عند ماتتم هزيمة الأعداء، ونصل إلى التسويات السلمية.

أما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم فى تجنب كل مامن شأنه الإساءة إلى تحالف انجلترا وفرنسا، وسررت جدا بإبداء مثل هذه الرغبة.

وأظنكم تعرفون جيدا أننا مقررون قرار نهائيا بألا نسمح بأى تدخل ـ مهما قل شأنه ـ فى اتفاقنا المشترك فى إيصال هذه الحرب إلى الفوز، ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وانجلترا ستقوى وتشتد، وهما اللتان بذلتا الدماء الإنجليزية والفرنسية جنبا إلى جنب فى سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات.

والآن .. وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا فى سبيل القضية الهامة، فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد، صداقة دائمة، تعود على الجميع بالسرور والغبطة.

وقد سررنا جدا للحركة التى تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا. ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب، لاتخاذ تدابير أوسع من هذه.

٩

من الشريف إلى مكماهون

مكة فى ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ ٢٠ فبراير ١٩٧٦

إلى صاحب السعادة... (١)

١ ـ لم نوفق إلى العثور على النص الكامل لهذا الكتاب فاكتفينا منه بهذه الخلاصة الموجزة وهى كل ماوجدناه.

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم الأخير المؤرخ ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ ـ ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ وأحطت علما بما جاء فيه، وسأعمل إن شاء الله لجمع كلمة العرب لتبدأ العمل قريبا بإذن الله.

١٠

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤

بعد مايليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ فى ١٤ ربيع الآخر من يد رسولكم الأمين، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التى تنوونها وأنها لموافقة فى الأحوال الحاضرة، وأن حكومةجلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم، وإن كل شيئ رغبتم الإسراع فيه وفى إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى فى (بورت سودان) تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم بالمواقع التى يقتضى سوقها إليها، والوسائط التى سيكون حاملو الوثائق لتسليمها إياهم.

إن كل التعليمات التى وردت فى محرركم قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان، وهو سيجريها حسب رغبتكم، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان حتى يؤدى مأموريته، التى نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج، وسيعود إلى بورت سودان، وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله.

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم فى خطابنا هذا ماربما لم يكن واضحا لديكم، أو ما عساه أن ينتج سوء تفاهم. ألا وهو يوجد فى بعض المراكز والنقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب. يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية فى البحر الأحمر. وعليه نرى أنه من الضرورى أن نتخذ التدابير الفعالة ضدهم، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب

على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات. لأنا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية. وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغتم خبرا مكذوبا عن الأسباب التى تضطرنا إلى عمل من هذا القبيل.

وقد بلغتنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم فى أعمال السفن ليثبتوا بها الألغام فى البحر الأحمر ولإلحاق الأضرار بمصلحتنا فى ذلك البحر، وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق لديكم ذلك.

وقد بلغنا ان ابن الرشيد قد باع للأتراك عددا عظيما من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونؤمل أن تستعملوا كل مالكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا هو صمم على ماهو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سورية أن يقبضوا عل الجمال حال سيرها، ولا شك أن فى ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرنى أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسى، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم، وهم يأتون إلينا وحدانا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إليهم، وقد هزمنا - والحمدلله - القوات التى جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا، وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التى حاقت بهم وإن لسقوط (أرضروم) من يد الأتراك، وكثرة انهزاماتهم فى بلاد القوقاس تأثيرا عظيما هو فى مصلحتنا المتبادلة، وخطوة عظيمة فى سبيل الأمر الذى نعمل له وإياكم. ونسأل الله عز وجل أن يكلل أعمالكم ومساعيكم بالنجاح وبالختام.

أنجال الملك حسين الأربعة



الملك على



الأمير عبد الله



الملك فيصل



الأمير زيد

ـ ٨ ـ

إعلان الثورة في الحجاز
المعارك الأولى حول المدينة المنورة

كان سفر الأميرين علي وفيصل والمتطوعة من معسكر سيدنا حمزة أول صباح يونيو سنة ١٩١٦ أول نذير أنذر به الترك بخروج العرب عليهم وانفضاضهم من حولهم.

واتجه الأميران بعد مغادرتهما المعسكر إلى الخانق سالكين الطريق الشرقى، ثم عادا فى الغداة إلى بيار على وهى واقعة إلى الغرب الجنوبى من المدينة فخيما فيها، وكاتبا القبائل، وأخذا يجمعان القوى والأنصار، ولا يخفى أن الأمير عليا أنشأ خلال إقامته فى المدينة المنورة صلات وثيقة مع شيوخ حرب وجهينة وبلى وبنى سالم ومسروح، وأخذ عليهم العهود بأن ينضموا إلى الثورة ويقاتلوا معها، وهذا هو السر فى شكاوى الترك منه ـ فما كانوا بغافلين عما يعمله ـ وإلحاحهم على والده باستدعائه، وفى يوم ٨ منه هاجما بستة آلاف مقاتل محطة المحيط، واشتبكوا مع حاميتها. فدارت أول معركة بين الترك والعرب، وأستأنفا الغارة صباح ٩ منه فهاجما الحسا فخرج للقائهما فخرى باشا على رأس قوة كبيرة فدارت معركة امتدت من الصباح حتى الظهر وانتهت بإرتداد المهاجمين حتى بير الماشى، لنفاد نخائرهم، ثم إلى الغدير وهنالك افترقا: فتولى فيصل قيادة قسم من القبائل وسلك بها الطريق الغربى ـ أى أنه اختص بالعمل على طريق المدينة ـ ينبع كما اختص على بالعمل على الطريق الشرقى مكة ـ المدينة.

على هذا المنوال بدأت المعارك حول المدينة بين العرب والترك قبل أن تعلن الثورة وسميا، أما فى منطقة الطائف، وقد اختص بالعمل فيها الأمير عبد الله، فقد بدأ القتال مساء يوم الجمعة ٩ يونيو (٨ شعبان) وكان الأمير قد استعد له سرا من قبل، عقد المواثيق مع قبائل عتيبة وثقيف وهذيل وسبيع وبنى الحارث.

وبيان ذلك أنه لما تم الاتفاق على إعلان الثورة غادر مكة متظاهرا بأنه ذاهب لتأديب قبيلة البقوم العاصية. فبلغ الطائف يوم ٥ شعبان، وكان فيها غالب باشا والى الحجاز وقائده العسكرى العام للاصطياف ـ كما كان فيها أحمد بك قائد الفرقة العسكرية ومعظم ضباط هذه الفرقة، مع عدد من الجند لا يقل عن ٣٥٠٠ مقاتل.

وشعر الترك بما يدبره الأمير عبد الله فى الخفاء وأدركوا إن المسألة ليست مسألة

تأديب البقوم، فذهب أحمد بك قائد الفرقة إلى غالب باشا، وطلب إليه أن يصدر أمرا باعتقال الأمير خوفا من النتائج. فقال إن اعتقاله يثير القوم علينا من دون لزوم وأبى أن ينفذه . وقد ظل قادة الترك بين آخذ ورد حتى يوم الجمعة ٨ شعبان ففى ذاك اليوم أعلن الأمير أنه منصرف بعد صلاة الجمعة لتأديب البقوم ولما كانت العادة المتبعة عندهم أن يأتى لوداع الوالى قبل سفره فقد وقع خلاف بين رجال حاشيته، وكانوا لا يجهلون حالة الترك النفسية ومابين رجالهم من اختلاف، فمنهم من قال باجتناب الذهاب خوفا من القبض على الأمير فتفسد الخطة، ومنهم من قال إن ذهابه يورث القوم اطمئنانا. ويؤدى إلى تسكين ثائرتهم. وأخيرا صحت عزيمة الأمير على الذهاب مهما كانت النتائج فغادر داره قاصدا مقر الوالى، وكان عليه أن يخترق القشلاق العسكرى لبلوغه، وقد دهش الضباط الترك - وكانوا مجتمعين مع الجند - حينما رأوه داخلا عليهم بمفرده وحيوه التحية العسكرية، ولم يتعرضوا له فمضى حتى دخل على الوالى، فاستقبله مرحبا وأظهر ارتياحه إلى زيارته فأبلغه أنه قرر الانصراف بعد الظهر لأداء مهمته، فتمنى له التوفيق ثم قام لوداعه فتعانقا وبكى الوالى، وكان مشهدا مؤثرا. وهكذا عاد الأمير إلى مقره سالما وفى الساعة الثانية بعد الظهر غادر الطائف مع رجاله متجها نحو الشرق فكان أول ما فعله بعد ما أصبح خارجها إصداره الأمر إلى رجاله بتقطيع الأسلاك البرقية والتليفونية، ثم هاجموا الترك فى المساء (مساء ٨ شعبان).

وبدأت الثورة فى مكة يوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ و١٠ يونيو سنة ١٩١٦ وذلك أن الحسين أوعز إلى رجاله، وكان قد أعدهم من قبل كما حصل فى المدينة والطائف بأن يهاجموا القشلاق العسكرى فى «جرول» وكان الترك غافلين عما يدبر لهم، وكان قادتهم وكبار ضباطهم فى الطائف، ويتولى القيادة بكباشى اسمه درويش بك. ففى ذلك الصباح بدأ الحسين نفسه الثورة بأن أطلق رصاصة من قصره على قشلاق الترك، فكانت الإعلان للثورة العربية الكبرى، كما كانت الإشارة التى اتفق علها بينه وبين رجاله فبدأوا الهجوم على أثرها. وكانوا قد احتشدوا فى مكان مجاور قبيل الفجر.

وأدرك درويش بك قائد الجند التركى حراجة الموقف، وعرف أن مصير جنده إلى الفناء لأنهم كانوا يقومون بالتمرينات الرياضية المعتادة فى خارج القشلاق بلا سلاح فعمد إلى الحيلة لانقاذهم فخاطب الشريف تليفونيا وسأله عن السبب فى ماوقع فأجابه «إ ن العرب لا يرضونكم حكاما عليهم بعد ماقتلتموهم وعاديتموهم» فأجابه «مادام الأمر كذلك فأرسل

من قبلك من تعتمد عليه لنسلمه السلاح والجند فنحن لا نريد إراقة الدماء عبثا».

فقصد الشريف شرف عبد المحسن البركاتى على الفور لمقابلة نوريش، وليتسلم الثكنة ومن فيها فقال له هذا «لابد من دخول الجند إلى الثكنة لاتمام عملية التسليم ولما كان ذلك غير مستطاع قبل أن يكف الثوار عن إطلاق النار ويرفعوا الحصار فأرجوك الإيعاز إليهم بالانصراف فندخل سوية ونجرى العملية المطلوبة» فانخدع الشريف وأمر الثوار بالتفرق فدخل الجند الثكنة فورا وتقلدوا سلاحهم وأخذوا أهبتهم للنضال ونبه أحد الضباط العرب الشريف فنجا بنفسه.

هاجم الشريف محسن بن أحمد منصور شيخ قبائل حرب جدة صباح الأحد (١٠ يونيو) على رأس أربعة آلاف مقاتل فتحصنت حاميتها التركية فى شمالها وجنوبها وصمدت للنضال، وقد اشتركت ثلاث بوارج بريطانية فى هذا الهجوم يوم ١٣ منه وأصلت أماكن الترك نيرانا حامية وهى: دفران وفوكس وهاردنج.

منشور إنجليزى

وطارت الطيارات البحرية البريطانية فى سماء يوم ١٤ منه وألقت على معسكر الترك المنشور الآتى:

«ومار بك بظلام للعبيد» إلى سعادة قائد القوات التركية وحضرات ضباطه الكرام بخط الدفاع بجدة:

أعلمكم علم اليقين وأخبركم بالحقيقة التى لا مراء فيها، وهى أن مكة المكرمة والطائف أصبحتا فى يد دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين بن على وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية. فقد أصبحت أرض الحجاز خالية بالمرة من دوائر الحكومة الاتحادية مع أعلامكم بأن الحركة لم تكن لتأسيس دولة خلافة عربية إسلامية، وإن العرب لا يكرهون الترك من حيث هم لأنهم مسلمون مثلهم، وإنما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة التى تلعب بها ألمانيا والله على ماأقول شهيد. فبدلا من وقوفكم فى وجه العرب الذين لكثرة عددهم وعدتهم سيحرزون النصر المبين إن شاء الله بعد إزهاق الكثير من الأرواح، وبدلا من المقاومة التى لا نتيجة لها أنصح لكم أن تسلموا بدلا من أن تبيدوا عن آخركم ومهلتكم هى مجرد وصول هذا إليكم بعد رفضكم لهذا النصح تصب عليكم القنابل من السفن الهوائية، ومن البحر والبر حيث استعد لكم العرب بالمدافع الجبلية السريعة

ومدافع الميدان الحديثة والرشاشات السريعة وعلى كل حال فإنا لا تعد ذلك جبنا منكم، ولا إهانة لشرف رايتكم، ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه، ويتجاوز الأدب وهو كاره لتجاوزه. فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون والعاقبة للمتقين.

الحكومة الإنجليزية

وفى يوم ١٦ يونيو رفعت حامية جدة راية التسليم فأنذرت بعدم اتلاف مدافعها وأسلحتها، وبلغ عدد الجنود الذين استسلموا ١٣٤٦ جنديا يقودهم ٤٧ ضابطا. أما الغنائم فهى ١٠ مدافع ميدان وأربع مدافع جبلية وأربع رشاشات مع كمية كبيرة من البنادق والعتاد.

وصول أول إمداد للثورة

وفى يوم ٢٧ يونيو وصل إلى جدة ولسن باشا حاكم بورسودان (الكولونيل ولسن) متدويا من قبل السردار فى السودان (وهو سردار الجيش المصرى وحاكم السودان السير رجنلد ونجت ومندوب الملك بعد ذلك) ويحمل كتابا منه إلى الشريف يتضمن تهنئته بالنصر والاستقلال ويعرب عن إعجابه به وبرجولته، ويقول إنه من الإنجليز الذين يحبون الشرق، ولاسيما العرب من نعومة أظفارهم، وأنه أرسل مع هذه التحية قوة بسيطة من قبيل المساعدة مجهزة ببطارية ميدان وبطارية مكسيم، وثلاثة آلاف بندقية، وأن عدد رجال القوة هو ٣٢٠ جنديا معهم ٢٤٠ دابة وهم جميعا بقيادة اللواء السيد بك على (السيد باشا على بعد ذلك).

ويقال إن الشريف حاول رفض السلاح بحجة أنه لا حاجة له به، لأن المسألة بسيطة جدا عل على أن يطلب حاجته عند اللزوم ثم وافق بعد إلحاح على أن ترسل أربعة مدافع إلى رابغ، ويبقى اثنان فى جدة. أما مدافع مكسيم فتظل فى بورسودان إلى حين الطلب.

منشور الثورة

وفى يوم ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤و ٢٦ يونيو تم طبع منشور الثورة وقد وضعه الحسين بذاته، وبسط فيه الأسباب التى حفزته إلى مقاتلة الاتحاديين بسطا وافيا وهذا نصه الكامل[١]

١ ـ نقول الكامل لأن الإنكليز اختصروه حين وصل إلى أيديهم فى مصر واختزلوه، ونشروه مشوها كما ستراه

بسم الله الرحمن الرحيم

منشور عام من شريف مكة وأميرها إلى جميع إخوانه المسلمين.

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»

كل من له إلمام بالتاريخ يعلم أن أمراء مكة المكرمة هم أول من أعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم، رغبة منهم فى جمع كلمة المسلمين، وإحكاما لعرى جامعتهم، لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام طاب ثراهم، وجعل دار الخلد مثواهم، بعروة الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامة عليه، ولبناء أحكام دولتهم على الشريعة الغراء، ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة مازال الأمراء المشار إليهم يحافظون عليها حتى أننى حملت بالعرب على العرب بذاتى فى سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف ١٣٢٧ أثناء حصار (أبها) محافظة على شرف الدولة، وفى السنة التى تلتها كان مثل هذه الحركة تحت قيادة أبنائى. إلى غير ذلك مما هو فى هذا المعنى كما هو مشهود ومعهود - إلى أن نشأت فى الدولة جمعية الاتحاد، وتوصلت إلى القبض على إدارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة فحادوا بها عن صراط الدين ومنهج الشرع القويم، ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار أئمته - وسلبوا شوكة السلطان المعظم ماله من حق التصرف الشرعى والقانونى أيضا - وجعلوه هو ومجلس الأمة ومجلس الوكلاء منفذين للقرارات السرية لجمعيتهم الثورية - وأسرفوا فى أموال الدولة وحملوها الديون الفاحشة، التى لا يخفى أمر خطرها ووخامة عاقبتها على أحد - وأضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها - ومزقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة، فأوقعوا بينها وبين العنصر الذى أرادوا تسويده عليها وإدغامها فيه العداوة والبغضاء - وخصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد.

ولم يكتفوا بذلك كله حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوربية الساحقة الماحقة فوقفوا بالدولة موقف الهلكة، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، واستنزفوا باسمها ثروة الأمة، كما استنزفوا قبلها ثروة الدولة ثم اتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم فى سياستهم الخرقاء وإدارتهم الظالمة، والتنكيل بالعرب خاصة، حتى أن حرم الله سبحانه وحرم رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم لم يسلما من شرهم ، فأنهم عرضوهما للخوف والجوع والخراب.

أما انحرافهم عن صراط الدين فلا نأخذ فيه هنا مجرد ما اشتهر عن زعمائهم من

الكفر والالحاد فى الصحف الإسلامية والأوربية، ولا بما نعلم من سوء اعتقاد جمهور علماء الآستانة وغيرهم فيهم، بل نأخذ فيه بأقوالهم وأفعالهم - فمن باب الأقوال مانشروه فى دار السلطنة من الكتب والصحف التى جاهرت بالطعن فى الإسلام، وانتفاض ماعظم الله تعالى من قدر خاتم الرسل وقدر خلفائه الراشدين الكرام، ككتاب (قوم جديد) الذى اشتهر بما فيه من الكفر والضلال والإضلال، وتحريف نصوص الكتاب العزيز والسنة السنية، ومجلة (اجتهاد) التى شوهت أجمل سيرة فى الخلق وأشرفها، وهى سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامة، ولايمكن أن تنشر أمثال هذه المطبوعات فى دار السلطنة على مرأى ومسمع من شيخ إسلامها وعلمائها، ومن رجال السلطنة ووزارئها، لولا أن والجمعية هى الناشرة لها.

وما بالنا نرى من ينتقد جمعيتهم، لو بحق يعاقبونه بالقتل أو بالنفى أو السجن المويد، ومن يطعن فى دين الله وصفوة خلقه يعزز ويكرم.

ومن باب الأفعال أنهم أبطلوا ماكان محتما على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة. فجعلوا الصلاة فى نظامهم العسكرى اختيارية غير واجبة توسلا بذلك إلى أبطالها بالفعل، وقد جعل كتاب (قوم جديد) لدينهم أركانا لا صلاة فيها ولا صيام ولا حج. ثم جاءت أوامرهم فى أثناء هذه الحرب إلى الجنود المقيمين فى مثل المدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام تحتم عليهم الإفطار فى رمضان، بعلة المساواة بيهم وبين الجنود الذين يقاتلون فى حدود الروس، ولفقوا أقاويل لمعارضة النص الصريح الذى لا يقبل التأويل وهو قوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر» بل شرعوا فى ابطال أحكام الشريعة المنصوصة فى القرآن الكريم المجمع. عليها المعلومة من الدين بالضرورة وقد يعد من هذا القبيل ماورد أخيرا إلى قاضى محكمة مكة الشرعية بأن لايحكم إلا بالشهادة التى تحررت فى محكمته وبين يديه، وألا يلتفت إلى الشهادات التى يكتبها المسلمون فيما بينهم. غير مبالين بما فى آية البقرة. ومنه استحلالهم لقتل المسلمين والذميين بغير محاكمة شرعية ولا حكم، أو بأحكام عرفية ماأنزل الله بها من سلطان، واستحلال مصادرتهم وسلب أموالهم وإخراجهم من ديارهم - وسيأتى شيئ من شواهد ذلك فى المنشور، ولايمكن هنا إحصاء جرائمهم ولا بدعهم وأحداثهم فى الإسلام، ومن أغربها مشروع (سجلات المتشفعين) الذى قرره شيخ إسلامهم السابق وأصدر به إرادات سنية، وقصاراه بيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية، وكتابة

أسماء المشترين للشفاعة فى سجلات تودع فى الحرم النبوى الشريف.

وأما سلبهم ما للسلطان المعظم من حق التصرف الشرعى ـ وكذا القانونى ـ فهو مما لايجهله أحد من أهل العاصمة وأهل المعرفة فى جميع أقطار المملكة ولا من الأجانب أيضا.

حتى أنه لاقدرة له على اختيار رئيس الكتاب (المابين) فى سلطنته الشريفة، ولا رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلا عن اختيار الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ـ فضلا عن النظر فى أمور المسلمين كافة، إذ يجب على المسلمين أن يكون لهم إمام (خليفة) شرعى مستقل قادر على إقامة الشرع ورفع لواء العدل.

وإما إسرافهم فى أموال الدولة وإرهاقها بالقروض الفاحشة فأمره معلوم للخاصة والعامة، وكذلك إضاعتهم لعدة ممالك من الدولة ـ كملكتى البوسنة والهرسك والممالك الألبانية والمكدونية وطرابلس الغرب وبرقة، وكذلك إثارة الأحقاد الجنسية الممزقة لشمل الأمة العثمانية، وبهذه السياسة السوأى أضاعوا المملكة الألبانية، وفقدوا الشعب الأرنؤوطى الباسل الذى كان سياجا للدولة أمام البلقان، وهى التى حملتهم على ماإشتهر خبره فى هذه الأيام من الفتك بالأرمن من رجال ونساء وأطفال، فأين هذا أن صح عشر معشاره من قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» رواه الخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود. وفى الوصية بحفظ حقوق أهل الذمة والعهد أحاديث فى الصحاح والسنن ومن الأحاديث المخيفة فى هذا الباب ماوراه الطبرانى من حديث جابر «إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو» وإن كان فى سنده ضعف فإن متنه فى غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية.

وأا ماخصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو أعظم ماجنوه على الدين والدولة من الفساد، حاولوا قتل اللغة العربية، فى جميع الولايات العثمانية، بإبطالها من المدارس، ومنعها من الدواوين والمحاكم، وأصدروا فى ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثى العرب معارضات شديدة، ونفروا عنها فى كتبهم الجديدة، وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة، ولا يخفى أن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه، فالإسلام فى الحقيقة دين عربى ـ بمعنى أن كتابه أنزل باللغة العربية، وجعل متعبدا بتلاوته وتدبره وفهمه لا بمعنى أنه خاص بالعرب. فمن المعلوم من الدين بالضرورة أنه عام لجميع الأمم. وقد قال الله فى سورة الرعد (وكذلك أنزلناه حكما عربيا).

وقد أمكنتهم فرصة إعلان الأحكام العرفية فى البلاد من تنفيذ كل مايريدون فى العرب

فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والأفكار وحملة الأقلام وبارعي الضباط، وآخر ماوصل إلينا من بلاغتهم الرسمية في ذلك أنهم صلبوا في الشام ٢١ رجلا في آن واحد (منهم شفيق بك المؤيد والسيد عبد الحميد الزهراوي والضابط الكبير سليم بك الجزائري والأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك وتوفيق بك البساط) وأنه لصعب على كثير من ذوي القلوب القاسية أزهاق مثل هذا العدد الكثير من الأنفس لأجل الانتقام، ولو كانت من الدواب أو بهيمة الأنعام، وإنما يقتلون أمثال هؤلاء جهرا، ويصلبونهم في الشوارع العامة صلبا، حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم أن لغتنا لغة الإسلام. فيجب على الدولة الإسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها، وإن لنا في المملكة حقوقا شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها، وأما من يقتلون رميا بالرصاص بعلل عسكرية ومن يقتلون اغتيالا في السجون والشوارع فلا سبيل إلى العلم بأخبارهم إلا إجمالا، وأنه ليعز على كل إنسان أن يرضى لقومه أو لغيرهم من أبناء جنمسه بأن تكون دماؤهم مهينة غير محترمة إلى هذا الحد. وقد عظم الإسلام أمر احترام الدماء، وجعل من يتعمد القتل خالدا في النار.

ثم أنهم صادروا أموال من لا يحصى من الناس، وعمدوا إلى كثير من الأسر (العائلات)الغنية أو المغضوب عليها لأسباب سياسية فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعقارهم وأبعدوهم نساء وأطفالا إلى بلاد الأناضول بلا كافل شرعي فهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات اللواتي لا يعرفن السياسة، وعرضوا أطفالهن للهلاك بين أيديهن في طريق النفي الطويل الذي لايجدن فيه الكفاية من القوت والأسباب الواقية من البرد أو الحر، والله تعالى يقول (ولا تزر وزر أخرى) والظاهر أن الغرض من هذا أن يكون من يسلم من الهلاك من هؤلاء النساء والأطفال كالاماء والعبيد للترك في الأناضول، ولابد من أن ينسى الأطفال لغتهم هنالك، فيكونوا تركا تعمر بهم بلاد الترك، ولعلهم يريدون أن يأتوا بترك يحلون محل هؤلاء المنفيين فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية.

ولم يكتفو بالتنكيل بالأحياء تقتيلا وتصليبا ومصادرة ونفيا، بقساوة على الأطفال والمخدرات، تنفطر لمجرد تصورها القلوب وتذهب الأنفس حسرات - بل وصل حقدهم عل العرب إلى إهانة الأموات، فتجرأوا على قبر الأمير والمجاهد التقي الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الحسني بإهانته وتحقيره.

أى مسلم، بل أى بشر يرضى لقومه بمثل هذا الظلم والخسف، وقد جعل الله تعالى أمر نفى المرء من وطنه، مقارنا لأمر قتاله ليرتد عن دينه، وسببا لمشروعية القتال فقال تعالى فى تعليل الإذن بالجهاد (أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذى أخرجوا من ديارهم بغير حق) ـ الآية. وقال فى شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والاحسان (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

وأما نصيب الحجاز وسكان الحرمين الشريفين من هذه الأرزاء فلو سكتنا على ماكان من بوادره وأوائله لطغى مده، حتى لايعلم إلا الله أين يكون وحده، ساقوا إلينا الألوف الكثيرة من جنودهم المنظمة مستكملة الأسلحة والذخائر، وهم يعلمون كما نعلم إن الحجاز لا يهاجمه أحد من الدول المحاربة، حتى يحتاج إلى قوة مدافعة، وأنهم فى أشد الحاجة إلى هؤلاء الجنود فى ميادين القتال، فلم يبق إلا أنهم يريدون أن يفعلوا فى الحجاز، ما فعلوا فى سورية والعراق، ليتم لهم القضاء على الأمة العربية فى عقر دارها، وموطن منعتها وعزها وفخارها، ويذيقوا هذا الحرم الذى جعله الله آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيئ، ما أذاقوا جنة الدنيا (الشام) من الجوع والخوف، ويسلبوه مامن الله به عليه وامتن به على سكانه فى كتابه العزيز، فكان وجود هذه الجنود سببا لمنع ورود الأقوات على الثغور الحجازية، وعليها مدار معيشة البلاد، وسببا لمنع ورود الحجاج منها ولاكسب لأهلها إلا منهم، فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من أبناء الدرجة الثانية من الأهالى إلى بيع أبواب بيوتهم وخشب سقفها بعد بيعهم لجميع مايملكون لأجل الحصول على سد الرمق، وصار من المحتم على دفع أسباب الهلاك عن قوم جعلنى الله راعيا مسؤولا عنهم، وأسباب منع سواد المسلمين الأعظم عن إقامة ركن من أهم أركان دينهم، ولو كان ذلك البلاء فى سبيل الدفاع عن الأوطان، أو المصلحة الراجحة للإسلام، لتحملته البلاد بالافتخار، ولساوى فيه الشرفاء والموسرون غيرهم ولو بالاختيار، ولكنه كما أسلفنا ضد مصلحة الإسلام والوطن.

فياأيها الإخوان المسلمون:

إننا قد وصلنا إلى حال من الخطر لم يسبق لها فى الإسلام نظير ـ كان لنا دول عزيزة قوية، أفضلها دول أسلافنا العربية. وقد ورثتها هذه الدولة العثمانية، فكنا نحن العرب أحرص الناس على حياتها، على كونها هى التى خذلت اللغة العربية وانتحلت لنفسها

منصب الخلافة دون الدول التركية والكردية قبلها، وكنا نحن أمراء مكة وشرفاؤها أخلص زعماء العرب وغيرهم لها، على حرمانها بلادنا مهبط الوحى والعرفان من علوم الدين والدنيا. كل ذلك حرصا منا ومن العرب كافة على أن يكون للإسلام دولة قوية تحفظ استقلاله، وتنفذ شرعه ولو فى الجملة.

وقد صار أمر هذه الدولة إلى جمعية اغتصبت آل عثمان الكرام ملكهم بقوة الثورة، وجعلته فى أيدى زعانف ليس لأكثرهم فى الشعب التركى الإسلامى أصل راسخ، ولا فى الإسلام علم صحيح ولا عمل صالح، كأنور باشا وجمال باشا وطلعت بك فكان من سوء تصرفهم فيها وفينا ما أجلمناه لكم فى هذا المنشور، وقد كانت مقاومة أخواننا الترك لهم أشد من مقاومة العرب، وأما نحن فكنا كلما سمعنا أو رأينا شيئا من هجماتهم على الإسلام ندفعه بالتأويل، إلى أن أعيانا التأويل، وكلما علمنا بجناية منهم على الدولة أو على العرب نقول لعله ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل، ولا نستحل مقاومتهم لأجله لئلا يترتب عليه صدع فى الدولة، ويزيد له مايريدون من التفرقة بين العرب والترك، حتى أننى ساعدتهم على مقاتلة قومى، ومقاومة أبناء أمى وأبى، فلم يرضهم كل ذلك من العرب ولامنى.

ولما رأيناهم عرضوا استقلال هذه الدولة التى نحرص عليها للزوال، ولم يبقوا على كرامة الدين، ولا على أحكام الشرع، ولا على استقلال السلطان، لم يبق من سبب نحتمل لأجله منهم هذا الخسف والهوان، فلما وصل سيل طغيانهم إلينا فى حرم ربنا الذى أكرمنا بخدمة بيته وإقامة دينه، وحرم جدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام، الذى نحفظ من حديثه الصحيح «إذا ذلت العرب ذل الإسلام» اضطررنا إل مقاومة بغيهم من أسلم الطرق، وهى حصر جنودهم فى معاقلها من غير أن نبادئهم بقتال، فمن سلم منهم سلم، ومن قاتلنا كانت جنايته على نفسه، فما كان من حاميتهم بمكة إلا أن فعلت مايعد برهانا على ماتكن صدورهم للدين والعرب وهو رميهم للبيت العتيق الذى أضافته العزة الأحدية لذاتها العلية فى قوله تعالى: «وطهر بيتى للطائفين» وهى قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التى تحصن (جياد) عندما علموا بقيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع، فالتهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لأطفاء لهيبه بالضجيج

والنحيب، واضطروا إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عزوا الاثنتين بثالثة وقعت فى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا عدا ماوقع من القذائف فى بقية المسجد الذى اتخذوه هدفهم الوحيد فى غالب مقنوفاتهم بالقنابل والرصاص، ومازالوا يقتلون الثلاثة والأربعة فى نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد التقرب من الكعبة المشرفة. وفى هذا من الاستخفاف بالدين وازدراء بيت الله تعالى والإلحاد فيه مانترك القول والحكم فيه أيضا لجماعة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بعد تذكيرهم بقول الله عز وجل (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وتذكيرهم بأن الجاهلى كان يرى قاتل أبيه فى هذا البيت فلا يمسه بسوء (نعم) نترك الحكم فى هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الاسلامى. ولكنا لانترك مشاعر ديننا وشعائره ألعوبة فى أيدى الاتحاديين، ولانبيح لهم من التصرف فى حرم الله وحرم رسوله ما استباحوا فى ديار الشام ولا فى الآستانة نفسها، ولا نسكت لهم بعد على شيئ من بغيهم على أحد من أبناء جنسنا، إذ لم يعد فى السكوت مصلحة راجحة لا لدين ولا لدولة. بل صارت المصلحة الإسلامية والعربية (وهما متلازمتان) فى مقاومة هذه الفئة الباغية.

ولما كان أمر حماية الحجاز من هذا البغى والعدوان، وإقامة مافرضه الله فيه من شعائر الإسلام، ووقاية العرب والبلاد العربية من عاقبة الخطر الذى استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية ـ كل ذلك لا يتم تداركه إلا بالاستقلال التام، وقطع كل صلة بهؤلاء المتغلبين السفاكين للدماء. الناهبين للأموال، وقد هبت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها، بعد أن ضربت على أيدى عمال الاتحاديين ورجال حامياتها فاستقلت فعلا، وانفصلت عن البلاد التى لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما مطلقا بكل معانى الاستقلال، الذى لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى، جاعلة مبدأها وغايتها نصرة دين الإسلام، والسعى لإعلاء شأن المسلمين، والمساواة الشرعية فى الحقوق بينهم وبين جميع من يدخل فى حوزة استقلالها من المخالفين ، قائمة فى كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذى لا يكون لنا مرجع سواه، ولا مستند إلا إياه فى جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة كل مافى الجهد والطاقة لإعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ماقد قمنا به لأداء الواجب الدينى علينا، راجين من إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوا كذلك مايرونه واجبا لنا عليهم من أحكام روابط الإسلام والتناصح على البر والتقوى، وليعلموا أننا قمنا بما قمنا به ونحن نعتقد اعتقاد راسخا أنه أفضل خدمة للإسلام، إذا لم تتحقق به أكبر أمانى المسلمين الصادقين حتى الترك منهم فإنه لا ضرر فيه يوازى عشر معشار الضرر فى تركه، وستظهر لهم الأيام حقيقة ذلك فليصبروا إن الله مع الصابرين، والله نسأل وبحبه وحب رسوله نتوسل، أن يتولانا بالتوفيق ويمدنا بالهداية إلى مافيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلى الكبير، وهو حسبنا ونعم النصير.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن على

صدى إعلان الثورة فى الغرب والشرق

ريع أقطاب الاتحاديين، لاعلان الثورة فى الحجاز، وكان جمال باشا أشدهم حسرة وتألما، لأنه أدرك أنه كان مخدوعا، وعرف أنه لم يحسن التصرف مع الحسين وأبنائه الذين أفلتوا من يده بعد ماأخذوا المال والسلاح. ولقد كان بصرى باشا محافظ المدينة أول من تنبه إلى هذه الحقيقة، وكان يدعو إلى الفتك بالشريف وأبنائه ويشير باتباع سياسة الشدة والحزم فى الحجاز فقال كلمته المأثورة «لقد انتصر الذكاء العربى فى هذه المعركة على الذكاء التركى وفاز عليه».

وقبض فخرى باشا على ناصية الحال فى المدينة على الأثر وتولى قيادة الجند المرابط هنالك، وأخذ يعد ويستعد لمنازلة العرب الذين بدأوا قتاله بدون هوادة ولا توقف، وجاءته تعلميات جمال باشا بأن يعجل فى العمل، كما أصدر هذا أوامره إلى بعض أورط كانت واقفة على قدم الاستعداد فى دمشق بالسفر إلى الحجاز والانضمام إلى قوات فخرى باشا. وألف وفدا قوامه محمد فوزى العظم وعبد الرحمن اليوسف والشيخ أسعد الشقيرى سافر إلى المدينة على الفور لمقابلة شيوخ القبائل وإقناعهم بالإقامة على الولاء للدولة والانضمام إلى جيوشها.

تعيين الشريف على حيدر لإمارة الحجاز

ورأى الاتحاديون بعد ماحشدوا القوى وأصدروا التعليمات إلى قواهم بأن يعجلوا فى إخماد الثورة، أن يضربوا العرب بالعرب وأن يلقوا بين الأمة العربية الشقاق والبغضاء ويمزقوها تمزيقا. فجاءوا بالشريف على حيدر باشا، وهو وكيل مجلس الشيوخ العثمانى ووزير أوقاف سابق، ومن الذين عرفوا بتأييد الاتحاديين وموالاتهم فى جميع الأدوار، وعينوه لمنصب الشرافة وأرسلوه بقطار خاص إلى دمشق من الآستانة ثم قصد المدينة المنورة، وقد تقرر أن يحط فيها رحاله، ويتخذها عاصمة لإمارته، فبلغها فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ ومعه شقيقه الشريف جعفر باشا.

كيف أذيع إعلان الثورة فى سورية وكيف نشر فى مصر

ومما يستوقف النظر بوجه خاص أن خبر إعلان الثورة العربية فى الحجاز أذيع فى دمشق قبل إذاعته فى مصر بمدة أسبوع كامل. مع أن مصر كانت على معرفة بكل ما يحدث ففى يوم ١٥ يونيو نشرت الحكومة فى دمشق البلاغ الآتى:

اعتدت بعض العصابات المؤلفة من ذوى الطمع والفساد، ومن بعض جماعة العربان وقد استميلوا بالمال على بعض المخافر المجاورة للمدينة المنورة بالسلاح، وخربوا التلغراف والسكة الحديد. فبادرت القوى العسكرية إلى التنكيل بتلك العصابات الواقفة فى الطريق، وتمكنت من دخول المدينة، وشرعت فى إصلاح السكة كما أنشأت دار للمخابرات اللاسلكية فى المدينة تجرى المخابرات بواسطتها. وفى الليلة البارحة زحفت قوانا العسكرية على العصاة المجتمعين والمتحصنين فى موقع الحسا (أول مرحلة للحاج السائر من المدينة إلى مكة وتبعد عن الأول ثلاث ساعات وتسمى بير على أيضا) بجوار المدينة. واستولت على المواقع التى كان ممتنعا بها العصاة المذكورون وطردتهم منها بعد تبديد شملهم. وقد بلغتنا برقية من محافظ المدينة المنورة تشعر بأن أهل المدينة سروا سرورا عظيما بما وقع. وهذا نصها:

«لقد سر أهل البلدة الطيبة قلبا وقالبا بمحو القبائل الباغية والتنكيل بها فى المعركة الشديدة التى دارت أمس، وعادت الراحة إلى ربوعها. كما أن هذه الحادثة قد أثرت تأثيرا عظيما فى العربان المجاورة ونبتهل إلى الله بتوالى توفيقات دولتكم».

أما في مصر فقد نشرت شركة روتر يوم ٢٢ يونيو برقية مصدرها لندن جاء فيها:

وصلت أنباء موثوق بصحتها بأن دولة شريف مكة جاهر باستقلال العرب وخروجهم على الترك الذين أوصلوا البلاد بتهاونهم إلى أقصى دركات الانحطاط .. إلخ

وفي يوم أول يوليو سنة ١٩١٦ أذاع قلم المطبوعات في القاهرة البلاغ الرسمي الآتي:

تأكدت رسميا الأخبار التي نشرتها شركة روتر بتاريخ ٢٢ يونيو عن قيام عربان الحجاز بقيادة سيادة شريف مكة وقد زال حكم الأتراك في هذه الولاية وأصبحت مكة وجدة والطائف في قبضة يده. وسقطت أيضا بلدة الليث بعد ماأسرت حاميتها ولايزال حصن صغير بمكة وآخر بالطائف تقاوم حاميتهما ولكن تسليمهما ينتظر من ساعة إلى أخرى».

أما في لندن فلم يذع خبر الثورة رسميا إلا يوم ٢٨ يوليو أي بعد انقضاء سبعة أسابيع من استرجاع حريتهم السابقة. وقد قاموا في الماضي بثورات عديدة ضد الحكم التركي في البلاد العربية.

«وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية في الآستانة وخضوعها التام لسلطة الألمان إلى دخول تركيا مضطرة في حرب مشؤومة أوصلت الأحوال فيها إلى حد النهاية. فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء في البلاد العربية أن الأوان قد آن لخلع النير التركي عن أعناقهم والمناداة باستقلالهم.

«وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب، ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها في الماضي إلى البقاء على الحياد. أما الآن وقد انضمت تركيا إلى صف الدول الوسطى (ألمانيا والنمسا) فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة في اظهار عطفها على العرب الذين انخرطوا في عداد الحلفاء ضد العدو المشترك.

«على أن بريطانيا العظمى محافظة على سياستها السابقة في الابتعاد عن أية مداخلة في الشؤون الدينية، وعلى بذل جهدها في إبقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجي».

«ومن القواعد الجوهرية في سياسة انجلترا العظمى التي لاتقبل التغيير والتبديل أن تبقى هذه الأماكن المقدسة في أيدي حكومة إسلامية مستقلة».

«ولا يخفى أن أحوال الحرب الحاضرة تلقى العقبات الكثيرة والأخطار في سبيل الذين يرغبون في القيام بفريضة الحج، ولكن العمل الذي قام به شريف مكة يجعل الأمل كبيرا

فى اتخاذ التدابير اللازمة التى تمكن الحجاج فى المستقبل من زيارة الأراضى المقدسة بسلام واطمئنان».

وخطب اللورد كرومر فى مجلس اللوردات البريطانى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩١٦ خطبة عن الثورة العربية قال فيها:

«إن الأخبار التى نشرتها الصحف عما يجرى فى جزيرة العرب عظيمة الشأن جدا. ومن رأيى أنها داعية إلى الارتياح أيضا، ومما يزيدها وقعا فى النفوس أنها حدثت على حين غرة وبلا انتظار. أما كونها خطيرة الشأن فلأن ما يختص بالمواطن المقدسة يثير اهتمام العالم الإسلامى كله تقريبا. وأما كونها داعية إلى الارتياح فلأن فى العمل الذى قام به شريف مكة وسائر المشتركين معه دليلا على ثقتهم التامة فى الإعلان الذى أصابت حكومة جلالة الملك فى نشره فى أول الحرب وهو أنها لاتنوى الدخول فى شؤون إدارة أهل الحجاز أو استقلالهم.

«قلت إن هذه الحركة لم تكن منتظرة، ومع أن جزيرة العرب كانت فى حالة ثورة مزمنة فى السنين العديدة الماضية، فلو سئل المطلع على شؤون الشرق لنفى احتمال حدوث ثورة فيها. وقد كانت ظواهر الحال تدل على أن الفوز الذى أحرزه العثمانيون فى كوت الإمارة يكفى خنق فكرة الثورة فى بلاد العرب قبل اكتمالها، ولكن الحقيقة جاءت مناقضة لها. فكان لنا من ذلك عبرة جديدة تضاف إلى مئات العبر التى تقدمتها، وهى أنه يستحيل على الأوربى أن يتنبأ بما سيقع فى الشرق إذ جل مانعرفه عنه هو أن نتوقع فيه حدوث غير المنتظر وما ليس فى الحساب».

فرد المركيز وباسم الحكومة البريطانية قائلا:

لا يسعنى أن أزيد على مانشرته الصحف عن سير الحالة فى جزيرة العرب شيئا يذكر سوى أن حكومة جلالة الملك لم تؤخذ بأخبار بلاد العرب على غرة. فقد كانت خطتها من الأول إلى الآخر المحافظة على الأراضى المقدسة فى الحجاز والعراق العربى تحت سلطة إسلامية. على أنه لما ظهر أن الدولة العثمانية أخذت تضيع منزلتها كالدولة الممثلة للدين الإسلامى والعالم الإسلامى الحقيقى بفعل النفوذ الأجنبى والسيطرة الألمانية، اتضح أن حدوث ثورة كالثورة التى جرت الآن لم يكن بعيد الاحتمال. فإن الحكومة العثمانية أخذت تضيع حقها كممثلة للإسلام منذ مدة طويلة، ولذلك لم يبق مجال للدهشة والاستغراب مما قام به قوم يعدون أنفسهم الممثلين الحقيقيين للدين الإسلامى. ولا يسع أحد أن يتمالك عن

إظهار العطف والميل إلى أولئك الذى يفرغون قصارى جهدهم فى نزع النير الأجنبى عنهم.

وأما العامل الآخر الذى يحملنا على العطف على المساعى التى يبذلها العرب لتحرير أنفسهم من ربقة السيادة التركية، فهو أن هذه الحرب أثرت فى موسم الحج تأثيرا عظيما أوجبته الضرورة الحربية عل كره منا. وقد كان ألوف من رعايا جلالة الملك يحجون من الهند وماوراءها شرقا إلى المواطن المقدسة، ويحتمل أن ما جرى الآن يسهل إعادة موسم الحج الذى قضت الضرورة بالدخول فى شأنه بسبب حصر الموانى العثمانية على سواحل جزير العرب وينشطه تنشيطا عظيما».

وعند الحكومة مايؤيد صحة الأخبار عن حالة سورية المفتتة الأكباد، فقد أطلق الترك فى ظل جمال باشا عقال الجور فيها، ومد يد الشدة والقسوة إلى أعيان السوريين الذين وقعت عليهم الشبهة عند الحكومة الاتحادية، وقد أعدم عشرون على الأقل من أصحاب المكانة والوجاهة، ونفى كثيرون سواهم أو سجنوا. وعلاوة على ذلك أن فى سورية الآن تلك الحالة المرعبة التى أشار إليها اللورد بريس فقد ضرب الترك نطاقا محكما على لبنان وأخذوا يجوعون أهله بهذا الحصر ويحرمونهم من حاجيات المعيشة وقد خاطبت الحكومة الأميركية الحكومة العثمانية أو هى تخاطبها الآن - مشيرة إلى مافى هذا العمل من المخالفة للسير المعتاد الذى تجرى عليه الحكومات المتمدنة. ولا غرو إذا قلقنا أشد القلق لسوء المصير الذى سيحيق بأهل سورية بعد الذى رسخ فى الأذهان مما حل بأرمينية. وإن الفرنسويين الذين يهتمون بمصير مسيحيى سورية أشد اهتماما بمصير المسلمين السوريين أيضا، ومن البديهى أن مستقبل سورية يشغل بال الحكومة جدا ورجاؤها الوحيد أن الفوز الذى يمكن إحرازه فى أنحاء العالم المختلفة من الوجهة الحربية قد يساعد على حل هذا المشكل».

صدى إعلان الثورة فى فرنسا

وقوبل اعلان الثورة بالارتياح فى الدوائر الفرنسوية، وبادرت الحكومة الفرنسوية فألفت وفدا من مسلمى إفريقيا الشمالية غادر مرسيليا إلى جدة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦ على رأس عدد كبير من الحجاج المسلمين (من تونس والجزائر) وقد حمل رئيسه السى قدور بن غبريط كتابا رقيقا من المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسوية إلى الشريف الحسين مع مليون وربع مليون من الفرنكات سلمها الكولونيل بريمون مندوب فرنسا فى الحجاز إلى

الشريف محسن بن أحمد منصور فى جدة مع هدايا خاصة إلى الملك، وهذه أسماء أعضاء الوفد:

أغا شعراوى ومصطفى شرشالى عن الجزائر، الشاذلى العقبى والعربى بن الشيخ عن تونس، وسى أحمد بن سكريج عن المغرب الأقصى . وعبده خان عن إفريقيا الغربية، أما سكرتير الوفد فهو السيد على ملك.

ولما وصل الوفد إلى مكة أرسل الشريف إلى المسيو بوانكاره البرقية الآتية:

أبشركم بسرور لا مزيد عليه بوصول الوفد الإسلامى الفرنسوى[1] المؤلف من ملكيين وعسكريين، فقد استقبله الأهالى استقبالا فخما يليق بمقامه، فأهلا ومرحبا به، وإنى لمتشكر من صميم الفؤاد للذين أوفدوه إلينا، ونعرب للأمة الفرنسوية عن إعجابنا بعملها فى هذا الوقت الذى تدافع به هى وحلفاؤها عن المدنية وحقوق الأمم، وما خلا ذلك فإن التاريخ الأكبر شاهد على العواطف الكريمة التى أظهرتها الأمة الفرنسوية للإسلام والمسلمين، لهذا أتمنى من صميم فؤادى دوام هذه العواطف، وأعرب لحضرتكم عن أخلص عواطفى لشخصكم الكريم وللأمة الفرنسوية».

فرد عله المسيو بوانكاره بالبرقية الآتية:

«أشكر لعظمتكم بالذات بإخبارى عن وصول الوفد الذى ندبته إلى عظمتكم حكومة الجمهورية الفرنسوية، ولم يكن عندى أدنى شك بالمقابلة الودية التى أقمتموها له، وليكن لعظمتكم تمام الثقة بأن الحكومة الفرنسوية تتمنى بمنتهى الإخلاص النصر المبين لجيوشكم، وإنى أشاطرها هذه العواطف، وأتمنى لعظمتكم الفوز».

وأنشأت جريدة الطان الناطقة بلسان الحكومة الفرنسوية مقالة بمناسبة سقوط الطائف بيد الجيش العربى قالت فيها:

«إن الفوز الجديد الذى أحرزته جنود الشريف حسين وسع الدائرة التى قامت على أساس ثورة مكة، معيدة استقلال العرب، ولم يعترف أمراء مكة بسلطة الحكومة العثمانية إلا رغبة منهم فى تعزيز شأن الإسلام، ولذلك أبوا اليوم أن يخضعوا لنفوذ حكومة تركية بيعت للأجنبى، يديرها ملاحدة زنادقة، ولما رأى الشريف الأكبر، وهو ابن النبى - ووقف على مجارى السياسة فى العالم - ضغط اليد الألمانية على الآستانة، وأن ضغطها يزداد يوما فيوما، بدأ يحاذر المطامع الألمانية التى استكشفها تحت ستار مواثيق الإمبراطور

١ - إشارة إلى وصول الضباط والجنود المسلمين والفرنسويين وسيأتى الكلام عنهم.

غليوم الكاذبة، فبدأ من ذلك العهد الجديد الذى حمل إمبراطور ألمانيا شيخ إسلام الأستانة عليه ولكنه بدأ ضد الترك عبيد ألمانيا وأذلائها لا ضدنا.

«إن الحركة العربية التى بدأت فى مكة ذات شأن على رغم كونها محلية إلى الآن، والفوز الذى يؤيد هذه الحركة التى قام بها شعب مظلوم ويدعمها، ينتزع من يد سلطان الأستانة المقام الذى أكسبه إياه بسط نفوذه على أرض الحجاز. فالسلطنة العثمانية التى كسرت فى أرمينية، والتى ستقطع صلاتها غدا بأوربا أخذت منذ اليوم تتهدم فى جهة الجنوب من بلادها. فالثورة تتمخض اليوم فى صدور العرب الأباة بعد أن لبثت منذ قرن مضى. أى منذ ثورة الوهابيين تظهر للوجود حينا بعد حين فى ثورات اليمن المتوالية.

«لقد استعادت أرض الحجاز استقلالها وتبادل الأمير حسين الشريف الأكبر الرسائل البرقية مع رئيس الجمهورية، وهى توازى الاعتراف بهذه الحكومة الإسلامية الجديدة صديقة فرنسا. فقد شكر الشريف رئيس الحكومة على إرسال البعثة الإسلامية الملكية العسكرية التى ذهبت لتحييه ولتعرب له عن صداقة فرنسا للعالم الإسلامى وإخلاصها له، ويستطيع المسلمون اليوم زيارة مكة أحرارا بعد ما ارتفع عنها نير الاتحاديين، ففرنسا مسرورة فى الإعراب عن صداقتها لهم بمساعدتهم على الحج وفى تحية الشريف حسين تحية الرئيس الدينى والمدنى الذى أعاد إلى قلب بلاد العرب حكومة عربية مستقلة لا تزعجها أية مداخلة أجنبية ولا ظل لأى نفوذ أجنبى عليها».

وخطب السى قدور بن غبريط رئيس الوفد خطبة طويلة بين يدى الشريف فى مكة جاء فيها:

«قد شرفنا رئيس جمهوريتنا بالمثول بين يديكم الكريميتين مع بقية الوفد لتبليغ مراسم التهانى الصادرة من صميم الأفئدة الدالة على خلوص المودة القلبية فى استرجاع حقوق أسلافكم الكريمة إليكم فى منابعها الأصلية»

«وإن نهضتكم المشكورة وإعلانكم استقلالكم قد أدخلا سرورا كبيرا على دولة فرنسا حيث رأت فى ذلك حسم المظالم الفادحة التى ارتكبها ذوو الأغراض من حزب فتيان الأتراك الذين استحوذ عليهم حزب الشيطان وغرهم حتى نبذوا الإيمان وراء ظهورهم ونظروا للعرب أينما كانوا بعين البغض، وأحلوا محو اللغة العربية ونفى أهلها من كل أرض».

ثم قال: «وقد أثرت هذه النهضة القومية فى نفوس الملايين من المسلمين سكان إفريقية.

فقد استبشروا وانشرحوا بنهضتكم القومية بعد ماكانوا فى خوف وكدر على مصير هذه الديار إذ تحققوا تحرير القطر الحجازى بوجودكم من كل تدخل أجنبى».

وقد حمل السى قدور عند عودته كتابا من الشريف بخط يده إلى المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسوية تضمن الشكر على خطابه. كما أرسل إليه هدية من الجياد العربية».

الألمان والثورة العربية

ولم يكن اضطراب الألمان من جرأة الثورة العربية فى الحجاز أقل من اضطراب الترك يؤيد ذلك مانشرته صحف لندن يومئذ. وهو أن حكومة برلين حظرت على صحف بلادها إذاعة أى خبر من أخبار الثورة الحجازية. كما كلفت السفير العثمانى فى عاصمتها أن يطلب إلى حكومته موافاتها بمعلومات عن الثورة وأسبابها وعواملها.

وزار قنصلا ألمانيا والنمسا فى دمشق جمال باشا على أثر إعلان الثورة وحادثاه بشأنها فقال لهما: «إنها حركة موضعية بسيطة لا تلبث أن تخمد، وأنه أصدر الأمر إلى قواده فى الحجاز بأن يسرعوا فى القضاء عليها، وأنه يرجو أن يبشرهما بعد بضعة أيام بانتهائها وبالقبض على الشريف الحسين ليأتى به ويشنقه على أبواب دمشق، فخرجا من عنده وهما مطمئنان إلى أقواله، لاعتقادهما أن قائدا مسؤولا مثله لا يلقى الكلام على عواهنه وكتب كل منهما إلى حكومته بما سمع».

ويمكن القول أن تأثير الثورة الأدبى عند الألمان فاق تأثيرها المادى فقد صرح بعض قادتهم العسكريين فى دمشق قائلا: «إننا لم نستمل الترك ولم نبذل لهم مابذلناه ولم نتحمل ماتحملناه إلا لأن الخلافة الإسلامية فيهم ولأنهم موضع احترام مسلمى العالم بسببها، أما وقد أضاعوها وفقدوا هذه المزية بخروج الشريف عليهم، وهو أكبر زعيم مسلم وسليل أعظم بيوت فى الإسلام. فالألمان سيعيدون النظر فى موقفهم ويسعون للتخلص من الترك.

سعى جمال باشا للاتفاق مع الحلفاء

ولا نرى بدا ونحن نكتب آخر صفحة من أعمال جمال باشا فى الشام وعن أثره فى تكوين الثورة العربية من الإشارة إلى الجهود التى بذلها إبان وجوده فى دمشق للانفصال عن الدولة العثمانية، ولإنشاء سلطنة تشمل البلاد التى كان يتولى أمرها يومئذ (منطقة الجيش الرابع) وتمتد من جبال طوروس (وهى الحد الطبيعى الفاصل بين بلاد العرب وبلاد

الترك من الشمال) حتى رفح جنوبا وتتسع شرقا فتضم العراق وولايات الأناضول الشرقية، وتشمل الحجاز واليمن أى أنها تضم البلاد العربية التى كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية مع البلاد التى اصطلحوا على تسميتها بأرمينية وكانت العراق فى منطقة الجيش الرابع.

لقد غر جمال باشا ماكان يتمتع به من سلطان عظيم ومن نفوذ واسع ومن جاه عريض فى الأقطار التى كان يتولى إدارتها فحدثته نفسه بأن يستقل فيها وأن يؤسس ملكا يتوارثه أبناؤه من بعده. سيما وقد كان يركب ركبة الملوك، ويسير فى موكب لا يقل عن موكب السلطان نفسه عظمة وجلالا، والموسيقات تعزف بين يديه، والشعراء ينشدون قصائدهم ويتغنون بمدحه ويتغزلون بوصف أعماله وإصلاحاته، وقادة الجيش رهن إشارته، والحكام طوع أمره، والعلماء ببابه، يعطى ويهب، ويعفو وينتقم، ولا كلمة فوق كلمته، ولا نفوذ يعلو نفوذه.

رأى جمال باشا كل هذا وشاهد نفسه فى أعلى المراتب فحدثته نفسه - والنفس أمارة بالسوء - أن يستبقيه لأبنائه. ولكن كيف السبيل إليه، وكيف يتصل بالحلفاء ويستعين بهم ودونه ودونهم البحار والجبال؟ لقد أرشده ذكاؤه إلى الاستعانة بالأرمن لإدرا هذه الأمنية فأخذ يحاسنهم ويتقرب إليهم ويدخل الذين يبلغون حدود الأقطار الداخلة فى سلطته تحت جناح حمايته. فيتخذ ذلك يدا تنفعه عند قومهم. ويقول بعض الثقات إنه لم يعجل فى إعدام المرحوم عبد الكريم الخليل إلا لأنه عرف شيئا عن هذه الخطة خلال محادثتهما الخاصة. فأراد التخلص منه قبل أن يفضى بشئ مما عرفه ومما اطلع عليه بطريق الصدفة. فقد كان شديد الحذر والكتمان.

وننشر هنا الوثائق الخاصة بحركته الانفصالية لندل على أنه لم يك صادقا فى دعواه الاخلاص للدولة وللدين. ولنثبت أنه كان أحق بالشنق وبتهمة الخيانة من معظم الذين شنقهم ورماهم بالخيانة والغدر، ظلما وبغيا، فقد سعى للانفصال عن الدولة وتعهد بالقضاء عليها بمساعدة الروس والأرمن أعدى أعدائها. وإذا لم ينجح بعد ماعقد النية على العمل فما ذلك إلا بسبب معارضة الإنجليز والفرنسويين للمشروع - كما تؤيد ذلك الوثائق المنشورة. ويلوح لنا أنه أراد من فتكه بزعماء العرب ورجالهم أن يمهد لحكم بلادهم. وكان لايزال يفاوض ويتوسم النجاح، فلا يجد من يقف بوجهه ويقاومه متى انتهى الأمر إليه، فجرت الرياح بما لم يشته ويؤمل، وأدى عمله إلى نفرة العرب وخروجهم على الدولة

وإعلانهم عليها حربا شعواء، سواء فى الحجاز، وكانوا يقاتلونها وجها لوجه، أو فى داخل بلادهم وكانوا يقاومونها مقاومة سلبية، ويشلون خططها ويزعجونها بدعاياتهم وأساليبهم مما عجل فى سقوطها والقضاء عليها، وقد كان هو نفسه أول وقود الثورة فاستدعته الحكومة وجردته من كل سلطان ونفوذ، وكان نصيبه بعد ذلك الاغتيال بين الأرمن الذين حماهم وآواهم، وظن أن باستطاعته أن يستخدمهم فى محاربة الدولة التى وضعت فيه كل ثقتها ورجائها. ويرى كثير من زعماء العرب أن العار لاحق بأمتهم، لأن قتله لم يكن على يد أحد من أبنائها لغسل تلك السبة التى أصابتهم من جرأته على حقوقهم المقدسة، وجرحهم فى أعز شيئ لديهم.

الوثائق وكيف وجدت

وهذه الوثائق مما عثر عليه البلاشفة فى سجلات وزارة الخارجية الروسية على أثر ثورتهم الكبرى فى سنة ١٩١٧ وقد نشروها فى ختام الحرب، وهى لا تدع مجالا للشك والارتياب فى سوء نيته وفى تآمره على الدولة مع أشد خصومها وأعدائها، يستعين بهم فى القضاء عليها رجاء إنشاء دولة جديدة على أنقاضها، يكون رأسا لها ويتوارثها أبناؤه من بعده. وكل مانرجوه من القارئ الكريم أن يطالعها بإنصاف وروية، وأن يقابل بينها وبين المكاتبات التى دارت بين الحسين والإنجليز، وقد نشرناها فى الفصل السابق فيرى كيف أبى هذا فى أول الأمر أن يفاوضهم أو أن يتصل بهم لئلا يثير مشكلة على الدولة أو يحرج مركزها، رغم توسل الإنجليز إليه بمختلف المغريات والوسائل، وكيف سعى بعد ذلك للاتفاق مع رجالها يناشدهم عدم السبح فى تيار العداء والطغيان. فهددوه وحاولوا الفتك به وبأبنائه وبالبقية الباقية من رجال قومه، مما اضطره بعد ذلك إلى محالفة الإنجليز اضطرارا خوف العواقب ودخوله فى جانبهم بعد ما نال وعودا ومواثيق صريحة، وبعد ماتعهدوا له بأنشاء دولة عربية تضم بلاد العرب كلها، وإذا لم يفوا بالوعد فما ذلك ذنبه ولا خطأه.

ويضاف إلى هذا أن العرب فى جميع مفاوضتهم مع الحلفاء ماتعرضوا للدولة العثمانية ولا أرادوا القضاء عليها كما أراد جمال باشا، وإنما سعوا للاستقلال فى داخل حدودهم القومية وإنشاء دولة منهم ولهم تعمل على تعزيز قوميتهم وإحياء مفاخرهم، ولا لوم عليهم فى ذلك ولاتثريب، ومع الاحتفاظ بصداقة الترك ومودتهم والإبقاء على دولتهم، وشتان بين الغايتين.

وهذا نص الوثائق مسلسلة بحسب تاريخها

وزارة الخارجية الروسية

بطرسبورغ فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٥شيفرة رقم ٦٣٩

إلى سفارتى باريس وروما

إن الأخبار الواردة إلينا من الدوائر الأرمنية فى استمبول تفيد أن جمال باشا يرغب فى القيام بحركة عداء لحكومة استمبول إذا حققت شروطه التالية:

أولا - أن تتعهد الدول المتحالفة بالاعتراف بسيادة الدولة العثمانية برئاسة سلطان على اتحاد السلطنة المؤلف من دول سورية، فلسطين، العراق، عربستان، كليكية، أرمينية، كردستان،.

ثانيا - أن يتولى السلطنة أحمد جمال باشا وأن يتولى السلطنة من بعده أولاده وأحفاده

ثالثا - يتعهد أحمد جمال باشا أن ينادى بأن السلطان الحالى وحكومته أسرى بيد الألمان ويعلن الحرب عليهم.

رابعا - فى حال إعلان جمال باشا ثورته هذه وزحفه لمقاتلة الحكومة يتعهد الحلفاء بتقديم السلاح والغذاء والعتاد الحربى اللازم لجيوشه.

خامسا - أن تقدم الدول إلى جمال باشا المساعدات المالية اللازمة إلى نهاية الحرب

سادسا - يرضى جمال باشا بترك المضايق واستمبول للحلفاء.

سابعا - يتعهد جمال باشا بأن يترك الطريق حرة لمساعدة الأرمن.

أن أقل ثورة داخلية فى تركية تضعف قوات هذه الدولة وتساعدنا كثيرا. فبناء على ذلك من الضرورى الدخول بمفاوضات مع جمال باشا والأرمن المخلصين لنا فإذا تمكن جمال باشا من طرد الألمان وقلب حكومة استمبول كانت لنا فائدة عظيمة، ولهذا نرجو الجواب على برقيتنا هذه سريعا وسرا.

سازانوف

ـ ٢ ـ

بخارست فى ١١ ديسمبر سنة ١٩١٥، رقم ٧٧٨

الرجاء حل الشيفرة من قبل المرسل إليه مسيوك. ن. كولكو فتش مستشار الشعبة الثانية فى وزارة الخارجية ببطرسبورغ

إن الأخبار الواردة تدل على ظهور خلاف بين جمال باشا ورجال الحكومة المركزية فإذا وجد من يساعد جمال باشا على حصر حكم تركيا فى آسيا فقط فمن الممكن استمالة جمال باشا إلينا وحمله على العمل ضد حكومة استمبول.

الرجا أفادتنى عن وجهة نظر الحكومة فى هذا الأمر. سيما وفى الإمكان أن نستفيد من الأرمن الموجودين هنا وفى تركيا فائدة كبرى.

السفير - س. أ. بوكولونسكى

- ٣ -

بطرسبورغ فى ١٢ سنة ١٩١٥ رقم ٦١٣٠

بوكولوفسكى سفير روسا فى بخارست

وصلت برقيتكم الشيفرة رقم ٧٧٨ إن كل تفرقة يمكن إيجادها فى تركيا. وعلى الأخص بين أركان الحكومة تجد منا المعاضدة والمساعدة التامتين. وفى الإمكان تقديم أى وعد بما يقترحه جمال باشا، وإذا اقتضى الأمر ففى مقدورنا الحصول على وعود من الحلفاء بتحقيق مايريده، وإلى أن يحين الأوان يجب أن تظل هذه القضية سرية

الإمضاء: كوليكوفتش

بخارست فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٥ رقم ٨١٥

تلقيت برقيتك رقم ٦١٥٠

يعتقد زخاروف أنه إذا جرت المفاوضات مع أحمد جمال باشا بواسطة مندوب الخارجية القيصرية مباشرة فقد تأتى بالفائدة المطلوبة وفى إمكان الأرمن أن يقدموا مايلزم من مساعدات محلية. ومع فإن الأرمن يتعهدون بفتح أبواب المفاوضات التى يتممها مندوبكم وهم على استعداد ليوفدوا مندوبين من قبلهم إلى مصر يتصلان من هناك بجمال باشا ولهذا يطلبون من الخارجية مايلى:

أولا - أن تعطيهما أوراق مرور إلى مصر، وعدم إرهاقهم بطلب الكفالة لدخول مصر

ثانيا - إعطاء التعليمات إلى الموظفين على حدود سويسرا لتسهيل مرورهما

ثالثا - إرسال التعليمات اللازمة إلى سفيرنا فى لندن وباريس لتسهيل سياحتهما برا

ويحرا حين ذهابهما إلى مصر.

رابعا - إعطاء التعليمات اللازمة إلى الموظفين المحليين فى مصر لعدم معارضتهما فى الوجهة التى يذهبان إليها.

خامسا - إرسال التبليغات اللازمة إلى ممثلنا فى مصر لحماية هذين المندوبين والدفاع عنهما بقدر استطاعته ماديا وفعليا.

سادسا - تسهيل السبل لهما لمخابرة باسيل زخاروف من أى بلد كان، وأن تظل الطريق حرة أمامهما.

إن المهمة الموكولة إليهما هى إيجاد الطرق اللازمة للدخول بمفاوضات مع أحمد جمال باشا ومعرفة شروطه ومطالبه ودعوته إلى الشروع بالمفاوضات حتى إذا نجحا فى الوصول إلى هذا الهدف تركا المجال واسعا أمام المندوبين الذين ستوفدهم وزارة خارجية صاحب الجلالة القيصرية لوضع الاتفاق النهائى بينها وبين أحمد جمال باشا.

أن الفوز الذى أحرزته القوات البلغارية والألمانية فى جهاتها، وقيام الإنجليز بإخلاء قسم من شبه جزيرة غاليبولى قد أدخل الشك فى نفوس الأرمن بإمكان الفوز نهائيا، أن الأرمينيين اللذين سننتدبهما لمفاوضة أحمد جمال باشا أحدهما روسى التبعة والآخر بريطانى التبعة.

الرجا إرسال التعليمات سيدى

الامضاء: بوكولوفسكى

ـ ٥ ـ

روما فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٧

تلقيت برقيتكم رقم ٦٣٩١

إذا كان هناك أقل احتمال بالفوز فى المساعى التى أشرتم إليها فى تقريركم فإن السنيور سونينو يراها موافقة جدا، ويرى ضرورة العمل بها لأننا فى هذه الحالة ننقذ الموقف بسرعة

السفير م. ن. كريس

— ٦ —

باريس ٢٧ ديسمبر سنة ٧٥١

أخذنا برقيتكم رقم ٦٣٩١

أبلغت نسخة من محتوياتها للمسيو بريان فأظهر اهتماما كبيرا بهذه الأخبار، وصرح أنه سيعرضها غدا على مجلس الوزراء قبل أن يفوت الوقت. وقد قال لى فى هذه المناسبة:

إن هذه الشروط، وإن كانت موافقة لنا على كل حال، لا تتفق مع مطامع الإنجليز الذين قد لايقبلون بها.

السفير آ. ب.إيزوفولسكى

— ٧ —

باريس فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٤

ذيلا للبرقية رقم ٥٨١

بعد الانقلاب الوزارى الذى حصل فى فرنسا اجتمعت بالمسيو بريان وباحثته فى أمر البرقية فأفادنى أنه مرتاح إلى الخطة التى وضعتموها للاجتماع بجمال ومفاوضته

إلا أن هذا المشروع يلاقى معارضة جدية فعلية من قبل الدوائر الفرنسوية

فالخطة التى وضعتموها وإن كانت حسنة فى الظاهر، إلا أن الفرنسويين يرونها محققة لرغبة روسية وحدها بالاستيلاء على المضايق واستمبول فى حين أنها تحرمهم من البلاد التى وعدوا بها كفلسطين وسورية وقسم من مقاطعة كليكية

وكما أن الشعب الروسى لا يمكنه أن يحيد قط عن فكرة الاستيلاء على استمبول والمضايق فإن الرأى العام الفرنسى أيضا لايمكنه قط أن يتخلى عن البلاد الموعود بها كسورية وفلسطين وكيليكية. وعدا هذا يجب علينا أن لا ننسى أيضا أن الحكومة البريطانية تفكر فى إيجاد حكومة عربية مستقلة.

وفى نهاية الأمر أفادنى مسيو بريان بصراحة تامة أنه يشك فى إمكان فوز جمال باشا بثورته وهو يحكم قطعة صغيرة من السلطنة العثمانية.

وأنا اعتقد أن الخطة التى وضعتموها أنتم لهذه المفاوضات كانت قائمة على تحقيق

المصالح الروسية وحدها، مع عدم الإضرار بالمصالح الفرنسية أو الإنجليزية. وقد أوضحت هذه الأمور إلى مسيو بريان وأيدت له نيتكم الحسنة، وأضفت إليها أن رغبتكم الأكيدة لاتقتصر على هذا الهدف وحده. بل تعتقدون أن الثورة الداخلية التى قد تقع فى تركيا تهدم تماما سياسة ألمانية فى الشرق، وبذلك يستفيد الحلفاء فائدة كبرى. وقد استصوب بريان الفكرة الأخيرة، ووجدها موافقة تماما. وقال لى: إذن مادامت هذه هى الغاية فأنا أوافق عليها تمام الموافقة، وأعلنكم موافقتى على مشروعكم. إلا أننى أرجو أن لاتخل هذه المفاوضات التى ستجرونها بحقوق فرنسا فى الشرق.

السفير : آ. ب. ايزوفولسكى

ـ ٨ ـ

باريس فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨١٥ رقم ٨٥٥

ملحقا ببرقيتى رقم ٨٥٤ المرسلة بتاريخ اليوم

خصوصى ـ لا أكتمكم أننى لاحظت من جواب مسيو بريان على اقتراحكم أشياء إن لم يكن من الجائز وصفها بالحدة إلا أنها فى الوقت نفسه تدل على عدم الرضا عن هذا الاقتراح.

إنكم تعلمون جيدا أن اتفاق الحلفاء على تسليم المضايق واستمبول إلى روسية أمر غير مرغوب فيه فى الأندية الفرنسية البرلمانية والإنجليزية. وقد كان هذا الاتفاق سببا فى حملة عنيفة آثارها النواب وبعض الوزراء على مسيو دلكاسة

فالذى علمته أن الوزراء الفرنسيين عارضوا فى هذا الاتفاق علنا. إلا أن المؤكد هو أن الاتفاق لم يكن مرغوبا فيه، وليس من الجائز فى وجه من الوجوه أن نعتمد على مؤازرة الفرنسيين لنا فى أمر تنفيذه مؤازرة صادقة.

والمؤكد هو أن الفرنسيين هنا يقدرون بعض اقتراحاتكم، وليسوا فى حالة يجهلون معها أهمية أحداث ثورة فى السلطنة العثمانية، كلا بل هم يعتقدون أن هذه الثورة مفيدة جدا لهم فى الحرب العالمية. إلا أنهم لا يرون فى الاقتراحات المقدمة لمفاوضة جمال باشا إلا تحقيقا لأمانيكم فى الاستيلاء على استمبول والمضايق دون أقل ضمان للسيادة الفرنسية المقررة على الشرق.

فالذى أعتقده تحقيقا لهذه الفكرة أن يبدل هذا الاتفاق بصورة تحفظ للفرنسيين

حقوقهم المقررة على سورية وفلسطين وكليكية، وفى هذه الحالة يمكن استئناف المفاوضات مع جمال باشا.

السفير: ايزوفولسكى

— ٩ —

إلى سفير روسيا فى باريس

بطرسبورغ فى ١٧ يناير سنة ١٩١٦

شيفرة رقم ٦٣٣

جوابا على القضايا المتعلقة ببرقيتى رقم ٦٥١٨ وبرقية سفيرنا فى لندن رقم ٩٠٦

أؤيد فكرة السير إدوارد غراى بوجوب قيام الفرنسيين أنفسهم بمفاوضة جمال باشا ووسطائه فى القاهرة.

لهذاأرجوكم مفاوضة بريان فى هذا الأمر، وتقديم الضمانات اللازمة له بشأن سورية والعمل بكل قواكم لحمل الفرنسيين على القبول بهذه المفاوضات التى نراها جد ضرورية فى سبيل تحقيق رغائبنا ورغائب الفرنسيين معا.

وزير الخارجية: سازانوف

— ١٠ —

إلى سفير روسية فى باريس

إلى سفير روسية فى لندن

برقية شيفرة

بطرسبورغ رقم ٦٥١٨

يقول الوسطاء أن البطء فى بدء المفاوضات يحول دون تأمين الفوز المنتظر

فإذا كانت الحكومات التى تمثلوننا لديها تعتقد أن مجرد نشوب ثورة داخلية فى تركيا موافق لمصالح الحلفاء عرفونا فورا لنرسل الوسطاء إلى مصر عن طريق لندن وباريس مع إجراء التسهيلات اللازمة لهم لمقابلة أركان الخارجيتين حين وصولهم إليكم

وزير الخارجية: سازانوف

— ١١ —

إلى وزير الخارجية الروسية فى بطرسبورغ

لندن فى ٢٧ يناير سنة ١٩١٥، رقم ١٧

شيفرة ـ نسخة لباريس

تلقيت برقيتكم رقم ٨٥

أجابنى نيكولسون أن الحكومة البريطانية بعد فحصها القضية من جديد وتقليبها على سائر وجوهها ترى أن من الضرورى عدم اشتراكها فى هذه المفاوضات والتنازل عنها بصورة نهائية لأن المفاوضات التى تدور مع العرب تدور بجو صاف وبصورة ملائمة للعرب والإنجليز معا.

ثم سألته عما إذا كانت الحكومة البريطانية تجد مانعا فى أن تتولى الحكومتان الروسية والفرنسية هذه المفاوضات بصورة إفرادية فأجاب أن الحكومة البريطانية لا تعارض فى ذلك قط. إلا أنها لا تؤيدها بوجه من الوجوه.

والذى لاحظته أن الحكومة الإنجليزية تعمتد فى الدرجة الأولى على العرب وحدهم مستفيدة من شعورهم العدائى للأتراك وجمال باشا الذى أعدم رجالهم

السفير: بنكندورف

— ١٢ —

إلى وزير الخارجية الروسية فى بطرسبورغ

برقية شيفرة رقم ٢١

باريس فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٦

جوابا على برقيتكم رقم ٨٠

وافقت الحكومة الفرنسية على الاقتراح المقدم من قبلكم، ولم تجد فيه مايمس الاتحاد الموجود بين الحلفاء.

وقد علمت أن مسيو بريان وحكومته غير راضين تمام الرضا عن المفاوضات السرية التى يقوم بها الإنجليز مع العرب لأن الإنجليز انصرفوا إلى خدمة أنفسهم دون حلفائهم فى هذه القضية.

السفير : إ يزوفولسكى

باريس فى ١٣ مارس سنة ١٩١٦
شيفرة رقم ١٩٥
نسخة إلى لندن

وصل منذ مدة إلى هنا ظافارياف وعملا باشعاركم السابق سهلت له طرق المخابرات والاجتماع بالمسيو بريان.

أبلغ ظافارياف مسيو بريان المشروع الذى وضعه لإجراء مفاوضات فى مصر مع جمال باشا مع بيان بأسماء الرجال وطرق مخابراتهم مع الباشا

ولئن كان المسيو بريان استقبل ظافاياف استقبالا حسنا وأظهر له كل عطف، إلا أنه لم يعده وعدا ثابتا، بل لاحظنا من أجوبته أنه يحاول التخلص من وعد قطعى، باحثا عن موقف أحمد جمال باشا غير الثابت، وعن الدور المولج به ظافارياف. ومع هذا أتمنى له الفوز فى مهمته، وقد سافر ومعه أحد الضباط الفرنسيين لإتمام هذه المفاوضات فى مصر».

إلى هنا تنتهى سلسة الرسائل السرية التى دارت فى شأن هذه المؤامرة بين الدول وقد انتهت بالإخفاق والفشل بسبب معارضة الإنجليز والفرنسويين.

فشل الشريف على حيدر واستدعاؤه

وقبل أن يغادر جمال باشا الشام أصدر أمرا بإرجاع الشريف على حيدر باشا من المدينة المنورة. فعاد إلى دمشق فى أوائل شهر مايو سنة ١٩١٧ بعد ماقضى هنالك نحو ثمانية أشهر يبث الدعاية للترك بين العربان بلا طائل، وينفق الأموال فى استمالتهم وإغرائهم وينفحهم بالهدايا بلا جدوى.

ويقال أن فخرى باشا هو الذى كتب طالبا إجلاءه ومن معه لأنه تبين أنه لا فائدة ترجى منهم. فهم مجردون من كل نفوذ بين العربان كما أن بقاءهم يؤدى إلى زيادة النفقات والأعباء، وكانت المدينة فى حالة حصار تقريبا فأبلغ بلطف لزوم سفره فغادر طيبة بقطار خاص يحرسه عدد كبير من الجند معهم مدافع ورشاشات للمحافظة عليه. فضلا عن التدابير الخاصة التى اتخذت من المدينة حتى تبوك. ولم يطل الإقامة فى دمشق بل قصد عالية فتديرها. ولما شعر بقرب أفول نجم الدولة غادر لبنان إلى الآستانة عائدا من حيث أنى ومتنحيا عن إمارة لم يتقلدها. وهكذا قضى على مشروع الاتحاديين من هذه الناحية ولم يوفقوا إلى ضرب العرب بالعرب. كما كانوا يرجون، بل وقف الكل صفا واحدا فى وجههم واتفقوا على محاربتهم واستئصالهم.

ـ ٩ ـ

تآمر الحلفاء على العرب

عهود ومواثيق ورسائل سرية

من المعميات التى يقف كاتب الثورة العربية أمامها معترفا بالعجز عن ابتكار تعليل معقول لها، هذه المفاوضات التى كانت تدور بين انجلترا وفرنسا وروسيا لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية عامة، وبين الأولى والثانية لاقتسام بلاد العرب خاصة، فى نفس الوقت الذى كانت تدور فيه المكاتبات بين انجلترا والشريف لحمله على الاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء، مقابل الاعتراف باستقلال العرب والتعهد بالمساعدة على إنشاء دولة عربية تشمل الحجاز والشام والعراق. على أن ينظر فى تقرير مستقبل الساحل الشامى بعد الحرب، وقد انتهت بالاتفاق التام، وبدخول العرب الحرب بعد ما اعتقدوا أنهم نالوا الوعود الكافية وحصلوا على الضمانات التى يجب الحصول عليها.

لقد سعى الإنجليز إلى الحسين، ولم يسع إليهم، وعملوا على استمالته قبل أن يسعى إلى استمالتهم، وطرقوا بابه ولم يطرق بابهم، وأظهرو استعدادهم لقبول جميع مطالبه وتنفيذها ولم يطلب منهم شيئا، وهذه كتب السير هنرى مكماهون نائب الملك فى القاهرة وماكان يكتب باسمه الخاص، بل باسم الدولة التى يمثلها، وبالإضافة إليها.

فالحسين ـ كما تدل سلسلة الرسائل والمكاتبات التى نشرناها فى الفصل السابع لم يعجل فى التعاقد مع الإنجليز، ولم يسرع فى دخول الحرب إلى جانبهم إلا بعد مكاتبات ومخاطبات استمرت ثمانية عشر شهرا (سبتمبر سنة ١٩١٤ ـ يونيو سنة ١٩١٦) نال بموجبها مايتسنى لمن كان فى موقفه نيله من شروط وعهود، وما كان له أن يتردد فى تصديقها وهى صادرة باسم دولة عظيمة، كان رجالها يعيرون الألمان صباح مساء بخرق حرمة المعاهدات والعقود الدولية باعتدائهم على حياد البلچيك. ويقولون إنهم لن يلقوا السلاح حتى يعيدوا ألمانيا إلى رشدها، ويحملوها على احترام العهود والتقيد بها.

ومما يستوقف النظر بوجه خاص أنه بينما كانت المكاتبات تدور بين الحسين والسير ارثر مكماهون نائب الملك فى مصر للاتفاق على وضع أسس النهضة العربية وقواعدها كانت هنالك مفاوضات تدور فى القاهرة نفسها بين السر مارك سايكس المندوب البريطانى

السامى لشؤون الشرق الأدنى والمسيو جورج بيكو المندوب الفرنسوى السامى لشئون الشرق الأدنى للاتفاق على تقرير مصير البلاد العربية، واقتسامها ويشرف عليها المسيو سازانوف معمتد روسيا العام فى القاهرة يومئذ. فكيف نعلل هذين الموقفين المتناقضين اللذين يقفهما الإنجليز فى وقت واحد مع العرب ومع الفرنسويين؟ وبماذا نفسرهما؟

فإذا قال قائل إن الإنجليز كتموا أمر المكاتبات التى كانت تدور بينهم وبين الشريف عن الفرنسويين أجبناه أن الأمر بالعكس فجميع الدلائل تدل على أن الفرنسويين كانوا عارفين بما هنالك. يؤيد ذلك ما أجاب به المسيو بريان وزير الخارجية الفرنسوية يومئذ على الاقتراح الروسى الخاص بالاتفاق مع جمال باشا ـ كما سبق ـ وامتناعه عن تشجيعه مما أدى إلى إحباطه وفشله لأنه يناقض المشروع العربى الإنجليزى. يضاف إلى هذا تعجيل الفرنسويين بمساعدة الثورة عند نشوبها وإرسالهم وفدا إلى مكة حمل كتابا خاصا من رئيس الجمهورية الفرنسوية إلى الشريف يهنئه فيه وقد بسطنا ذلك بسطا وافيا فى الفصل السابق فلا نعود إليه.

وهنالك ظاهرة أخرى، ونعنى بها مطالبة السير هنرى مكماهون الحسين بإخراج الساحل الشامى من داخل حدود الدولة العربية التى اقترحها بحجة أن للفرنسويين مصالح فيه. فقد جاء فى كتابه يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ إلى الحسين مانصه «لما كانت مقاطعات مرسين والاسكندرونة وبعض أجزاء سورية الواقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن تسميتها عربية محضة. فإنه يقتضى إخراجها من الحدود التى بينتموها وأنه بمقتضى هذا التعديل، ومن غير إخلال بمعاهداتنا السابقة مع بعض زعماء العرب نقبل الحدود على ماذكرتموه»

فلو كان الإنجليز يبغون التفرد بالعمل فى جزيرة العرب ـ كما يظن لأول وهلة ـ لما احتاج مندوبهم إلى وضع مثل هذا القيد، ولما ألح باحترام مصالح الفرنسويين الخاصة وعلى كل فإننا من الذين ـ يعتقدون بأن الإنجليز أطلعوا الفرنسويين على كل مادار بينهم وبين الحسين، ولم يكتموا عنهم شيئا، إذا لم تقل إنهم كانوا يعملون بالاشتراك، ولئن تظاهر بعض الموظفين الإنجليز فى مصر وغيرها من بلاد العرب بعدم الميل إلى السياسة الفرنسوية، أو شجعوا على مقاومتها وتحديها فى بعض الأحيان، فما كانت دوائر لندن العليا تميل إلى إغضاب هؤلاء أو إثارتهم، بل كانت فى الغالب تصدر الأوامر إلى ممثليها

فى مصر، ولدى الجيوش العربية بأن يتقيدوا بالاتفاقات المعقودة، وبأن لا يخرجوا عن دائرتها، فكانوا يصدعون بأمرها وإن خالف ميولهم الشخصية أحيانا

والتعليل الوحيد فى نظرنا لما وقع، هو أن الإنجليز والفرنسويين كانوا يرجون أن يتاح لهم اقناع الحسين بالرضاء بملك الحجاز، على أن يتوصلوا إلى عقد تسوية معه على مسائل سورية، والعراق تركوا الباب مفتوحا لها فى معاهدة سايكس ـ بيكو، فلما فشلوا من هذه الناحية، وكانت آخر محاولة حاولوها هى مفاوضات جدة أيام ١٧و ١٨و ١٩ مايو سنة ١٩١٧ وقد اشترك فيها الملك والأمير فيصل والمندوبان الساميان (مارك سايكس وجورج بيكو) بالذات – وسيأتى الكلام عليها ـ اعتمدوا على القوة فى تنفيذ خططهم واتفاقهم، فكان لهم ما أرادوه، وكانت شر نكبة نكب بها العرب.

وهنالك رواية أخرى سمعناها من بعض الذين عملوا فى القضية العربية أيام الحرب العظمى، وكانوا على صلة وثيقة بالدوائر البريطانية فى القاهرة، خلاصتها أن المندوبين البريطانيين سعوا إبان المفاوضات التى دارت بينهم وبين الفرنسويين فى تلك الأيام على مصير بلاد العرب، لحمل هؤلاء على التنازل عن مطامعهم فى سورية مقابل التعويض عليهم بمستعمرة نيجيريا الغنية فى أفريقيا ويبلغ عدد سكانها ١٨ مليونا فأبوا أن يقبلوا عوضا وقالوا إنه لابد لهم من الذهاب إليها تلبية لطلب مسيحييها ورعاية لتقاليدهم.

والواقع أن الفرنسويين ما برحوا من سنة ١٨٦٠ يطمعون فى احتلال هذا القطر العظيم، متوسلين بمصالح اقتصادية لهم فى بيروت وبمالهم من مدارس، وماكانت تقل فى لبنان وحده عن ٣٠٠ مدرسة وبقية المدن السورية الأخرى، فلما جاءت الحرب اعتقدوا أن الفرصة سانحة لتحقيق أحلامهم، فأبوا قبول التعويض المقترح متذرعين بالدفاع عن المسيحيين ورعايتهم. يضاف إلى هذا أنهم كانوا يمنون النفس باتخاذ بلاد الشام قاعدة لإمبراطورية فى آسيا شبيهة بإمبراطوريتهم فى إفريقية، وقد فشلوا من هذه الناحية كما فشلوا فى حكم سورية نفسها.

ولم ير الإنجليز بدا فى هذه المرحلة، وكانت الحرب فى إبان شدتها من مراعاة عواطف الفرنسويين ومسايرتهم، فعقدوا معهم معاهدة القاهرة (سايكس ـ بيكو) خوفا من إحراجهم وكانوا يهددون فى تلك الأيام بعقد صلح منفرد، أملا بأن تساعد الظروف على تعديلها والتخلص منها.

اتفاق الإنجليز والفرنسويين والروس على اقتسام تركيا

ونبدأ بنشر نص المعاهدة التى عقدت بين الإنجليز والفرنسويين والروس - لاقتسام الدولة العثمانية - فقد تقدمت معاهدة سايكس - بيكو - مع نصوص الرسائل التى تبودلت بينهم فهى تميط اللثام عن كثير من الأسرار، وتنير جانبا من جوانب البحث وتثبت أن التوسع الاستعمارى كان فى مقدمة الأغراض التى رمى إليها الخلفاء من مواصلة الحرب رغم ماكانوا يذيعونه بأنهم لم يخوضوها إلا لنصرة الحق والعدل.

ولقد راعينا التسلسل التاريخى فى إيراد هذه الرسائل، وهى أيضا مما استخرجه البلاشقة من الخزانة السرية لوزارة الخارجية الروسية ونشروه ففضحوا الحلفاء.

١

فى يوم ٤ مارس سنة ١٩١٥ أبلغ المسيو سازانوف وزير الخارجية الروسية سفيرى انجلترا وفرنسا فى بطرسبرغ مذكرة قال فيها:

ترغب الحكومة الروسية عند ختام الحرب العظمى فى ضم الأراضى الآتية إلى ممالكها وهى: مدينة الآستانة مع ضفاف البوسفور الغربية وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل وتراقية الجنوبية حتى خط إينور - ميديه، وسواحل آسيا الصغرى الواقعة بين البوسفور حتى نهر سقاريا مع بعض المراكز على خليج أزميت وجزر بحر مرمرة وجزيرتى أميروس وتندوس الواقعتين قرب مداخل الدردنيل، على أن لا يخل ذلك بما لفرنسا وانجلترا من حقوق تلك الأراضى.

٢

فردت الحكومتان على هذه المذكرة ببيان قالتا فية أنهما توافقان على مطالب الروس بشرط أن تنتهى الحرب بالنجاح السريع، وأن توافق روسيا على مطالب فرنسا وانجلترا فى الأجزاء الآتية وهى:

١ - الاعتراف بجعل الآستانة ميناء حرا (ترانسيت) وإعلان حرية المضايق للبواخر التجارية.

٢ - الاعتراف بحقوق انجلترا وفرنسا ومصالحهما فى آسيا، تلك المصالح التى طالما طالبتا بتحديدها تحديدا صحيحا بعقد اتفاق خاص بينهما وبين روسيا.

٣ ـ صيانة الأماكن المقدسة فى البلاد العربية تحت حكم دولة إسلامية مستقلة.

٤ ـ ضم منطقة الحياد الفارسية إلى منطقة النفوذ البريطانى فى إيران.

٥ ـ الاعتراف بأن هذه المطالب قابلة للبحث والتعديل.

٣

وفى يوم ٧ مارس أرسل وزير الخارجية الروسية إلى سفيريه فى لندن وباريس ردا على اقتراحات حكومتيهما قال فيه:

إن اتخاذ قرار حاسم فى مستقبل العلاقات بين الدول الإسلامية المقرر تأليفها على أنقاض السلطنة العثمانية وفصلها عن دولة الخلافة يهم حكومة صاحب الجلالة القيصر لأنه يساعد كثيرا على تحقيق الأمانى التى نعمل على تحقيقها.

إن حكومة صاحب الجلالة القيصر ترغب من كل قلبها فى نزع الخلافة من الترك. إلا أنها فى الوقت نفسه ترغب من كل قلبها فى تأمين حرية الحج وعدم التعرض له بأقل مايسوء المسلمين.

وحكومة صاحب الجلالة القيصر تؤيد ادخال المنطقة الحيادية فى إيران ضمن دائرة نفوذ بريطانيا، إلا أنها فى الوقت نفسه ترى أن تترك اصفهان ويزد شهر التى لا يمكن التفريق بينهما والأراضى المجاورة للمنافع الروسية.

إن المنطقة المحايدة فى حدودها الحاضرة عبارة عن رأس داخل فى البلاد الأفغانية وهى قريبة من موقع «ذى الفقار» إلى الحدود الروسية. ولهذا نرى من اللازم إلحاق قسم من الخط الداخل ضمن الحدود الأفغانية فى محيط النفوذ الروسى

أما مسألة إنشاء الخطوط الحديدية فى المنطقة المحايدة فإنها وإن كانت ذات أهمية جدية لحكومة صاحب الجلالة القيصر إلا أنها فى الوقت نفسه تعد بأن تدرس هذه النقطة بالاتفاق مع الحكومة البريطانية فى المستقبل بصورة ودية تامة، وأن لاتعتمد على الاستئثار فى هذه النقطة إلى النهاية.

إن حكومة صاحب الجلالة القيصر لما كانت مالكة الحرية التامة المطلقة فى إدارة المنطقة التى ستخصص لنفوذها فى السلطنة العثمانية، ولما كانت حائزة على الصلاحية المطلقة فى المشاريع المالية والاقتصادية التى ستقوم بها فى المستقبل لترقية هذه المنطقة

فهي تؤمل المصادقة على هذه الأماني بتمامها.

وهي تؤمل حل المسائل المتعلقة بحدودها في شمالي الأفغان طبقا للمحادثات التي دارت بينها وبين وزير خارجية بريطانيا في العام الماضي.

أني أرغب منكم بسط هذه الأمور بحذافيرها للسير إدوارد غراي وزير خارجية بريطانيا والحصول منه على وعد قطعي رسمي بشأن هذه المطالب وافراغها بقالب نهائي.

٤

فرد عليه المسيو ايزولسكي سفيره في باريس يوم ٨ منه ببرقية قال فيها:

«أبلغني المسيو دلكاسة (وزير الخارجية الفرنسوية) إن الحكومة الفرنسوية مستعدة لتأييد وجهة النظر الروسية في مايتعلق بقضيتي المضايق والآستانة».

٥

وفي يوم ١٨ منه أرسل المسيو سازانوف إلى سفيره في باريس البرقية الآتية:

«أرجوكم إبلاغ شكري الصميم إلى المسيو دلكاسة للبيان الذي أدلى به إليكم يوم ٨ مارس بشأن استعداد الحكومة الفرنسوية لتأييد وجهة نظرنا في مختلف الشؤون التي بسطناها في برقيتنا السابقة، والخاصة بقضيتي الآستانة والمضايق.

ولما كان المسيو دلكاسة ذكر لكم في اجتماعاته المختلفة أن في إمكانكم أن تكونوا مطمئنين من جهة فرنسا ومن محبتها لروسيا ورغبتها الأكيدة في معاضدتها إلا أنها ترى وجوب أخذ رأى بريطانيا نهائيا في الأمر قبل البت فيه خوف الاعتراض.

وبما أن الحكومة البريطانية قد كتبت إلينا اليوم بأنها توافق على ضم المضايق والمناطق المعينة من الآستانة إلى روسيا مقابل شروط تختص بمصالحها الاقتصادية على أن تبدى مثل هذا التساهل إزاءها في غير هذه الناحية في الميدان السياسي.

ومع ثقتي العظيمة بالمسيو دلكاسة واعتقادي بأن أقواله الشفهية كافية. إلا أني أرى من الضروري الحصول على وعد خطي مماثل للوعد البريطاني يطئن روسيا على حصول ماترغب الحصول عليه في هذا الباب، ويكون أدعى للارتياح».

٦

اشتراك إيطاليا فى المفاوضات

وبينما كانت المفاوضات تدور على هذا المنوال بين العواصم الثلاث قررت إيطاليا الانضمام إلى الحلفاء والاشتراك فى الحرب إلى جانبهم، فلم ير هؤلاء بدا من إطلاعها على ما يدور. وقد تولت حكومة لندن هذه المهمة، وهذه صورة التقرير الذى أرسله سفير روسيا إلى وزارة خارجية حكومته بهذاالشأن:

«أبلغت وزارة خارجية انجلترا وزارة الخارجية الإيطالية المبادئ التى اتفق عليها الحلفاء لاقتسام السلطنة العثمانية مع أمانينا المبسوطة فى برقية ٧ مارس على أثر تقرير هذه الحكومة دخول الحرب العالمية بجانب دول الحلفاء والخروج من الجانب الألمانى النمسوى. فأجاب وزير الخارجية الإيطالى أنه على استعداد تام لإجابتنا على رغبتنا هذه فى حال تعهدنا مع الحلفاء بتحقيق الشروط التالية إذا ما خرج الحلفاء ظافرين من الحرب وهى:

أولا - أن تعرض القضية الشرقية بسائر فروعها على بساط البحث بين دول الحلفاء وإيطاليا.

ثانيا - أن تعطى لإيطاليا فى المناطق التى ستضم إلينا سائر الحقوق والتعهدات التى ستعطى لفرنسا وبريطانيا بصورة مساوية.

ثالثا - أن تعترف الحكومة الروسية بالمنطقة التى ستعطى إلى إيطاليا فى المملكة العثمانية.

رابعا - أن تكون حصة إيطاليا فى البلاد التى ستسلخ عن السلطنة العمثانية مساوية تماما للأراضى التى ستعطى لفرنسا وبريطانيا.

٧

وعاد سفير روسيا فى لندن فأرسل إلى وزير خارجيته برقية حدد فيها مطالب إيطاليا تحديدا نهائيا وهى:

أولا - إن الحكومة الإيطالية توافق الحكومة الروسية على الشروط التى أدمجتها فيما يتعلق بتأمين حرية مرور السفن من المضايق وتجارة الترانزيت، وتدخل فى تأليف اللحنة العليا التى ستتولى مراقبة المضايق على أن يكون رأيها مساويا لرأى فرنسا وبريطانيا فى اللجنة المذكورة.

ثانيا ـ أ الحكومة الإيطالية تؤيد رأى الحكومة الروسية بضرورة فصل الحكومة الإسلامية التى ستؤسس فى الحجاز على أنقاض السلطنة العثمانية عن الخلافة، وأن تكون تحت مطلق نفوذ بريطانيا.

ثالثا ـ أن الحكومة الإيطالية تؤيد بكل قواها نزع الخلافة من الأتراك وإلغاءها بتاتا إذا اقتضى الأمر.

رابعا ـ أن الحكومة الإيطالية تساعد بكل قواها الفكرة الروسية القائلة بوجوب تأمين حرية طريق الحج، وأن تكون هذه الطريق تحت حماية الدول المتعاقدة.

٨

نص المعاهدة الروسية ـ الإنجليزية ـ الفرنسوية

وبعد مفاوضات وقع الحلفاء يوم ٤ مارس سنة ١٩١٦ فى بطرسبرغ المعاهدة الآتية:[١]

بناء على المفاوضات التى دارت بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا فى ربيع سنة ١٩١٥ فى لندن وباريس

وبناء على اقتناع هذه الدول المتحالفة بوجوب إنقاذ الأمم الخاضعة للسلطنة العثمانية، واقتسامها مناطق نفوذ فيما بنيها.

ولما كانت الأكثرية الساحقة من أبناء هذه البلاد راغبة جد الرغبة فى الخلاص من تحكم الحكومة الحاضرة

ولما كان الواجب يقضى بضرورة العمل على تدريب هذه الشعوب فقد تقرر ما يلى:

المادة الأولى ـ تتعهد فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا فيما بينها أن تعمل يدا واحدة فى سبيل إنقاذ البلاد العربية وحمايتها، وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانيا مراقبتها وإدارتها.

المادة الثانية ـ تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج، وتسهيل سائر السبل المؤدية إلى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم.

المادة الثالثة ـ تقسم البلاد العثمانية إلى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه التالى:

---

١ ـ نشرت الحكومة البلشفية هذه المعاهدة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٨.

منطقة نفوذ روسيا

أولا ـ تضم إلى روسيا المناطق التالية:

أ ـ ولايتا أرضروم وبتليس والمناطق التابعة لهما

ب ـ الأراضي الكائنة جنوبي كردستان وتمتد على خط من ولاية موش إلى سعرد ومن هناك تنحدر إلى جزيرة ابن عمر، ثم تتبع خطا مستقيما إلى العمادية ومنها إلى الحدود الإيرانية.

جـ ـ تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالا إلى البحر الأسود فتدخل طرابزون في سمتها

د ـ تنتهي نقططة حدود روسيا على البحر الأسود شرقي طرابزون في منطقة تحدد فيما بعد.

هـ ـ تخضع هذه الأراضي خضوعا تاما إلى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسيا وتعتبر من ممتلكاته.

منطقة نفوذ فرنسا

ثانيا ـ تضم إلى منطقة نفوذ فرنسا المناطق التالية:

أ ـ السواحل السورية، وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهي في الأسكندرونة.

ب ـ تضم المناطق الساحلية جميعها إلى فرنسا مع الجبل اللبناني المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولي.

جـ ـ تضم جزيرة ارواد والمناطق المجاورة لها، والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعرف عنه في الفقرة السابقة.

د ـ تضم ولاية كيليكية إلى النفوذ الفرنسي وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة إلى النفوذ الروسي في جزيرة ابن عمر، ثم تتجه إلى عينتاب وماردين ثم تنحدر شمالا من آلاطاغ – قيصري ـ اق طاغ ـ بيلديز طاغ ـ زرعه ـ اكين ـ خربوط.

هـ ـ تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسي.

منطقة نفوذ بريطانيا

ثالثا - تؤلف منطقة النفوذ البريطانى من المناطق التالية:

أ - تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والفرنسية فى الخطين المذكورين إلى النفوذ البريطانى. وهذه المنطقة تضم القطر العراقى مع نفس مدينة بغداد.

ب - السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكا حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسا.

جـ - تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس إلى آخر البحر الأحمر إلى نفوذ بريطانيا المطلق.

د - تؤلف الحكومات العربية عملا بالمادة الآتية من سكان المناطق المسكونة بالعرب. على أن تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلا اللازم لها، والذى يعين فيما بعد بالاتفاق بين الحكومات المتحالفة.

٤ - تتألف فى المنطقة الكائنة بين منطقتى النفوذ الفرنسوى والبريطانى دولة أو حلف دول عربية مستقلة، وفقا لاتفاق خاص بين فرنسا وانجلترا على أن تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق.

٥ - يكون ميناء اسكندرونة دوليا وتعلن حريتها

٦ - تعتبر فلسطين وأماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضى التركية. على أن توضع تحت إدارة خاصة وفقا لاتفاق يعقد بين انجلترا وفرنسا وروسيا بهذا الشأن، وتحدد مناطق نفوذ المتعاهدين ومصالحهم.

٧ - تعترف الدول المتعاقدة مبدئيا ومتقابلا بجميع العقود والامتيازات المعقودة المعطاة قبل الحرب فى هذه الأراضى.

٨ - تقبل الدول المتعاقدة جانبا من الدين العثمانى بنسبة الأراضى التى تمتلكها.

١
معاهدة سايكس - بيكو

فى يوم ٩ نوفمبر ١٩١٥ عينت الحكومة الفرنسوية المسيو جورج بيكو قنصلها العام فى بيروت سابقا، مندوبا ساميا، لمتابعة شؤون الشرق الأدنى، ولمفاوضة الحكومة البريطانية فى مستقبل البلاد العربية. فلم يلبث إن شد رحاله إلى القاهرة، فاجتمع إلى السير مارك

سايكس النائب فى مجلس النواب البريطانى، والمندوب السامى لشؤون الشرق الأدنى.

وفى القاهرة نفسها دارت المفاوضات بين هذين المندوبين أشرف عليها معتمد روسيا لتطبيق المبادئ التى تم الاتفاق عليها وتقررت بموجب المعاهدة الثلاثية. ولرسم خط الحدود الجديد على الخارطة. وفى شهر مايو سنة ١٩١٦ تم الاتفاق نهائيا بين المندوبين فأرسل المسيو بول كاميون سفير فرنسا فى لندن الكتاب الآتى يوم ٨ مايو إلى السير ادوارد غراى وزير الخارجية البريطانية.

«أمرت أن أبلغكم أن الحكومة الفرنسوية قبلت الحدود التى رسمت على الخرائط الموقعة من جانب السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو ورضيت بالمبادئ التى دارت عليها المفاوضات بنيهما، وهى تنتظر التوقيع على نصوص الاتفاقية المرسلة طيه:

المادة الأولى ـ أن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة، أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية عراقية) المبينتين فى الخريطة الملحقة بهذا، ويكون لفرنسا فى منطقة (أ) ولانجلترا فى منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية، أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية ـ يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولانجلترا فى المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة، أو بالواسطة، أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة، أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة ـ تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة.

المادة الرابعة ـ تنال انجلترا مايأتى:

(١) ميناء حيفا وعكا.

(٢) يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات فى المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لاتدخل فى مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدما.

المادة الخامسة ـ تكون اسكندورنة ميناء حرا لتجارة الإمبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة فى رسوم الميناء ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية

وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق اسكندرونة والسكة الحديد فى المنطقة الزرقا. سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) و (ب) أو صادرة منهما.

ولاتنشأ معاملات مختلفة (بالذات أو بالتبع) على أى سكة من السكك الحديدية أو فى أى ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية.

وتكون حيفا ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف فى المعاملات، ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية. ويكون نقل البضائع الفرنسوية حرا بطريق حيفا وعلى السكة الحديد الإنجليزية فى المنطقة السمراء. سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة إليها، ولا يجرى أدنى اختلاف فى المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسوية فى أى سكة من السكك الحديدية، ولا فى ميناء من الموانئ فى المناطق المذكورة.

المادة السادسة - لا تمد سكة حديد بغداد فى المنطقة (أ) إلى مابعد الموصل جنوبا ولا فى المنطقة (ب) إلى مابعد سامرا شمالا، إلى أن يتم إنشاء خط حديدى يصل بغداد بحلب مارا بوادى الفرات، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة - يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدى يصل حيفا بالمنطقة (ب) ويكون لها ماعدا ذلك حق دائم بنقل الجنود فى أى وقت كان على طول هذا الخط. ويجب أن يكون معلوما لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال فى المنطقة السمراء مصاعب فنية، ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذرا فالحكومة الفرنسوية تكون مستعدة أن تسمح بمروره فى طريق بربورة - أم قيس - ماقى - إيدار - غسطا - مغاير قبل أن يصل إلى المنطقة (ب)

المادة الثامنة - تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة فى جميع المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقيتين (أ) و (ب) فلا تضاف أى علاوة على الرسوم، ولا تبدل قاعدة التثمين فى الرسوم بقاعدة أخذ العين إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين.

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه، ومايفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة إلى الداخل يدفع فى الميناء، ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

المادة التاسعة ـ من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسوية لا تجرى مفاوضة فى أى وقت كان للتنازل عن حقوقها، ولا تعطى مالها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء لدولة أخرى سوى للدولة، أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفا حكومة جلالة الملك التى تتعهد للحكومة الفرنسوية بمثل هذا فى ما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

المادة العاشرة ـ تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسوية بصفتهما حاميتين للدولة العربية على أن لا تمتلكا، ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطارا فى شبه جزيرة العرب أو تنشئ قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى. على أن هذا لا يمنع تصحيحا فى حدود عدن قد يصبح ضروريا بسبب عداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة ـ تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة، أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة ـ من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية.

٢

وفى ١٥ يوم مايو سنة ١٩١٦ أرسل السير ادوارد غراى وزير الخارجية البريطانية إلى سفير فرنسا فى لندن الكتاب الآتى:

«لى الشرف أن أجيبكم على كتابكم المؤرخ ٩ الجارى، والخاص بإيجاد حكومة عربية أنى أنتظر أن تعلمونى مباشرة فى ما إذا كان فى إمكانكم إعطائى ضمانات معينة تضمن بقاء حقوق الملاحة والامتيازات البريطانية فى المعاهد والمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية فى المناطق التى ستصير فى مابعد مناطق فرنسوية، أو فى المناطق التى تسود فيها المصالح الفرنسوية، وفقا للقواعد الواردة فى كتابكم. وتفضلوا...

٣

فرد عليه السفير الفرنسوى فى اليوم نفسه بالخطاب الآتى:

«لقد أعربتم فى كتابكم بتاريخ اليوم عن رغبتكم قبل الرد على كتابى الخاص بمسألة

تأليف حكومة عربية، والمؤرخ ٩ الجارى ـ فى الحصول على مايضمن لكم دوام بقاء امتيازات وحقوق الملاحة، وكذلك جميع الحقوق والامتيازات البريطانية فى المؤسسات الدينية ومعاهد التعليم، وفى المعاهد الصحية فى المناطق التى تصير فى مابعد مناطق فرنسوية، أو فى المناطق التى تسود فيها المصالح الفرنسوية ـ كما أن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ستعترف بهذا الحق عينه لفرنسا مستعدة للمصادقة على جميع الامتيازات البريطانية المختلفة التى يرجع تاريخها إلى زمن معين قبل الحرب فى المناطق التى تنتسب إلى فرنسا فيما بعد، أو المناطق التى تعتمد على مجهوداتها فيها. أما فيما يختص بالمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية فإنها ستظل كما فى الماضى مستمرة فى أداء مهمتها. وألفت نظركم فى الوقت نفسه إلى أن هذا العهد لا يشمل الامتيازات الأجنبية، أو مايتعلق بالأمور العدلية والقضاء.

٤

فرد عليه السير إدوارد غراى يوم ١٦ منه بالكتاب الآتى:

جوابا لخطابكم المؤرخ فى ١٥ الجارى لى الشرف أن أبلغ سعادتكم أن قبول جميع هذه التكليفات والترتيبات بهيئتها الحالية، مما يوجب إهمال المنافع البريطانية العظيمة. غير أنه لما كانت حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ترجو الفوائد العميمة لمصالح الحلفاء عامة بإحداث حالة سياسية داخلية مساعدة فى تركيا، فقد استعدت لقبول المواد المتفق عليها لضمان اشتراك العرب فى الحرب، ولكى يقوموا بواجب التحالف فيحتلوا حلب وحماه وحمص ودمشق، فإذن حصل التفاهم بين انجلترا وفرنسا فيما يتعلق بالشروط الواردة فى كتابكم المؤرخ ٩ الجارى.

ثم أدرج فى الكتاب نص مواد المعاهدة بكاملها

* * *

تلك هى نصوص المكاتبات الرسمية التى دارت بين الحلفاء، والعقود التى عقدوها لتقرير مصير بلاد العرب، وهى واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

ومما يستوقف النظر أن الاتفاق النهائى مع الشريف على خوض الحرب لم يتم إلا بعد

اتفاق الحلفاء بينهم على القسمة ـ أى أنه جاء بعده ـ على الرغم من أن جميع هذه الاتفاقات تمت فى سنة واحدة (سنة ١٩١٦) ولذلك يجب أن يعتبر نافذا ومرعيا عملا بالقاعدة العامة القائلة «المتأخر ينسخ المتقدم».

على أنه لابد لنا من القول هنا أن الإنجليز لم يروا بعد انتهاء الحرب، وبعد أن وضعوا أيديهم على العراق وفلسطين وسيلة للخروج من الموقف الذى صاروا إليه مع العرب سوى إنكار هذه العهود وتجاهلها، أو الادعاء بأنهم لم يقطعوها، أو لم يتعهدوا بها، أو أنها مبهمة يؤيد ذلك الحديث الذى فاه به الأمير فيصل نفسه يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٢٠ مع جريدة المفيد الدمشقية فقد قال: لما كنت فى لندن قدمت صورة من المعاهدة التى تقررت مع الإنجليز إلى رئاسة مجلس الوزراء فانكرت وجودها كل الانكار، وقالت إنه لايوجد عهد ولا كتاب ينطق بهذا التصريح، ثم أورد الأمير نص المعاهدة، وقد كتب على رأسها بخط الحسين مانصه: صورة ماتقرر مع بريطانيا بشأن النهضة وهو:

١ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلا فى داخليتها وخارجيتها تكون حدودها شرقا من بحر خليج فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات، ومجتمعة مع الدجلة عند مصبها فى بحر فارس، ماعدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود بأنها فى محلها فى رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها أميرا كان أو من الأفراد.

٢ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخلة كانت بأى صورة كانت فى داخليتها، وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعهد بأى شكل يكون، حتى ولو وقع قيام داخلى من دسائس الأعداء، أو من حسد بعض الأمراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام وهذه القيامات أو الثورات الداخلية، وتكون مدتها محدودة ـ أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها الداخلية.

٣ ـ تكون البصرة تحت اشغال (أى احتلال) العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية، ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود

يراعى فيه حال احتياج الحكومة العربية، التى هى حكمها قاصرة فى حضن بريطانيا، وتلك المبالغ تكون فى مقابلة ذلك الأشغال.

٤ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ماتحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب.

٥ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط الحديدى من مرسين أو ماهو مناسب من النقاط فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها.

وعلى أثر ذلك كررت طلب تلك المعاهدة من مكة، ولكنها لم ترد وياللأسف حتى الآن فلهذا لا يمكن أن أقول بأن وزارة الخارجية مخالفة للحقيقة بأقوالها، ولا أقول أن حكومة مكة تقول غير الواقع».

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٢٢ زار وفد سورى برئاسة الأمير ميشيل لطف الله لندن لمطالبة الإنجليز بتنفيذ عهودهم للعرب، ولما قصد وزارة الخارجية، وقابل أحد أقطابها العارفين بشؤون الشرق الأدنى دار البحث على تلك العهود فقال السياسى الإنجليزى أنه لا يستطيع البحث فى شأن سورية، لأن بين بريطانيا وفرنسا معاهدات تقيد البريطانيون بها وأنه لاتوجد بينهم وبين العرب معاهدة، ولكن هنالك عهود صدرت من السير هنرى مكماهون لا تتضمن الشيئ الذى تريدونه. وأنه من الأول إلى الآخر ما فكر باستقلال العرب، إلا على شرط أن يكونوا تحت وصاية بعض الدول العظمى.

ولقد عالج المستر ج . دى . ف. لودر. من الإنجليز المشتغلين بالشؤون العربية فى كتابه «القول الحق» تعريب نزيه المؤيد العظم قضية هذه العهود فى فصل خاص فقال:

«ابتدأت المفاوضات بين شريف مكة وبين بريطانيا العظمى بابتداء الحرب العامة، ولم تثمر شيئا بادئ بدء. لأن الشريف أراد أن يكون موقفه جليا واضحا، وكان يستعد سرا لمقاومة كل حركة عدائية يتحركها الترك. كما كان يتظاهر لهم بالصداقة، وقد جمع متطوعين فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ لتأييد الحملة التركية على القناة، وساعد بحارة الطراد امدن الألمانى، والحق أن حالة الحرب العامة كانت مبهمة لا تدعو إلى التفاؤل بانتصار الحلفاء وكان موقف الحسين موقف ود، ولكن الترك أنفسهم جلوه باشتباههم فى أمر العرب، وقيام جمال باشا بما قام به من الأعمال الفظيعة وفرار الكثيرين من سورية، وتحريضهم الحسين على امتشاق الحسام لتحرير العرب، وقد دعته هذه الاعتبارات إلى

فتح باب المكاتبات مع نائب الملك في مصر وكان ذلك في شهر يوليو سنة ١٩١٥ وتعتبر هذه المكاتبات ذات شأن عظيم. لأنها تحتوى على مستندات وصكوك تبين العهود التى بين الحكومة البريطانية، وبين الحكومة العربية، وهى التى حدثت حولها ضجة عظيمة، وكانت سببا لمناقشات عديدة. ورغم ذلك كله لم يطلع عليها أحد بتمامها، وكنا نرى بين آونة وأخرى نتفامنها».

ثم أورد الكاتب خلاصة لمطالب الحسين، وجواب الانجليز عليها، وقال «إن المكاتبات التى دارت لم تف بالمطلوب ولاجلت موقف العرب ولاحددت مركزهم مع الحلفاء. بل بالعكس إظهرت تمسك كل فريق ببعض نظرياته التى من شأنها أن تثير الخصومة وتولد النفور والنزاع فى المستقبل. وهنالك أمر واحد تقدم تقدما محسوسا، وهو موافقة الفريقين على العمل لفصل البلاد العربية نهائيا عن الدولة العثمانية، واعتبر العرب مساعدتهم للحلفاء فى إتمام هذا القصد الواسطة الوحيدة لنيل استقلالهم بلا قيد أو شرط إلا بعض المساعدة البسيطة عند مسيس الحاجة إليها وذلك بناء على طلبهم إياها».

ولقد أثيرت مسألة هذه العهود غير مرة فى مجلسى النواب واللوردات البريطانيين خلال السنوات الأخيرة، وكان الأعضاء الموالون للعرب ينادون فى كل مناسبة بضرورة الوفاء بالعهود المقطوعة، ويلحون بنشرها فيجابون بأنه لم يئن أوان النشر، أو يقال لهم بأن بريطانيا وفت بما عليها وقامت للعرب بما يجب أن تقوم به.

ويقلل من قيمة هذه الدعوى فى نظرنا، بل ويسقطها ماروله المستر جريفز مؤلف كتاب «لورانس» وهو أن نائب الملك بمصر والحسين بن على لم يكونا على علم بالاتفاقات التى عقدت بين الإنكلز والفرنسويين بشأن بلاد العرب.

ويقول الدكتور شهبندر فى مقالة نشرها فى مجلة المقتطف فى شهر يونيو سنة ١٩٣١ بعنوان: «لورانس فى الميزان» مانصه «أما الاعتذار الذى قدمه بعض الكتاب عن التناقض المعيب فى السياسة البريطانية بقولهم إن الذى حدث إنما هو وجود دائرتين فى وزارة الخارجية استقلت كل منهما بواحدة من هاتين المعاهدتين من دون أن تكاشف الأخرى فهو من سقط الكلام، ولايليق أن يقال حتى عن الصين فى أعظم أيام نكبتها، ناهيك بأن ينسب إلى أعرق دولة فى التنظيم السياسى وانسجام الخط الخارجية، ومما هو حرى بالتدوين أن نائب الملك بمصر لما تناول أمرا بعقده اتفاقية مع الحسين بن على أرسل إنذارا إلى

حكومته شديد اللهجة قال فيه: إننا بتأييدنا القضية الوطنية فى بلاد العرب نعمل عملا محفوفا باعظم الأخطار، وأشد المهالك، لأن حرية العرب قد تنمو فى أحد الأيام فتصير الغول الذى افترس صانعه فى رواية «فرانكشتين».

«ولما حدثت الثورة فى روسيا فى ربيع سنة ١٩١٧ نشر البلاشفة صورة هذه المعاهدة فتناولها الترك ووزعوها فى الأقطار الحساسة ذات التأثير فى المصالح الإنكليزية، ورأينا فى القاهرة فى تلك الأيام السير مارك مايكس يعود من لندن ليخفف من سوء وقعها فى الأوساط العربية، وماقد تحدثه من رد الفعل. ولما اطلع عليها نورى السعيد دخل على لورانس فسأله أى العهدين سترتبط به انكلترا فاجابه بعد تردد نفسانى عميق «إنها ستحافظ على كلمتها لفظا ومعنى وان العهد المتأخر ينسخ العهد المتقدم» ويقول الدكتور شهبندر «ان لورانس شعر بعد ذلك بخجل عظيم فى نفسه على هذه المواربة، فاراح ضميره فيما بعد باطلاعه الأمير فيصلا على جميع ماستكشفه من أسرار وزارة الخارجية البريطانية وآلى على نفسه أن يرفض جميع مايمنح من الألقاب والرتب والأوسمة والأموال لأعماله الممتازة فى الشئون العربية.

«وقد برٌبيمينه فأنه طبع نحو ثلاثمائة وخمسين نسخة من كتابه الكبير «أعمدة الحكمة السبعة» ففرق ثلثها على أصحابه على سبيل الهدية وباع الثلثين الباقيين للمشتركين بثلاثين جنيها للنسخة وقد كلفه الطبع ١٣ ألف جنيه، وكان ثمن الصور وحدها يربو على قيمة الاشتراك، فكانت خسارته عشرة آلاف جنيه. لذلك رأى أن يضع لهذا المؤلف الكبير مختصرا يأخذ من ريعه مايسد به هذا النقص الذى استدانه من أصحابه، وسمى هذا المختصر:

«ثورة فى الصحراء» وقد الفه فى يومين. ومن حسن الحظ أن كتابه ثورة فى الصحراء لاقى نجاحا. حتى أن مطبعة فرنسوية كبيرة استأذنته فى نقله إلى الفرنسوية فاشترط عليها أن تطبع على غلافه العبارة الآتية: «إن ريع هذا الكتاب سيوزع على صرعى المظالم الفرنسوية» فأبت

ويقول المستر جريفز صديق لورانس فى كتابه عنه : «إنه شرح للملك جورج بصورة شخصية أن الدور الذى مثله فى الثورة العربية لم يكن مشرفا له ولا بلاده ولا للحكومة البريطانية. فقد أمر أن يمنى العرب بالأمانى الكاذبة. وهو يرجو أن يعفى من قبول الأوسمة التى أنعم بها عليه لنجاحه فى الخديعة والاحتيال» وهكذا رفض قبول الأوسمة

التى عرضت عليه، وأعادها وتطوع جنديا فى سلك الطيران.

ولسنا فى حاجة بعد هذه البيانات إلى إضافة شيئ عليها، وحسبنا أن نقول أن نكث بريطانيا، وعدم وفائها بما تعهدت به للعرب متسترة وراء بعض الألفاظ والتعابير سيظل لطخة سوداء فى جبين السياسة البريطانية لا يمحوها كر الأيام ومر الأعوام.

ـ ١٠ ـ

العرب فى ميادين القتال

أعلنت الثورة فى الحجاز قبل أن يستعد العرب لها، ويأخذوا أهبتهم لخوضها، ويدخروا من السلاح والمعدات ما يضمن لهم الوقوف فى وجه قوات الترك الكبرى، وكانت تحتل مدن الحجاز وشواطئه، وثغوره وطرقه، ولا يقل مجموعها عن بضعة عشر ألف مقاتل. يقودها ضباط مدربون، وسلاحها من أمضى الأسلحة. كما أن خطوط مواصلاتها منظمة على أفضل منوال.

لقد كان للترك فى المدينة وحدها حين إعلان الثورة ثلاثة آلاف مقاتل. لم يلبثوا أن أصبحوا عشرة آلاف بالإمدادات التى أرسلت إليهم، ويعترف الكولونيل بريمون فى كتابه (الحجاز فى الحرب العالمية) أن قوات الترك فى المدينة المنورة كانت فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩١٦ (أى بعد اعلان الثورة بأربعة أشهر) تتألف كما يأتى:

قوة المدينة نفسها: تؤلف من أورطتين مشاة، وآلاى هجانة يقودها أمير الآلاى عبد الرحمن بك، وتتبعها ٣ بلوكات استحكام ورشاشات ومدفعية قوية. وقوة بيردرويش، وتتألف من خمس أورط مشاة، وبلوكين راكبة، وآلاى هجانة وبطارية مدافع جبلية تحمل على الجمال وأربع طيارات ويقودها القائمقام غالب بك (غالب باشا الشعلان)

وقوة بيرر وحانة، وتتألف من آلاى هجانة وقوة من عرب شمر، وكتيبة من البغالة وه مدافع ميدان، ومفرزة لاسلكى ومجموعها ٢٣٣٠٠ جندى يقودها نحو ٦٠٠ ضابط على رأسهم فخرى باشا.

وكانت قوة الطائف لا تقل عن ألف جندى و ٨٣ ضابطا بقيادة الفريق غالب باشا والى

الحجاز وقائده، وكان يصطاف هنالك مع أركان حربه، ولديها عشرة مدافع و ١٧٠٠ بندقية وكمية كبيرة من الذخائر.

أما قوة مكة فما كانت تقل عن ألف جندى أيضا بقيادة البكباشى درويش بك لديها ٢٠ مدفعا. وكانت قوة جدة تتألف من ٢٥٠٠ جندى أيضا ومائة ضابط ولديها ٢٠ مدفعا و ١٥ رشاشة. ولا يدخل فى هذا الإحصاء سماكان لهم من قوات أخرى فى ينبع والوجه والمناطق الأخرى وفى محطات السكك الحديد، ولا يقل مجموعها عن ٢٠ ألف جندى نظامى مسلح، تملك نحو ١٢٥ مدفعا مختلفة العيار والحجم.

فهذا البيان البسيط يدل على أن العرب استهدفوا يوم إعلان ثورتهم لمنازلة قوات عظيمة يقودها ضباط اشتهروا بالجرأة، وتلقنوا العلوم العسكرية الحديثة فى أرقى الجامعات. يضاف إلى هذا أنها كانت تتحصن فى قلاع منيعة لا ترام. سواء فى المدينة أو فى الطائف أو فى مكة أو فى جدة فتتفوق بذلك على العرب، وكان عليهم أن يهاجموها فى صياصيها وداخل حصونها.

ومن تحصيل الحاصل القول أن قوات العرب لم تكن فى تلك الأيام سوى شراذم قليلة من البدو، الذين لم يألفوا النظام، والذين ما اعتادوا الثبات فى الميدان، ولا البقاء فى معترك الطعن والضرب، سلاحها قديم، وعتادها قليل، وقد كتب عليها أن تكون محرومة من جميع الوسائل والمعدات المتوفرة عند الجيش التركى.

ولقد اعترف جلالة الملك على لكاتب هذه السطور حينما سأله عن المعارك الأولى التى دارت بينهم وبين الترك على أثر خروجهم من المدينة بأنهم ارتدوا أمام فخرى باشا فى خلال المعركة الثانية التى دارت فى الحسا لنفاد ذخيرتهم، وقال إنهم وصلوا فى تراجعهم إلى رابغ، وصرح بمثل ذلك الأمير عبد الله فقال: إن الترك حملوا عليه حينما هاجم الطائف يوم ٨ شعبان - أى قبيل إعلان الثورة بيوم واحد فشتتوا شمل رجاله وهزموهم فثبت مع حاشيته القليلة ثم عاد إلى مهاجمة الطائف مع القوات التى جمعها من هنا وهنالك فحاصرها وظل يشدد الحصار عليها حتى استسلمت إليه.

ونحن فى غنى عن القول أن إقدام الحسين وأولاده على إعلان الثورة وهم مجردون من كل قوة منظمة، ولا يملكون سوى كمية قليلة من البنادق، وهى التى أخذوها من الترك للمتطوعة ، ولايجهلون أنهم سيستهدفون لقتال قوات كبيرة تنزل فى ديارهم، تحيط بهم

وتسد عليهم المسالك، ومن ورائها جيوش جرارة، تسرع لنجدتها، تنطوى على كثير من الجرأة وصدق العزيمة، ولو تسنى لفخرى باشا بلوغ مكة ـ كما تصور جمال باشا، لقضى على الثورة وأبادها، بيد أن ثبات رجال العرب فى وجهه واستماتتهم فى المقاومة والنضال جعله يعدل عن خطة الهجوم، ويكتفى بالدفاع، فاستصفى العرب مدن الحجاز الواحدة بعدالأخرى، ثم اتجهوا نحو الشمال لتحرير سورية وإنقاذها، ولقد أظهر الجيش العربى فى خلال الأدوار التى مرت بها الحرب من الشجاعة والاقدام ـ على حداثة عهده ـ مانال إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، وجعل قادة الحلفاء وفى مقدمتهم اللورد اللنبى يعترفون بما أسداه من خدمات جلى.

كيف استسلمت جدة

نعود بعد هذا التعميم إلى التخصيص. التى فنتكلم عن المعارك التى دارت والوقائع التى وقعت. مراعين قاعدة التسلسل التاريخى للحوادث وموردين تاريخ جيش الثورة، ومادار فى خلال تلك الأيام من مكاتبات بين العرب والحلفاء. ففيها مايميط اللثام عن كثير من الأسرار فتقول:

كانت حامية جدة أول حامية تركية استسلمت للعرب فى الحجاز، فقد رفعت راية التسليم يوم ١٦ يونيو، ويبلغ عدد رجالها ١٣٤٦ جنديا، بينهم ٢٠ ضابطا، وغنم العرب من جدة ١٠ مدافع ميدان و٤ مدافع جبلية و ٤ رشاشات ومستودعا كبيرا للأسلحة والذخائر، فكانت فاتحة طيبة.

واستعان العرب بالمدافع التى غنموها فى جدة على ضرب الحامية التركية وكانت متحصنة بقلعة جياد (مكة) فنقلوها على الأثر، ونصبوها أمام القلعة وسلطوا نيرانها عليها ولا يفل الحديد إلا الحديد فدمروها ثم اقتحموها يوم ٤ يوليو سنة ١٩١٦ وأسروا حاميتها وغنموا فيها ٣ مدافع جبلية، ومدفعين من العيار الكبير وكمية كبيرة من الذخائر والعتاد.

وصدق مدفعيو العرب الحملة على ثكنة جرول. وكان عدد من الترك يحاصر فيها بقيادة البكباشى درويش بك، وحمل عليها الجيش بالسلاح الأبيض فاقتحمها يوم ٩ يوليو بعد غروب الشمس وأسر حاميتها، وتتألف من ٢٨ ضابطا و٩٠٠ جنديا و ١٥٠ بين جريح ومريض. وهكذا تم لهم التغلب على قوات الترك فى مكة فدانت للحكومة الجديدة.

احتلال الليث وأوملج

وفى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩١٦ استولى العرب على ثغر الليث على شاطئ البحر الأحمر بين الحجاز واليمن، وعلى ثغر أوملج فدخلا فى طاعة الحكومة الهاشمية الجديدة.

احتلال الطائف

تولى الأمير عبد الله الطائف بنفسه فجمع القبائل حولها، وأقام على حصارها بعد الهزيمة الأولى، وظل يطاولها، ويراوحها ويغاديها حتى استسلمت إليه عند منتصف ليل ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ (٢٤ ذى القعدة سنة ١٣٣٤) فقد جاء الوالى غالب باشا بنفسه مع ضباطه إلى المعسكر العربى (خارج السور) وسلموا أنفسهم كما سلمت القوات التركية سلاحها للجيش العربى.

فى ميدان المدينة المنورة

قلنا فى مقدمة هذا الفصل إن القوات العربية التى هاجمت محطة المحيط يم ٨ يونيو بقيادة الأميرين على وفيصل كانت تتألف من ٦ آلاف مقاتل من قبائل حرب وجهينة وبلى ومسروح، وأنها لم تثبت أمام فخرى باشا، بل ارتدت إلى الوراء لنقاد ذخيرتها.

وافترق الأميران بعد معركة الحسا فقصد على (الغدير) وهى على ٢٥ كيلو مترا من المدنية المنورة إلى الجنوب. كما قصد فيصل بير عباس (ديار بنى سالم) على بعد ٧٥ كيلو مترا من المدينة، واتخذها مقرا لحركاته العسكرية تؤيده قبائل مسروح وبنى سالم وبلى وجهينة وتشد أزره.

وشجع فخرى باشا مالقيه من فوز فى المعركة الأولى، فحمل بقوة كبيرة على جيش الأمير فيصل فى منتصف شهر يونيو، فاحتل العلاوة، وبلغ بير الماشى، وهى على بعد ٣٠ كيلومترا من المدينة فاحتلها وحصنها وغايته من ذلك اقصاء الثوار من حول المدينة، لتسهيل الأعمال العسكرية.

ولقى الأمير على عناء وتعبا فى أوائل الثورة من حسين بن مبيريك شيخ رابغ فقد كان ضالعا مع الترك. ميالا إليهم وقد تأيد ذلك بكتابين أرسلهما إليه الشريف على حيدر من

المدينة، وعثر عليهما رجال الحكومة الجديدة. ولذلك لم يجد بدا من التراجع إلى رابغ والنزول فيها ففر هذا إلى المدينة.

وحمل فخرى باشا على جيش الأمير فيصل يوم ٢٠ شوال سنة ١٣٣٥ (١٩ أغسطس سنة ١٩١٦) فدارت معركة دامية بين الفريقين انتهت بارتداد الترك بعد مامزق العرب أورطتين من أورطهم وأسروا منهم ضابطين و ٦٠ أسيرا.

وعاد فخرى باشا إلى الهجوم فحمل يوم أول أكتوبر على جيش الأمير فيصل، فارتد أمامه حتى ينبع البحر، فلم يطارده فخرى باشا، بل توقف أمام ينبع لا يدخلها، ثم ارتد إلى المدينة فجأة فى الغداة فلحق به الأمير . واستأنف فخرى باشا الخروج فهاجم بير عباس يوم ١٤ ذى الحجة بقوات كبيرة واحتلها، ولكن الأمير فيصلا اضطره إلا إخلائها فارتد إلى بير الرايق.

وخاف الحسين فى خلال الفترة التى دارت فى إبانها هذه المعارك ـ وقد طارت فى خلالها إشاعات بأن فخرى باشا ينوى الزحف على مكة بطريق رابغ ـ النتيجة، وأدرك أن الترك عازمون على ضرب الثورة ضربة قاضية، فأرسل يطلب من حلفائه الإنجليز المدد والنجدات بواسطة مندوبه فى مصر. ونحن ننشر نصوص المكاتبات السرية التى دارت فى هذا الشأن ثم نقفى عليها بما دار بين الحلفاء أنفسهم من مباحثات لأهميتها.

١

فى يوم ١٥ رمضان سنة ١٣٣٤و ١٤ يوليو سنة ١٩١٦ أرسل الحسين إلى مندوبه بمصر البرقية الآتية:

«من الضرورى أن نعد سقوط الطائف، وإرسال قوة مرفوقة بمدفعية ورشاشات مع القائد السيد على[1] لتقوية معسكرنا بالمدينة، الذى هو الآن بمثابة حياتنا، والمحسوس أن القائد المومأ إليه غير موافق على هذه الحركة، وسيتخذ له أعذارا كعذر رابغ، ولا يخفى ما فى هذا من النتائج الوخيمة. فعليك أن تبلغ الحالة إلى نائب الملك، وهو لا شك يقدرها قدرها. وأنى لم أبعث بهذه المدفعية إلا إلى موقع فيه أولادى لئلا يمسهم سوء هم ومن معهم. ولولا مصادفتنا لمثل هذه المشاكل، وكانت البطارية قد توجهت من رابغ الذى لامانع

١ ـ هو قائد القوة المصرية التى أرسلها الإنكليز إلى الحجاز لمساعدة الثورة.

لتوجهها. سيما وأنه بعد عودتها بيومين وصل أحد مأمورينا المهمين بحملة من أعيان عشيرة حرب مندوبا من الأولاد لاستصحابها معهم فلو وصلت إلى معسكر فى ذاك الحين لكانت حكومة المتغلبة فى كافة أنحاء سورية اليوم فى مزيد الخطر والاضطراب، ولتكفينا بريطانيا تكلفها الحالى على الترعة، وعليه فلا أرى إلا إعادة طلبى بعد عزمى ألا أبحث بعد المرة الأولى وعليه ضرورة تجاوزهم على الخط الحديدى - كما أشرنا لجناب ستورس عند مواجهته بأولادنا فى البقيع - وهذا ضرورى، وافادتكم عنه منتظرة، ولتخفيف المحظور والضرورة ألزمتنى بالأخذ فى سوق المدافع المكتسبة من الترك إلى معسكر المدينة لتضعيف القوة المعنوية، فإنه رغما عما مع عدوهم من المدافع والرشاشات أتلف من العدو فى الوقعة التى زعموا أنهم طردوه ما يتجاوز الـ ٢٥٠٠ قتيل، كما تشهد بذلك كثرة ماوقع فى أيدى جنودنا من السلاح الذى غنموه»

٢

وفى ٣٠ منه أرسل إليه البرقية الآتية:

حالة معسكرنا بالمدينة شرعت بالتحسن والترقى عند تسلحهم بالبنادق المرسلة التى أغاثنا بإرسالها فخامة النائب بعدالوهن الذى بلغ منى حتى القوة المعنوية لفقدهم المؤونة الحربية. سيما خراطيش (قذائف) بنادق غرة (يونانية) ومارتين (فرنسوية قديمة) والمحسوس أن فيصلا سيتجاوز بقسم من معسكره على أطراف المدينة.

المتغلبة (الترك) شرعوا فى إعادة ما فقدوه فى المدينة من الجند إلى الشام، أو يأتون بعوضه . ولعله من عدم الأمنية من أفراد الجند، وعلى رواية أنهم يأتون بأقل من مقدار مايعيدونه للشام.

أن راوية تجاوزهم على ينبع من طريق (العلى) هى التى اضطرتنى إلى طلب مظاهرة بحرية فى ينبع التى كثرت الإشاعات فى تقرر اتخاذها واسطة للسوقيات ومايقتضى لحركات المدينة.

ضرورى تعيين أحد البواخر الحربية المستعدة مصحوبة بثلاث طيارات ليعلم الترك الذى استحوذ الرعب الشديد عليهم من تأثيراتها فى (لام) بجوار(المنال) بوجودها، وهذا هو السبب الوحيد الذى أوجب طلب مظاهرة ينبع التى بواسطتها تنقطع آمالهم من

التجاوز بتأثيراتها فى قواتهم التى بالمدينة، ولا يتيسر المرور من طريق الساحل لمن يريد ينبع من الشمال. لأنها تكون فى داخل حركتها، ولابد أننا نصحب قائدها إفادة لنائب ينبع بأنها مصونة أمام كل احتمال، وليخبر ابنى فيصلب بقدومها ومحلها، فإذا وصلت ورأت عدم أثر للعدو تسافر إلى الوجه لأننى فى هذه الدقيقة تلقيت من سليمان رفادة مايفيد بوصولها، وضرورى أن يصحبها بجانب من الذخيرة وما أشبه ذلك لسليمان المذكور..إلخ

٣

وقال فى برقية طيرها يوم ٢٣ شوال إلى نائب الملك رأسا:

ألتمس سرعة اصدار الأمر إلى من يلزم لبعث أربع مدافع جبلية واثنين أيضا من عيار ١٠ س من النوع الذى يتجزأ و ٤ رشاشات و ٤ طيارات برية من العشرة التى قيل أنها تحت الطلب ولو على وجه التعويض من أحد الجيوش إلى ينبع فى الأسبوع الآتى لمقاومة شدة حملات العدو على جيوشنا المحرومة من كل المعدات وتفوق العدو عليها حتى بقربه من مركزها التى يريدون قدوم الأمير حيدر إلى مكة قبل الحج، ومقدار ٧٥٠٠ بندقية منها ٥٠٠٠ إلى ينبع و٢٥٠٠ إلى جدة بالمقدار الزائد من المؤونة، وهذا باسم سلامة المصلحة فأنى قد اضطررت إلى بعث طابورين تقريبا من متطوعة البلاد مع عدم تدريبهم ومدفعين مما اكتسبناه من الترك وإن كانت قديمة لنا لما فيها من الضرورة.

٤

وقال فى برقية طيرها يوم ١٣ ذى القعدة إلى مندوبه بمصر:

١ ـ أشرت لفخامة نائب الملك فى برقيتى منذ شهر بأن الترك سيصرفون كل جهدهم لبعثة المحمل مع الشريف الذى عينوه وطلبت إرسال القوى بصورة أوضحتها فى برقيتى ولا أدرى سبب اهمالها.

٢ ـ بوصوله تقابله حالا وتفيده بأنه توالى علينا بصورة وثيقة بأن الأتراك رأوا التوجه من المدينة فى ١٣ الجارى المصادف أمس باثنى عشر طابورا ويرفقتهم المحمل ورأينا أن نفتح لهم الطريق حتى يتوسطوا منه فيأتيهم فيصل من خلفهم ويكون أمامهم زيد

المعسكر من أسبوع بين (القظيمة) ورابغ بالمتطوعة، ولكنه فى هذه الحالة يحتاج جدا لتقويته بثلاث طوابير، تساق إليه من أقرب المواقع، وليكن أنزالها فى رابغ أو القظيمة .. ولا أقول هذا آخر رجائى.

٥

وفى يوم ١٨ منه طير البرقية الآتية:

لا أظن أن قيمتنا لدى العظمة البريطانية لا توازى سوى ثلاث آلايات فأن زيادة تواتر حركات العدو بالقوة السالفة الذكر وضيق الوقت وما هو فى معنى ذلك استلزم جلب على بقوته الشرقية إلى رابغ وتأخير وظيفته الأصلية».

الضرورة ألجأت إلى ارتكاب هذا التبديل العظيم فى خط الحركة مع جهل حسن النتيجة.

عالمنا العسكرى الذى لم تدخلوه حتى الساعة فى مبدأ التكوين يمنع العظمة البريطانية عن نسبتنا للإلحاح، ويلزمها بصيانتنا عما فى هذا من المشاكل والمخاطر وبكل عجلة. أقله صدور الأمر بباخرة حربية مصحوبة بطيارتين أو ثلاث لتكون راسية أمام رابغ.

٦

وفى يوم ١٩ منه طير المندوب إلى الحسين البرقية الآتية:

«أفهمنى نائب الملك بأنه ليس فى استطاعة الحكومة البريطانية إرسال جنود إلى الحجاز لأسباب مختلفة. أهمها الحذ ر من اتهام العالم الإسلامى لهم، واعتقاد منهم بأنه ليس للأتراك قوة يخشى منها. المهمات الحربية كالرشاشات والبنادق سترسل مع باخرة خاصة بها، ولايريدون ارسالها مع باخرة فيها أجانب».

٧

وفى يوم ٢٣ منه أرسل الحسين إلى نائب الملك البرقية الآتية:

«تلقيت الآن برقية من مندوبى هذا نصها: «أفهمنى فخامة نائب الملك أنه ليس فى

استطاعة الحكومة الآن ارسال جند إلى الحجاز لأسباب مختلفة أهمها الحذر من اتهام العالم لهم.. إلخ، وفى بيانى لفخامتكم فى إحدى كتبى الأخيرة عما أرسل من النقود إلى الآن بأنها موجودة لم تلمسها الأيدى، وإصرارى على الاكتفاء بمدفعين من البطارية الجبلية وطلبى إعادة الباقى إلى مستودعها كاف لسلامتى من هذه الوجوه الثانية لمخالفتها المقررات الاتفاق المعلوم لدى الفخامة. سيما اغتباركم فى جملة الحلفاء وهذه أجل البحث فيها وفى الختام.

٨

ولما طال الأخذ والرد بلا جدوى طير يوم ٢٢ ذى الحجة إلى نائب الملك البرقية الآتية:

«إن مقاومة جندنا البدوى للمتغلبة (الأتراك) وحليفتها (ألمانيا) وصدهم فى نحورهم وثباته أربعة شهور لا يحجمنى عن طلبى للعظمة البريطانية امدادها العسكرى كشرط عهدنا، ولقد حصل لدينا مزيد الأسف من استرجاعها الطيارات أيضا بعد أن وصلت إلى رابغ، فى الوقت الذى كانت طيارات العدو تهدد يمنة جندنا الذى بقيادة فيصل وتؤثر عليه، فزيادة تفوق العدو بطياراته فى هذه المرة يلزمنى باسم العهد والتحالف الواقعين بيننا، عدا ماصرحت به حكومة جلالة الملك فى بلاغها الرسمى المذاع فى ٢٨ رمضان المبيح لها كل محذور بقولها فيه عن العرب إنهم انخرطوا فى عداد الحلفاء ضد العدو المشترك ثم قولها أنها ستبذل كل الجهد فى إبقاء الأماكن المقدسة آمنة من كل طارئ خارجى. فكل هذا يخولنى أن أطلب بسرعة إعادة الطيارات إلى رابغ بمهندسيها ومديريها بدون إضاعة وقت، وأن حياة أبنائنا على وفيصل وزيد كافلة لحراستها. أما القوة الجزائرية التى يقال أنها ستساق، فإن صح أمرها فمن الضرورى اعتبارى أنها بريطانية محضة، وعليه فلابد من إيجاد قوات كافية نظامية لمقابلة العدو واحباط أعماله المرتكن فيها على الفن والمخترعات الحربية التى لا يحسنها جندنا فى الوقت نفسه، فإذا حصل أدنى تأخر فى انفاذ الطلبات الواقعة الضرورية فى الوقت العاجل فما يحدث عقبة من التهلكة العظمى التى لا تتصورها مملكتنا المرتكنة بعد الله تعالى على شرف وشهامة محالفتها مع حكومة جلالة الملك لا تخفى على فخامتكم إلخ.

ولم يقف الحسين عند هذا الحد من الطلب بل أرسل برقية أخرى يوم ٢٣ منه مقترحا

إرسال سفينة خاصة تنقل ولده عبد الله إلى مصر لمقابلة نائب جلالة الملك على أن لا تزيد مدة غيابه عن عشرة أيام للتفاهم.

فرد عليه معتمده يوم ٢٨ منه بالبرقية الآتية:

«أبلغني اليوم نائب الملك جوابا على برقية مولاى بأن دولة بريطانيا لا تود أن يخالج ضمير مولاى شك فى أنها لا تود مساعدته فى كل ما يحتاج إليه بشرط أن يكون فى الإمكان وإنهم يعتبرون مصالحهم متحدة مع مصالحنا، وذكرني بأنهم فعلوا كل ماطلبناه سوى مسألة الثلاث أورط، وأنهم يهمهم جدا اقتناع سيدى بحسن نيتهم ووفائهم وأنهم مستعدون لمساعدتنا بكل مايلزمنا على قدر إمكانهم . إلخ

٩

وفي يوم أول محرم سنة ١٣٣٥ أرسل البرقية الآتية أيضا:

«قابلت اليوم نائب الملك مقابلة طويلة متباحثا فى عدة أمور أهمها تصريحه نهائيا بأنه لايوجد أدنى سوء تفاهم، ولا يدرى ماهى الأسباب التى حملت مولاى على اعتقاده وقال إنه يمكن أن تكون مسألة عدم إرسال قوة إلى رابغ، واسترجاع الطيارات، وكرر القول بأن منتهى رغبته تحقيق أمانى مولاى ورغباته، بشرط أن تكون فى استطاعته المحافظة على توازن القوى التى تدافع عن بلادها والتى تساق إلى الأماكن الأخرى، وبين الرأى العام الإسلامى. ومع هذا فقد طلب طلبات مولاى من لندن، ويأمل أن يصله جواب مرض فى خلال هذين اليومين . إلخ.

١٠

وفي يوم ٢ منه أرسل البرقية الآتية إلى نائب الملك:

«ايفاد ولدنا عبد الله أساسا منوط لرأى فخامتكم، والقصد به قيامنا بوفاء مايجب أمام بريطانيا العظمى. فلاحظنا فى مبادئ المخابرة مع فخامة الوزير عن حسيات المسلمين فى حركتنا وإمدادنا بالقوة العسكرية حتى لما يتحدث فى داخلية البلاد لحين تكويننا القوة العسكرية ـ كما هو معلوم الفخامة وصراحة شهامتكم. فى تحريركم ٦ جمادى الأولى سنة

١٣٣٤ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩١٦ بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبنا، وعطف حسيات فخامتكم فى خاتمة رقيمكم بادئ الذكر بقولكم: «وبالختام أقدم عظيم احتراماتى وكامل ضروب المودة والإخلاص التى لا يزلزلها كر العصور ومر الأيام» أظن يافخامة الشهم أن هذا يجعل لى الحق فى استفهام فخامتكم عن أثر التجنب الذى نراه يزداد يوم فيوما. ويهمنا جدا الوقوف على حقيقة الأمر لئلا يقع مايحدث زيادة التجافى لأمر وسبب لا حقيقة لهما.

١١

وعاد الحسين ثانية إلى طلب الطيارات، فأرسل يوم ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥ البرقية الآتية إلى مندوبه بمصر.

تزور فخامة النائب وتفيده أن الغرض من الطيارات هو لدفع ضرورة شديدة، فإذا لم يمكن بأى صورة مرافقتها لمعسكراتنا الجنوبية، فالرجاء تفيدونا بسرعة كيما نتخذ أسبابا أخرى تخفف احتياجنا لوجودها، ونتدارك الأمر مهما أمكن، حتى لانترك الحاجة بدون تدبير من الإسرافات والتكلفات فى مواد لا توازى جزءا من مصرف وكلفة إنشائها المبحوث عنه.

١٢

وفى اليوم نفسه طيرت إليه الوكالة الخارجية البرقية الآتية لابلاغها إلى نائب الملك بنصها وهو:

«توالت علينا برقيات الأمير فيصل، وقد جاءنا من سموه اليوم ثلاث برقيات مفصلة، وكل حرف من حروفها يدل على شدة حاجته إلى المؤونة، ولا سيما المال بسبب الطوفان العظيم الذى تدفق عليه من قبائل الشمال، وكلها تقسم يمين الطاعة بين يديه، وتعطى الضمانات المعروفة فى مثل هذه الأحوال. ثم تطلب السلاح والمال، وأنه لمن المستحيل أن يترك سموه هذا الأمر على حاله، والأمير فيصل يتهدد بالانسحاب من الميدان إذا لم تجب مطالبه بكل سرعة. ويقول سموه إن هذا النجاح العظيم يجب أن لا يهمل، وأن لايكتفى

أمامه بالكلام والوعود، مخافة أن يدب الملل والضجر إلى تلك القبائل المتحمسة التى أقبلت بظعنها وخيامها فنرجو تدارك الأمر كيف كان، وبأى واسطة ممكنة فعالة وسريعة مخافة الفشل الذى نثق ونؤكد أن فخامته يبذل ما بطاقته لدفعه، ولا حاجة بنا إلى وصف الموقف الذى بات فيه جلالة مولانا الملك الأعظم بسبب الكارثة وفخامته فى غنى عن كل بيان. وقد زاد جلالته على ذلك بقوله: إننا لسنا من التجار حتى نحتاج إلى كل ذلك، ولسنا من الذين يريدون ربحا خصوصيا ليستفيدوا من وراء هذا، بل إننا عاملنا حليفتنا الموقرة كما يعامل الرجل أهله، فضلا عن حرصنا الشديد على كل ما يصدر. ولكن الضرورة القاهرة الشديدة ولزوم المحافظة على مكانتنا ومكانتهم فى عيون الوفود المتكاثرة دعت إلى طلبنا هذه الزيادة إلخ.

١٣

وفى يوم ١١ منه أرسل المندوب البرقية الآتية:

قابلت اليوم النائب وعرضت المطالب، وكانت نتيجة المقابلة اطمئنانى التام أن بريطانيا ستستمر فى معاونتنا تماما، وأن فخامته أكبر نصير لهذ ه السياسة الحسنة، ولقد كلفنى أن أعرض اسمى احتراماته وتشكراته القلبية لجلالة مولاى الأعظم وإليكم الجواب عن جميع برقياتكم المرسلة إلينا:

الطيارات لا يمكن نقلها إلى ينبع لأسباب عسكرية، وهى التسلط التام على السكة الحديدية. فالرجال العسكريون والطيارون الإنجليز متفقون بأن بقاءها فى محلها أفيد بكثير من نقلها، وفخامة النائب مطمئن إلى ذلك.

سيرسلون من هنا بعد عشرة أيام ثلاثين ألف جنيه إلى الأمير فيصل لعرب الشمال، وهم على وشك ارسال نحو أربعة آلاف بندقية، وقد طلبوا من انجلترا كميات كبيرة من الأسلحة. أما زيادة الراتب الشهرى من الدراهم والدقيق كما تطلبون ففخامته موافق. ولقد أرسل برقية إلى المعتمد بجدة يبين له التعليمات اللازمة بهذا الخصوص، وعند مايتشرف المعتمد قريبا بالمثول بين يدى جلالة الملك فمن الواجب عمل ترتيب قطعى معه بهذا الخصوص وفخامة النائب يطلب التفضيلات والأسباب الداعية لهذه الزيادة لكى يبينها لحكومته فتوافق عليها. ولهذا يجب أن تكون البراهين قاطعة لإقناع الماليين البريطانيين الذين هم بطبيعتهم عسرين كما فى جميع العالم. وقد زاد أنه مقتنع غاية الاقتناع بأن كل

ماطلبناه منهم ليس إلا ضروريا ولا يخطر فى فكره غير خاطر، وأننا وإياهم نعتمد على بعضنا الاعتماد كله، وأن صداقتهم ومعاونتهم ستستمر مدى الأيام.

١٤

وفى يوم ٢٠ منه أرسلت وكالة الخارجية البرقية الآتية إلى المندوب بمصر:

العدو حضر بير الماشى بنصف قواه وحاكميتها على الجهات، فالتمس من فخامة النائب لأجل سلامة المصلحة أن لايعلق انفاذ طلباتنا المؤسسة على تسريع النتائج المرغوبة من كل وجهة ملاحظات الغير، فأنا أعلم بحالة البلاد. وأبسط الأدلة على هذا أنهم لو أسعفونا ببقاد جزء من الطيارات بمعسكراتنا الجنوبية، وقذفهم بعشرة قنابل لسقطوا فى اليوم الثانى وغنمناهم وغنمنا مدة مطاولتهم ومافيها من النفقات والمشاكل بل السلامة من جميع المحاذير الناشئة عن ذلك والمتعلقة بالحياة. فأننا فى أشد الحاجة لقنابل المدافع الصحراوية الواردة من السودان فى الغالب، والمعلوم عيارها عندهم . وقد اضطررنا إلى بعث مقدار الراتب الذى جعلناه للمركز للأمير على، والأمير زيد كرا جمالهم فى الشهر بثلاثين ألف جنيه، فأنه لدى معسكر زيد ثلاثة آلاف جمل، ولدى معسكر الأمير على ألف جمل بالكراء لكل جمل خمسة جنيهات، لتباعدهم عن مركز السوقيات.

١٥

فرد عليها يوم ٢٢ منه بالبرقية الآتية:

يقولون إن القنابل الصحراوية موجود منها فى السويس ١٥٠٠ ستشحن غدا للوجه لارسالهما إلى ينبع لسمو الأمير على، وأنهم أعدوا هذا المقدار لشحنه من سبعة أيام فحصل عطل بالباخرة اضطرهم للتأخير. وهم مستعدون لتقديم كميات أخرى عند الطلب. وكذلك أرسلوا مقدارا مهما من الأسلحة إلى سمو الأمير عبد الله بواسطة الأمير فيصل . والمظنون أن سموه لا يتمكن من إرسال جميع ماوصل إليه من الديناميت لقلة الوسائط النقلية، وسيرسلون فى باخرة الغد ثلاثة آلاف ليترة من الديناميت للأمير فيصل ليرسلها إلى أخيه، وهم مستعدون أن يرسلوا كل شهر من الديناميت بحساب ١٠٠ ليترة فى اليوم.

والكولونيل نيوكمب الموجود فى الوجه متخصص فى هذه الشئون ويقولون إنهم أبلغوا الأمراء أنهم مستعدون أن يقدموا لهم جميع مطالبهم.

تدابير الحلفاء للدفاع عن رابغ

لم تذهب صيحات الحسين فى طلب النجدة والمساعدة من الإنجليز للدفاع عن رابغ وصد الترك فى ما لو هاجموها أو حاولوا الوصول إلى مكة بطريقها سدى، فقد حملتهم على الدرس والبحث واتخاذ بعض التدابير للدفاع عن الجيش العربى وحمايته

ولقد عالج هذه الحادثة الكولونيل بريمون (الجنرال بريمون بعد ذلك) وقد كان رئيسا للبعثة الفرنسوية إلى جدة فى كتابه الحجاز فى الحرب العالمية. قال ماخلاصته:

le hedjaz dans la Gurre mondiale. par General Ed. bremond

«وغادر الأميرال ويمس السويس على أثر وصول أخبار انسحاب الأمير فيصل فبلغ رابغ بالبارحة ايريلادس ومعه قواه. ووصل أيضا إلى جدة الكابتن لورانس فى أول نوفمبر، وكان الأمير على مخيما فى رابغ. أما الأمير فيصل فكان فى بير عباس مع ٨٠٠٠ من جهينة لا يفكر إلا فى الزحف نحو الشمال.

وغادر لورانس الحجاز وهو معارض كل المعارضة لاستخدام الوحدات الأوربية فى جزيرة العرب، مؤكدا أن القبائل تتخلى عن الشريف، وتعدل عن نصرته إذا استعان بالأوربيين. مع أن التجارب التى جربت بعد ذلك فى العقبة جاءت مناقضة لهذا الرأى.

ورافق الكابتن لورانس الأميرال ويمس إلى الخرطوم فعقدوا مجلسا برئاسة السردار أقر المبادئ الآتية:

١ ـ لا يستطيع الجيش العربى فى حالته الحاضرة أن يقاوم حملة صادقة يحملها عليه الترك.

٢ ـ يحتاج الدفاع عن رابغ إلى حامية مؤلفة من ثلاثة أورط، ولما كانت وزارة الحربية البريطانية أبت الأخذ بهذا الاقتراح،س فمن الواجب تأليف فيلق من الجند العربى النظامى المأسور فى الهند.

٣ ـ وجوب انتقال القوى الفرنسوية إلى رابغ.

٤ - وجوب إرسال بعثة الكولونيل نيوكمب بلا ابطاء.

ثم يقول فى مكان آخر من كتابه وعاد الأميرال ويمس بعد ذلك مع خمس بوارج، وأظهر استعداده لانزال الجنود إلى البر عند الحاجة . وأنزل الإنجليز بإغراء السردار قوة من الجنود المصريين بقيادة السيد على باشا، مع بطاريتين من مدافع الجبل المصرية وبلوك استحكام.

ثم جاءوا بأربع طيارات و٤٠٠ جندى مصرى و٢٠٠ بريطانى.

وفى يوم ٢ نوفمبر أبرق السردار السر رجنلد ونجت إلى الكولونيل ويلسن المعتمد البريطانى فى جدة يقول أن فى استطاعة البارحة هاردنج أن تحمل إلى رابغ القوى الفرنسية التى وصلت إلى السويس، فاضطر الكولونيل بريمون رئيس البعثة الفرنسية أن يبرق إليه قائلا (حيث إن فى استطاعة الترك أن يأتوا بجيش لا يقل عن أثنى عشر ألف مقاتل مسلحين بثلاث بطاريات فالقوات الإنجليزية والفرنسوية غير كافية، ولهذا أرى الاحتفاظ برشاشاتنا فى السويس ريثما يتخذ قرار نهائى فى شأنها بين الحكومتين).

وقال الجنرال ليندن بيل Leynden Bell رئيس أركان حرب الحملة المصرية صباح ٥ نوفمبر للملازم الأول سان كنتان saint Qiuetin فى القاهرة إن الباخرة هاردنج تنتظر قرار الكولونيل بريمون فى السويس، فرد عليه هذا بأنه لم يرد منه شيئ من يوم ٢ الجارى فأجابه بأنه يرجوه أن يبلغه قراره حينما يصل إليه.

وفى اليوم نفسه تلقى الكولونيل بريمون بواسطة المسيو ديفرانس معتمد فرنسا بالقاهرة برقية أرسلها القائم بأعمال فرنسا فى لندن بتاريخ ٢ نوفمبر وهذا تعريبها: «لقد بذلت الجهد عند السير إدوارد غراى ملحا بضرورة احتلال رابغ، وبإنزال النجدات الفرنسوية التى أرسلت لمساعدة الشريف مع ضباطها إلى البر. ولما كانت الأخبار الواردة هذه الليلة إلى لندن تدل على تقدم الترك ثلاث مراحل فى زحفهم نحو رابغ، مما أثبت أننى كنت على صواب فى سعيى، وبما أن الأميرال الإنجليزى صرح قبل أسابيع أنه قادر على صد الترك ومنعهم من العبور بما يملكه من قوى فقد سألته الحكومة الإنجليزية عما إذا كان فى استطاعته الدفاع عن رابغ أم لا؟ فإذا رأى أن هنالك حاجة لتدخل الجيش فيجب عليه أن يطلب ذلك من السردار، الذى تلقى أمرا بأن ينزل فى تلك الحالة إلى البر الأقرب إلى رابغ من الوحدات الإنجليزية - السودانية أو الفرنسوية. وسيتفق السردار مباشرة مع

الكولونيل بريمون على التفاصيل، ولم تثر مسألة دخول المسيحيين أو عدم دخولهم إلى الحجاز بوجه من الوجوه. وقد طلب اللورد غراى أن تكون السفن الحربية الفرنسوية على قدم الأهبة لمساعدة الأميرال الإنجليزى فى الدفاع عن رابغ».

وفى يوم ٤ نوفمبر أبرق وزير الخارجية الفرنسوية إلى الكولونيل بريمون رئيس البعثة العسكرية يقول: إنه وافق على الجواب الذى رد به فيما يختص بطلب الرشاشات، وأنه لما كانت الحكومة البريطانية قررت أن تنظم الدفاع فى رابغ على منوال مناسب فترسل جنودا تشد أزرها بوارج حربية. فيجب على البعثة الفرنسوية أن تساعد الإنجليز وتعمل بالاتفاق معهم عند ما يبدأون بتطبيق هذا البرنامج.

وفى يوم ٤ نوفمبر غادرت البارجة الفرنسوية poiuau جيبوتى إلى رابغ وتلتها البارجة entrecasteaug وأمر نائب الأميرال سبتز spitz أن تتولى إحدى هاتين البارجتين وظيفة الخفر فى خليج رابغ»

وفى يوم ٩ نوفمبر أبلغ الكولونيل ويلسن الكولونيل بريمون برقية جاءته من السردار فى الخرطوم بأن الحكومتين الإنجليزية والفرنسوية اتفقتا على أن تقصد رابغ القوات الفرنسوية القادمة من بيزرت، وتلك النازلة فى السويس.

وأبلغ الجنرال لندن بل فى الوقت نفسه هذه البرقية إلى الملازم الأول سان كنتان، فأجابه أنه يفكر فى إبلاغ أوامر السردار إلى قائد نقطة السويس فقال له بأن السردار سينظم هذه المسألة مع رئيس البعثة مباشرة وأبلغ ذلك إلى قائد نقطة السويس أيضا. وعلى أثر ذلك أبرق الكولونيل بريمون إلى السردار يقول إنه لم يتلق الأمر الذى يبلغه إياه، وأنه بعد مايقابل الأميرال ويمس حين مروره بجدة ويتفق معه يصدر الأوامر اللازمة إلى سان كنتان.

وفى يوم ١٤ منه أبرقت وزارة الخارجية الفرنسوية إلى رئيس البعثة بأن يتخذ جميع التدابير اللازمة للتعاون مع الإنجليز، فذهب على الأثر إلى رابغ فبلغها فى الساعة الثامنة من مساء ١٤ منه فوجد فيها بارجة فرنسوية وبارجتين إنجليزيتين. وكانت القوة الإنجليزية المصرية تخيم فى شمالى الميناء بقيادة الميجر جويس. أما قوات الأميرين على وزيد فكانت ترابط بين النخيل منتشرة إلى الشمال والجنوب قرب القوة المصرية.

ووصلت إلى رابغ يوم ١٧ منه القوة الفرنسوية، وقد أبحرت من السويس بالباخرة لا

الإنجليزية، وتتألف من ٨ ضباط و٣٧ جنديا وصف ضابط بينهم ٣ من رجال الصحة وهى بقيادة اللوتنان كولونيل قاضى المسلم الجزائرى.

وقصد الخرطوم الكولونيل بريمون للتعرف إلى السردار، وللاتصال به وللبحث فى الدفاع عن رابغ، فوصلها يوم ١٤ ديسمبر ومعه الكابتن جورج لويد (اللورد جورج لويد) فدارت أحاديث طويلة بين هؤلاء الثلاثة حول التدابير التى يجب اتخاذها للحيلولة دون سقوط مكة المهين للحلفاء ويمكن إجمال القواعد التى دار عليها البحث فى ما يلى:

١ ـ القيام بعمل فى العقبة أو غزة لقطع سكة حديد الحجاز، على أن يقوم الجيش المصرى بعمل عاجل وراء الحدود.

٢ ـ إنشاء حصن فى رابغ لقطع الطريق على الترك.

٣ ـ احتلال الوجه لاتخاذه قاعدة لتخريب السكة الحديد فى منطقة مداين صالح.

٤ – عدم تشجيع العرب على أخذ المدينة. لأن أخذها يعزز فكرة الاتحاد العربى ويقويها مما يضر بمصالح الحلفاء.

وفى يوم ١٩ ديسمبر سافر الكولونيل ويلسن والكولونيل بريمون إلى رابغ فاختارا مكانا لإنشاء مطار عليه، وكانت هنالك الحاجة إلى ٩٠٠ مصرى علاوة على القوى الموجودة والبحارة الذين ينزلون إلى البر عند اللزوم، ويتفاوتون بين الـ ٦٠٠ ـ ٨٠٠ والقوة الفرنسوية التى كانت فى السويس. ولقد رفضت وزارة الحربية الفرنسوية السماح لأورطتين كانتا فى جيبوتى بالإبحار إلى رابغ. وأرسلتا إلى فرنسا بعد ذلك.

وعرض السنيور بيرناباى Bernabei معتمد إيطاليا فى جدة على الشريف أن يقدم أربع أورط من الأحباش، فأجابه بأن يحادث الإنجليز فى هذا الشأن.

وفى يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ وصل السير ريجنلد وينجت سردار الجيش المصرى إلى القاهرة قادما من الخرطوم ليتقلد منصب نائب الملك فى مصر. فقال للمسيو ديفرانس معتمد فرنسا أثناء زيارته له: «إنه وأن كان انتزاع مكة من الترك أثر أثرا غير محمود فى مصر وفى الهند. فأنا من القائلين بوجوب تقديم المساعدة اللازمة للشريف ومن أنصارالرأى القائل بإرسال جنود أوربيين إلى رابغ وإن كان لابد من موافقة الشريف مقدما على إرسالهم» ثم أبدى أسفه لتردد هذا واضطراب موقفه وقال أنه أرسل إليه كتابا

فيه معنى الإنذار ليجيب عليه بلا أو نعم، ومداره هل يوافق على انزال هذا الجند فى رابغ، أم لا. وقال: إنه فى حالة ورود الجواب بالرفض فأنه يرسل هذا الجند إلى مكان آخر ريثما يطلب ثانية. وذكر أيضا أنه يرى بأن إنزال جند، ولو كان قليل العدد فى رابغ يوقد نار الحماسة فى صدور العرب، ويحمل الترك على العدول عن محاولة الدنو منها.

وقد رد الحسين على برقية نائب الملك ببرقية رقمية أرسلت بتوقيع الشيخ فؤاد الخطيب إلى الكولونيل pearson فيها شيئ من الغموض فأبرق هذا إلى القاهرة قائلا أن الحسين قبل إنزال جنود أوربيين فأصدر الجنرال ونجت على الفور أمرا إلى الجنرال موراى بأن يبلغ لواء الجنرال. أ. مــودج A. Mudg وكان قد أعد من قبل للسفر بأن يتحرك. وسأل الجنرال لندن بل الملازم سان كنتان عن القوات الفرنسوية، وهل ستسافر إلى جدة؟ وقال إنها ستكون بقيادة الجنرال مودج، وتنقل معه وتمون بواسطته. فأجاب الكولونيل بريمون يوم ٧ يناير سنة ١٩١٧ قائلا بأن قوات السويس الفرنسوية ستسافر إلى رابغ مع القوات على بوارج إنجليزية، وان الليتو نان كولونيل قاضى سيتلقى الأوامر من الجنرال مدوج مع احتفاظه بالاستقلال الداخلى. وإن الكولونيل بريمون سيحضر بنفسه إلى رابغ للإشراف على حركة النزول والسكنى، وأكد سان كنتان للجنرال مودج أنهم سيعملون كل ما فى امكانهم لإرضائه، وقد وافقت وزارة الحربية الفرنسوية على هذه التدابير فأصدرت التعليمات الآتية:

«تتكون القوات الفرنسوية المتجمعة فى رابغ بقيادة الليتونانت كولونيل قاضى، ويكون هو بإمرة الجنرال مودج».

وتلقى هذه التعليمات الآتية وهى تحدد مهمتهك

١ ـ حماية معسكر الطيران (مطار) رابغ والميناء.

٢ ـ ممنع العدو من الدنو من الماء.

وكانت الخطة التى تصورها نائب الملك تنطوى على إبقاء الجنود الأوربيين فى رابغ للدفاع عنها وإرسال القوى العربية كلها إلى ينبع وتوجيه البدو نحو الخط الحديدى.

وضرب يوم ٩ يناير موعدا لسفر اللواء وكانت الدلائل تدل على أن كل شئ انتهى وتقرر إلا أن وصول الكولونيل ولسن إلى جدة يوم ٨ يناير عائدا من رحلته إلى مصر وقد عرج على ينبع ورابغ جعلهم عن إرسال اللواء. وبيان ذلك أن هذا أقتنع بعد مادرس الحالة

هنالك عن كثب بأنه لا حاجة إلى إرسال جنود وبيين إليها (ولم يك فيها يومئذ أكثر من ٢٠٠ منهم) وقال إن الترك لن يصلوا إليها مطلقا وإن مجئ لواء من الجنود البريطانيين يؤدى إلى حصول اضطراب فأيد بذلك وجهة نظر لو رانس ثم طلب برقية الشيخ فؤاد الخطيب الخاصة بطلب المساعدة وأعاد قراءتها وقال إنها لا تنطوى على الصراحة الكافية ثم رأى الكولونيل ويلسن وبريمون أن يسافرا إلى رابغ فيجتمعا بشيوخ القبائل ويبسطان أمامهم الموقف وطلبا منهم العهود بعدم إحداث أى اضطراب وبالطبع فمثل هذا العمل لا يتسنى القيام به إلا بعد موافقة الملك وتحت إشرافه.

وفى يوم ٩ يناير أبرق نائب الملك إلى الحسين للبت فى مسألة الجنود الأوربيين وكلفه أن يطلب إرسالهم بكتاب خطى وعلى مسئوليته وكانت حاشيته مجمعة على طلب التدخل الأوربى ماعدا الشيخ فؤاد الخطيب.

أما هو (الملك) فكان غير ميال إليه على أن يكتفى بالمساعدة المادية وفى يوم ١١ منه قرر أن يكتب بأنه لاحاجة فى الوقت الحاضر إلى الاستعانة بجنود أوربيين على أن يحتفظ بحق طلبهم عند الضرورة.

وفى يوم ٢٥ منه قررت وزارة الخارجية البريطانية بناء على اقتراح نائب الملك وضع لواء مسلح تحت تصرف الجنرال موارى - انتهى ملخصا عن كتاب الحجاز فى الحرب العالمية بقلم الكولونيل بريمون.

وكتب الدكتور شهبندر وهو يترجم الكولونيل لو رانس عن حوادث رابغ ما ملخصة: «لما تحرج الموقف حول المدينة سافر الكولونيل لورانس (الكابتن لورانس يومئذ) وكان يعمل في مصلحة الاستخبارات الإنكليزية فى القاهرة إلى جدة فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٦ فاجتمع بالأمير عبدالله، وقصد ينبع فاجتمع بالأمير فيصل لأول مرة فى وادى الصفراء على طريق المدينة وكان معه نحو ٨٠٠٠ مقاتل بينهم ٨٠٠ هجان فدرس الحالة ووعد الأمير بارسال الذخائر والسلاح والمال ثم ودعه وسافر إلى الخرطوم فاجتمع بالسردار ثم قصد القاهرة وتداول مع ولاة الأمور البريطانيين فى شئون الثورة العربية ودار البحث حول إرسال لواء من جنود الحلفاء إلى تلك الأصقاع. وكان الكولونيل بريمون رئيس البعثة افرنسوية يصر كثيرا على تنفيذ هذه الخطة ويلح بإرسال قوات فرنسوية وإنكليزية إلى رابغ لاحتلالها فحال لورانس دون ذلك وقدم تقريرا إلى القيادة البريطانية العليا قال فيه إن

القبائل العربية قادرة على الدفاع عن الآكام بين المدينة ورابغ إذا هى اتحفت بالمدافع والنصائح ولكنها على التحقيق تنفض إلى خيامها إذا علمت بنزول الأجانب فسر القائد العام بهذا التقرير وانتهت المسألة بإرسال سلاح ومال وضباط إلى الجيش فى رابغ وتعيين لورانس مستشارا حربيا للأمير فيصل»!

إنشاء الجيش العربى

علي هذا المنوال ختمت المشادة التى قامت بين الحسين والحلفاء بشأن إرسال القوى والمعدات إلى رابغ - وقد استمرت نحو أربعة أشهر، قاسى الحسين فى خلالها من مطل الإنكليز وتسوفهم واختلاف قادتهم وذوى الشأن منهم الأمرين، فقد كان كل واحد منهم يسعى لناحية خاصة كما كان كثيرون منهم يقاومون الثورة العربية ويتمنون موتها، يؤيد ذلك مارواه لورانس فى كتابه وهو أن القائد العام للقوى البريطانية فى مصر لم يكن مؤمنا بالثورة العربية ولا ظهر له أن يبذل المال والرجال والسلاح فى سبيلها وكان يرى أن يوجه جميع قواه إلى ميدان فلسطين الأكبر، وربما كره أن يتدخل نائب الملك وهو رجل ملكى فى الشئون العسكرية، ولاح للناس يومئذ أن الثورة العربية ماتت فى المهد ورأى كثير من ضباط الأركان الحربية البريطانية بمصر فى جميع ذلك سخرية بنائب الملك وقهقهوا فرحا بان يجدوا الحسين نفسه عاجلا على مشنقة الاتحاديين وهم كجنود بسطاء كانوا يشعرون فى نفوسهم بعطف على الترك عطف الزميل على الزميل فلم يكن بمقدورهم أن يردوا الفاجعة والعار فى المسلك الذى سلكوه. وزاد الطين بلة أن البعثة الفرنسوية العسكرية كانت تدس الدسائس على الحسين فى جدة ومكة.

فهذه الاعتبارات جعلت الحسين يعدل عن الاعتماد على الحلفاء عسكريا، وينظر فى إنشاء جيش نظامى يعول عليه فى المهمات وفى مقابلة الخطوب.

ولما كان إنشاء جيش كهذا يحتاج إلى ضباط أكفاء يقودونه، والى جنود يؤلفون نواته فقد دارت المفاوضات بين الحسين وولاة الأمور الإنجليز فى ميدان فلسطين وفى العراق على أن تقدم السلطة إليه مايحتاجه من سلاح ومعدات.

ويؤخذ من المكاتبات التى دارت بين الحسين ومندوبه فى هذا الشأن أن الأول أخذ منذ الشهر الثانى للثورة يلح فى إرسال الضبط والجنود العرب إلى الحجاز للبدء فى

إنشـاء الجيـش وتكوينـه. يـؤيد ذلك البـرقيـة الصـادرة مـن مـكة إلى المنـدوب بمصـر يـوم ١٥ رمضان ـ أى بعد إعلان الثورة بخمسة أسابيع قال:

«بكل إمكان من السرعة تبعثوا لنا ضباطا لتأليف قوة البلاد المنظمة، فإن أمرها أصبح أول شيئ تحتاجه البلاد» ولا ريب أن هذه الجمل القصيرة تترجم عن شعور الحسين فى ذلك العهد وتصف حالته وماكان يعلقه على إنشاء جيشه. ولا نشك فى أنه لو أخذ الإنجليز بيده وسهلوا له السبل والوسائط وأمدوه بما يطلبه من قوى ومعدات لتغير وجه الحرب من السنة الأولى ولا تفت بلاد العرب كثيرا من المصائب. بيد أن سيرهم الملوى وترددهم بل وعدم إخلاصهم حال دون اتساع نطاق الأعمال العسكرية وتأليف الجيش القوى المطلوب.

وتدل الوثائق التى نشرت حتى الآن أن أول قافلة من الجنود العرب غادرت السويس يوم ٢ شوال سنة ١٣٣٥ (أول أغسطس سنة ١٩١٦) كانت تتألف من ٧ ضباط هذه أسماؤهم: نورى بن سعيد البغدادى، ومحمد حلمى البغدادى، وراسم سردست الدمشقى ورؤوف عبد الهادى النابلسى وابراهيم الراوى وجميل الراوى البغداديان ورشيد الهاشمى البغدادى وعدد من الجنود. وسافر معها أيضا الدكتور أمين المعلوف اللبنانى ومعه مستشفى كامل لمائة جريح مع جميع اللوازم و٥٠ خيمة.

وأرسل الإنجليز إلى جدة فى الباخرة التى أقلت هؤلاء ٤٥ طن أرز ومثلها من الدقيق و٥ أطنان سكر وألفين بندقية و ٢٣٣٠٠٠٠ قذيفة (البنادق والقذائف لينبع) و٣٠٠ بغلة للنقليات و٢٦ حصانا لجر المدافع.

عزيز على المصرى وانسحابه

وغادر عزيز بك على المصرى القاهرة يوم ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ إلى جدة لمقابلة الحسين، وليتولى إنشاء الجيش النظامى الجديد، ولم يطل الإقامة فى مكة. بل سافر إلى رابغ ـ حين اشتداد الأزمة ـ وكان فيها نورى السعيد وإبراهيم الراوى وحلمى البغدادى وجميل الراوى فقد جاءوها يوم ١٥ شوال من مكة بعد مقابلتهم الحسين وبدأوا بالعمل ثم تتابع وصول الجند والضباط والمعدات. فأنشأوا بادئ ذى بدء فوجين من المشاة، وفوج رشاش وبطارية مدافع.

ووفق عزيز بك على ومن معه إلى إنشاء قوة قوية لا يستهان بها نالت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، ودلت على نشاط العرب وذكائهم. وقد اشتركت هذه القوة فى المعارك التى دارت حول المدينة. غير أن حادثا حدث لعزيز بك بعد انقضاء ثلاثة أشهر من وصوله جعله ينسحب من العمل ويعود إلى مصر.

والذى عليه الأكثرون أن السبب الحقيقى لانسحابه هو خلاف سرى نشب بينه وبين الإنجليز. فقد ألح على الحسين فى أن يطلب من هؤلاء إرسال المدافع التى غنموها من الترك فى ميدان فلسطين قائلا: إن عندنا طائفة من المدفعيين تحسن استعمالها، ولما طال المطال ولم يرسلوا شيئا قال مامعناه: يلوح لى أن الإنجليز يريدون القضاء على العرب والترك فى وقت واحد، وذلك بأن يتركوهما مهملين حتى يفنوا بعضهم بعضا فلا هم يرسلون لنا القوى والمعدات لنضرب الترك الضربة القاضية ونحتل المدينة، ولاهم يتركوننا وشأننا فيقضى الترك علينا ونرتاح وينفردون بالعمل وحدهم. والظاهر أن هذه الأقوال نقلت إلى الحسين والإنجليز. فألح هؤلاء على الحسين فى طلب إقصائه منتحلين لذلك بعض الأعذار. فأرسل تعليمات سرية إلى الأمير على.فى رابغ بأن يوعز إليه بأن يطلب أجازة، فأدرك هذا مايجرى فى الخفاء، فتقدم بنفسه لطلبها وعاد إلى مصر، بعد ما أتم إنشاء ثلاثة أفواج من المشاة وثلاث بطاريات مختلفة الحجم وفوج هجانة وبلوك مهندسين، فحل نورى السعيد محله فى رئاسة أركان الجيش، كما حل محمود القيسونى محله فى رئاسة الجند بمكة (وزارة الدفاع) وقد قلدها على أثر إنشاء الحكومة فى مكة.

وبنما كان عزيز على ونورى السعيد وإخوانهما ينشئون الجيش فى رابغ كان مولود مخلص الموصلى وعبد الله الدليمى وراسم سردست يعملون فى تأليف نواة جيش نظامى فى ينبع. .فتولى الأول تنظيم قوة الخيالة، والثانى المشاة، والثالث المدفعية، وقد انبثقت هذه النواة عن الجيش الشمالى الذى اتجه إلى العقبة والشام وظل يتقدم حتى حلب.

الوضع الجديد للجيوش العربية

غادر الأمير عبد الله الطائف قاصدا ميدان القتال للاشتراك فى المعارك الدائرة حول المدينة، فسلك الطريق الشرقى، وظل فى تقدمه من دون أن يمر بمكة حتى بلغ وادى العيص، فحط فيه رحاله واتخذه معسكرا لجيشه، وبدأ العمل. فأصبح للعرب

حول المدينة ثلاثة جيوش:

١ ـ الجيش الشمالى بقيادة الأمير فيصل، ومقره حوالى بير درويش (غربى المدينة) ومهمته الرئيسية مشاغله جيش فخرى باشا ومنعه من بلوغ ينبع.

٢ ـ الجيش الجنوبى بقيادة الأمير على، ومقره رابغ ومهمته منازلة الترك، ومنعهم من الزحف إلى مكة.

٣ ـ الجيش العراقى بقيادة الأمير عبد الله، ومقره فى العيص ومهمته منازلة العدو وتخريب السكة الحديد بين الشام والمدينة.

وتولى الجيش الأول وحده منازلة الترك فى ابتداء الثورة، لأن الأمير عبد الله كان منهمكا فى حروب الطائف، كما كان الأمير على منهمكا فى حل مشكلة ابن مبيريك، يضاف إلى هذا أن ينبع أقرب الأماكن إلى المدينة، فلذلك انصب عليها فخرى باشا بقواته محاولا بلوغها وضرب الجيش الشمالى وتمزيقه ثم الزحف إلى مكة بطريق رابغ على المنوال الذى وصفناه فيما تقدم. بيد أن استسلام الطائف السريع، ووصول الأمير عبد الله إلى ميدان القتال وتتابع وصول الإمدادات والنجدات ونفرة العرب من داخل الجزيرة لتأييد الحركة الجديدة، فت فى عضد فخرى باشا، وأضعف قواه الأدبية. ففضل البقاء فى المدينة وعدم التورط فى حرب لا يعرف نتائجها.

جيش الأمير على فى الميدان

عاد جيش الأمير على إلى النضال فى شهر ربيع الأول بعد ما أكمل معداته فى رابغ فتحرك يوم ٢٢ منه قاصدا غدير أبو عوف، فتراجع الترك أمامه وجلوا عن سفح الغاير وعسكروا بين المحز وآبار على. تاركين ساقتهم فى بئر روحانا، واشتبكت طلائع هذا الجيش صباح ٢٧ منه بقوات للترك قرب بير الناجم. فدار قتال شديد بين الفريقين اسفر عن انهزام هؤلاء وطردهم من أماكنهم الحصينة فى «المحز» فتقدم الجيش حتى بئر عباس فعسكر فيها. ثم ارتد إلى قاعدته فى رابغ لاعتبارات محلية. على أنه عاد يوم ٢٧ ربيع الثانى فاحتل بئر عباس واتخذها قاعدة له. وقد هنأ نائب الملك فى مصر الحسين بانتصار جيشه فى هذا الميدان.

ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة أن الأمير عليا قضى سنى الحرب كلها فى ميدان القتال حول المدينة، ولم يعد إلى مكة إلا فى أواخر سنة ١٩١٩ ـ أى بعد غياب زاد عن أربع سنوات فقد. غادرها فى سنة ١٩١٥ ذاهبا إلى المدينة المنورة لقيادة حملة المتطوعين المرسلة إلى قناة السويس. وأصيب بالحمى فى رابغ سنة ١٩١٦ واشتد عليه المرض. فكتب أحد رجاله إلى والده يبلغه خبر مرضه، فأرسل إليه أنه يبرأ منه، ولا يسمح له بدخول مكة إذا عادا إليها مع أنه ماكان يفكر بالرجوع مطلقا، وما يقال عن الأمير على يقال عن أخيه فيصل. فأنه لم يعد إلى مكة بعد خروجه منها فى أوائل سنة ١٩١٦ لينضم إلى جمال باشا إلا فى أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢١ ـ أى بعد ست سنوات. وكان فى طريقه إلى البصرة.

* * *

وينوه الكولونيل بريمون فى كتابه «الحجاز فى الحرب العالمية» حين بحثه الأعمال العسكرية التى عملت فى خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩١٧ (ربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى سنة ١٣٣٥) بالتقدم المشهود فى أعمال العرب العسكرية. ويقول إن قواتهم كانت تتألف كما يأتى:

١ ـ جيش الجنوب ويقوده الأمير على ومعه الأمير زيد ويعسكر فى رابغ

٢ ـ جيش الوسط أو الجيش الشرقى، ويقوده الأمير عبد الله، وكان يرابط فى جنوب المدينة الشرقى.

٣ ـ جيش الشمال بقيادة الأمير فيصل ومقره ينبع ـ الوجه

ولقد تحرك الأمير على نحو يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩١٧ بإلحاح الملك وإصراره، فسار حتى أبو دهيبة الواقعة على بعد ٧٠ كيلو مترا من رابغ، وألقت الطيارات الإنجليزية القنابل على الترك بنجاح أثناء تقدمه. وجاء فخرى باشا بعشر أورط ليحول دون سيره. وأغار البدو من أتباع هذا الجيش على الترك، فوصلوا حتى بيار على وعادوا بنحو ستين تركيا أسرى. وجاء الأمير على يوم ٢٣ منه فعسكر فى بير العبد وفى يوم أول فبراير (شباط) ألقت الطيارات التركية القنابل على معسكره. وفى يوم ٥ منه زحف الأمير زيد فتقدم ٢٠ كيلو متر إلى الأمام، فلم يصادف أحد، من الترك الذين جلوا عن هذه الأراضى. وعاد الأمير على إلى رابغ يوم ١١ منه فأعد حملة جديدة من مكيين وبيشه وبدر وغيرهم بلغ

عددها ٤٨٠٠ ومعها سبعة مدافع و ٧ رشاشات وسار بها يوم ٢٧ فبراير سالكا الدرب السلطانى وواصل الأمير زيد عمله فاستولى على الأماكن المجاورة للمحز.

وكانت الطيارات البريطانية الأربع بقيادة الميجر روس (ROSS) ترافق حملة الأمير فى تقدمها، وقد طارت ثلاث منها فوق المدينة وصورتها بالفوتوغرافيا. ولم يبق بأيدى الترك بعد ذلك سوى بير الماشى وبير درويش المحيطين بالسكة الحديد الواقعة فى الشمال الشرقى.

وبلغ جيش الأمير على بير عباس يوم ١٠ مارس. وقذفت الطيارات التركية وعددها ثلاث معسكر الأمير زيد، وبلغ البدو فى غاراتهم أبواب المدينة، وعادوا بكثير من الأسرى. فكان هذا أول انتصار باهر ناله العرب. وقد بلغت خسارة الترك فى هذه المعارك ١٢٥ قتيلا وجريحا و١٧ أسيرا بينهم ضابطان، وقتل عربيان وجرح ١٠.

وخندق الترك وراء حصونهم، ولم يتحركوا حركة ما، وكان البدو يتوارون وراء الصخور فى الجبال ويطلقون النار على أماكن الترك من الصباح حتى المساء. وفى يوم ٢٧ مارس ضرب الأمير على مخيمه فى بير درويش، ولم تقع بعد ذلك معارك ذات شأن. نعم إن العرب وجهوا عنايتهم للاستيلاء على بير الماشى الحصين ويؤلف جزءا من خط الدفاع عن المدينة فحشد فخرى باشا جميع قواه فيه تاركا المدينة بلا حامية، فارتد الأمير زيد إلى المحز، كما ارتد الأمير على وهو يقاتل إلى الدرب السلطانى.

الأمير عبد الله فى الميدان

وغادر الأمير عبد الله الطائف فبلغ الخانق فى أوائل شهر ديسمبر سن ١٩١٦ وهى فى جنوبى المدينة. وقد أثر تقدمه فى القبائل التى كانت موالية للترك فحملها على تغيير موقفها، وشتت كتيبة تركية كانت فى نخلة جنوبى المدينة، وغنم منها مدفعا و ٣ رشاشات. ثم اجتاز بجيشه السكة الحديد، وعسكر فى وادى العيص فارتد الترك إلى جبل أحد، وقد أحكموا تحصينه.

والتقى رجال الأمير يوم ١٣ يناير (١٩ ربيع الأول) بعصابة القائمقام أشرف بك التركى، فى مكان يبعد بيومين عن محطة أبى النعم فدار بينهما قتال شديد انتهى

باستسلام العصابة، وكانت تحمل ٢٥ ألف ليرة عثمانية ذهبا إلى اليمن فأمر الأمير بتوزيعها على رجاله، وأسرا أشرفا رئيسها وقائمقام آخر و ٢٤ جنديا وضابطا.

وضرب الأمير مخيمه يوم ١٩ يناير فى معربا (وادى العيص).

الزحف نحو الشمال

فى صباح ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ أطلقت البوارج البريطانية ايرلوت ودفرين وفوكس قنابلها على الوجه، وأنزلت على مسافة ٣ أميال منها ٢٥٠ بحريا إنجليزيا و ٥٠٠ جندى عربى حملتهم من ينبع. فدارت بينهم وبين الترك المتحصنين فى خنادق قوية معركة حامية انتهت بانسحاب هؤلاء وارتدادهم إلى مسافة ٦ أميال تاركين ٧٠ قتيلا وجريحا و١٠٠ أسير ومدفعين و٤٠٠ بندقية. و إليك نص البيان الرسمى الذى نشرته الوكالة العربية بمصر فى هذا الشأن:

«سقطت مدينة الوجه فى قبضة جنودنا العربية بعد معركة عنيفة دافع فيها الترك دفاع المستميت ثم فرت جنود الأعداء لا تلوى على شيئ تاركة بين أيدينا ٨٠ أسيرا وعددا من القتلى والجرحى . وقد جدت جيوشنا فى اقتفاء أثرهم، ولا تزال تضرب فى أقفيتهم وتقهقر الترك لا يلوون على شيئ».

وغادر الأمير فيصل ينبع يوم ١٤ فبلغ الوجه فى ١٥ منه ومعه الكابتن لورانس والكولونيل نيو كمب و ٣ آلاف هجان و٤ مدافع و ١٠٠ رشاشة وفى يوم ١٠ ربيع الثانى (١١ فبراير) استولى العرب عنوة على المويلح وضبا وأسروا أسرى وفر الترك إلى شوك.

وفى يوم ١٧ مارس نقل مطار رابغ إلى وجه، وبدأوا من يوم ٢٠ فبراير بمهاجمة محطات سكة حديد الحجاز. وفى الوجه انضم جعفر باشا العسكرى إلى جيش الشمال وعين قائدا عاما للقوات النظامية، وعين نورى السعيد رئيس أركان حرب له.

واضطر الترك على أثر اتساع ميدان القتال وانتقاله من الحجاز إلى صحراء الشام وظهور العرب حول محطات السكة الحديد الممتدة فى هذه الصحراء إلى اتخاذ تدابير جديدة على طول هذا الخط فقسموه إلى ثلاث مناطق: منطقة العلا، وتولى قيادتها اللواء بصرى باشا محافظ المدينة القديم، ومنطقة تبوك، وتولى قيادتها القائمقام عاطف بك،

ومنطقة معان وتولى قيادتها اللواء محمد جمال باشا وقد جاءوا به من أزمير وتولى الفيلق الثامن المحافظة على القسم الممتد من معان إلى درعا، ويقوده الفريق جمال باشا الصغير.

وكانت قوات الجيش الشمالي النظامية فى أول سنة ١٩١٧ تتألف من: سرية هجانة، وسرية بغالة، وبطارية مدافع مؤلفة من ٤ مدافع: مدفعي جبل مصريين، ومدفعي صحراء، وسرية رشاشات، وفوج عدده ٣٠٠ جندى نظامي.

وكانت قوى الجيش الجنوبي النظامية تتألف من ثلاثة أفواج مشاة وفوج هجانة وفوج رشاش (١٦ رشاشة) وبلوك مهندسين، وبطارية أوبوس انجليزية، وبطارية جبلية وفصيل مدافع صحراء، وفصيل مدافع جبلية وعين نورى الكويرى لرئاسة أركان حرب هذا الجيش على أثر انتقال نورى السعيد إلى الجيش الشمالي لخلاف نشا بينه وبين محمود القيسوني (وزير الحربية).

حروب المحطات

وألف الجيش الشمالي على أثر نزوله فى الوجه سرايا كبيرة للغارة على المحطات، فكانت سرية سرية الشريف شرف بن راجح تتألف من قوة البغالة ومدفعين جبليين وأربع رشاشات مع مفرزة التخريب، ويعززها نحو ألف هجان من قبائل البدو. فأغارت هذه السرية فى أوائل مارس على قلعة المعظم، وكانت حاميتها التركية مؤلفة من فوج مشاة و٦ رشاشات، ومدفعين وخيالة، وبعد التراشق بالمدافع، وكان الترك قد استعدوا للقاء العرب وأحكموا مواضعهم صدر الأمر لهؤلاء بالهجوم فمشت القوات النظامية إلى الأمام بقيادة قائدها مولود مخلص تحت نيران العدو، واضطرته إلى التراجع واخلاء خنادقه الأمامية - والالتجاء إلى داخل القلعة. بينما كانت مفرزة التخريب المجهزة بالديناميت تواصل نسف الخطوط. ولم يشترك البدو فى هذا الهجوم، ولم يتسن للمدفعية العربية هدم القلعة ولم توفق إلى حماية الجنود حين هجومهم على القلعة، فاستهدفوا لنيران العدو الشديدة، وعند الظهر تلقوا أمرا بالتراجع فارتدوا تاركين ١٢٥ قتيلا وجريحا، كما أصيب قائدهم بجرحين وكسرت يده اليسرى وقتل أحد ضباطه وجرح معظمهم.

وفى أواخر يوليو أعد الجيش سرية كبيرة بقيادة جعفر العسكرى تتألف من اللواء الهاشمي (فوج البغالة) بعد توسيعه بمن انضم إليه من الأسرى العرب فصار يتألف من

فريق من قادة الجيش العربى


عزيز المصرى


نورى السعيد


جميل المدفعى


جعفر العسكرى


على جودة الأيوبى


مولود مخلص

٢٠٠ بغالا و٢٠ خيالا و١٥٠ هجانا ورشاشتين ثقيلتين و٨ رشاشات خفيفة (وكان بقيادة مولود مخلص) ومن مدفعين جبليين، ومن سريتى رشاشات ثقيلة (٨ رشاشات) ومن فوج مشاة ومن مفرزة التخريب، فوصلت هذه السرية بعد منتصف ليل ٣٠ يوليو إلى محطة زمرد، وكان الترك قد سيروا سرية من فوجى مشاة وسرية رشاشات ومدفعين لطرد مفرزة الكولونيل نيوكمب (وكانت مهمتها نسف الخطوط والقطارات وتعطيلها) فاشتبكوا مع القوات العربية ودار قتال عنيف بين الفريقين، فاضطر جناح العرب الأيمن إلى التوقف لشدة نيران العدو، وثبت الجناح الأيسر المؤلف من اللواء الهاشمى وحمى الجناح الأيمن وحمل العدو على التراجع . بيد أن وصول نجدات لهذا جعله يعدل عن خطته، ويحاول تطويق اللواء الهاشمى وكان يزحف إلى الأمام فانتبه قائده إلى هذه الحركة، وقابل حركة الالتفاف بمثلها فقد أعد على الفور قوة صغيرة سلحها برشاشتين خفيفتين وأربعة ثقيلة ـ وقادها بنفسه وحمل بها على الترك لإحباط خطتهم، وأصلاهم نارا حامية. تاركا قيادة القوى الباقية إلى وكيله فتراجعوا أمامه وظل القتال دائرا حتى غروب الشمس، وعند المساء أصدر جعفر العسكرى أمرا بالانسحاب لنفاد الماء، فاقترح عليه مولود المخلص استئناف الهجوم على الترك لاحتلال الجبال المطلة على الآبار، وقال إذا عدنا من دون أن نشرب ونروى خيلنا فمصيرنا إلى البوار والهلاك. لأن الماء يبعد عنا مسيرة يوم واحد فوافقه على رأيه فحمل الجند على الآكام والجبال فاحتلها. كما استولى على آبار الماء فشربوا وسقوا الخيل وعند منتصف الليل ارتدوا نحو الجديدة وكانت مقر قيادة الجيش الشمالى بدلا من الوجه، وبلغت خسارة العرب فى تلك المعركة الحامية ٥٠ جنديا بين قتيل وجريح.

احتلال العقبة

وفى أوائل شهر يوليو سنة ١٩١٧ سير الجيس الشمالى سرية بقيادة الشريف ناصر إلى معان والعقبة لتخريب الجسور والمحطات، وازعاج الترك فقامت بعملها خير قيام، سيما بعد أن أنضم إليها عوده أبو تايه شيخ قبيلة الحويطات. فهاجمت محطة معان وشتتت شمل القوى التركية المرابطة هنالك

وفى يوم ١٩ رمضان (اغسطس سنة ١٩١٧) وصلت هذه القوى إلى العقبة

فاستولت عليها حربا، وأسرت حاميتها التركية المؤلفة من ٧٢٠ جنديا و ٣٠ ضابطا يقودهم أمير آلاى وغنمت مدفعين. وبلغت خسارة الترك فى معان والعقبة نحو ٦٠٠ قتيل وجريح.

وقرر الأمير فيصل على أثر هذا الفوز الانتقال إلى العقبة، وسير على الفور رشيد المدفعى مع ٥٠٠ جندى جئ بهم حديثا من الأسر مع تجهيزاتهم وملابسهم العسكرية فلبسوها فى البواخر، وتم نقل الجيش الشمالى كله على الأثر واتصل برا بالجيش البريطانى فى فلسطين.

وفى أوائل شهر شوال احتل الجيش الكويرة مواصلا الزحف إلى الأمام، وفى منتصف شهر شوال سير سرية لغزو محطة تبوك. فعادت بجملة أسرى بعد ما دمرت جانبا من السكة، واستولت سرية أخرى من سراياه على قلعة مطران، وأسرت ٤٥ أسيرا تركيا بيهم ثلاثة ضباط.

انتصار وادى موسى

وأعيد تنظيم القوى النظامية فى العقبة على منوال جديد. سيما بعد ما تتابع وصول الأسرى من الجنود والضباط العرب، فصارت تتألف من فرقتين مشاة تتألفان من أربعة ألوية:

لواءا العقبة الأول والرابع ومقرهما العقبة، ولواء الكويرة واللواء الهاشمى، ويتألف اللواء من فوجين، والفوج من ٥ سرايا (بلوكات) مع سرية رشاشات. ولواء مدفعية وفوج نقليات وفيه ١٥٠٠ جمل ووحدة هجانة، وهكذا تضاعف عدد الجند النظامى.

وقد وزعت هذه القوى فى أوائل احتلال العقبة على المنوال التالى:

يؤلف اللواء الأول القوة الاحتياطية. ويظل فى العقبة. ويرابط اللواء الثانى فى الكويرة، ويحتل اللواء الهاشمى وادى موسى (البطراء). وقد نفذت هذه التعليمات بلا صعوبة. فأزعج ذلك الترك وأقلقهم. فجهزوا حملة عسكرية كبيرة زحفت إلى وادى موسى فى أوائل شهر ذى القعدة لاحتلاله فصدمها اللواء صدمة شديدة، واستمر القتال بين الفريقين ثلاثة أيام حمل فى نهايتها اللواء على الترك فمزقهم وكسرهم شر كسرة. مع أن عدد جندهم كان يزيد على عدده أضعافا مضاعفة، وقاد الحملة التركية ـ وقد سارت من معان ـ اللواء محمد جمال باشا بنفسه.

وجدد الترك الحملة فأعدوا سرية تتألف من كتيبتى بغالة، ومدفعين وسرية رشاشات سارت من معان للقيام بأعمال الاستطلاع ولسبرغور القوتين العربيتين فى واد موسى والكويرة، وكان الجيش العربى قد أعد سرية فى (المريفة) بقيادة مولود مخلص قوامها فوج مشاة (٤٠٠) وسرية رشاش ورعيل من الخيالة فالتقت السريتان فى المريفة (أواخر نوفمبر سنة ١٩١٧) ودار قتال بينهما فى عين وحيدة انتهى بارتداد الترك وانسحابهم، ثم استؤنف القتال وصال العرب على الترك. فجلوا عن هذه مرتدين إلى سمنة ومعان نفسها فعزز احتلال هذه مركز الجيش العربى، فأخذ يغير على أطراف معان، ويضايق الترك فأعدوا قوة جديدة فى أواسط شهر ديسمبر تتألف من كتيبتى بغالة وفوجى مشاة وبطاريتى مدافع فقابلتهم السرية العربية نفسها وصدمتهم، فارتدوا إلى سمنة والمسافة بينها وبين عين وحيدة ٨ كيلو مترات.

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ انتقل مقر الجيش الشمالى من العقبة إلى الكويرة وفيها أعد سرية من اللواء الهاشمى وهجانة الشريف ناصر بقيادة نورى السعيد سارت إلى الجفر، وفيها انضم إليها عودة أبو تايه برجاله، وكان ينزلها فحملوا جميعا على محطة جروف الدراويش (بين عمان ومعان) فدمروها وأسروا حاميتها التركية المؤلفة من ١٠٠ جندى، وغنموا مدفعا ودمروا قطارا كاملا كان يحمل ميرة إلى المدينة.

معارك الطفيلة ومعان

وأعد الجيش الشمالى حملة بقيادة الأمير زيد تتألف من هجانة الشريف ناصر ومدفعين جبليين ورشاشتين وكوكبة خيالة و ٦٠٠ من قبائل الحويطات فزحفت إلى الطفيلة لاحتلالها ومشاغلة الترك شرقى نهر الأردن لتخفيف العبء عن الجيش البريطانى، وكان يحار فى غربة، فاحتلتها فى أوائل شهر فبراير بدون مقاومة تذكر، فأعدت القيادة التركية العليا فرقة عسكرية كاملة بقيادة الأمير آلاى حامد فخرى لاستردادها وطرد العرب من تلك الأنحاء لما لمقام الطفيلة من شأن عسكرى كبير. واتصل هذا النبأ بالأمير زيد قائد القوى العربية فى الطفيلة. فاستنجد بقبائل الكرك العربية فانجدته، وجاءه رؤساء القبائل بالذات، ووصلته نجدات من الكويرة. وفى أوائل شهر مارس حملت الفرقة التركية على العرب فصمدوا لها ودار قتال عنيف استبسل فيه الفريقان، وانتهى بتمزيق الفرقة التركية شر ممزق وقتل قائدها وهيئة أركان حربه وعدد من ضباطه، وغنم العرب مدفعين من المدافع

السريعة الطلقات و ٢٢ رشاشة و ٢٠٠ دابة وأسروا ٣٠٠ جندى.

وفي منتصف شهر مارس أعد الترك حملة كبيرة لاسترداد الطفيلة قادها محمد جمال باشا بالذات أيضا، ففازت باسترجاعها على أنها ما لبثت أن جلت عنها.

وانتقل مقر الجيش الشمالى من الكويرة إلى أبى اللسل فى تلك الأيام مشايعا للجند فى زحفه.

وحدثت حادثة فى أوائل شهر إبريل تستوقف النظر وتدل على انتشار روح القومية فى صدور رجال الجيش، وعلى يقظتهم، وتثبت أنهم كانوا يحاربون لاستقلال العرب لا لغاية أخرى. وبطل هذه الحادثة اللواء مولود مخلص (قائد الفرقة العربية الأولى يومئذ) فقد أبى تنفيذ أمر أصدرته إليه القيادة بمهاجمة محطة فصوعة الواقعة جنوب معان، وقال يجب علينا بعد الآن أن نولى وجهنا شطر الشمال (شطر بلاد الشام) لخدمة قضيتنا الوطنية، والعمل على تحرير إخواننا. وغنى عن البيان أن مولود باشا ـ وقد قص هذه القصة بنفسه على مؤلف الكتاب خلال اجتماعهما فى بغداد سنة ١٩٣٣ ـ أراد تحدى الضباط الإنجليز فى المعسكر، وهما لورانس وجويس، وقد كانا يعملان جهدهما ليوجها الجيش العربى نحو الجنوب (أى نحو الحجاز) ولصرفه عن التقدم نحو بلاد الشام والتوغل فيها طبقا لتعليمات حكومتهما.

ووضع مولود باشا وإخوانه على الأثر مضبطة بمعنى ما تقدم رفعوها إلى الأمير طالبين أن يولى الجيش وجهه نحو الشمال، تاركا قوة كافية لحصارمعان ريثما تسقط جوعا كما فعلوا فى ميدان المدينة من قبل فيخدمون بذلك القضية الوطنية التى جاءوا للموت فى سبيلها.

ولما وصلت المضبطة إلى القيادة أمرت بتنحية مولود عن العمل، لأنها اعتبرت عمله خروجا على التقاليد والنظم العسكرية . وأعدت قوة لمهاجمة محطة فصوعة عملا بالأمر الصادر قادها جعفر العسكرى بنفسه، ولكنها لم تكد تغادر أبا اللسل حتى هبت عليها عاصفة شديدة تلتها أمطار غزيرة فتاهت فى الصحراء وتشتتت وهلكت دوابها، واتصل ذلك بمقر القيادة، فأرسلت السيارات والجند لانقاذها فعاد رجالها بعد عناء شديد من دون عمل، فكأن الطبيعة أرادت أن تشارك الضباط فى غضبهم . وماهى إلا أيام حتى أفرج عن مولود باشا وأعيد إلى قيادة فرقته، وصدر إليه الأمر بأن يستعد للهجوم على معان، وكان الضباط الإنجليز يسمونها فردون العرب.

وفى منتصف شهر إبريل أعدت سرية بقيادة عبد الله الدليمى تتألف من قوة من مشاة الفرقة الأولى ومدفعين جبليين وبعض رجال الحويطات للهجوم على محطة دار الحج الواقعة جنوب معان، ولما اقتربت منها أرسلت جنديا وعريفا للاستطلاع فباغتهما الترك وقتلوا الأول وجرحوا الثانى وقادوه مجروحا إلى داخل المحطة، وهاجمت السرية المحطة واستولت عليها وأسرت حاميتها، ولما رأت العريف العربى مذبوحا قتلت جنديين تركيين انتقاما له. وكتب قائدها إلى قائد الجيش التركى فى معان ينذره بقتل أسرى الترك إذا عادوا إلى ذبح الأسرى العرب، ويقول له «عندنا كثير من أسراكم، ولا يوجد أسير واحد منا عندكم».

معارك الطفيلة ومعان

ولما تمت الاستعدادات لمهاجمة معان، صدر الأمر إلى الفرقة العربية الثانية بأن تتظاهر عسكريا أمام محطة الجردونة، لتحول بين قواها، وبين الانضمام إلى حامية معان حين الهجوم على هذه، فقامت بمهمتها، وهاجمت المحطة يوم ٢٢ إبريل، وفى صباح ٢٤ منه تقدمت الفرقة الأولى بقيادة مولود باشا لاحتلال تلول السمنات الواقعة غربى معان، وكان اللواء الأول يؤلف مقدمة الجيش المهاجم، فشرع بالهجوم على خط الترك الأول من صباح ٢٥ منه وأصلت المدفعية العربية الترك نيرانا حامية، فتقدم الجند تحت حمايتها فاحتل بعد عناء سلسلة تلول السمنة، وهى واقعة غربى معان وتبعد عنها كيلو مترا وتسيطر عليها. وقد حصنها الترك من قبل، ولما رأى قائد الفرقة تقهقر الترك شهر حسامه ونادى برجاله وتقدم لمطاردة المنهزمين وكانوا متجهين نحو معان، وكان يظن أن سقوطها أصبح قريبا، ففاجأته قوة تركية بينران شديدة من خنادقها فأصيب برصاصها وكسرت رجله فنقله جنده على الفور إلى مقر الجيش، ومنها أرسل إلى القاهرة للمعالجة.

وأصلى الترك من مواقعهم الحصينة فى معان العرب نيرانا حامية، لكى يزحزحوهم فثبتوا، وأخذوا يعدون العدة لاستئناف الهجوم، وكانوا يترقبون وصول الفرقة الثانية من محطة الجردونة ـ وقد تكللت مهمتها بالنجاح التام فدمرت المحطة وأسرت الحامية – وعادت مثقلة بالغنائم فعهد إليها بالهجوم من جناح الفرقة الأولى الأيمن (أى من جنوبى غربى معان) وكان الأميران فيصل وزيد فى تلول السمنات يشرفان على الأعمال العسكرية.

وحمل الجيش العربى على أماكن الترك الحصينة أصيل يوم ٢٧ إبريل بعد ما أصلتهم

مدفعيته نيرانا حامية، وتقدم المشاة ـ ولم يشترك أحد من رجال القبائل فى هذه المعارك، لأنهم لم يألفوا الهجوم على الحصون ـ فطردوا الترك واحتلوا خط الدفاع الثانى عند العشاء، وقضوا فيه ليلتهم وكرروا الهجوم فى الغد عند الأصيل على خط الدفاع الثالث، واشتد القتال، وامتد حتى المساء وانتهى بفوز المشاة العرب واحتلالهم الخط الثالث فقضوا فيه ليلتهم.

وجزع الترك واضطربوا وعقدوا فى الليل اجتماعا قرروا فيه الاستسلام للعرب ـ وما كانت حامية معان تقل عن فرقة عسكرية ـ لعجزهم عن المقاومة. ولما شاع ذلك بين السكان أقبلوا على التطوع فى صفوف الترك فسلحوا نحو ٥٠٠ منهم شحنوهم فى خط الدفاع الرابع[1] وعززوهم به، ولقى الجيش العربى صعوبة وعناء فى الغد حين حملته على هذا الخط ودام القتال حتى الليل. فأصدر القائد أمرا بارتداد الجيش إلى خط الدفاع الثانى، لأن الترك تلقوا نجدات فى ذلك اليوم، ولأن قنابل المدافع نفدت. وفى ٣٠ إبريل ارتد الجيش إلى عين وحيدة. وبلغت خسارة العرب فى هذه المعارك ١٠٠ قتيل وجريح. وإليك ما كتبه مولود مخلص عن حروب سمنة ـ معان قال:

«أصدر سمو الأمير المعظم أمره بالتأهب للزحف على سمنة واحتلالها بالقوى العربية وهى اللواء الأول من الفرقة الأولى، ويتألف من فوجى مشاة (٦٥٠ ـ ٧٠٠ محارب) بقيادة تحسين على، ومن سريتى رشاش و٤ مدافع صحراء ومثلها جبلية، ومدفعين هوجيكس بقيادة جميل المدفعى ومانيوف عن ٤٠٠٠ مجاهد من العشائر».

«وصدرت الأوامر فى اليوم التالى بأن ينضم اللواء الثالث للفرقة الأولى مع سريتى رشاش و ٤ مدافع جبلية مصرية، وعدد غير يسير من أبناء القبائل إلى القوة الأولى، وكان هذا اللواء قد تحرك قبل ٣ أيام بقيادة نورى السعيد إلى جنوب معان لتخريب السكة الحديد والمحطات. فأدى مهمته فصدر إليه الأمر بأن يرتاح».

«وفى يوم ٢٤ نيسان (إبريل) تحرك اللواء الأول بعد العصر بطريق عكيكة فى الشرق الجنوبى من معان (الجناح الأيمن من سمنة) ولقد تلقت إحدى السرايا أمرا أن تذهب مع

---

١ ـ يقال إن السبب فى وقوف أهل معان هذا الموقف خلافا لما أظهره أبناء البلاد العربية الأخرى من تأييد الثورة ومناصرتها فى كل مكان مر به رجالها هو مابينهم وبين عوده أبى تايه والحويطات من خلاف قديم، ولما كان هؤلاء يحاربون مع الجيش فقد خاف المعانيون انتقامهم وفتكهم إذ فازوا ودخلوا فقاموا بهذه الحركة اتقاء شرهم.

رشاشتين، وجمع من القبائل إلى جناح سمنة الأيسر فتشاغل العدو.

«واستقر الرأى على أن يكون الهجوم من الوراء لسهولة الأراضى، فتقدمت الوحدات النظامية، وحشدت على منوال تستطيع معه منازلة قوى العدو القادمة من معان وضرب قواه المرابطة فى سمنة من الجناح والوراء أيضا.

واختير مكان موافق للمدفعية فتسنى لها ضرب سمنة من الجناح والخلف، وإصلاء معان نارا حامية.

«ولما بزغت شمس ٢٥ إبريل بدأت المدفعية تصب نيرانها على أماكن الترك فى سمنة لتمهد لهجوم المشاة – وما كان الترك يعتقدون إن الجيش العربى يستطيع أن يقوم بمثل هذه الحركة الخطيرة ـ فقامت بواجبها على أفضل منوال ـ وبعد انقضاء ٢٠ دقيقة أمرت قائد اللواء الأول أن يوعز إلى أحد أفواجه بالهجوم. فزحف فوج المرحوم عبد الحميد الهاشمى، فاحتل موقع الترك الذين انسحبوا بسهولة من دون خسارة تذكر بسبب تساهل الفوج وقوى الجناح الأيسر فى مطاردتهم. وانفرد مدفعان من مدافعنا بمطاردتهم وكان على جانبيها جميل المدفعى وأصلاهما نارا حامية. ولم يشترك أحد من أبناء العشائر وكانوا يحصون بالألوف.

«وخيل إلى أنه من العار علينا أن ندع العدو يقهقر من دون أن نفتك به، ونمزق قواه فلا تنضم إلى إخواتها وتحاربنا فى الغداة. ولكن ما العمل وليس عندى قوة راكبة أستطيع أن أطارده بها، وبما أننى لم أقدر على ضبط نفسى، ولا أن أقف موقف المتفرج على ضياع هذه الفرصة الثمينة تذهب من أيدينا أسرعت أحث عبيد الأمير، وكانوا بالقرب منا ولا يقل عددهم عن ٦٠ خيالا على مطاردة العدو فانضموا إلى، وهجمنا على سرية تركية كانت مسرعة فى الانهزام فأسرناها كلها، وبدأنا نطارد سرية أخرى. وانشغل معظم هؤلاء فى نزع سلاح الترك المأسورين فتأخروا عن اللحاق بى، ولم يبق معى منهم سوى ١٥ ـ ٢٠ جنديا فأطمع ذلك العدو المنهزم فوقف وأخذ يطلق الرصاص علينا فأصابت رصاصة رجلى اليسرى فكسرتها وجرحت أخرى اليمنى وقتل خمسة من رجالنا وجرحت فرسى. وهرب من كان معى.

«وعرف جنودى ما أصابنى فأتوا لنجدتى تحت نيران العدو الحامية فكان ذلك أعظم برهان على الوداد المتقابل والمحبة السائدة بين الجند وقائدهم. وتقدر قوة الترك التى

اشتركت فى محاربة سمنة بفوج مشاة وسرية رشاش ومدفعين وكانت المدافع التركية فى معان تأتى كل صباح إلى سمنة وتعود فى الغروب وحيث إن الهجوم عليها وقع عند الفجر فلم تستطع هذه المدافع أن تساعدها، بل اكتفت بمساعدتها فى أثناء تقهقرها».

وأعد الجيش بعد هذه المعارك سرية مؤلفة من ٣٠ هجانا بقيادة الشريف ناصر فهاجمت يوم ٨ مايو محطة القطرانة، وأسرت عددا من الجند التركى، ثم أعادت الكرة عليها فى الغداة ولم تخرجها.

وأعد سرية أخرى أسماها سرية وادى الحسا مؤلفة من هجانة بدو ومدفعين ورشاشتين للتأثير فى بنى صخر وعشائر الكرك، وحملهم على الاشتراك فى تخريب السكة، وقد اتحدت مع سرية الشريف ناصر، وهاجمت يوم ١٢ منه محطة القطرانة فلم تنجح. ثم هاجمت محطة وادى الحسا يوم ١٥ منه فاحتلتها ودمرت جانبا من السكة. فسير الترك قوة استردتها فى اليوم التالى. ونشط العرب فى خلال هذا الشهر نشاطا زائدا لتخريب السكة، وتعطيل مواصلات العدو فدمروا ٢٥ جسرا من جسور السكة خلال عشرين يوما.

وهاجمت سرية عربية أخرى يوم ٣٠ مايو محطة الفريفرة وأحاطت بها فشقت حاميتها التركية طريقها لها واتجهت إلى محطة القطرانة، واسترد الترك المحطة.

وفى أوائل شهر يونيو تحركت الفرقة الأولى للجيش العربى من عين وحيدة للهجوم على محطة الجردونة، وظلت الفرقة الثانية فى تلول السمنات لمشاغلة العدو. وتولى نورى السعيد قيادة هذا الهجوم، ومشى إليه اللواء الأول من الجنوب، والثانى من الشرق. وكان الترك قد أحسنوا تحصينها وحشدوا فيها قوة من المشاة مع ٤ رشاشات ومدفعين، فاستسلمت عند ما ضيق عليها الخناق فخربت الفرقة المحطة والجسر، وعادت بأسرى وعددهم ٢٢٠ إلى مقرها. وعاد الترك فأصلحوا الجسر والمحطة وسيروا فى أواخر ذلك الشهر قوة مؤلفة من فوج مشاة و٤ مدافع و٨ رشاشات فاستولوا على المحطة وحصنوها واستأنفت الفرق الأولى الهجوم عليها فلم توفق إلى احتلالها. ثم سيرت اللواء الأول إلى جرف الدراويش وهنالك انضمت إليها سرية وادى الحسا فهاجمتا هذه المحطة فى أواخر ذاك الشهر أيضا، ورأى قائدها أن لا فائدة من المجازفة لأنها كانت حصينة، فارتد عنها فعادت سرية الحسا إلى مكانها، وظل اللواء الأول فى التوانة فأقام فيها شهرا واحدا لمنع اتصال الترك بقواهم

فى الجنوب، ثم تلقى أمرا بأن ينسحب إلى الطاحونة وكان فيها مقر الفرقة الأولى.

وأغارت سرية الشريف ناصر على محطات المنزلة وقلعة عنيزة ووادى الشعر فاستولت عليها ثم استردها الترك، وكانت تنتقل بين أيدى الجيشين.

وقررت القيادة العليا فى النصف الأخير من شهر يوليو مهاجمة الجردونة لمشاغلة حامية معان التركية ولتخفيف العبء عن عاتق الجيش البريطانى فى الشريعة. وحمل نورى السعيد يوم ٢٠ يوليو بالفرقتين الأولى والثانية مع اللواء الهاشمى ومفرزة التخريب على الجردونة لتنفيذ هذه الخطة بعد ما ترك اللواء الثانى من الفرقة الأولى أمام معان.

وكانت حامية الجردونة التركية مؤلفة من فوج مشاة و٤ مدافع ورشاشات، وكانت منيعة جدا. كما كان على الجيش المهاجم أن يعمل فى أراضى سهلية تجعله هدفا لنيران العدو، ولذلك لم ينجح هذا الهجوم، واضطرت القوات العربية إلى الارتداد بعدما فقدت ٢٤ ضابطا و٢٠٠ جندى قتلوا ما عدا الجرحى.

وفى يوم ٢٣ يوليو تلقى اللواء الأول الأمر بالهجوم على محطة تل الأحمر، وتقع بين معان والجردونة وتخريبها، فلم يوفق وعاد بعد ماخسر ٥٠ قتيلا وبضعة جرحى وكريوم ٢٥ منه فارتد أيضا.

تأليف الحملة الكبرى لفتح الشام

بعد ما استقرت أقدام الجيش الشمالى فى العقبة والمناطق المجاورة لها وحاز ماحازه من نصر وتوفيق رأى أن يوسع نطاق أعماله، وينقل الميدان إلى حوران وجبل الدروز والغوطة لانقاذ دمشق من أيدى الترك، فكاتب الأمير الإنجليز - وكانوا من جهتهم يعدون المعدات للقيام بحملة كبيرة على خطوط الترك فى فلسطين - فتم الاتفاق على إعداد حملة كبيرة يقودها الأمير بالذات، ويكون مقرها الأزق بدلا من أبى اللسل، واشترط لذلك شروطا قبلوها. وعلى أثر ذلك دعا قادة الجيش النظامى وضباطه ورؤساء القبائل وزعماء الثورة وأبلغهم بأن يكونوا على تمام الأهبة للزحف على الشمال.

وتقدم نسيب بك البكرى الحملة فقصد جبل الدروز ليمهد لها، وليستميل الزعماء والشيوخ ويحملهم على الاشتراك فى الجهاد القومى. وهذا نص المنشور الذى حمله من الأمير إلى أهل جبل الدروز وحوران:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عموم أهل جبل الدروز وحوران المحترمين:

بما أننا قد انتدبنا السيد نسيب بك البكرى إلى جهاتكم بالوكالة عنا ريثما نحضر بذاتنا، أو يحضر أخونا الأمير زيد لجهتكم فيجب والحالة هذه إجراء جميع التسهيلات المقتضية التى اعتدنا أن نراها من أمثالكم الموصوفين بالغيرة العربية والحمية والشهامة العدنانية، بطرد أعدائنا وأعداء وطننا، أولاد جنكيز خان، الذين إذا لم نتحد على طردهم من ديارنا، ونخلص البقية الباقية من أبناء قومنا من أيديهم فإنهم لا يبقون منا فردا، وإننا بعونه جل جلاله سنأتيكم قريبا بجيوشنا ومعداتنا. هدانا الله وإياكم سواء السبيل ووفقنا للتغلب على الأعداء وراحة العباد وتخليص البلاد.

تحرير فى ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ الموافق ٢٨ مارس ١٩١٨

وهبط نسيب بك الجبل، ونزل قرية عنز الواقعة على سيف البادية، وأقام عند شيخها حسين بك الأطرش، وهو من الموالين للثورة المؤيدين لها. ثم اتصل بسلطان باشا الأطرش «شيخ قرية القرية» وسار إليه. وسلطان معروف بعداوته للترك وشدة وطأته عليهم. وكان بيته ملاذا لطريدهم، كما كان مقرا للدعاية العربية فى الجبل، ومركزا من مراكز الاتصال بين ثوار العرب فى الصحراء وبين سورية. فكانوا ينزلون عنده إبان تنقلاتهم فيقيمون فى حرز حريز.

ولما شاع خبر وصول نسيب بك إلى الجبل، وعرف ماقام به من أعمال كتب سليم باشا الأطرش، وكان ضالعا مع الترك يحكم الجبل من قبلهم إلى سلطان باشا ينصحه بالعدول عن هذه الأعمال، فرد عليه ردا قاسيا، ودعاه إلى الانضمام إلى إخوانه وأبناء عشيرته فى قتال أعدائه وأعدائهم.

وعاد نسيب بك إلى العقبة، وأطلع الأمير على ماوقع، ثم رجع بعد شهرين مع الشريف ناصر يحمل المنشور الآتى:

إلى كافة أهل الشمال حضريهم وبدويهم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أما بعد فإنه يتبين لكم من الفرمان[1] الذى هو ضمن

---

(١) لم نعثر على نص الفرمان

هذا الكتاب، والصلاحية التى خولنى إياها جلالة والدى المعظم، وعليه ريثما آتى إلى بلادكم بشخصى قد أنبت عنى الشريف ناصر بن على والسيد نسيب البكرى لتكونوا وإياهم يدا واحدة على أعدائنا وأعدائكم، ولتخلصوا بلادكم من ربقة الذل والهوان وتطردوا من دياركم عدوا طالما طغى فى أرضكم وفسق فى بلادكم وقتل وشنق أعاظم رجالكم وعن قريب إن شاء الله أكون عندكم، وأفرح نفسا طالما شقيت لأجلكم، وتألمت لألمكم، وماذلك على الله بعزيز.

فيصل

آخر قافلة من دمشق

وبينما كان الأمير يستعد للعمل فى الشمال وصلت من دمشق إلى أبى اللسل آخر قافلة من الأحرار وهذه أسماء رجالها: الدكتور أحمد قدرى، ورستم حيدر، ورفيق التميمى، وتحسين القدرى، وخليل السكاكينى، وسليم عبد الرحمن، والشيخ سعيد البانى ومحمود المغربى (ملازم استحكام أصله من طرابلس الغرب) وقد غادروا دمشق سرا فى أواسط شهر (يونيو) فجاءوا قرية جرمانا، فغيروا ملابسهم المدنية ولبسوا ملابس بدوية كان الدكتور قدرى أعدها لهم. كما أعد لكل واحد حصانا وسلاحا. فساروا إلى قرية خلخلة فى جبل الدروز، ومنها إلى (القرية) فنزلوا ضيوفا على سلطان باشا والتقوا فيها بعبد اللطيف العسلى وأخيه لطفى، وكانا قادمين من سورية والشيخ فريد الخازن، فساروا إلى أبى اللسل واشترك بعضهم فى الأعمال العسكرية التى انتهت بدخول دمشق.

الزحف إلى الأزرق

ولما تمت التدابير وتقرر الزحف دعا الأمير جمهور المجاهدين وقال لهم «هيا للعمل لقد دنت ساعة انقاذ سورية، وسنباشر الهجوم العام بعد أيام فاذهبوا غدا مع الحملة البدوية وجمهور الثوار فى جميع أنحاء سورية».

وقاد الأمير بالذات هذه الحملة. وقد تم تأليفها فى أواخر شهر أغسطس كما يأتى:

لواء الهجانة، ويتألف من ٦٠٠ هجان مع أربعة مدافع و ٤ رشاشات ثقيلة و ٢٠ خفيفة

و ٤ دبابات ومفرزة تخريب وطيارتين للكشف، ثم انضم إليها نورى الشعلان مع ١٠٠ خيال من قومه، وعودة أبو تايه مع ١٠٠ خيال كما انضمت إليها سرية الشريف ناصر فأصبحت تتألف من نحو ألف محارب، وتولى الأمير زيد القيادة فى أبى اللسل بعد سفر أخيه.

وفى أوائل شهر سبتمبر تحركت الحملة قاصدة الأزرق فاجتازت السكة الحديد من جنوب معان الشرقى فبلغته يوم ١٨منه، وكانت تتناول ميرتها وماءها من منازل خاصة أعدت من قبل فى وسط الصحراء. وسيرت دبابتين من دباباتها مع قوة من الخيالة حين مرورها بمحطة السمراء يوم ١٦ منه، فدمرت الجسر الحديدى القائم بين المفرق والزرقا.

الدروز ينضمون إلى الحملة

وبعد ما استقرت الحملة فى الأزرق، وضربت خيامها قصد نسيب بك البكرى الجبل، ومعه حسين بك الأطرش وزكى الدروبى (من ضباط الثورة) فاتصل بزعماء الجبل، وعقد معهم اجتماعا فى كاف حضره الشيوخ والزعماء، وتم فيه الاتفاق على المبادئ الآتية:

١ ـ استقلال جبل الدروز سياسيا وإداريا، مع حفظ جميع التقاليد المرعية بين العشائر.

٢ ـ إيجاد العلاقات الودية والمحالفة الثلاثية بين الحجاز وسورية وجبل الدروز على ثلاث نقط:

أ ـ العرب تساعد الدروز والدروز تساعد العرب

ب ـ لا سلطة فعلية أو عسكرية لحكومة من الحكومتين السورية والحجازية على جبل الدروز.

جـ ـ أن جبل الدروز يعتبر الأمير فيصلا، أميرا على سورية، ولكنه لا يعتبره أميرا على الجبل، إلا من الوجهة الأدبية والعلاقات الأدبية والتشريفية[١]

---

١ ـ أقر الأمير فيصل هذا الاتفاق حينما عرض عليه، فارسل يوم ٢١ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ الكتاب الآتي:
حضرة الأديب الفاضل نسيب بك البكرى وحضرة الرجل الماجد أبو نايف حسين بك الأطرش:
«بعد السلام عليكما ورحمة الله وبركاته: أخذت كتابيكما وسررت جداً بارك الله فيكم ومن معكم من أبناء الوطن. ولاشك أنكم اليوم فى بصرى اسكى شام. نحن غداً صباحاً نشد من هنا. أنا أصلكم بالأوتومبيل. الحملة تصل إليكم بعد باكر. عملنا سيكون مهما جداً، وسنكسب جميعاً الشر العظيم=

وعلى أثر انتهاء اجتماع كاف وإصداره هذا القرار، وقد قبله نسيب البكرى باسم الأمير فيصل كاتب سلطان باشا قرى أم الرمان والفارية وحوط وعنز والمغير وبكة طالبا إلى أهلها أن يوافوه إلى بصرى اسكى شام لمهاجمتها. فاجتمع له نحو ٣٠٠ مقاتل حمل بهم صباح ٢٥ سبتمبر على الجيش العثمانى المرابط فيها فدخلها بعد قتال دام ثلاث ساعات ومنها قصد شمسكين فاجتمع فيها بالشريف ناصر ونورى الشعلان وعوده أبو تايه ومن معهم فاتحدوا فى العمل وكان نسيب بك البكرى وحسين الأطرش فى هذا الجيش واتجهوا جميعا نحو دمشق.

حركات الحملة فى حوران

بدأت الحملة الكبرى عملها صباح ٢١ سبتمبر بمهاجمة محطة خربة الغزالة فدمرتها كما دمرت جسرا كبيرا بقربها، ونسفت السكة الحديد بينها وبين درعا، وكانت الطيارات الألمانية تتعقبها وترميها بقنابلها لازعاجها وشل حركتها.

وسيرت ذلك اليوم قوة من الهجانة إلى المزيريب لتعطيل السكة الحديد بين درعا وحيفا فبلغت قرية طفس بعد الغروب فكمنت وراءها واستدعت طلال حريدين شيخها وكان من أخلص شيوخ حوران للقضية العربية. فاتفق مع قائدها على أن يأتيه بقائد محطة المزيريب التركى، وكان أرمنيا فيسلمها لهم، وجاء هذا بملابس بدوية فتم الاتفاق على أن يجمع ضباطه وقواته كمن يريد أن يصدر إليهم تعليمات فتباغت القوة المحطة وتأسر الحامية. وبينما كان هذا يهم بتنفيذ خطته وصل من حيفا قطار يحمل فوجا تركيا ومدافع ووقف فى المزيريب. فتوقفت القوة عن الهجوم انتظارا لسنوح الفرص. ولما تقربت فى صباح اليوم الثانى ضربتها المدافع التركية، فقصدت محطة صغيرة بين المزيريب ودرعا فدمرتها، ثم سارت إلى محطة نصيب بين درعا ومعان بعد ماخربت جسرا كبيرا بين نصيب ودرعا متجهة نحو قصر الأزرق، وقضت ليلتها فى الخرابات الواقعة هناك.

وقصدت صباح ٢٥ منه قرية شيخ سعد فقضت فيها يوم كاملا وأسرت ١٥٠٠ جنديا و

= تجاه العالم. لاشك أنكم تخابرتم مع الشريف ناصر ومع من ببصرى. كما أنكم تبلغتم سقوط عمان وهلاك الجيش التركى برمته. باكر نتكامل فى درعا وان شاء الله انهم غنيمة لنا. النقدية تصلكم معنا. والتفصيل من الرأس، والفصل عند الله والسلام.

٦٠ ضابطا تركيا من القوى المتراجعة. وعلمت وهى فى الشيخ سعد أن الترك يضربون قرية طفس بمدافعهم لأن سكانها منعوا جندهم من المرور بها خوفا من النهب فهبت لنجدتهم وهاجمت الكتيبة التركية وطردتها، واستشهد شيخ القرية طلال حريدين وعدد من أبنائها فى خلال مقاومتهم للترك.

وفى يوم ٢٨ منه احتلت محطة درعا. وبلغ عدد الأسرى الترك هنا نحو خمسة آلاف من فلول القوى المتراجعة من فلسطين ومعان، وفى صباح ٢٩ منه اتصلت بالجيش البريطانى وزحفت إلى دمشق على السكة الحديد فوصلتها يوم ٣٠ منه، ودخلتها بين هتاف الأهالى وترحيبهم، ورفعت العلم العربى على أبراجها. وكان على رأسها نورى السعيد قائد القوى النظامية فى السرية، وجميل المدفعى قائد المدفعية والدكتور أحمد قدرى وعلى جودت الأيوبى وبدئ بإنشاء الحكومة العربية.

وهذا ملخص ماكتبه الجنرال بريمون عن أعمال العرب العسكرية قال:

«قطعت سرية الشريف بين ٣٠ يوليو و ١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ السكة الحديد فى أربعة مواضع بين العلا وقلعة الزمرد، وبين المديرة والطويرة، وقد استسلمت حامية الزمرد وكان بينها خمسة من الروم ودمر العرب المحطة وشاحنات كانت فيها.

وفى يوم ٧ أغسطس سنة ١٩١٧ أبحر إلى العقبة الشريف شرف مع ٤٠٠ من العرب النظاميين ومعهم الكولونيل جويس والعريف بتيرى الفرنسوى مع قوته وهى رشاشتان يديرهما ١٢ جنديا وأقام قوات أمامية فى الكويرة ـ وهى على بعد ٣٨ كيلو مترا من العقبة وفيها ماء ومقابر قديمة ـ لاتقاء العدو وقد اعتادت طياراته أن تأتى كل يوم فتلقى قنابلها على المعسكر وعلى العقبة وعلى الكويرة. وفى يوم ١٧ أغسطس غادر جعفر العسكرى الوجه مع مئات من الجنود إلى العقبة، وسافر معه الكابتن بيزانى الفرنسوى وبقية رجاله. وفى يوم ٢٣ منه لحق بهم الأمير فيصل بالبارجة هاردنج مع القوة المصرية و ٤٠٠ جندى، وهكذا وبعد انتظار سنة بدأ فصل جديد فى حرب الشرق الأدنى.

وفى ١١ سبتمبر ألقت الطيارات الألمانية ٦٠ قنبلة وأطلقت الرشاشات على معسكرى العقبة والكويرة فجرح جندى وهلك ٣٠ حيوانا فى الثانية، وقتل تسعة وجرح ثلاثة فى الأولى وجاءت الطيارات الإنجليزية فضربت محطة معان بالمقابلة. وفى أواسط سبتمبر دمر

لورانس مع ٨٠ عربيا قطارا تركيا قرب المدورة فقتل وأسر من الترك ١٥٠ جنديا، واستولت قوة عربية أخرى على قطار تركى قرب عنيزة الواقعة على ٥٠ كيلو مترا من معان.

وفى يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩١٧ أصدر الحسين أمرا إلى الأمير زيد بأن يقصد ينبع مع قواته النظامية ليبحر إلى العقبة، فسار أولا إلى الوجه مع المدفعية و ١٨٠٠ مقاتل ثم قصد العقبة فبلغها يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٧.

وفى يوم ١٩ أكتوبر هاجم ألفان من الجند النظامى مع بنى عطية مركزا للترك جنوبى دار الحج فحطموا قطارا وأسروا وقتلوا ٣٠٠ تركى، وظلوا هنالك ثلاثة أيام. فكان لهذا النصر رنة كبرى.

وأصدر أحمد جمال باشا وهو فى أطنة أمرا بإنقاذ السكة بأية صورة كانت. فحمل جمال باشا الصغير[1] بقواته الكبرى ومعه ٣ طيارات على العرب فى وادى موسى وردهم فكر عليه ليلة ٢٣ أكتوبر ضابط سورى اسمه مولود أفندى (المؤلف ـ هو أمير اللواء مولود باشا مخلص، وهو عراقى من أهل الموصل) بثلاثمائة جندى نظامى عربى وحمل حملة صادقة فدمر المعسكر التركى وقتل ٤٠٠ تركيا وأسر ٣٠٠ وكانت خسارته ٤٠ قتيلا. وهذا النصر العظيم مدار فخر كبير لهذا القائد ولرجاله.

وجاء فى بلاغ أذاعه الكابتن سانت كنتان يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ أن قوات الترك فى الحجاز وعلى السكة الحديد كانت كما يأتى:

١ ـ قوة قلعة الحسا جنوبى معان بقيادة جمال باشا الصغير (هو محمد جمال باشا) ومقره معان وتتألف من ٧ أورط مشاة و ٦ كتائب خيالة و ٣ بطاريات سريعة الطلق ومجموع ذلك ٣٧٠٠ محارب، مع ألف سيف و١٥ مدفعا و ٣٢ رشاشة و ٢٧٠٠ دابة.

أما قوة تبوك ويقودها اللواء بصرى باشا (وهذا خطأ أيضا فقد كان قائد هذه المنطقة القائمقام عاطف بك، أما بصرى باشا فكان قائد العلاء) وتتألف من ٤ أورط مشاة وبطاريتين. ويبلغ مجموع المحاربين من رجالها ١١٠٠ لديهم ١٢ مدفعا و ١١ رشاشة و ٢٢٠ دابة.

١ـ هو محمد جمال باشا قائد قوة معان لاجمال باشا الصغير، وكان يومئذ يقود الفيلق الثامن فى السلط.

وتأتى بعد ذلك قوة الحجاز السفرية، ومقرها المدينة بقيادة فخرى باشا، وتتألف من قوة الشمال، ومقرها فى العلا بقيادة على نجيب بك قائد الألاى ٥٨ و تتألف من ٧ أورط وبطاريتين.

وقوة الجنوب وتتألف من ١١ أورطة وهى بقيادة فخرى باشا نفسه. ويبلغ المجموع العام لها ٧٥٠٠ محارب لديهم ٥١ مدفعا و ٣٧ رشاشة.

وفى مقابل هذه القوى كان للحلفاء فى بلاد العرب ٢١ ألف رجل و ٧٨ مدفعا و ٨٠ رشاشة ونحو ٤٠٠٠ يقاتل الجانب الأكبر منهم فى فلسطين[1].

واتسع نطاق الأعمال العسكرية فى صحراء الشام ابتداء من دخول ١٩١٨ فقد ووضع الجيش الشمالى نصب عينيه فى هذه المرحلة تحقيق الغرضين الآتيين: مهاجمة معان وبلوغ البحر الميت للاتصال بالإنجليز، وكانوا على ٢٠٠ كيلو متر من العقبة، وتولى المهمة الثانية الأمير زيد، وكان ينزل فى عين جرنادل على طريق القوافل بعد ما احتل خرائب الحويطات وبنى شاكر. وكان جعفر باشا ينزل مع قوة أخرى على عين ديلاغا أما بقية الجند العربى فكان فى الكّويرة.

وكانت هذه المهام شاقة صعبة. فهنالك نقص فى وسائل النقل، ولا سيما الإبل ونقص فى الملابس والمعدات، يضاف إلى ذلك جو قارس فاتك.

وفى يوم ٣ يناير هاجم الشريف ناصر محطة جرف الدراويش على ٨٠ كيلو مترا من جنوبى معان، فأسر ٢٠٠ تركى. وفى يوم ٦ منه جلا الترك عن أبى اللسل (على ٢٠ كيلو مترا من جنوبى معان) وفيها ماء غزير وعين بسطا (على ١٢ كيلو مترا من شمال معان) فاحتلها العرب.

وفى يوم ١٣ منه استقر الأمير زيد فى الطفيلة، وهى على ١٦٠ كيلو مترا من العقبة بعد ما جلا الترك عن الشويك وغابة عيش. وحملت الفرقة التركية ٤٧ على الطفيلة لاستردادها - لأن فقدها ضايق الترك - حملة صادقة فهاجمتها بكل قواها ومعداتها يوم ٢٨ يناير فهزمها العرب شر هزيمة فى سهل الحسا، وقتلوا ٤٠٠ من رجالها، وأسروا ٣٠٠ بينهم ٧ ضباط وغنموا مدفعين و ٨ رشاشات و ٨٠٠ دابة.

---

١ - لم يشر الإحصاء إلى قوات الترك فى فلسطين يومئذ، وماكانت تقل عن عشرين ألف مقاتل.

وما كانت الحالة حول معان سائرة على ما يرام، وقد قاد الأمير فيصل بنفسه حملة عل الدورة يوم ٢٢ منه فلم توفق. وورد الشريف عبد الله بن حمزة البحر الميت مع البدو يوم ٢٨ منه، ودمر فى المزرعة زورقا بخاريا وستة زوارق شراعية وأسر ٦٠ تركيا.

وحشد الترك قوات كبيرة فى الطاحونة تجاه الطفيلة فأرسلوا نحو ثلاثة آلاف جندى عززوها بكتائب فنية من النمسويين والألمان وطيارت ومدفعية وغيرها. ثم وصف هنا معركة الطفيلة بما وصفت به من قبل.

واتجهت أنظار العرب فى أوائل شهر إبريل إلى معان، فنقل الأمير زيد قواته الكبرى من وادى موسى إلى حول معان، تاركا جانبا من البدو هنالك، وهاجم نورى السعيد غدير الحج يوم ١١ إبريل فأخذ ١٥٧ أسيرا تركيا، وخرب ماطوله ١٠ كيلو مترات من السكة الحديد وفى يوم ١٢ منه احتل جعفر العسكرى محطة أبو قردان وأسر ٢٠٠ أسير.

وفى يوم ١٣ منه احتل العرب مرتفعات سمنة، وتبعد عن معان ٥ كيلو مترات وتسيطر علها، فشجعهم هذا النصر على مهاجمة معان - برغم ورود نجدات تركية إليها من الشمال والجنوب. ودارت مبارزات بين المدفعيين يومى ١٥ و ١٦ إبريل.

وفى ١٧ منه تقدم العرب حتى معان الشامية، وهى من ضواحى مدينة معان فأسروا مائة تركى، وغنموا مدفعين بعد مافقدوا ٢٥٠ قتيلا.

ووصف الكولونيل بريمون فى كتاب أعماله الحملة العسكرية الكبرى التى فتحمت الشام بما نورده ملخصا:

كانت الحملة بقيادة نورى السعيد، وكانت تتألف كما يأتى:

٤٠٠ جندى نظامى عربى بقيادة على جودت الأيوبى و ٣٥ مصريا بقيادة الكابتن بيك (للنقل) و ٣٠ تركيا بقيادة الكابتن سكوتيجانس، وثلاث دبابات وطيارتان وسيارات نقل. وكانت القوات البريطانية بقيادة الكولونيل جويس ولورانس والميجر يونغ وكان فيها أيضا بطارية فرنسوية عيار ٦،٥، وسرية رشاشات فرنسوية وسرية مهندسين بقيادة الكابتن بيزانى الفرنسوى، ومجموع رجالها ٣ ضباط و ١٤٠ جنديا.

وفى يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩١٨ غادرت الحملة أبى اللسل بقيادة الأمير فيصل نفسه

قاصدة الأزرق فبلغته يوم ١٢ سبتمبر، وسبق الأمير ونورى السعيد فوصلا يوم ١١ بالسيارة أما الطيارات فجاءت يوم ١٠ منه.

وفى الساعة ٤,٣٠ من يوم ١٤ منه غادرت الحملة الأزرق - وقد ظل الأمير فيها - باتجاه الغرب الشمالى. وفى يوم ١٦ عسكرت على مسافة ١٢ كيلو مترا من درعا، فانضم إليها ٢٠٠ من خيالة الرولا مع الشريف ناصر والأمير طراد الملحم. وفى ١٧ منه دمرت المدفعية مركزا للترك فى تل عرار، وهو على بعد ٨ كيلو مترات شمالى درعا. وتجولت الدبابات الإنجليزية على طول السكة الحديد، وحلقت خمس طيارات تركية فوق الحملة وألقت قنابلها ورصاصها من عل، لأن المدفعية منعتها عن أن تسف، ثم عادت إلى درعا وكانت تراوح الحملة وتغاديها بلا انقطاع.

وقبع الترك فى درعا وتحصنوا فيها. فواصلت الحملة تخريب السكة، وفى الساة ١١,١٥ أمر نورى السعيد بالزحف على تل شهاب بعد ما أبقى قوة فى تل عرار لمضايقة حامية درعا. ولما وصلت الحملة إلى المزيريب قابلها السكان بالهتاف والسرور، ثم غادرتها فى الساعة ٩,٣٠ مساء إلى تل شهاب فى انتظار قطار قادم من الغرب.

وفى الساعة ١١:٣٠ مساء أمر نورى السعيد بتدمير جسر السكة الحديد القائم هنالك وأرسلوا بدويا للتجسس فعاد بعد طول انتظار يقول إنه وصل فوج من الجنود الألمان بقيادة كولونيل تحصن فى متاريس. فكان ذلك القطار المنتظر. وعادت الحملة إلى المزيريب فوصلت الساعة الثانية من صباح ١٨ سبتمبر، ثم اتجهت إلى الشرق مارة بجنوبى درعا وفى الساعة ٤,١٥ خربت مخفرا للترك فى نصيب ففر رجاله إلى درعا، وفى الساعة التاسعة مساء عسكرت على مسافة ٥ كيلو مترات شرقى السكة الحديد. واستأنفت الزحف صباح يوم ١٩ منه، فلحقت بها طيارتان تركيتان من درعا، وألقت عليها قنابل فى الساعة ٩,٣٠ صباحا فأجابتها المدفعية بنيرانها. وذهب على الأثر لورانس بسيارة يبحث عن الطيارات الإنجليزية. وفى الساعة ٦ بعد الظهر قصدت أم السراب، وكان فيها مطار فنزلت فيها وضربت خيامها. وفى مساء ٢٠ منه سيرت قوة لتدمير السكة الحديد جنوبى جابر فقامت بمهمتها وعادت. ووصلت إلى أم سراب ظهر ٢٢ منه ثلاث طيارات قدم عليها لورانس فقال إن الهجوم الإنجليزى فاز فوزا مبينا، وأنهم أسروا ٢٢ ألف تركى، وأن خيالة الإنجليز وصلت إلى بيسان.

ودار قتال بين الطيارات فسقطت طيارة تركية، ووصل فى الساعة السادسة مساء قائد الطيران الإنجليزى بطيارة، وألقت أربع طيارات إنجليزية فى الليل القنابل على درعا. وفى الساعة ١١ مساء غادرت الحملة أم السراب لتخريب السكة الحديد فقامت بمهمتها وعادت فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر ٢٣ منه. وفى هذا اليوم جلا الترك عن معان فاحتلها العرب، وفى صباح ٢٤ منه طارت طيارة انجليزية فوق المعسكر وألقت بلاغا جاء فيه أن الانتصار عظيم، وأن خيالة الإنجليز بلغوا سمخ، وأن الجيشين السابع والثامن التركيين تمزقا، وأن القوات التركية فى السلطنة وعمان تنسحب نحو الشمال سائرة شرقى السكة الحديد. فسار نورى السعيد بقواته لمطاردتها فوصل فى الساعة ٤,٣٠ بعد الظهر إلى أم طيا، وفى صباح ٢٥ منه شوهدت قوتان كبيرتان للترك تسيران على انفراد نحو الشمال على جانبى السكة الحديد بين المفرق ونصيب فالتقط البدو منهما زهاء ٢٠٠ أسير منهم ألمانى واحد ونمسويون وغنموا منهم غنائم، واعتزمت الحملة قطع خط رجعة الجيش التركى الرابع. فسارت فى الساعة ٣ بعد ظهر ٢٥ منه إلى الشمال، وتوقفت فى الساعة السادسة، وفى صباح ٢٦ منه واصلت سيرها فبلغت شمسكين فى الساعة الرابعة من صباح ٢٧ منه وفى الساعة الثامنة بلغت الشيخ سعد، وتبعد ١٨ كيلو مترا من شمالى المزيريب، واقتاد الخيالة الدروز والحوارنة، وقد إزداد عدد المنضمين منهم إلى الحملة فى اليومين الأخيرين زيادة كبيرة وقد اقتيد ٨٠٠ أسير إلى معسكر الحملة فى الشيخ سعد. بينهم ضباط ألمان ونمسويون و ١٦ رشاشا ومدفعا.

وفى الساعة ١٠ صباحا جاء أهل طفس يستجيرون بالحملة، ويسألونها إنقاذهم من ظلم الترك الذين نهبوهم واعتدوا على نسائهم أثناء مرورهم بقريتهم فجردت قوة أرسلتها على الفور لطردهم، ولما وصلت تبينت جموعا كبيرة من قساة الترك قادمة من الجنوب لا تزال محافظة على النظام، ولديها قيادة منظمة، والراجح إنها فلول الفيلق الثامن المرتد من عمان تحاول سلوك طريق درعا - طفس - شيخ سعد - نوى - دمشق، ويبلغ مجموعها ٨ آلاف مقاتل منها ٣ آلايات مشاة يقودها ثلاثة جنرالات، ومعها عدد من الفنيين الألمان والنمسويين فلم تردد مدفعيتها فى صب النيران على الترك القادمين. فذعروا لهذه المفاجأة وارتدوا فسلكوا الطريق الشرقى وهى طريق - درعا - شمسكين - دمشق - وبينما كانت المدفعية تصلى الترك نارا حامية انسل العرب إلى قرية طفس فانتقموا من الترك الذين كانوا فيها ثم عادوا فى الساعة السادسة مساء إلى الشيخ سعد ووصلت فى المساء طيارة

إنجليزية، فقالت أن الخيالة الإنجليز يصلون فى الغد إلى درعا، وغادرت الحملة الشيخ سعد فى الساعة ٤.٣٠ من صباح يوم ٢٨ منه فوصلت فى الساعة العاشرة إلى درعا فألفت فيها آلايين من الخيالة البريطانيين وصلا فى الساعة ٨.٣٠ صباحا ووصلت فى المساء الحملة البريطانية الكبرى من عمان. وفى درعا اتصل الجيش العربى بالجيش البريطانى.

وفى صباح ٢٩ منه غادرت الخيالة البريطانية درعا إلى دمشق. فأدركت الترك فى الصنمين وساقتهم حتى خان دنون على ٢٠ كيلو مترا من جنوبى دمشق وكانت خيالة الجيش العربى بقيادة الشريف ناصر قد سبقتهم فبلغت الكسوة ودخلت دمشق الساعة ٣ من صباح أول أكتوبر. أما الأمير فيصل فبلغ دمشق يوم ٢ منه قادما بالسيارة من الأزرق، وقد استقبل والحلفاء استقبالا حماسيا، وأخذوا من دمشق ١٦ ألف أسير تركى.

شهادة ضابط تركى

وأنشأ مدير شعبة الاستخبارات فى القوة المرتبة وكانت تدافع عن معان رسالة وصف بها المعارك التى دارت حول تلك المدينة بين العرب والترك فنخلص منها ما يلى اتماما للبحث قال:

على أثر إعلان الثورة العربية فى الحجاز أصدر أنور باشا أمره إلى محمد جمال باشا قائد قلاع أزمير بالسفر إلى سورية ليكون تحت أمرة أحمد جمال باشا، ويساعده فى اخمادها. كما أرسلت القيادة العليا إلى الحجاز قوات جديدة من مشاة وخيالة ومدفعية لا يقل عددها عن ٢٠ ألف جندى.

ووصل محمد جمال باشا إلى دمشق، ثم سافر إلى الحجاز فنيطت به مهمة الدفاع عن المنطقة الممتدة من محطة الهدية قرب المدينة المنورة حتى محطة المدورة ويبلغ طولها ٦٥٠ كيلو مترا، وكان مقره فى العلا بادئ بدء.

وعرفنا فى العلا أن الشريف على حيدر باشا فشل فى المهمة التى انتدب لها - رغما عن الهدايا والأموال التى وضعت تحت تصرفه، ولم يوفق إلى استمالة قبيلة واحدة من القبائل العديدة، ولذلك أعيد إلى دمشق بقطار خاص يحرسه عدد كبير من الجند ومعهم مدفعين ورشاشات.

وللمرة الأولى رأينا جندا عربيا منظما بقيادة مولود مخلص يقتحم محطة المعظم الواقعة فى منطقة جمال باشا الصغير بعد مداين صالح، وقد أبدت هذه القوات بسالة خارقة فى مهاجمة الحامية العثمانية التى نصبت رشاشاتها الست على أسطحة منازل المحطة واستبسل الفريقان، وتقدم العرب حتى أبواب هذه، وكانت النيران تحصدهم حصدا ووصلت فى المساء قوة من الخيالة التركية بقيادة ميرزابك الشركسى فطاردتهم وردتهم إلى مسافة بعيدة.

وكانت الحركات الحربية فى ابتداء الأمر قاصرة على مناوشات بسيطة تحدث بيننا وبين العرب على طول السكة، وكنا قبل وصولهم إلى إحدى المحطات لمهاجمتها ـ نتخذ التدابير للدفاع عنها ـ لأننا كنا نعرف كل شيئ من جواسيسنا. وتغيرت الحالة بعد وصول الأمير فيصل إلى والوجه بثلاثة أشهر. فصاروا ينسفون الخطوط الحديدية بالديناميت، بعد أن يقطعوا أسلاك البرق. فعمدت القيادة التركية إلى اتخاذ تدابير ذات شأن. فكنا نرسل دوريات عسكرية لمعاينة السكة قبل مرور القطارات، وكان معظم هذه الدوريات ـ وتخرج عادة بين كل محطتين فتلتقى فى وسط الطريق ـ يسقط أسيرا فى يد العرب. ولما شاهد محمد جمال باشا ذلك طلب قوات كافية وهدد بالاستقالة والانسحاب فأرسلوا له فوجى مشاة من أتراك مقدونية.

واتسع نطاق الثورة حتى شمل ماوراء تبوك، وسقطت قلعة البدايع فضيقت القيادة منطقة محمد جمال باشا، وأضافت قسما كبيرا منها إلى بصرى باشا.

وكان القواد الترك فى تلك الجهات يلحون على القيادة العليا بإرسال نجدات جديدة، خوفا من سريان الثورة إلى جميع البلاد، ولما رأت إلحاحهم سألتهم سرا عما إذا كان فى الامكان إخلاء الحجاز وأرسلت قائد ألمانيا كبيرا إلى محطة الحفير. فاجتمع بفخرى باشا وباحثه فى الجلاء فأجابه هذا أنه لا يخرج من المدينة وفيه عرق ينبض، وأنه يقاوم فكرة الجلاء كل المقاومة.

وكانت المناوشات تزداد يوما بعد يوم على طول السكة، وكان العرب يواصلون نسف القطارات وتعطيل الخطوط، ورغم يقظة الترك فقد نسفوا قطارات ذهب ضحيتها كثيرون.

ولما احتل الجيش العربى العقبة صدر الأمر إلى محمد جمال باشا بأن يقصد إلى معان، وجاءنا الجواسيس ـ ونحن نستعد للسفر ـ قائلين: إن القيادة العربية قررت نسف

القطار الذى سيقلنا مهما كلفهم الأمر، وأنهم يودون القبض على محمد جمال باشا حيا أو ميتا. فاتخذ هذا التدابير اللازمة، وسرنا فى القطار وكأننا فى ساحة حرب فالجنود واقفة على قدم الأهبة برشاشاتها وبنادقها.

وكان جمال باشا الصغير قد سبق محمد جمال باشا إلى معان وبدأ بتنظيم الحركات العسكرية فتسلم هذا القيادة منه، وكان فيها آلاى خيالة عدد جنده ١٢٠٠ وبطارية مدافع سريعة الطلقات، وآلاى آخر وعدة أفواج مشاة ورشاشات، وبطاريتان من المدافع النمسوية.

وكان علينا أن نحمى منطقة تمتد ٧٠ كيلو مترا جنوبا حتى محطة الدورة و ٨٠ كيلو مترا شمالا حتى محطة القطرانة.

ورأينا حول معان جيشا عربيا منظما يملك معدات حربية كاملة، وعنده رشاشات يديرها جنود يمانيون، عدا الرشاشات فى كل فوج، وكتائب فنية للبرق والديناميت والاستحكام وكان عدده يناهز ألفين، وفيه ٢٠٠ ضابط يقودهم الأمير فيصل، ومعه شقيقه الأمير زيد والشريف ناصر وجعفر العسكرى ونورى السعيد وراسم سدرست قائد المدفعية

وكان العربان لا يرحمون الأسير التركى الذى يقبضون عليه، ويضربونه حتى تسيل دماؤه، وإذا وصل إلى مقر القيادة يكون على آخر رمق، ولما شكا هؤلاء ذلك إلى الأمير أعلن بأن كل من يحضر أسيرا تركيا إلى مقر القيادة ينال مكافأة تختلف باختلاف رتبة أسيره وتزداد بنسبة مقام هذا ودرجته. فتبدلت الحالة وصار البدوى يحرص أشد الحرص على أسيره، ويعنى براحته أملا بالمكافأة، وكان أول ما يسأله عن رتبته فإذا عرف أنه ضابط سر وابتهج وتزداد عنايته به بنسبة رتبته العسكرية لأن المكافأة تكون أكبر.

وكانت خطوطنا الحربية فى منطقة معان أوائل سنة ١٩١٨ تشمل الكويرة وأبى اللسل وعين وحيدة وعين بسطة، وتبعد عن مدينة معان ١٥ ـ ٢٠ كيلو مترا. وكانت الطفيلة ووادى موسى بأيدينا. وكانت تدور بيننا وبين الجيش العربى مناوشات بسيطة.

وبينما كان محمد جمال باشا يفتش الخطوط الأمامية فى يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩١٧ طلبه جمال باشا الكبير إلى التليفون لمخاطبته مباشرة. ولما أبلغ أنه غائب أرسل إليه برقية إلى الخطوط الأمامية طلب فيها إرسال آلاى الرماحة مع

مدفعيتـه ورشاشـاته وآلاى المشـاة وآلاى النقليـات من معـان والأ ماكن القـريبة منها على جنـاح السـرعة، وأرسـل مثـل هـذا الطلب إلى بصرى باشا أيضا فنفذ أمره وأرسـلت القـوات عـلى الفـور لصـد الجيـش البريـطانى وانقـاذ القـدس. فـوصلت الخيـالة أولا ولا يقـل عـددها عن الألفيـن ـ وهـى بحـالة يرثى لها من الضنك والتعب. لأنهـا لم تقف فى الطريق بل سارت مسرعة، واشتركت على الفور فى معارك القدس ففقدت معظم رجالها.

معارك وادى موسى

وعلى أثر سفر القوات التركية إلى القدس أمر محمد جمال باشا بالجلاء عن الخطوط الأمامية لعدم وجود قوات كافية للدفاع، فأخلينا الكويرة وعين بسطة وأنشأنا خط دفاع فى جبل سمنة، وأقمنا المشاة فى مرتفعات معان الغربية وفى محطتها، واتخذنا التدابير للدفاع عن جنوبها وشمالها وأسرعنا بحفر الخنادق.

ونشط الجيش العربى فى خلال هذه الفترة فاحتل وادى موسى، فرأى محمد جمال باشا أن يسترده لأهميته العسكرية فطلب نجدات، فأرسلوا له آلاى الشراكسة بقيادة ميرزابك من تبوك. كما أرسلوا له قوة من المشاة، وقبل وصولها زحفت جنودنا من معان بقيادة القائمقام شولاق كمال بك رئيس أركان حرب محمد جمال باشا ثم لحق بها بنفسه.

وبدأ جندنا العمل باحتلال الجبل المطل على وادى موسى ونصب فيه مدفعيته فباكرت القوات العربية باطلاق النار، وكانت متحصنة فى أماكن جبلية مناوحة لمراكزنا، لتمهد لهجوم المشاة، وتولى ميرزابك قيادة الجناح الأيمن للترك، وكان الأمير زيد يقود العرب واشتركت الطيارات التركية فى هذا الهجوم، وكانت تحوم فوق العرب أثناء القتال وتلقى عليهم قذائفها من ارتفاع ٣٠٠ متر فقط، وحمل الترك على العرب حملة صادقة واستمروا فى ضربهم بالمدافع ساعتين. فقابلوهم بنيران حامية حينما بدأوا يصعدون فى الجبل وردوهم على أعقابهم فاستأنفوا الهجوم عند الظهر ففشلوا أيضا.

وتلقى جمال باشا ورحى القتال تدور فى وادى موسى ـ برقية من بصرى باشا يطلب فيها نجدات سريعة لسقوط محطتين بأيدى العرب، وكانو يهددون تبوك. كما أبلغ أيضا أن العرب المرابطين حول معان يشددون فى الخناق عليها ويهاجمون جنوبها فشعر بحرج

الموقف. سيما وقد كان بعيدا عن مركز الرئاسة، وقرر أن يستعد لمعركة حاسمة يتولى بنفسه تنظيمها وإدارتها .

وافتتحت المدفعية التركية الحملة الثالثة بنيران حامية كانت تصبها صبا على مراكز العرب حتى ظننا أنها أصبحت رمادا وأطلالا، وأصدر الباشا على الأثر أمره بالهجوم وأراد أن ينزل بنفسه إلى الميدان ويتقدم الصفوف، فمنعه رئيس أركان حربه الذى تولى إدارة الهجوم، وقد اشترك فيه أكثر ضباط المقر العام وجنده. ومشى مشاة الترك إلى الجبل تحت حماية المدفعية وكانت تسرف فى إطلاق القنابل يتقدمهم كمال بك ممتشقا حسامه يضرم فى صدورهم نيران الحماسة فصمد العرب لهم ونازلوهم منازلة الأبطال. وقد أظهر الفريقان فى هذا اليوم من البسالة والبطولة ما يحير العقول. وبدأت المجزرة الكبرى حينما بلغ الترك خنادق العرب فثبتوا فيها رغم قلة عددهم فدار القتال بالسلاح الأبيض وجرح كمال بك هنا للمرة الرابعة عشرة. كما جرح زكائى بك ياور محمد جمال باشا، وسقط على بعد خمسة أمتار من مواقع العرب الذين ارتدوا بعد استبسال عظيم. فدخلنا الوادى بعد ما خسرنا نحو مائتين بين قتيل وجريح، ولم نكد نستقر فيه حتى صدر الأمر إلينا بالانسحاب فأخليناه بعد ساعتين فقط لتحرج الحالة فى جنوبى معان وتبوك فاتجه الجند نحو معان تاركا مقر القائد وبطارية المدافع وراءه. وكانا ينتظران حركته ليسيرا معه. وقد وقع رجال المقر فى حيرة، وكادوا يسقطون فى أسر العرب، وكانوا يحيطون بالمكان من جهاته الثلاث لولا مداهمة الليل. واستولى العرب على مستشفى الجرحى الترك. لأننا عجزنا عن إنقاذه أثناء انسحابنا .

معارك الطفيلة

وماكادت هذه القوات تصل إلى معان حتى أبلغت أن الفرقة ٤٧ التركية ـ وقد نالت فوزا مجيدا فى حروب رومانيا ـ تحركت بأمر القيادة العليا إلى الطفيلة لاستردادها ، وكانت تضم ٢٠٠٠ جندى مشاة ونيف، ومعهم عدد قليل من الخيالة و ٤٠ رشاشة وستة مدافع.

واقترح محمد جمال باشا على القيادة العليا أن تنزل هذه الفرقة فى محطة جرف الدراويش، لا فى محطة القطرانة ـ كما تقرر ـ لأن طريق الكرك وعر فأبت الأخذ باقتراحه فسارت إلى القطرانة وقصدت الكرك غداة وصولها، وأخذ قائدها معه خزينة مال الفرقة

الخاصة لفرط غروره وشدة اعتماده على نفسه.

وأعد المعدات فى الغداة للبدء بالقتال وأصدر إلى رجاله التعليمات التى يسيرون عليها وفاته أنه أمام جيش منظم مسلح بالسلاح الكامل، ولديه معدات حربية وافرة، ولما خاطبه بعض الضباط ونبهوه إلى هذا الخطأ وألحوا عليه باتخاذ أسباب الحيطة والحذر وإرسال قوة للاستطلاع أجابهم: أن أمر هؤلاء سهل جدا بالنسبة لحروب رومانيا الهائلة.

وكان يعتقد أنه أمام شراذم من البدو لا حول لها ولا طول. لا تلبث أن تفر من أمامه حينما تسمع أصوات المدافع.

واصلت الفرقة سيرها حتى دخلت الوادى المطل على الطفيلة، ويبعد عنها نحو ساعة تقريبا. وعلم العرب بسيرها من قبل فأعدوا المعدات للقائها ورتبوا قواتهم على المنوال الآتى:

١ ـ أرسلوا قوة رابطت فى أكمة تطل على الوادى من اليمين والشمال.

٢ ـ وأرسلوا قوة أخرى رابطت فى مؤخرة الوادى قرب الطفيلة لصدها ومنعها من التقدم.

٣ ـ أعدوا قوة ثالثة فى جهة قريبة من الوادى لقطع خط رجعتها ومطاردتها عند الانهزام.

٤ ـ نصبوا عددا كبيرا من الرشاشات فى أنحاء الوادى.

وما كادت الفرقة تتوسط الوادى حتى ارتفعت الأصوات من أنحائه الثلاثة وانهال عليها رصاص الرشاشات والبنادق كوابل من المطر فحاولت الثبات من دون جدوى، لأنها ما كانت تترقب مثل هذه المباغتة، فأمر قائدها الجند بالتراجع فتراجعت وهى تدافع عن نفسها.

وقتل فى هذه المعركة القائد وأركان حربه ومعظم الضباط والجند وعاء الأحياء من رجالها وهم قلائل إلى الكرك ينادون ويلا وثبورا.

وعلى أثر هذه الكارثة جاء المرشال فون فالكنهاين إلى معان، وتفقد المكان وأمرت القيادة العليا محمد جمال باشا بأن ينتقل إلى محطة جرف الدراويش ليقود القوات التركية التى صدر الأمر بحشدها سرا لاسترداد الطفيلة وسموها «قوى التأديب» وكانت بقيادة ضابط ألمانى اسمه نيونيدر ماير، وتتالف من ثلاثة آلايات مشاة مع مدفعية تركية قوية

ورشاشات عديدة، وبلوك خيالة ألمانى مع رشاشاته، وكتائب فنية من تليفون وبرق لاسلكى واستحكام.

وجاء محمد جمال باشا جرف الدراويش مع أركان حربه وضباطه ليتولى العمل ويقود القوى فحدث تشاد بينه وبين ضباط الألمان الذين أرادوا الاحتفاظ بالسلطة العليا . فأصر هذا على أن تكون الحملة بقيادته بدون قيد ولا شرط. فوافق الألمان بعد تردد مكرهين وقد استغل هذا سقوط ٢٥ فارسا خيالا ألمانيا فى كمين نصبه لهم العرب حول المحطة فأبادوهم عن آخرهم وقال لهم إنى أعرف منكم بالبلاد وأخبر. فانصاعوا إليه. وقد نقم الألمان على العرب عملهم فكانوا يطلقون النيران على كل عربى يصادفونه انتقاما لإخوانهم من دون أن يفرقوا بين الموالى والمنشق.

وسارت هذه القوات إلى الطفيلة فدخلتها بعد مناوشة طفيفة دارت بينها وبين قوة الاستطلاع العربية. فقد انسحب الجند العربى قبل وصولنا وأبوا الاشتباك معنا وعاد جمال باشا إلى معان مع رجاله، وعادت القوات العسكرية إلى الكرك بعد ماأقامت حامية فى الطفيلة.

معارك معان

علمنا فى أوائل شهر فبراير من أقوال عيوننا وارصادنا أن الجيش العربى يعد معداته للهجوم على معان، وأنه قرر نسف الخطوط الحديدية شمالا وجنوبا وتدمير الجسور بالديناميت، ليحول دون إرسال ميرة وعتاد إلى القوات التركية فى الجنوب ليحملها على الاستسلام . فأرسل محمد جمال باشا فى طلب إمدادات ونجدات، لأنه كان يعتقد عجزه عن المقاومة - ورأى وكان اليأس قد سرى إلى نفسه - أن يذهب إلى دمشق ليتصل برجال القيادة ويفاوضهم ويطلعهم على الحالة، ويسعى لاستقدام قوات جديدة والظاهر أن سعيه جاء بعد أوانه فإنه لم يكد يغادر معان حتى أخذ العرب بمضايقتها.

ودارت معارك بيننا وبينهم حول محطات السكة خلال شهرى مارس وإبريل كان النصر فيه سجالا فيوم لنا ويوم لهم، وكان أعظمها شأنا معركة المدورة. فقد التحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض، وكان العرب يظهرون بسالة خارقة.

لا أذكر جيدا تاريخ اليوم الذى ابتدأ فيه الهجوم العربى على معان، وإنما أظنه وقع بين

٥ ـ ٦ إبريل فقد أخذت مدفعيتهم تطلق نيرانها بشدة على جبل سمنة وهو خطنا الأمامى. وبينما كان جيشهم يدخله فى المساء سمعنا أصوات الديناميت تدوى كالرعد القاصف من الشمال والجنوب ورأينا القضبان الحديدية تتطاير فأدركنا خطورة الموقف وعرفنا أننا أصبحنا فى عزلة عن العالم.

واستأنف الجيش العربى القتال فى الغداة. فأمطر خطوطنا الأمامية نيرانا حامية، ثم بدأ هجوم المشاة تشد أزرهم القبائل، فاستولوا بعد مقاومة طفيفة على المرتفعات القائمة بين معان وسمنة والمرتفعات الواقعة جنوبى المحطة (مركز القيادة التركية) وكان نصرهم عظيما فى ذاك اليوم فقد صارت معان ومحطتها تحت رحمة مدفعيتهم التى نصبوها فى جبل سمنة، وكان رصاصهم أيضا يصلنا.

وتراجعنا على أثر ذلك إلى الخنادق المجاورة وحشدنا قوانا فى خط الدفاع الأخير من المحطة، وقد أقمنا فى الجبل الملاصق لها، وفى الأكمة الواقعة على ١٠٠ متر من جنوبها. وأقمنا فى الخنادق الشرقية ـ والأرض هنالك منبسطة ـ نحو ٢٠٠ جندى للدفاع إذا هوجمنا من هذه الناحية مع مدفع واحد.

وكانت قواتنا فى معان منقسمة إلى قسمين: قسم البلد، وقسم المحطة، وتتألف القوة الأولى من فوج مشاة لديه ٤ رشاشات ومدفعان نمساويان سريعا الطلق يشد أزرهم المتطوعة من السكان، وقد انضموا مع نسائهم إلى الجيش وعددهم نحو ٣٠٠.

وتتألف قوة المحطة، وتبعد نحو نصف ساعة عن البلدة ـ من فوج مشاة و ٨ رشاشات مع مدفعين نمسويين ومدفعى صحراء وآخر من الطراز القديم وقد نصبوها فى الجبل المطل على المحطة وفى الهضاب الممتدة على طريق معان وشرقيها (المحطة) وجنوبها وشمالها ويقود هذه القوة القائمقام على وهبى بك.

وأصبحنا فى اليوم الثالث ونحن أمام العرب وجها إلى وجه يروننا ونراهم على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر، وكانت قنابلهم تتساقط علينا كالمطر، ونحن فى الخنادق والغرف فلا نستطيع أن نرفع رؤوسنا إلى أعلى. واستنجد قائدنا بدمشق وبالمدينة أيضا طالبا إرسال إمدادات سريعة، فأجابه فخرى باشا من المدينة بأن إمداده له هو الدعاء إلى الله بنصره وقالت دمشق يجب أن لا تستسلموا إلى العدو إلا جثثا هامدة.

وبدأ العرب صباح اليوم الرابع بهجوم عام فى جميع مناطق الميدان، وكانت مشاتهم

تتقدم ببطء وقد بلغ بعضها خنادق الترك، ولكنها ماكانت تثبت فى الميدان لعجز قوات البدو عن مجاراة النظاميين. فتتراجع أمام نيران الترك، ولا سيما أمام رشاشاتهم. فقد كانت تصليها حمما رغم تساقط القنابل العربية عليها.

واستولى العرب بعد نضال عنيف على آخر هضبة بجوار المحطة، وأصبحوا يسيطرون على الساحة، وكانت حالتنا أليمة جدا فى اليومين الخامس والسادس. فقد قلت ميرتنا، وكنا نوزع قطعة من الخبز المجفف مع قليل من الزيتون على الجندى، كما أصدر أمر إلى المدفعيين والمشاة بالاقتصاد فى انفاق القنابل والرصاص لنفاد المدخر لدينا، وقد كنا فى حالة يرثى إليها لفقد القوة الأدبية وصرنا عاجزين عن القيام بأقل حركة أمام الجيش العربى الزاحف، وأنهكنا التعب داخل الخنادق، ولم تكن مبينة على الطراز الحديث.

واشتدت مضايقة العرب لنا حتى أصبحوا على بضع خطوات منا، وكانوا يصلوننا نيرنا حامية من مدافعهم ورشاشاتهم، وكان رصاصهم يتطاير من الشبابيك والنوافذ فيدخل الغرف ـ كما تسلل بعضهم إلى داخل المحطة. واستدعينا القوة التى كانت فى الجبل حينما رأينا اشتداد الحال. فجاءت وطردت العربان من حول المحطة، ولولا وصولها لاستولوا عليها ونهبوها ولزادوا قوانا الأدبية وهنا على وهنها.

ولتعزيز هذه القوى وتنشيطها أذعنا بلاغا قلنا فيه أن الفيلق الثامن الذى يتقدم من القطرانة لإنجاد معان صار قريبا، وأنه سيدخلها ليلا، وأن عشائر العرب فى الكرك وجهات عمان قادمة لمساعدتنا، فنشط هذا البلاغ جندنا فى الخنادق وأنعشهم، وظهرت عليه علائم القوة، وأخذ رجاله يهنئ بعضهم بعضا.

وانقضى الليل ولم يصل الفيلق ولا العربان، فأذعنا بلاغا آخر قلنا فيه إن النجدات تأخرت لأسباب قاهرة، وأنها ستتصل فى هذا المساء.

وفى مساء اليوم السابع أخذنا إشارة لاسلكية من القيادة بأنها أرسلت فوجا مع عتاد وميرة ومدفعى صحراء لإنجادنا، وأن قوات الفيلق الثانى بقيادة أمير آلاى دلى شوكت أرسلت إلى محطة القطرانة لتعزيز قوات المحطات بين القطرانة ومعان ولصيانة طريق المواصلات، ولمنازلة الجيش العربى وقد بدأت شرانمه تهاجم المحطات بعد احتلال الطفيلة.

فى ذلك اليوم قبل وصول برقية القيادة المنشورة آنفا أرسل على وهبى بك برقية إلى الناصرة (مقر القيادة العليا للجيش التركى فى بلاد العرب يومئذ) والى دمشق يقول أن

الذخيرة نفدت من مستودعات الجيش، حتى لم يبق للجندى سوى خمس رصاصات وللمدفع سوى عشرين قنبلة وودع القيادة بجمل مؤثرة وقال أن هذه آخر برقية يرسلها وفعلا أمر بانزال عامود اللاسلكى فأنزل. كما أمر باعداد المعدات لنسف المحطة فى الصباح فلا يتسلمها العدو حين دخوله. وأبلغ الجند بأن يستعد للمقاومة بالسلاح الأبيض وأمر قيم المال بدفن مال القيادة - وكان لديها كمية من الذهب - فى حفرة يؤشر عليها إشارة سرية بعد دفنها، كما قرر حرق علم القيادة فلا يغنمه العدو.

وأشرقت شمس اليوم الثامن والعرب يمطروننا نارا حامية لم نر أشد منها فى الأيام الأولى. فقلنا إنها مقدمة هجوم عام على معان والمحطة، وكنا بانتظاره وقد قررنا المقاومة بالسلاح الأبيض. مع أننا لم نرقد فى ليلتنا تلك أكثر من ساعتين أو ثلاثة خوف الهجوم. وكنا ننتظر الدقيقة الرهيبة، دقيقة المعركة الفاصلة حيث يشتبك الجيشان بالسلاح الأبيض ولكن نيران العرب قد خمدت فجأة.

ودق جرس التليفون وأنا أنزل إلى مقر القيادة العامة تحت الأرض لأتلقى أخبار معان، فبشرنى بأن العدو انسحب من الخطوط الأمامية، وأنه يواصل تراجعه. فأبلغت هذه البشرى إلى على وهبى بك فدهش وكاد لا يصدقها. ثم صعد إلى ظهر الأرض ووجه منظاره نحو الجيش العربى فوجده يغادر الهضاب والأكمات المحيطة بالمحطة. فأدركنا حينئذ أنه لم يشدد نيرانه إلا سترا لانسحابه، وما هى إلا دقائق معدودات حتى انتشر الخبر بين الجند فأخذوا يتراكضون لاحتلال الأماكن التى جلا عنها العرب، كما بدأت مدفعيتنا باطلاق النار عليهم. فأصدر القائد أمرا إلى الجند بالرجوع إلى أماكنهم خوفا من أن تكون هنالك مباغتة، وعند الظهر رأينا مدفعية العرب تطلق مدافعها من جبل سمنة.

وقد اختلفت الآراء فى أسباب هذا الانسحاب وفى تعليله. خصوصا، وقد كانت معان على وشك التسليم بعد مانفدت ذخيرتها وميرتها، ولو هجم علينا العرب يوم انسحابهم لدخلوا معان بلا عناء، ولعل أقرب تعليل إلى الحقيقة فى نظرنا هو التعليل الآتى:

لما رأى القائد العام للجيش العربى أن الهجوم على معان طال أسبوعا ولم يقترن بنتيجة - مع ماضحى جيشه من ضحايا - أصدر أمرا بالانسحاب خوفا عل القوة الأدبية فلا تتزلزل ولئلا يؤثر ذلك فى نفوس أبناء العشائر، ومازادت خسارة الترك عن ٢٠٠ بين قتيل وجريح.

وشرعنا بعد ذلك فى العمل فأصلحنا السكة الحديد، وأنشأنا الجسر الذى نسفوه بين معان والجردونة، وجاءتنا النجدات والميرة والذخيرة وسيرنا قطارا إلى دمشق أرسلنا فيه الجرحى والمرضى. كما عززنا الدفاع عن معان وبثثنا الألغام حولها.

ولما شعر العرب بوصول النجدة ورجوع الترك إلى نشاطهم بدأوا بمهاجمة الجردوننة ونسف قضبان السكة الحديدية بين محطات الجردونة وعنيزة والحسا وجرف الدراويش.

ولابد لنا من الاعتراف بأن بقاء الجيش العربى فى جبل السمنة المطل على معان أزعجنا. فقد كان يصب نيران مدفعيته بدون انقطاع فى الصباح والمساء على مراكزنا ولذلك قررت القيادة استرداد هذا الجبل. فقمنا بحركة سرية. وما كدنا نستولى عليه حتى فاجأتنا القوات العربية فانسحبنا منه.

وقد انحصرت الأعمال الحربية فى خلال شهور إبريل ومايو ويونيو بمناوشات بسيطة اتجهت عناية العرب فى إبانها نحو الشمال فاشتبكوا مع الفيلق الثانى ـ بمعارك هائلة فى جهات الحسا. امتدت أياما استبسل فيها الفريقان، واحتفظ فيها الترك بمواقعهم.

وانتقل مقر الفيلق الثانى من القطرانة إلى عمان بعد استقرار الحالة فى تلك المناطق، وجه وجهه نحو جبل الدروز وحوران لمقاومة الحركة العربية وقد بلغ دعاتها تلك الأنحاء.

الجلاء عن بلاد العرب

وتكلم بعد ذلك عن جلاء الترك عن بلاد العرب فوصفه بقوله:

لما قررت القيادة العامة للجيش الإنجليزى القيام بهجومها الكبير على الجيش التركى، كان الجيش العربى قد أخذ أهبته فجاءت سرية منه ليلة ٢٤ سبتمبر فرابطت بين محطتى نصيب والمفرق وعطلت السكة. فعاد القطار الذى كان يسير من عمان إلى درعا أدراجه لانقطاع الطريق، ولما ذهب العمال لاصلاحه وجدوا الجند العربى لهم بالمرصاد فأصلاهم نارا حامية، فرجعوا وأبلغوا القيادة ما وقع.

وكنت أركب القطار الأول الذى غادر عمان ذلك اليوم إلى المفرق، فأخبرونا بما جرى، ولما تقدمنا قليلا وجدنا قوات العرب معسكرة هنالك فعدنا إلى محطة عمان وأخبرنا قائد

الفيلق فأمرنا بالسفر، ولما وصلنا إلى محطة الزرقا وجدناها تعج بطلائع الجيوش التركية المتراجعة من أمام الإنجليز.

ومما يؤسف له أشد الأسف ماحدث فى الزرقا بين الجيوش التركية نفسها فقد كان هنالك معسكر الجيش الرابع، ومعسكر الفيلق الثانى والثامن، وكان كل منهما ينافس زميله ليفوز بالسفر قبله، ولينال مكانا فى القطار ينجو به. وكان من أشد ما يبعث الأسى فى نفس الضابط التركى ما كان يجيب به الجندى الواقف أمام أحد العربات، حينما يحاول الصعود إليها - «ممنوع ياافندم» فقد جرد كل جيش من هذه الجيوش حرسا مسلحا لحماية العربات، ولمنع الضباط الآخرين من الوصول إليها.

وكان أول ما فعله الألمان أنهم أحرقوا كل ماكان عندهم من لوازم ومعدات لأن أرواحهم أثمن شيء فى نظرهم، ولم يزعجوا أنفسهم بحمل شيء، فكنت ترى الخيام الكبيرة والكراسى والمقاعد والمناضد مبعثرة هنا وهنالك فى محطتى الزرقاء وعمان وكان الترك يلتقطونها فى أول الأمر كأنها غنيمة باردة ولا يعرفون أنها ثقيلة، وأنهم لن يستطيعوا حملها.

وسار القطار بنا من محطة الزرقا ليلا إلى المفرق فبلغناها عند نصف الليل، وفى الصباح أمرونا بمغادرته ليرجع إلى معان فينقل الجرحى والمرضى والمدفعيات المرتدة من السلط.

وقبل شروق الشمس هاجم المحطة سرب من الطيارات الإنجليزية قادما من جهة الغرب فانتشر الضباط والجند على مسافة ٥٠٠ متر، وما كان فى استطاعتهم تجاوز هذه الدائرة لأن العرب كانوا لهم بالمرصاد.

ودنت الطيارات القادمة ولا يقل عددها عن الثلاثين من الأرض حتى أصبحت على ارتفاع ٤٠٠ متر، وأخذت باطلاق القنابل، فكان الجندى يبحث عن ملجأ يلجأ إليه فى تلك البطاح عبثا، وبعد أن أفرغت قنابلها بدأت باطلاق الرشاشات ففتكت بنا فتكا ذريعا ولا تسل عن عدد القتلى، فقد امتلأت بهم القفار وكان أنين الجرحى يصم الآذان.

ولم يطل غياب الطيارات أكثر من ساعتين فقد عادت وهبطت حتى أصبحت على ارتفاع لا يزيد عن ٣٠٠ مترا فأطلقت النار مدة ساعة ونصف ثم انصرفت بعد أن فتكت بالجند المذعور أشد فتك.

وقصد جمال باشا الصغير فى صباح ذلك اليوم مع أركان حربه درعا لتنظيم النقل، وظل فى محطة المفرق دلى شوكت بك قائد الفيلق الثانى لقيادة الجيش. وكان لسوء الحظ مريضا فى ذاك اليوم. فكان ينظر من صالون القطار إلى تلك الجنود المنتشرين فى تلك الصحراء وقنابل الإنجليز تفتك بهم وهو عاجز عن العمل. وكان الفيلق الثامن حتى تلك الساعة فى عمان بقيادة ياسين الهاشمى، وقد سارت بعض خيالته وفرقه إلى محطة المفرق وكانت القطارات تروح وتغدو بين هذه وعمان فقط. لأن الجيش العربى سبق فقطع الطريق بين درعا والمفرق وعطل السكة الحديدية فاضطرت الجنود التركية المتراجعة إلى الوقوف فى الأخيرة، ولولا ذلك لواصلت سيرها إلى دمشق ناجية. وقد أدى ذلك إلى إلقاء الذعر والاضطراب فى صفوف الترك، وإلى تلاشى القوى الأدبية، فكان الضباط من الملازم الثانى حتى القائمقام لا يفكرون إلا فى النجاة، وزاد الطين بلة ماشاع حينئذ وهو أن جبل الدروز قد ثار وانضم إلى العرب، وأن الثوار مرابطون فى الجهة الغربية للانقضاض على الجيش التركى، وأن الإنجليز احتلوا الأماكن التى جلا عنها الترك فى الجنوب، وأنهم يزحفون من الوراء. أضف إلى هذا أن طيارات الإنجليز ماكانت تتركنا دقيقة واحدة. فقد هاجمتنا فى المفرق وفتكت بنا فتكا ذريعا. وكان الجنود و الضباط الترك يشتمون أنور وطلعت وجمال شتما شنيعا، لأنهم أوصلوا البلاد إلى هذه الحالة، ولو كانت أمامنا قوات عربية منظمة لاستسلم الكل إليها فى تلك الساعة، وقد بلغ منا اليأس أشده.

وللمرة الرابعة عاودتنا الطيارات الإنجليزية فى اليوم نفسه، وفى محطة المفرق نفسها وعددها يقارب الأربعين فقذفت قنابلها علينا بنشاط لم نعهده فى المرات الثلاث الأولى، غير تاركة شيئا وغير راحمة الجرحى، وقد كانوا فى عربات وضعنا عليها شارة الهلال الأحمر وسقطت إحدى قنابلها فى مستودع الذخيرة والعتاد التركى فانفجر فسرت النار فى المعسكر فكانت مجزرة من أفظع المجازر حتى بلغ اللهيب عربات المرضى والجرحى فكانوا يطلبون المعونة والنجدة، ولا من مغيث وقد دمرت المحطة وأصبحت شعلة نار.

ولما أمسى المساء تلقينا أمرا بأن نسير على أقدامنا فغادرنا محطة المفرق تاركين كل شيئ، وكانت النار لا تزال تضطرم، وكنا نذرف الدموع على حالتنا الأليمة، وعلى إخواننا وماكدنا نبتعد قليلا حتى توقف الكشافة لأنهم أبصروا شرذمة من البدو واقفة فى الجهة الغربية، وقد ظل الجيش كله واقفا نحو ساعة حتى استطاع أحد القواد تدبير قوة من الجيش لا يزيد عددها عن المائتين لطرد الشرذمة، وقد ظهر أنها وقفت للفرجة لا للقتال،

وكان الجنود يفرون يمينا وشمالا بعد ما يرمون أسلحتهم فى داخل العربات القطار ناجين بأنفسهم بعد ما خمدت الروح الأدبية فى صدروهم.

وسرى الجند التركى الليل بطوله، وكنت فى المقدمة مع بعض الضباط فبلغنا عند شروق الشمس محطة «قم عرز» الواقعة على خمسة كيلو مترات من درعا إلى الجنوب.

وكانت مغلقة، وكانت أمنيتنا الكبرى أن نجرع جرعة من الماء ولم نذقه من ٢٠ ساعة وكان الجيش قد أشرف على الهلاك من العطش فهتفنا بقائد محطة درعا وطلبنا منه أن يسير قطارا مملوءا ماء فأرسله، وما كدنا نبتعد قليلا عن هذه المحطة حتى جاءت الطيارات الانجليزية عند الصباح لتعيد عملها أمس.

وبعد ساعتين من دخولنا محطة درعا بلغها الجيش المنسحب، وكانت ملأى بالجيوش المنهزمة من فلسطين وقضينا يوم ٢٦ سبتمبر فيها، فزارتنا الطيارات الإنجليزية مرتين وكان مفعولها أقل.

هذا ماجرى بالقوات التى كانت فى المحطات، والتى عادت من ميدان القتال فى فلسطين أما قوات معان فقد تلقت أمرا بالانسحاب بسرعة إلى عمان - درعا فتراجعت يوم ٢٣ سبتمبر على طريق السكة الحديد منسحبة تحت حماية المدفعية، وكانت تمنع الجيش العربى عن اللحاق بها، وقد انضمت إليها فى تراجعها القوات التى كانت مبعثرة هنا وهنالك. ووصلت إلى محطة الجيزة (قرب عمان) بعد سفر الفيلق الثامن بيوم واحد. وهنالك باغتها الإنجليز، وأحاطوا بها فاستسلمت إليهم فأرسلوها إلى القدس أسيرة.

قال المؤلف وأسعدنى الحظ وقد كنت مريضا من التعب والماء القذر الذى شربته فركبت فى القطار الخاص الذى أعد فى درعا لقواد الجيش وكبار الضباط الألمان، وعندما بلغنا محطة الكسوة نزل جمال باشا الصغير منه، وأخذ يعمل لتأليف فوج من الجند يرابط للدفاع، فلم يوفق إلا بعد عناء عظيم.

وكان من جراء الاستقلال العربى فى دمشق وانقطاع المواصلات بين دمشق ورياق أن بق عدد عظيم من الضباط والجنود الترك فى تلك المدينة لا يقل عددهم عن ألف وخمسمائة تسلمتهم الحكومة العربية. كما تسلمت الأسرى الآخرين من الترك ولا يقل عددهم عن العشرين ألفا.

فى ميدان الحجاز

هذا بعض ماجرى فى الشمال حتى دخول دمشق. أما ما جرى فى ميدان الحجاز بعد سفر الجيش الشمالى، فخلاصته أن جيش الجنوب بقيادة الأمير على، وجيش الشرق بقيادة الأمير عبد الله أقاما على حصار المدينة وكان الأمر لا يخلو من مناوشات تدور بين الفريقين، وكان الجنود الترك والضباط يفرون بلا انقطاع لاجئين إلى المعسكر العربى، ودام الحال على هذا المنوال حتى عقدت الهدنة بين الحلفاء والترك يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨، وقد جاء فى المادة ١٦ منها ما يقضى على الترك باسترداد قواهم من جميع البلاد العربية.

ففى أوائل شهر نوفمبر أبلغ الأمير على فخرى باشا نص معاهدة الهدنة، ودعاه إلى الاستسلام فأبى - كما أبى الإصغاء إلى الأوامر التى صدرت إليه من الآستانة باللاسلكى وهى تدعوه إلى التسليم، بحجة أنها خدعة حربية - وفى يوم ٢٨ نوفمبر وصل الأمير على إلى بير درويش ومعه الكابتن غارلند ضابط الارتباط الإنجليزى، ودعوا فخرى باشا إلى الاستسلام فأبى أيضا، فكررا الطلب للمرة الثالثة فرفض.

ولما رأى الحلفاء إصراره خاطب المندوب السامى البريطانى الحكومة العثمانية فى الأمر فانتدبت وزارة الحربية ضابطا حمل شروط الهدنة، وأمرا رسميا من وزير الحربية إلى فخرى باشا بالتسليم فورا، ولما وصل هذا الضابط إلى معسكر المدينة وسلم الكتب إليه أبى أيضا بحجة أن للمدينة مقاما قدسيا عند المسلمين، وأنه لن يستسلم وهو حى فعاد الضابط كما جاء وعاد الجيش العربى إلى التشديد والتضييق.

وعلم ضباط الحامية بما وقع، وكانوا فى أشد حالات الضيق، فاتفقوا فيما بينهم برئاسة كورامين بك رئيس أركان حرب الحملة على خلع فخرى باشا، وتسليم المدينة إلى العرب وكتبوا نشرات أذاعوها بين رجال الجيش. ولما اتصل ذلك بفخرى باشا وعرف أن رئيس أركان حربه يتآمر عليه كاد يفتك به، ففر هذا مع فوجين من آلالاى ٥٥ واستسلم فاحرج ذلك مركز هذا، فأمر يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٨ بالجلاء عن منطقة العلا وضم قواتها إلى قواته فى المدينة لتعزيز مركزه فزاد ذلك فى نقمة الضباط والجند وفرت سريتان من سرايا الفوج الثانى للآلاى ٤١ المرابط فى العوالى مع رشاشتين وجانب من المدفعية وانضمت إلى العرب فعجل فخرى باشا بالجلاء عن منطقة العوالى يوم ٢٥ منه كما جلا عن بير الماشى.

وتتابع بعد ذلك فرار وحدات الجيش التركى واستسلامها إلى العرب حتى أسقط فى يد فخرى باشا، وعرف أنه لم يبق عنده من القوى مايكفيه للدفاع عن خط واسع فارتد إلى خط الدفاع الثانى، ولما توالى الفرار، وأدرك أنه لا فائدة من المقاومة لسريان روح التمرد والعصيان بين أفراد الجيش، وتضعضع القوى الأدبية أرسل وفدا يوم ٤ يناير سنة ١٩١٩ إلى بير درويش لمقابلة الكابتن غارلند ومفاوضته والاتفاق معه على شروط التسليم فتم ذلك يوم ٧ منه، ووقع على الاتفاق بين الأمير على والكابتن غارلند ممثل الحلفاء من جهة وفخرى باشا من جهة أخرى، وفى يوم ١٠ منه وصل هذا إلى مقر الأمير على فى بير درويش، وسلم نفسه. وفى يوم ١٦ منه وصلت أول قافلة من الجيش التركى المستسلم إلى ينبع فركبت البحر إلى مصر، وتتابع سفر الأسرى حتى يوم ١٣ فبراير فلم يبق منهم أحد.

ومما يستحق الذكر أن حكومة الأستانة أرسلت وفدا إلى المدينة قوامه حيدر منلا بك وزير الحقانية، والأميرالاى أحمد بك يحملان إرادة سنية من السلطان إلى فخرى باشا بوجوب التسليم عملا بالاتفاقيات المعقودة، فبلغا الحجاز يوم ١٤ يناير أى بعد استسلامه بأربعة أيام.

وهذا بيان القوات التركية التى استسلمت فى المدينة:

الفرقة ٥٨ المشاة وتتألف من أربع آلايات ٤١و ٥٥ و ١٦٢و ١٧٨ مع رشاشاتها وفوج الدرك السيار، والسرية السلطانية وكتيبة الهجوم، وكتيبتا الهجانة والبغالة مع رشاشاتها، ومجموع ذلك ١٠١٤٠ جنديا و ٦٩٠ ضابطا لديهم ١٤٩٧٦ بندقية و ١١٩٨ دابة و ٨ مدافع صحراء، ومثلها جبلية سريعة الطلق و ٤ مدافع أبوس و ٦ جبلية أخرى سريعة الطلق و ٢٢ مدفع ما نتللى و٥ مدافع جبلية عادية و٧ مدافع ذات الفتيل و ٣ مدافع صغيرة.

ولا يشمل هذا الاحصاء القوات التركية الأخرى التى استسلمت للعرب بعد ذلك وهى قوات تبوك وبقية الحاميات الأخرى على طول السكة الحديد حتى معان. ولا يقل عدد أسرى الترك الذين استسلموا للعرب عن ٤٠ ألفا.

وهذا نص الاتفاق الخاص بتسليم المدينة:

«توفيقا للمادة ١٦ من معاهدة الهدنة المعقودة بين دول الحلفاء وتركيا تقرر بين صاحب السمو المعظم الأمير على باسم الحكومة الهاشمية، والكابتن غارلند البريطانى بالنيابة عن دول الحلفاء، وبين الهيئة الموقعة فى ذيله المرسلة من قبل قائد القوات التركية فى المدينة

إخلاء المدينة وتسفير القوات التركية إلى بلادها بموجب الشروط الآتية:

١ ـ نظرا لضعف الأمراء والضباط والجنود العثمانية الذين سيخلون المدينة يتوسط ويسعى صاحب السمو المعظم الأمير على باسم الحكومة الهاشمية لدى دول الحلفاء المعظمة لارسال الجنود التركية إلى بلادها.

٢ ـ بعد مرور ثمانية وأربعين ساعة من إمضاء هذه الشروط يلزم على القائد فخر الدين باشا أن يترك المدينة المنورة، وفي معيته كل من ينتخبه من الأمراء ويأتي إلى مقر سمو الأمير على في (بئر درويش) ويحل في منزله ضيفا معززا ومكرما.

٣ ـ إن القطاعات العسكرية الموجودة في داخل المدينة المنورة وجوارها تجتمع في داخل المدينة المنورة والقطاعات الموجودة على الخط الحديدى تجتمع أيضا في مركز (البويرة) والأسلحة الخفيفة والثقيلة مع جميع ذخائرها تهيأ في المواقع المذكورة بموجب كشف، وتسلم بموجب مضبطة قبل سفر القطاعات التركية إلى هيئة المأمورين المندوبة من قبل صاحب السمو المعظم الأمير على. وبعد نقل القطاعات المجتمعة في مركز (البسويرة) بالقطار الحديدى إلى (بواط) يجرى سوقهم إلى (ينبع النخل) بواسطة الجمال وإذا صعب سوق القطاعات المذكورة من (بواط) يجتمعون بسلاحهم وذخائرهم في المدينة المنورة ويجرى بعده تسليم السلاح والذخيرة وعندها يهيأون للرحيل، وأن الأسلحة الثقيلة الخاصة بقطاعات (جليجلة) و (علاوة) تنقل إلى المدينة المنورة بواسطة الحيوانات التى ترسل من جيش سمو الأمير على وأن الأسلحة الخفيفة وذخائرها سيجرى تسليمها في (جليجلة) وبعده يجرى نقل القطاعات عند وصول الجمال إليها في المحل المذكور.

٤ ـ توفيقا للمادة الثالثة عشرة من معاهدة الهدنة تسلم القطاعات التركية الأسلحة الخفيفة والثقيلة والذخائر وجميع المهمات الحربية والتلغراف واللاسلكى وجميع الآلات والأدوات المماثلة، ويجب أيضا تسليم الخط الحديدى مع قطاراته ومحطاته وجميع لوازمه بصورة سليمة، وبدون أن يطرأ عليها أقل تخريب. إن الألغام والمواد المتفجرة الموضوعة في المحلات المختلفة تجمع من قبل واضعيها بدون أن يحصل قضاء ما.

٥ ـ الأسلحة والأشياء المدرجة في متن المادة الرابعة تحضر من طرف المأمورين المخصصين لهذه الغاية، وتسلم بموجب كشف، ويمقابل مضبطة من طرف الهيئة

المعينة من قبل صاحب السمو المعظم الأمير علي.

٦ ـ جميع الحيوانات الأميرية تسلم من قبل القطاعات إلى الهيئة المنتخبة من قبل سمو الأمير علي بموجب كشف منظم بمعرفة البياطرة الموجودين في المدينة.

٧ ـ إن الأشياء الذاتية العائدة لشخص الأمراء والضباط، كمثل النقود والنواظير والأشياء الذاتية المماثلة لها، والأشياء الذاتية العائدة للجنود العثمانية كمثل النقود وغيرها. إن كل هذه الأشياء المذكورة أعلاه لا تمس بضرر ما، ويسمح لحامليها بأخذها.

٨ ـ يتفضل سمو الأمير بتخصيص جملين لكل أمير من الأمراء، وجملا واحدا لكل من الضباط والمأمورين وجملا واحدا لكل فرد من الجنود ويعين لكل قافلة ألفا جمل أو ما يقارب هذا المقدار.

٩ ـ يسعى بكل همة لترحيل الأمراء والضباط والجنود والمرضى في قوافل على أن تكون الفاصلة بين القافلة الأولى والثانية من خمسة إلى ستة أيام وعلى كل قافلة أن تستصحب معها مئونة عشرة أيام من الأرزاق، وعدا ذلك يعطى إلى المرضى علاجاتهم وكل ما يلزم من المواد الطبية، وأن بطانيات الجنود وألبستها وجميع أدوات مطبخها وما يلزم لوضع مائها وكل ما يلزمها في طريقها يتدارك ويعطى من قبل القيادة التركية في المدينة، وكلما يقتضي لأجل نقل الأشياء المذكورة أعلاه يتفضل بإعطائه سمو الأمير، ويخصص من جمال القافلة في المائة عشرين للمرضى ويخصص أيضا جملا واحدا لأجل الأفراد الذين مرضهم خفيف ولأجل مساعدة الطبيب يرسل طبيبان وبمعيتهم الأفراد اللازمة من الصحية لأجل تطبيب المرضى المرسلين في القوافل.

١٠ ـ بعد مرور أسبوع على امضاء هذه الشروط يبتدئ سوق أول قافلة.

١١ ـ المنزل الأول ويكون (الحفر) والثاني (مضيق بواط) والثالث (رأس البئر) والرابع (ينبع النخل) والقافلة التي تصل إلى هذا المنزل تنتظر فيه مجئ الوابور غير أن المرضى يساقون رأسا إلى (ينبع البحر) وتؤمن راحة القوافل الواردة إلى (ينبع النخل) من قبل البكباشي محيي الدين بك.

١٢ ـ تجرى النقليات على الجمال ما بين (ينبع النخل) و (ينبع البحر) بمعرفة المأمورين

المخصوصين لهذه الغاية وعلى الوجه المذكور أعلاه.

١٣ ـ إن مسألة الاركاب فى البواخر وما يقتضى من التسهيلات لها تدبر من قبل قائمقام القضاء ومعاونة البكباشى برايت بك.

١٤ ـ إن الجمال المرسلة إلى المدينة المنورة لأجل نقل وسوق القوافل تجتمع فى (عروة) وبعده تقسم على القطاعات والمؤسسات المهيأة للحركة وترسل إليها.

١٥ ـ تدخل هيئة الاستلام إلى المدينة المنورة عقب خروج حضرة فخر الدين باشا منها.

١٦ ـ بعد خروج أول قافلة من المدينة تحتل الجنود الهاشمية النقاط اللازمة الموجودة فى محيط المدينة. وتضمن الراحة العمومية إلى أن تخرج آخر قافلة منها، ويضمن سمو الأمير عدم دخول العربان والأهالى إليها.

١٧ ـ إن النقود والأوراق النقدية الموجودة فى خزائن القطاعات والمؤسسات توفيقا لأوراقها الرسمية والحسابية المنظمة فى داخل كشف تسلم بموجب مضبطة إلى الهيئة المنتخبة.

١٨ ـ يؤذن للقطاعات والمؤسسات أن تأخذ الدفاتر والأمانات والمخلفات الموجودة لديها لأنهم مجبرون على ابرازها أمام حكومتهم.

١٩ ـ تشكل هيئة من الأشراف ومشايخ القبائل المحلية لأجل منع الأضرار والتعديات حين انسحاب القوات على الخط إلى (بواط) والمدينة المنورة من أول محطة إلى آخر محطة.

٢٠ ـ يلزم بقاء مستخدمى الحرم الشريف والخزينة النبوية فى وظائفهم إلى مدة شهر ونصف إلى أن يعين غيرهم فى محلهم ومعاشاتهم تصرف لهم كالسابق.

٢١ ـ يمكن البقاء فى المدينة لمن يرغب من المأمورين الملكيين والمجاورين فيها.

٢٢ ـ يستوفى أصحاب الحقوق حقوقهم من المبالغ العائدة للملكية والمحكمة الشرعية والخزينة النبوية وبعد ذلك يسلم الباقى من المبالغ المذكورة بموجب دفاترها للهيئة المنتخبة بمقابل مضبطة.

٢٣ ـ على دائرة البريد أن تعيد المبالغ المرسلة من قبل الضباط والجنود العثمانية إلى عائلاتهم بواسطة اليوزباشى ضياء بك، لعدم إرسال هذه الحوالات إلى أصحابها.

٢٤ ـ يبقى موظفو المطاحن والكهرباء وما يلزم من المقدار الكافى من المأمورين العائدين لسوق القطاعات إلى حين سفر آخر قافلة، ويستمر هؤلاء فى وظائفهم وتصرف لهم معاشات كالسابق.

٢٥ ـ أن المرضى الموجودين فى المستشفيات، والذين يصعب تقلهم لشدة مرضهم يوضعون فى مستشفى أو اثنين، ويترك لكل مائة منهم لأجل معالجتهم طبيبا وصيدليا واحدا.

٢٦ ـ بعد تفريق ما يلزم أخذه من الأدوية والرباطات لأجل الطريق يترك ما بقى إلى الحكومة الهاشمية، ويسلم إلى مفتشى صحتها.

٢٧ ـ على الأشراف المكلفين بسوق القافلات أن يرشدوا إلى كل ما يقتضى لأجل المحافظة على المرضى فى المنازل عند المساء، ولأجل إعطائهم شايا وشوربة حارة.

٢٨ ـ الطرفان مجبران على تطبيق أحكام هذه الشروط.

٢٩ ـ نظمت هذه الشروط فى نسختين بالعربية والتركية فى مقر قيادة سمو الأمير على فى (بئر درويش) فى يوم الثلاثاء الموافق ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧ و ٧ كانون الثانى سنة ١٩١٩م ـ سنة ١٣٣٥ رومية عند الساعة تسعة غروبية.

معتمد دول الحلفاء فى الحجاز	الأمير
يوزباشى غارلند	على بن حسين
قائد منزل القوة السفرية	قائد الفرقة (٥٨) المنسوبة للقوة السفرية
امير آلاى عبد الرحمن	أميرآلاى على نجيب
رئيس لوازمات القوة السفرية	وكيل رئيس أطباء القوة السفرية
قائمقام صبرى	يوزباشى كمال

مساعدة العرب العسكرية للحلفاء وقيمتها

على هذا المنوال انتهت الحرب التى أوقدها العرب على الترك الذين ظلموهم وأذوهم، فقد ختمت بالحجاز بعد ماقاتلوا على كل شبر أرض تقريبا. سواء فى مكة أو الطائف أو

جدة أو المدينة بالانتصار التام، وباستسلام قوى الترك إليهم وماكان عددهم يقل عن عشرين ألف مقاتل مجهزة بأفضل الأسلحة الحديثة ـ وقد فصلنا ذلك من قبل ـ كما ختمت فى الشام بفوزهم على الترك فى معظم المعارك التى اشتبكوا معهم فيها، وبقطعهم خط رجعة الجيش التركى المتقهقر من فلسطين ووادى الأردن ومنطقتى معان وعمان وتمزيقه وما كان يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، فقد ارتد على جناح السرعة من دون أن يشتبك مع، الإنجليز فى قتال بسبب ظهور العرب وراء خطوطه يضربون ويقتلون، وينسفون ويخربون، فانسحب بسرعة، لكيلا يقع بين نارين. فكان فى ذلك القضاء المبرم عليه وكان ذلك سببا فى تشتته ونيل الجيش البريطانى نصرا لم يحلم به، ولولا جهود العرب فى الصحراء، وقطعهم الطريق على الجيش العثمانى ومهاجمتهم للمحطات على طول الطريق، وإمعانهم فى رجاله قتلا وأسرا لما وقع ما وقع ولارتد الجيش سالما ولأنشأ خطوط دفاع جديدة فى حوران وحول دمشق.

ولقد سلم الترك والألمان بهذه الحقيقة قبل الحلفاء. وقد أنكر بعض هؤلاء ويا للأسف على العرب حقهم، فقال المارشال ليمان فون ساندرس القائد العام للجيوش التركية فى بلاد العرب ـ وقد تم فى عهده الانهزام والجلاء فى مذكراته التى نشرها بعد الحرب ما نصه:

«ولقد اتفق شريف مكة وأميرها مع الإنجليز فى صيف ١٩١٦ على الاشتراك فى الحرب وأعلن استقلاله، فنشطت بذلك حركات العرب الثورية فى بلاد الشام، وكان الحلفاء يحمونها واتسع نطاقها ـ خصوصا بعد افلاس سياسة الشدة التى سار عليها جمال باشا فى معاملة الشعب العربى.

«ولقد أراد أنور باشا إعداد حملة عسكرية كبيرة تزحف على مكة وتنصب أميرا جديدا عليها. بيد أن عدم ملاءمة الظروف الحربية وعدم جواز اشتراك جنود مسيحيين فيها حال دون اتمامها فعدل عنها. ولقد أدت الثورة العربية خدمات عظيمة للجيش البريطانى خلال تقدمه فى شبه جزيرة سيناء. فكان الإنجليز آمنين مطمئنين يفعلون ما يشاءون، كأنهم فى داخل بلادهم. بعكس الترك الذين مقتهم أهل البلاد وملوهم، فكانوا يسوقون جيوشهم كأنهم فى بلاد معادية لهم.

«ولايخفى أن المستر تشمبرلن أبرق يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٥ إلى نائب الملك فى الهند

يقول له: إن العرب لا يزالون مترددين فى الانضمام إلينا فإذا لم نستملهم بمنحهم امتيازات تطمئن قلوبهم إليها فقد لا ينفصلون عن الترك» وتبدل الحال حينما رجحت كفة الإنجليز فى بلاد العرب، وحينما اعترفوا باستقلال هؤلاء، فانضم الشريف إليهم وأدى خدمات جليلة للحلفاء فى بلاد العرب، ولقد كانت السكة الحجاز عرضة للتدمير والتلف كل يوم، وخصوصا بعد أن احتل الجيش العربى العقبة، وأصبح الأمير فيصل ـ وقد عرفته فى الأستانة وأعجبت بمزاياه فى جانب أعدائنا ـ ولا ريب أن خطأ الحكومة التركية العظيم فى سياستها العربية هو الذى ألقى مثل هذا الأمير الكبير فى صفوف الأعداء، وسبب فصل قطر كبير من الأقطار العربية عنها وانضمامه إلى خصومها.

«وعلمت سرا فى ١٠ مايو سنة ١٩١٨ أن حكومة الأستانة ترغب فى أن تعهد إلى بالأشراف على الشئون الإدارية لسورية، علاوة على مهام القيادة العسكرية، وفعلا عرضت ذلك بواسطة أنور باشا، فاعتذرت بكثرة مهامى العسكرية، ولما ألح كررت الاعتذار، وما كنت أجهل أن الانحلال سرى إلى الإدارة التركية الملكية فى سورية لسوء معاملة الموظفين، كما أن النفرة من الترك استحكمت فى قلوب السوريين.

«وفى النصف الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩١٨ تلقيت بواسطة جمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع اقتراحا من الشريف فيصل يقول فيه «أنه مستعد للانضمام بجيشه العربى إلى الجيش التركى إذا اعترفت تركيا باستقلال العرب وتعهدت بمساعدتهم فى إنشاء حكومة عربية مستقلة، وأنه فى هذه الحالة يتعهد بأن يتولى قيادة جبهة نهر الأردن الشرقية» ومما جاء فى هذا الاقتراح قوله «ولما كان الجيش البريطانى على وشك القيام بهجوم عام فى جهة الأردن الغربية، فأنه يصبح فى استطاعة الترك إذا نفذ هذا الاقتراح استخدام جيشهم الرابع لصد الإنجليز».

فأبرقت على الفور إلى هذا بواسطة رئيس أركان حربى كاظم باشا بأن يفتح باب المفاوضات مع الأمير فيصل، كما أبرقت إلى أنور باشا بما وقع، وطلبت إليه تقديم الضمانات اللازمة بسرعة ليتم الاتفاق فلم أحظ برد ـ لا من أنور ولا من جمال، ولذلك لا يمكننى الكلام عن الاقتراح غير أنى فهمت من كاظم باشا رئيس أركان حربى أن الترك لا يثقون كثيرا بصحة هذه المقترحات».

وقال فى مكان آخر: «وفى يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٨ علمت أن جموعا عربية غفيرة

تجمعت فى شرق الشام وجنوبها. وكانت حالة الشام الأدبية ـ وقد تحولت تحولا سريعا ـ تبعث على الحذر والخوف، فقد كثر توارد رجال القبائل المسلحين إلى دمشق، وكانوا يتجولون فى أسواقها ويطلقون الرصاص إعرابا عن فرحهم وسرورهم، وكان الدمشقيون يتهافتون علنا على قراءة منشورات الطيارات الإنجليزية، وكانت تلقيها بكثرة فتزداد بذلك الدعوة العربية انتشارا. وبدأت الفوضى تسرى إلى جميع فروع الأعمال كما كثر ورود جواسيس فيصل ورجاله، وكانوا يدعون الناس إلى الثورة والانتقاض. واتصل بى أن كثيرا من أهل دمشق هيأوا العلم العربى فى دورهم استعدادا لإعلانه، وقد رفع على دمشق يوم ٢٩ سبتمبر، وأطلق بعضهم الرصاص على قوافل الجيش فأوقفها ونهبها كما أطلق الرصاص على آخر قوة تركية مرت فى أسواق دمشق، وغادر آخر جندى تركى محطة القدم مساء ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ بعد أن خسر الترك كثيرا من جندهم فى تلك المحطة وفى الطريق، لأن السكان كانوا يهاجمونهم».

وقال الكاتب التركى الذى نقلنا عنه وصف معارك معان فى هذا الموضوع:

«ولولا وجود جيش عربى وقف موقف العداء من الترك فى جزيرة العرب وفى ساحة حربية طولها ألف كيلو متر لما تم للجيش البريطانى إحراز ما أحرزه من النصر بهذه السرعة العظيمة وبدون كبير عناء. وإلى الجيش العربى يعود الفضل فى بلوغ الإنجليز قلب البلاد العربية واحتلال القدس والمرابطة أمام السلطة وجناحهم الأيسر مكشوف. ولولا هذا الجيش لكان فى استطاعة الترك القيام بحركة التفاف واسعة النطاق على الجيش البريطانى وإجباره على التراجع».

هذا من الجهة الواحدة. أما من الجهة الأخرى فقد عطل العرب للترك نحو أربعين ألف مقاتل بأسلحتها الكاملة، كان فى الإمكان حشدها فى ساحة فلسطين أمام الإنجليز ومنعهم من التقدم».

لقد كان فى المدينة المنورة مالا يقل عن ١٥ ألف جندى بقيادة فخرى باشا، وكانت قوات الفيلق الثانى المرابط فى القطرانة لحماية المحطات لا تقل عن عشرة آلاف. وما كان عدد القوات التى كانت فى تبوك بقيادة بصرى باشا يقل عن أربعة آلاف. يضاف إليها قوات العلا بقيادة على نجيب بك ومجموعها ثلاثة آلاف جندى، وذلك عدا الرشاشات والمدفعية

القوية والمحطات اللاسلكية والطيارات وغيرها، فلو وقفت هذه القوات في وجه الجنرال اللنبي هل كان في إمكانه بلوغ نابلس والشريعة ودخول دمشق - اللهم كلا.

إن المساعدات التي أداها الجيش العربي من يوم تكوينه حتى ختام الحرب عظيمة. وقد كان العامل الأول في ارتباك القيادة التركية وعجزها عن وضع خطط حربية ثابتة. كما كان إصرار بعض قواد الترك على عدم الجلاء عن الحجاز من جملة هذه العوامل.

ومن يمعن النظر فيما أصاب جيوش الجنرال اللنبي عند دخولها السلط وعمان في التلول يتبين صحة هذه النظرية. فقد أوقف هؤلاء خيالة الإنجليز بضع ساعات، وصل خلالها فوج من درعا مع رشاشاته، فاشترك في المعركة، وهزم الإنجليز وقضى على خططهم وتدابيرهم، وكانت ترمي إلى قطع خطوط مواصلات الجيش الرابع - إذن فمنع أربعين ألف جندي تركي من الاشتراك في حروب فلسطين، وشل حركة الترك في بلاد العرب من الأمور الخطيرة التي لا يستهان بها، ولولاها لما تسنى للانجليز دخول تلك البلاد.

وهنالك أمر آخر لابد من التنويه به - وهو تأثير الجيش العربي في المعركة الفاصلة، فقد ضرب الجيش التركي ضربة قاضية أثناء ارتداده، وأجهز عليه مما حير القيادة التركية العليا وأذهلها.

لقد كانت القيادة التركية تعمل على اكتساب ود القبائل العربية وتبذل لها العطايا والأموال والأرزاق بدون حساب، وقد فازت بعض الفوز في أول الأمر. على أن ظهور الجيش العربي في صحراء الشام أثر في هذه القبائل، وحملها على الانضمام إليه. فخسرنا خسارة كبيرة. يضاف إلى هذا وهذا ما أثرته الثورة في النقليات العسكرية. فقد كان معظم القاطرات البخارية والعربات مشغولا على الخط الحجازي، مما أدى إلى إهمال النقليات على خط دمشق رياق، وبقية الخطوط الأخرى، وتنظيم النقل في مقدمة وسائل الظفر في الحروب. ولولا ثورة الحسين لما تسنى للجيش الإنجليزي اختراق فلسطين ولقضى عليه قضاء مبرما نهائيا في صحراء سينا.

أقوال رجال الحلفاء عن فعالية الجيش العربي
١ - شهادة اللورد اللنبي

جاء في التقرير الرسمي الذي أرسله اللورد اللنبي يوم ٢٨ يوليو سنة ١٩١٨ إلى وزارة

الحربية البريطانية عن أعمال الجيش العربى مانصه: «أشكر لجلالة الحسين بن على ملك الحجاز إخلاصه لقضية الحلفاء، ولا أملك نفسى عن توجيه عاطر الثناء إلى سمو الأمير فيصل لما أظهره من براعة فى القيادة، وعلى اخلاصه القلبى على ما أبداه من بسالة ومهارة فى الأعمال العسكرية التى عملها الجيش العربى. وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة فى الحصول على نتائج فاصلة فى الحرب».

وقال فى التقرير الختامى الذى رفعه فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ عن سير الحرب:

«وقد ساعدنا الجيش العربى مساعدة عظيمة القيمة، بقطع مواصلات العدو قبل القتال وبمعاونته لفرساننا فى أثناء الزحف على دمشق، فقد رابط على الطريق الذى تقهقر منه العدو الشمالى درعا، فحال دون فرار جانب من الجيش العثمانى الرابع، وأنزل بالعدو خسارة كبيرة».

٢ ـ شهادة فرنسوية رسمية

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٩١٩ سلم الجنرال مورداك رئيس ديوان المسيو كلمنصو الحربى الأمير فيصلا وسام الصليب، وشارة سعف النخل مع كتاب هذا نصه:

«أنه أمير يشار إليه بالبنان، مملوء من الحمية والنخوة، أيد بعزم وطيد قضية أبيه جلالة ملك الحجاز منذ سنة ١٩١٦ ليخلع النير التركى، ويساعد الحلفاء، وكان ملازما لجنوده، ونظم عدة هجمات حربية مهمة على السكة دمشق ـ المدينة المنورة، وقاد فيها بنفسه، واحتل العقبة والوجه من شهر أغسطس إلى شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ وهجم هجمات كثيرة فى الجهات الجنوبية والشمالية من معان، واستولى على عدة محطات، وأسر عددا كبيرا من الأسرى واشترك فى تمزيق شمل الجيش الرابع والجيش السابع والجيش الثانى والجيش الثامن من العثمانيين، بقطعة مواصلاتها فى شمالى درعا وجنوبها وغربها، ثم دخل مع جنود الحلفاء دمشق فى أول سبتمبر وحلب فى ٢٦ منه بعد أن فعل فعالا تدل على منتهى الجرأة والإقدام».

٣ ـ تقرير السير رجنلد ونجت

ووضع السيررجلند ونجت حاكم السودان العام ثم نائب الملك فى مصر زمن الحرب، وهو الذى أعلنت الثورة العربية فى عهده تقريرا مفصلا عن حوادث حرب الحجاز من ٩ يونيو سنة ١٩١٦ إلى تسليم المدينة فى ١٠ يناير سنة ١٩١٩ قال فيه:

«أعين الجيش العربى فى الحجاز بقوة صغيرة مؤلفة من ٥٥ ضابطا و ١٠١٠ من صف الضباط والجنود، وكانوا مسلحين بستة مدافع ميدان، وستة مدافع سريعة الطلق و١٠ مدافع جبلية ومدفعى موزر صغيرين.

فلما شرع العرب فى الهجوم، أُخذ الترك فى الحجاز على غرة، وتمكن جند الشريف من الاستيلاء على مكة وجدة فى الشهر الأول، وثبتت حامية الطائف ثلاثة أشهر ونصف شهر وسلمت فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ وكان الفضل الأكبر فى الاستيلاء على الطائف لفصيلة المدفعية المصرية بقيادة اللواء سيد باشا على، ثم شرع فى تطويق المدينة المنورة وكان فيها ٣٥٠٠ من خيرة المقاتلين العثمانيين أعدوا للقتال فى جنوبى بلاد العرب وقدر على القوات العربية أن تستولى عليها، وتمكن الترك من جعل المدينة قاعدة حربية لهم بواسطة السكة الحديد ليهددوا مكة.

وفى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ غادرت السويس بعثة الكولونيل بريمون العسكرية الفرنسوينة إلى جدة.

وبعد ما انقضى موسم الحج تبين أن خير الطرق لأخذ المدينة، إنما هو قطع مواصلاتها بالسكة الحديد مع الشمال. فزحف الأمير فيصل من ينبع إلى الوجه، واستولى عليها وأخذ عرب الحويطات يهدمون السكة الحديد بقيادة الشيخ عودة أبى تايه ومعه الكولونيل لورانس لمنع إرسال المدد من الشمال إلى المدينة.

وأسهب السر رجنلد ونجت فى وصف هذه الهجمات، ومما قاله: إن قافلة كبيرة كانت قادمة من حايل (عاصمة ابن الرشيد) إلى المدينة فباغتها العرب وقتلوا ٣٠ من الترك وأسروا ٢٥٠ أسيرا، وغنموا أربعة مدافع جبلية وعددا كبيرا من البنادق، وثلاثة آلاف جمل موقرة أطعمة وثيابا وألفى رأس غنم. وفى هجمة أخرى على السكة الحديد بقيادة الكولونيل يوكمب دمرت فصيلة من العرب والمصريين ماطوله خمسة كيلو مترات نزعتها قضيبا قضيبا.

وانتقل الأمير فيصل إلى العقبة بعد الاستيلاء عليها، وكان للهنود فعال تذكر فى الوجه، وكانت القوات العربية تنجد من ينضم إليها من القبائل والمتطوعين، وبين المتطوعين الكتيبة العربية، وكانت مؤلفة من ٤٠٠ رجل تطوعوا من أسرى الحرب العرب برعاية البعثة السياسية الإنجليزية والفرنسوية، وقد دربهم ضباط فرنسويون وإنجليز فى القطر المصرى.

وقنص العرب آخر طيارة للترك فى المدينة فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ فسقطت على الأرض فنقلها العثمانيون بالسكة الحديد إلى المدينة، ولم تعد تصلح للطيران.

وفى أوائل سنة ١٩١٨ حاول العثمانيون الانسحاب من الحجاز، فأفرغ الجيش العربى قصارى جهده ليعرقل حركتهم بقطع السكة الحديد، وأسر العرب خمس قوافل للترك فيها ١٥٠٠ جمل، وكان بين الغنائم التى غنمها العرب فى معارك أخرى ٢٥ ألف ليرة عثمانية ذهبا.

وكان من جراء ذلك أن اضطر الترك إلى انقاص قواهم فى المدينة بمن أرسلوهم شمالا لحماية الخط. وكانت القوة العثمانية فى المدينة قد بلغت ٩٥٠٠ رجل فى أوائل سنة ١٩١٧ معهم عدد كبير من المدافع الضخمة و ٢٥٠٠ رجل لحراسة السكة الحديد، و ٨٠٠ رجل فى جهة الوجه، ومقاتلة أخرى فى مواضع أخرى.

ولما صار الأمير فيصل فى الوجه تقدم الأمير عبد الله إلى شمال المدينة، وجاوز السكة الحديد، وجعل ينبع قاعدته، ورابط فى وادى العيس وسير القبائل إلى الشمال الشرقى من المدينة لأسر القوافل التى تمدها بالمؤن من عند ابن الرشيد.

وأنشئت فى الوجه مدرسة لتعليم الرجال طريقة تخريب السكة الحديد، فتعلم كثيرون من العرب هذا العمل، وكانوا يدمرون السكة بارشاد الكولونيل نيوكمب والكابتن لورانس والملازم غارلند. فحال ذلك دون إرسال المدد من فلسطين وسورية إلى المدينة، واضطر قائد المدينة العثمانى أن يخفف قوته حين أرسل جانبا منها إلى الوجه والعلا ومدائن صالح وغيرها من المحطات واضطرته قلة الطعام إلى طرد أهل المدينة من بيوتهم.

وقد اشترك فى تدمير السكة الحديد وقطعها الأمير فيصل بين العلا والهدية، والأمير عبد الله من الهدية إلى بواط والأمير على والأمير زيد فى الجنوب، واتخذت التدابير لتوحيد زمان القطع.

وفى أواخر سنة ١٩١٨ قطعت مواصلات العثمانيين فى الحجاز بالشمال، فكانت القوافل، تأتيهم متقطعة من حايل أو الرياض. وأخذ العرب يهاجمون المدينة، وأبى فخرى باشا القائد العثمانى تسليمها بعد ما كسر الجنرال اللنبى العثمانيين فى فلسطين فى سبتمبر واستولى العرب على تبوك فى ١٢ أكتوبر، وأسروا فيها أكثر من ٣٠٠ أسير وغنموا عشرة مدافع، ثم احتلوا مواقع أخرى، ولكن عقد الهدنة مع تركيا فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ حال دون مواصلة القتال. وفى ١٠ يناير سنة ١٩١٩ سلم فخرى باشا فى بير درويش، ودخل الأمير عبد الله باسم والده ملك الحجاز الساعة ١١ من صباح يوم ١٣ منه».

٤ ـ أقوال الكولونيل لورانس

ووصف الكولونيل لورانس أعمال العرب العسكرية وصفا شيقا فقال:

«كلنا يعرف أن فيصلا بذل جهدا كبيرا فى نشر ألوية الثورة التى أعلنت فى مكة وفى توسيع نطاقها، فتم له ما أراد وبفضل بسالته وحكمته أسدت هذه الثورة أعظم خدمة للحلفاء فى ميدان فلسطين».

«وكلنا يعرف أيضا أن الجيش العربى الذى أعد وأنشئ فى ساحة القتال بين نيران المدافع صار جيشا منظما كامل العدة والعدد، بعد ماكان فى ابتداء أمره شراذم من البدو، وقد تم له أسر ٣٥ ألف جندى من الترك، كما أخرج عددا لا يقل عن هذا من صفوف القتال، وغنم نحو ١٥٠ مدفعا، واستولى على مساحة مائة ألف ميل مربع من الأراضى . ولقد أدى العرب هذه الخدمة فى زمن كنا فى أشد الحاجة إليها، فنحن مدينون لهم».

ويقول الدكتور شهبندر فى رسالته «لورانس فى الميزان» مانصه: «وقد أحدث احتلال الوجه انقلابا فكريا فى البريطانيين فى مصر، فأدركوا قيمة الثورة العربية، وعرف القائد البريطانى العام أن الجنود الذين يحاربون العرب يربون على الجنود الذين يحاربونه، فوعد بالعتاد والسلاح والمال، وكان من ألزم الضروريات للعرب مدافع الجبل لأن مدافع الترك كانت تفضل مدافعهم كثيرا، ولم يك فى حوزة الجيش البريطانى منها مايستغنى عه. وكان عند الكولونيل بريمون فى السويس مدافع جبلية من أجود الأنواع. إلا أنه اشترط لإرسالها

للحجاز تسيير حملة من الحلفاء لتحول دون إيغال العرب فى الشمال، ومن حسن الحظ أن أقبل فحل آخر محله سمح بها».

ما أسداه الحلفاء العرب.

ماكانت موارد العرب فى ابتداء نهضتهم تساعدهم على البذل وابتياع الأسلحة والمعدات، وخصوصا والحجاز من الأقطار الفقيرة، ولذلك كان لابد لهم من الاستعانة بأموال الحلفاء ومعداتهم وخبرتهم، ليؤدوا المهمة المنوطة بهم على الوجه الأكمل، وليدركوا الأغراض التى وضعوها نصب أعينهم.

ولقد ذكرنا فيما تقدم أن الإنجليز تعهدوا للحسين فى مكاتباتهم بأن يقدموا إليه جميع ما يطلبه من معدات وأموال وأسلحة بدون قيد ولا شرط. لأن المصلحة واحدة، ولأن الغاية التى كان يرمى إليها الفريقان متحدة: فالعرب يعملون لإخراج الترك من بلادهم لينشئوا دولة عربية مستقلة داخل حدودهم القومية، والإنجليز يسعون لإضعاف الترك ودفع خطرهم عن مصر، وكانوا يهددون خطوط مواصلاتهم الكبرى، ولو تم لهم الاستيلاء على قناة السويس كما كانوا يتصورون لأحرجوا انجلترا، وحالوا بينها وبين مستعمراتها الكبرى، ولغيروا شكل الحرب، فطردهم من منطقة القناة، وجرهم إلى وسط الصحراء وطردهم منها، ثم إخراجهم من بلاد العرب هو فى مصلحة الإنجليز، ولا يتعارض فى وجه من الوجوه مع المصلحة العربية.

ومن يدرس المكاتبات التى دارت بين الحسين وبين مندوبه فى مصر يتبين أن الإنجليز لم يفوا بهذا الجانب من عهودهم أيضا.ولم يقدموا للعرب ماطلبوه من معدات وأسلحة، فقد كانوا لايدفعون لهم إلا بمقدار وبعد إلحاح شديد. يضاف إلى هذا أنهم كانوا يرسلون إليهم الأسلحة والمدافع القديمة.

يؤيد هذا ما رواه أحد الذين شهدوا معارك جدة الأولى (١٠ ـ ١٦) يونيو سنة ١٩١٦ فقد أكد أن الشريف محسن بن منصور، وهو الذى هاجم ذلك الثغر أبلغه أن البنادق التى وزعها على العرب الذين اقتحموا جدة ـ وهى مما جاد به الإنجليز ـ قديمة العهد استعملت فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ وقال إن ٢٠ فى المائة منها انفجر بأيدى مطلقيه فبترها وطلب الإسراع بإبدالها، وروى الشريف ناصر بن على مثل هذه الرواية، وألح فى

تغيير هذه البنادق لقدمها، ولأنها تلحق أضرارا كبيرة بالعرب.

ولو ساعدوا العرب وسهلوا للجند والضباط التطوع وأفسحوا لهم المجال لعملوا أكثر مما عملوه، ولكان لهم فى الحرب شأن يذكر.

ويقول الدكتور شهبندر فى رسالته لورانس فى الميزان بهذه المناسبة ما نصه: «ولقد عملنا على تنوير أذهان الأسرى العرب الذين كانوا يفدون إلى مصر فى أيام الحرب وحملهم على التطوع فى الجيش العربى، ولكن جهودنا كانت كلما أوشكت أن تثمر أصابتها صدمة عنيفة من رجال العسكرية البريطانية تذهب بها فكان كل تشجيع يأتى من المكتب العربى يقابل بالمقاومة من الكولونيل سمسن فى المعادى، وتوضع فى سبيله العراقيل».

أن طمع الإنجليز فى احتلال فلسطين والعراق وطمع الفرنسويين فى احتلال الشام جعلهم يقاومون تقدم العرب، ويعملون على تضييق دائرة عملهم. فلا تتجاوز الحجاز، ولولا ميل الأمير فيصل الشديد إلى إنقاذ الشام، وإلحاح جيشه عليه وتهديده بالعصيان لما أجازوا له التحول إلى الوجه، ولما وصل العقبة، ولظل يدور فى الدائرة الصغيرة التى رسموها له وهى الحجاز.

ويوخذ مما لدينا من الوثائق أن الحكومة البريطانية كانت تدفع كل شهر لجيش الشمال ١١٠ آلاف من الجنيهات. ترسل إلى الأمير، وهو يتولى توزيعها على الموظفين والضباط والجنود حتى لايبقى لديه شيئ منها. وكان المخصص للجيش الجنوبى ٤٧ ألف جنيه كانت ترسل لقائده الأمير على، وكذلك كانوا يرسلون لجيش الشرق (الأمير عبد الله) ٥٥ ألف جنيه، وأرسلوا إلى هذه الجيوش نحو مائة ألف بندقية مع قذائفها، وثلاث بطاريات مع عتادها واللوازم الطبية والألبسة وغيرها.

* * *

وأرسلوا أيضا إلى جدة غداة الثورة قوة مصرية من السودان بقيادة السيد بك على اشتركت فى حصار الطائف، وفى الأعمال العسكرية حول المدينة، والتحق جانب منها بجيش الشمال بعد ذلك، وكانت لهم بعثة فنية بقيادة الكولونيل نيوكمب لتخريب الجسور والسكة الحديد ونسفها، واشتركت البحرية البريطانية فى احتلال جدة والوجه. وكان فى كل معسكر من المعسكرات الثلاث مستشارون للإنجليز.

وكانت الشؤون العربية فى أوائل عهد الثورة منوطة بنائب الملك فى مصر، وهو يومئذ السير هنرى مكماهون يساعده المستر ستورس والجنرال كليتن مدير المخابرات العام والكابتن جورج لويد من رجال المخابرات، على أنهم عادوا فأنشأوا مكتبا خاصا للشئون العربية وسموه المكتب العربى كان برئاسة الجنرال كليتن نفسه، يساعده الميجر كورنواليس والأستاذ هوجارت من أساتذة اكسفورد، وقد جئ به لمعرفته اللغة العربية ومنح رتبة ميجر، وأصدر هذا المكتب جريدة أسبوعية باسم «الكوكب» لنشر الدعاية انتهت حياتها بعد الحرب بقليل.

مساعدة فرنسا للثورة العربية

ولم تشأ الحكومة البريطانية أن تنفرد بمساعدة الثورة العربية، بل خاطبت حليفتها فرنسا بواسطة السفير البريطانى فى باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ طالبة إليها مساعدة الشريف ماديا، وأن ترسل المساعدة بأسرع ما يمكن من الوقت بطريق مصر، وفى يوم ٧ منه طلبت وزارة الحربية الإنجليزية من فرنسا أن تعد بطارية من عيار ٧,٥ يقودها مسلمون لإرسالها إلى القاهرة مع بعض الفنيين من مدفعيين وبرقيين وغيرهم من ذوى الإخصاء فى الفنون الحربية بشرط أن يكونوا مسلمين فوافقت الحكومة الفرنسوية مبدئيا على هذا الطلب، وقررت إيفاد بعثتين إلى الحجاز: الأولى سياسية برئاسة السى قدور بن غبريط، وقد ضمت طائفة من أعيان المسلمين المغاربة، ومهمتها تقديم التهانى للحسين وحمل الهدايا له. والثانية عسكرية برئاسة الكولونيل بريمون لمعاضدة الثورة العربية. ونورد خلاصة تقرير رسمى وضعته وزارة الحربية الفرنسوية يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٦ أى على أثر إعلان الثورة رقم ـ ١٤ ـ ٩ ـ ٥٠٢٣٩٠ وقد تضمن رأى فرنسا فى الثورة قال:

إن إعلان الثورة العربية فى الحجاز هو فى مصلحة الحلفاء من عدة وجوه: فأما من الوجهة السياسية فإن اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمينية الصغرى، وتحرير هذه الشعوب من النير التركى قد يهيئ لفرنسا أسباب التدخل فى شؤون هذه المقاطعات، كما تشغل من الوجهة العسكرية الجيش التركى. وأما من الوجهة الأدبية فإنها تقود الجانب الأكبر من رعايانا المسلمين إلى اعتبار الترك كمعتدين على

الأماكن المقدسة الإسلامية، فيزداد تعلقهم بفرنسا، لأنها تكافح الترك وحلفاءهم وتزيدهم إخلاصا لها.

«وبناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة وصبغها بصبغة إسلامية. ومهما يكن هنالك من ملاحظات يجب أن يحسب حسابها. فالحركة العربية ذات فائدة للحلفاء وإن ظن العالم الإسلامي - إن لم يكن كله فبعضه - أن انجلترا هى التى دفعت الشريف حسين إلى الثورة، وربما هذا الظن بفرنسا أيضا.

«هذا من جهة واحدة، أما من الجهة الأخرى فإن الشريف حسين لم ينهض للثورة إلا بعد ما وثق من مساعدة الإنجليز له. وضمن استعدادهم لتقديم كلّ يطلبه من الذهب والقوى والسلاح والذخائر وغيرها. ولقد أهابت الحكومة الإنجليزية بالحكومة الفرنسوية إلى مساعدة الشريف فى دائرة إمكانها، وبالشروط التى يتم الاتفاق بينها وبينه على حدة»

* * *

وقد انتدب لرئاسة البعثة العسكر ضابط نشأ فى المستعمرات الإفريقية اسمه الكولونيل بريمون، وكان يومئذ وكيل رئيس أركان حرب الفيلق الخامس والخمسين، ورقى أخيرا إلى رتبة جنرال، لخبرته فى الشؤون الإسلامية، وعين الكابتن كوس (الكولونيل كوس بعد ذلك) وكيل رئيس لها.

وهذا بيان ما أرسلته فرنسا من أسلحة ومعدات لمساعدة الثورة: بطاريتان من عيار ٨ مع سرية رشاشات وبطارية من مدافع الصحراء ذات ستة مدافع عيار ٨ ومثلها من مدافع الجبل، وبلوك مهندسين، وورشة مدفعية ومستشفى صحراء سيار و ٢٤٠٠ بندقية وكمية من الذخائر.

وقد وزع ضباط هذه البعثة وهم ١٢ ضابطا و ٤٨ صف ضابط بين الجيوش العربية الثلاثة وكان رئيسها ووكيله مع عدد من الحاشية يقيمون فى جدة. ويعترف رئيسها فى كتابه بأن الفرنسويين لم يشتركوا اشتراكا جديا فى الأعمال العسكرية، إلا بعد دخول شهر فبراير سنة ١٩١٧.

وأرسلت فرنسا مالا للحسين بن على فى دفعتين. فقد حمل الدفعة الأولى السى قدور بن غبريط، ووصل إلى جدة يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٦ وقدرها ١٢٥٠٠٠٠ فرنك ذهب

(خمسين ألف جنيه انجليزى) كما حمل الدفعة الثانية السى مصطفى الشرشالى ووصل إلى جدة فى شهر ستبمبر سنة ١٩١٧ وهى ٩٧٥ ألف فرنك ذهب (٣٤ ألف جنيه مصرى) تسلمها الحسين ووزعها على الفور بين نجليه الأميرين على وعبد الله فخص هذا بعشرين ألفا وذاك بأربعة عشر ألفا. وهذا كل ما قدمه الفرنسويون للثورة من مال ورجال ومعدات. ويعترف الكولونيل بريمون فى كتابه الحجاز فى الحرب العظمى ص ١٢٢ أن الأميرفيصلا طلب إليه يوم أول إبريل سنة ١٩١٧ حينما كان فى الوجه إرسال مدفعين من عيار ٧،٥ شنيدر، ويقول إنه أحال هذا الطلب إلى باريس فجاءه يوم ١٤ منه الرد بالرفض، لأن فرنسا لا تملك هذين المدفعين - كما قالوا - ثم كرر الطلب بعد ذلك لإرسال مدفعين من عيار ٦،٥ فأجيب بالرفض.

ولقد حل الكابتن كوس محل الكولونيل بريمون فى رئاسة البعثة الفرنسوية. فقد دعى هذا إلى فرنسا فسافر إليها يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ بسبب شكايات شكاها الإنجليز من أعماله وتصرفاته، فقد كان كثير التحامل عليهم، كما كان شديد الكره للعرب، يسعى بكل قواه - كما يدل على ذلك كتابه - لإلقاء التفرقة والشقاق بينهم، ولاسيما بين الأمراء أبناء الحسين. فيغرى هذا بهذا - كما ملأ كتابه بالطعن فى العرب، وفى تشويه حركتهم. فلم يذكر سوى العيوب والمثالب، ولم يثبت لهم موقفا مشرفا إلا فى النادر، وإذا وصف معركة فاز فيها العرب فأنه ينسب شرف هذا الفوز للمدفعيين الفرنسويين الذين يكونون شاركوهم بإدارة مدفع أو مدفعيين. وذنب العرب، عنده طمعهم فى سورية، ومحاولتهم بلوغها. كما أن ذنب الضباط الإنجليز عنده هو كونهم يشجعون الثورة ويحضون العرب على التقدم والايغال فى الزحف نحو الشمال، نحو الشام، وهو مالا يتفق مع المصلحة الفرنسوية فى نظره ولأنهم لا يستشيرونه فى معظم الأمور ولا يأخذون رأيه.

ومما يدل على أن الحكومة الفرنسوية نفسها ضاقت ذرعا به، وأدركت أنه نصب نفسه متطوعا لمقاومة الحركة العربية وللطعن فيها وفى رجالها والمشتغلين بها أن أرسل إليه المارشال جوفر القائد العام يومئذ برقية يقول فيها:

«يستنتج من برقياتكم أنكم تخافون من الحركة العربية، وتجوسون شرا من نتائجها ومن أخذ العرب للمدينة بحجة أنه يشجع ما فى نفوسهم من طموح إلى احتلال سورية،

وفاتكم أن فرنسا وانجلترا عقدنا أخيرا اتفاقا يقضى بإنشاء اتحاد عربى يشمل دمشق وحمص وحماه وحلب والموصل.

«فظهوركم بهذا المظهر - وقد أدركه الإنجليز والشريف - قد يبعث على الظن بأننا نعمل لنقض العهود التى ارتبطنا بها، وقد يؤثر تأثيرا سيئا على عملنا فى الشرق. فيجب أن لايفسر عملكم هذا التفسير السئ.

«وترى الحكومة الفرنسوية - بعكس رأيكم - أن سقوط المدينة بأيدى العرب يؤثر تأثيرا حسنا فى نفوس القبائل العرب والدرزية، ويكون برهانا على قوة النهضة العربية. كما يكون من الجهة الأخرى فوزا لخططنا فى الشرق، وهى تقوم على التعجيل فى القضاء على الامبراطورية العثمانية».

ولقد اعترف الكولونيل بريمون نفسه فى كتابهِ أيضا بأن السير فرنسيس برتى سير انجلترا فى باريس بدأ من يوم ١٧ مايو سنة ١٩١٧ بالسعى عند وزارة الخارجية الفرنسوية لأستدعاء البعثة الفرنسوية، لأن رئيسها لا يعطف على القضية العربية. وقال أيضا أن المسيو كامبون سفير فرنسا فى لندن كتب إلى وزار الخارجية الفرنسوينة بهذا الشأن.

ـ ١١ ـ

النضال بين العرب والحلفاء

ماكاد العرب ينتهون من نضالهم الداخلى القديم مع الترك، ويتفرغون لحربهم الجديدة، وقد استبشروا بها وبشروا، وحشدوا لها قواهم، وظنوا أنها تحقق آمالهم، وتضمن إنشاء دولتهم الكبرى، وقد نالوا وعودا رسمية صريحة بإنشائها ـ نقول إنهم ما كادوا يعلنون الثورة وينزلون إلى ميادين القتال، حتى رأوا أنفسهم أمام حالة غريبة مع حلفائهم الإنجليز الذين وثقوا بهم واطمأنوا إليهم، فأدركوا أنهم على أبواب نضال جديد مع هؤلاء قد لا يختلف كثيرا عن النضال القديم إلا من جهة المظهر والظرف والشكل.

لقد عاهد الحسين الإنجليز على إنشاء دولة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها. تكون حدودها شرقا بحر فارس وغربا بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالا ولاية حلب والموصل إلى نهر الفرات مجتمعا مع دجلة إلى مصبهما فى بحر فارس. ما عدا مستعمرة عدن، فأنها خارجة عن هذه الحدود. وقد قبل السير هنرى مكماهون هذه الحدود، وأبدى تحفظا عليها فى كتابه المؤرخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ هذا نصه: «لما كانت مقاطعات مرسين والاسكندرونة وبعض أجزاء سورية الواقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن تسميتها عربية محضة، فأنه يقتضى إخراجها من الحدود المبينة».

وعاهدهم على أن يحافظوا على هذه الحكومة وعلى صيانتها من أى مداخلة كانت وبأى شكل كان، فى داخليتها وخارجيتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعد بأى شكل يكون ولو وقع قيام داخلى من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء.

وعاهدهم أيضا على أن يقدموا لهذه الحكومة جميع ما تحتاج إليه من مال ونفقة وأرزاق وميرة وسلاح فى كفاحها إلى جانبهم، وفى سبيل قضيتهم وقضية الحلفاء المشتركة فلا يبخلون عليه بشئ ولا يردون له طلبا. لأن قوى العرب المادية كانت محدودة فى تلك الأيام سيما والحجاز ـ قطب الحركة فى تلك الأيام ـ كان فى أشد حالات الضنك والفقر بسبب الحصار البحرى الذى ضربة الحلفاء على شواطئه قبل انضمامه إليهم.

وعاهدهم عل أن يعاملوه معاملة الند للند والحليف الصادق للحليف الصادق. يطلعه على أسراره، ولا يتكتم عنه شيئا، ويحافظ عليه ويدافع عنه، ولا يسعى لنكث عهده الذى عاهد عليه متذرعا بشتى الحيل والأساليب. ولابد لنا من القول هنا أن كثيرين من العقلاء كانوا ينبهون الحسين وأولاده إلى ختل الإنجليز ودهائهم وتلاعبهم فى العهود والمواثيق وتفسيرهم لها بما يطابق مصلحتهم وأغراضهم، وقالوا له يجب أن تكون على حذر من القوم فعدم الوفاء بالوعود والمواثيق من شيم السياسة البريطانية. كما أن التلاعب بالألفاظ والجمل والصيغ هو من طبيعة السياسة نفسها. فلم يعبأ بهذه النذر بل وثق بالقوم معتقدا فيهم الإخلاص والوفاء.

وعاهدهم أيضا على أن يقطعوا السكة الحديد بين مرسين واسكندرونة فيعزلوا بلاد العرب عن بلاد الترك، ويسهلوا مهمة العرب فى نضالهم، ويدفعوا عن بلادهم كثيرا من الكوارث. فتنتهى الحرب فى بلاد العرب ويجد الترك نفسهم أمام الأمر الواقع بسرعة فترفع قواعد الحكومة الجديدة، ويصبح العرب سادة بلادهم.

وهذا ماعاهد عليه الحسين الإنجليز قبل أن يثور على الدولة، وقبل أن يرفع راية الجهاد والنضال، وقبل أن يصرم الحبال التى كانت تصله بالترك الذين محضهم النصح وحاول بمختلف الأساليب منعهم عن الإيغال فى العداء فلم يصغوا له. ومعنى ذلك أن الحسين لم يترك الباع إلا ممسكا باعا، ولم يخرج على الترك إلا بعد مايئس من إصلاحهم وإعادتهم إلى الصراط السوى، وبعد ما إعتقد أن تردده وإحجامه مؤذن بهلاكه وهلاك قومه وملبسهم ثياب العار والخزى يوم القيامة فأمة يقتل رجالها وزعماؤها ومتعلموها ويصلبون فى ميادين مدنها، وتسبى نساؤها وينفى رجالها وتستباح كرامتها، ثم تقيم على الخسف والذل، ولا تجرد سيفا فى وجه المعتدى الظالم ، الذى كان يتآمر على دولته ويعمل لدك بنيانها وهو يفتك بسادات العرب كما أثبتت الوثائق الرسمية المنشورة فى هذا الكتاب ـ أن أمة هذا شأنها محكوم عليها بالفناء والذل والاستعباد. ولقد وقى الحسين قومه هذا العار بنهضته وقيامه، ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى استغلاله أيضا من الناحية الإيجابية فعاهد الإنجليز، ونال منهم كل ما يمكن نيله من عهود ومواثيق. ولئن نكثوا عهده ولم يفوا له فالذنب عليهم ـ لا عليه ـ واللوم يجب أن يوجه إليهم. فهم الذين نكلوا وراغوا وفسروا وأولوا وظلوا حتى الساعة الأخيرة يسعون لتصفيتها والتخلص منها. ومعنى ذلك أن إنكارهم لها لم يك سوى إنكارا لفظيا بدليل محاولتهم تصفيتها بعد الحرب بمشروعين خطيرين:

مشروع لورانس، ومشروع كرزن وقد أفردنا لهما فصلا خاصا فى المجلد الثالث.

فالحسين ـ كما تدل القرائن ـ كان حسن النية فى الحالتين: فى مفاوضاته مع الترك وفى مفاوضاته مع الإنجليز، فقد سعى فى خلال المرحلة التى تلت إعلان الحرب إلى التفاهم مع أولئك والاتفاق معهم على قواعد معينة ومحضهم النصح، فأنذوره وتوعدوه وهموا به، فلما شعر بما يدبرون له استأنف مفاوضاته مع الإنجليز، وكانوا يداورونه ويغرونه، وهو يماطلهم أملا بأن يتم له التفاهم مع الترك، فلما يئس منهم أتم هذه المفاوضات، وقد نال فيها كل ما يمكن أن يناله من كان فى مركزه. وكما فشل مع الترك أولا فشل مع الإنجليز أخيرا، فأولئك لم يصغوا وهؤلاء لم يفوا، فعدم إصغاء الترك وعدم وفاء الإنجليز هو سبب مارافق القضية العربية من إخفاق. ومصدر هذا الجفاء بين العرب والحلفاء، ولن يزول إلا يوم يعيدون للعرب حقوقهم كاملة ويوفون بعهودهم.

١ ـ حادث رابغ وينبع

ونبدأ هنا بإيراد سلسلة حوادث بعثت على نفرة الحسين من الإنجليز، وجعلته يعدل رأيه فيهم، ويندم على حسن ظنه بهم. مبتدئين بحادث رابغ وينبع. فقد كان فاتحة النضال فى هذا الدور، وكان مقدمة الحوادث أخرى أعظم منه شأنا، وقد فصلناها واستقصيناها بقدر الإمكان.

لقد استنصر الحسين الإنجليز واستصرخهم لإمداده بالسلاح والرجال حينما شعر بخطر فخرى باشا، وكان يهدد باحتلال ينبع ورابغ والساحل كله. فبدلا من إرسال النجدات على جناح السرعة راحوا يسوفون ويماطلون وينتحلون شتى الأعذار للتخلص من إجابة الطلب. تاركين الثورة تحت رحمة الأقدار، وقد أثبتنا ذلك بالوثائق الرسمية المنشورة فى هذا الفصل وغيره، ويعترف الكولونيل بريمون فى كتابه بأنه لو كان على رأس القوى التركية فى المدينة قائد حازم مقدام غير فخرى باشا لبلغ مكة فى أيام الثورة الأولى بدون عناء، وقضى على الحركة فى مهدها.

ونعيد هنا ما قلناه قبلا. وهو أن قوات العرب فى ابتداء الثورة كانت محدودة جدا وكانت لا تزيد على شراذم من البدو لم تالف الحروب المنظمة، ولم تعتد الهجوم على الحصون والقلاع والتقيد بأوامر القواد والضباط. بعكس الذين كانوا يملكون قوى منظمة

على أحسن مثال ولديهم أجود أنوا ع الأسلحة.

ولقد أدرك فخرى باشا هذه الحقائق فحمل بنفسه غداة الغارة التى شنها الأميران على وفيصل على محطة المحيط بقوات كبيرة فشتت شمل أنصارهما . وخاف الحسين النتائج فأبرق يوم ١٥ رمضان (١٤ يوليو سنة ١٩١٦) أى بعد إعلان الثورة بخمسة وعشرين يوما فقط إلى مندوبه بمصر ملحا فى إرسال قوة مرفقة بمدفعية ورشاشات مع القائد السيد على (هو السيد باشا على) (لتقوية معسكرنا بالمدينة الذى هو الآن بمثابة حياتنا) وشكا الحسين فى برقيته من تصرفات السيد باشا على وإصراره على البقاء فى رابغ.

فرد عليه مندوبه يوم ٢٠ منه قائلا: «لقد أمر حاكم السودان (سردار الجيش المصرى) السيد على باشا بإطاعة جميع الأوامر التى يصدرها إليه مولاى، وأن يتحرك فورا إلى المدينة».

واقترح المندوب العربى على الحسين فى برقيته الموافقة على إخراجم حملة قوية من الجيش الإنجليزى إلى العقبة لقطع السكة الحجاز وتخريبها . فأجابه على الفور بالموافقة وقال له : «والنتيجة الحقيقية مرهونة على سرعة التخريب قبل ساعة بدون اهمال أو تباطؤ فالوقت ثمين جدا . ويجب عليك أن تقابل نائب الملك فى الحال وتحثه على تعجيل مباشرة هذا العمل الجوهرى» فأبرق إليه يوم ٢٩ منه يقول «قطع الخط من الشمال تقرر عندهم نهائيا ، وقد وافقوا على إرسال طيارات إلى جدة لتكون تحت تصرف مولاى». بيد أنه عاد فأبلغه يوم ٨ شوال سنة ١٣٣٤ عدم إمكان إرسال طيارات إلى جدة، وقال أنه لم ينجح فى جميع ما بذله من السعى لأن الطيارات مشغولة فى سيناء، ثم عاد فأبلغه يوم ١٩ ذى القعدة أيضا أنه ليس فى استطاعة الحكومة الإنجليزية ارسال جنود إلى الحجاز لأسباب مختلفة.

ولقد ظل أمر رابغ وينبع والمدينة يشغل الحسين أربعة أشهر - أى حتى سقوط الطائف فقد سكن وأطمأن قليلا بعد تسلمها ، لأنه مكنه من استخدام الجيش الذى كان يحاصرهم فى ميدان المدينة، كما سلح رجاله بما غنمه فيها من أسلحة ومدافع، يضاف إلى هذا وصول عدد من الجنود والضباط المدربين والرجال الفنيين فى هذه الفترة واشتراكهم فى القتال مما أدى إلى دفع خطر الترك. ولا نطيل الكلام عن هذه الحادثة فقد بسطنا بسطا وافيا فيما تقدم (انظر الفصل العاشر) وإنما نقول إنها تركت أثرا بليغا فى نفس الحسين

تنم عليه برقياته إلى نائب الملك، وفى نفوس أبنائه وأفهمتهم أن الذين عاهدوهم ووثقوا بهم غير أوفياء لعهودهم ومواثيقهم.

٢ ـ حادث المنشور

أعد الحسين بعد إعلان الثورة، منشورا[1] وجهه إلى العالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها وأذاعه فى مكة يوم ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤هـ و٢٦ يونيو سنة ١٩١٦ وضمنه من الأسباب والعلل ما ظن أنه كاف لتبرير عمله وأرسله إلى مندوبه بمصر لنشره فى صحفها وتوزيعه فى أنحاء العالم، وكتب إليه بهذه المناسبة فى يوم ١٢ رمضان يقول: المنشور صدر إليكم وقد راعينا فيه أساسات ما يقتضى رعايته وتقتضى الوداد وحسن الطوية قلنا لابد من أخذ رأى نائب الملك فى طريقة نشره فى جميع أنحاء الجزيرة. فالزيادة والنقص غير ممكنة، وإنما يمكن جعلها بصفة ملحق».

ولقد كان يظن أن الإنجليز لا يعارضون فى نشره، ولكن مندوبه فاجأه يوم ١٦ رمضان ببيرقية قال فيها: «لقد اعترض نائب الملك على ماجاء فيه خاصا بضرب الترك للكعبة المقدسة، وإحراق الستار. لاعتقاده أن هذه الجملة تغيظ القسم الأعظم من المسلمين فى الهند، لأن للاتحاديين هنالك تأثيرا عظيما، ويقول بأن هؤلاء الهنود يقولون إنه لا سبب لضرب الكعبة سوى قيام العرب. فرد عليه ببرقية يوم ١٩ منه قائلا «أما المنشور فهو عديم الأهمية من الوجهة السياسية، وإنى لم أنشره إلا مجاراة للرغبات فاحتجاج الهنود على ضرب الكعبة المعظمة لا أعرف له وجها. إذن كأنهم يقولون إن الكعبة للعرب دون الترك وإن الترك لإغاظة العرب بسبب قيامهم ضربوا كعبتهم فنسبة الترك إلى هذا مما لايخفى والحال على عكس ذلك. فالكعبة المعظمة ليست خاصة بالعرب أو العجم، وإنما هى لعامة المسلمين فتعظيم كل مسلم لها تعظيم للاسلامية، وهذا من البديهيات. أفكل من لا يدرك هذه الصراحة من الهنود وخلافهم حتى لو طوينا ضرب البيت من المنشور فكأنهم على كل حال يستاؤون من قيامنا، ولا يهمهم فى تلك الفقرة الا لنوزع المنشور فى جزيرة العرب برمتها».

ثم عاد يوم ٢ شوال فكتب إليه يقول «لا ندرى ما صنع الله بمنشورنا وكيفية طبعه» فأجابه فى ٣ منه بقوله: المنشور وصل باسم إلياس دبانة (هو وكيل الحسين الشخصى فى مصر) وما نشر حتى الآن، وسأتدخل فى أمره بناء على أمر مولاى، وسأذهب غدا إلى

١ ـ نشرناه بنصه الكامل فى الصفحات السابقة.

الإسكندرية لمقابلة نائب الملك، وأنشره قريبا. ثم كتب إليه يوم ٧ منه يقول: لم أتمكن حتى الآن من البت فى أمر المنشور، ولكن أرى أن يجعل مولاى الفظائع التى ارتكبها الأتراك في المدينة ذيلا للمنشور. ثم كتب إليه يوم ٨ يقول:

«نجحت مساعى فى أمر المنشور وأؤمل أن أتمكن من نشره بعد غد»

وفى يوم ١٤ منه أبرق إليه يقول: «أطلعت السد رشيد رضا على المنشور وعند ما قرأه قال أنه خير ما يكتب، وإنما فيه نواقص لغوية، ربما كانت من الطبع يمكن اكمالها وطبع المنشور بلغة مؤثرة. وكما عرضت سابقا يلزم التوسع قليلا فى بحث المظالم التى ارتكبها الأتراك ضد الأرمن، واحتقارهم للخلفاء الراشدين، منع نشر العلم فى البلاد العربية وما يتأتى من الأخطار فى حصر البلاد الحجازية. وإنى أرى الضرورة القطعية فى أمر هذا التوسع، فإما أن يأمرنى بتشر المنشور عينا وإما التوسع فيه بما تقدم ذكره وإما أن نرسله ثانية لمولاى مع الملاحظات فى البريد[1].

فابرق إليه يوم ١٧ منه:

«قلت فى تلغرافك ١٢ منه (لم نعثر عليه) فى بحث طبع المنشور لابد من الوعد بثانى يتضمن الوجه والمتى (كذا) والحال أن بحثى فى شهداء الشام وقولى فيه دفعتين تاركين الأمر للعالم الإنسانى عموما، وللإسلامية خصوصا كاف لهذه الوجهة بالنسبة لاختصار المنشور، ثم قلتم فى برقية ١٤ منه عن الأرمن، وقد قلت فى منشورنا بلا تفرقة ذميهم ومسلمهم، وهذا أيضا كاف لمختصرية المنشور من جهة، ومن الأخرى الأعراض بما فعل الروس فى يهود بولندة وأمثال ذلك من الوقايع المشهورة هذه ملاحظاتى.

«أما بحث الجند، وأن أبناء المنتسبين إلينا سيكونون كذا وكذا فلا أسأل الله لهم إلا السعادة».

وفى يوم ٢١ منه كتب إليه مندوبه يقول: «رأيت بالنسبة إلى تأخر صدور المنشور ولاهتمام الرأى العام هنا بمعرفة الأسباب الداعية إلى قيام سيدنا ونواياه للإسلام والعرب أن أنشر ثلاث مقالات بدون إمضاء منسوبة إلى مصدر عربى سياسى تحتوى على ظلم

---

١ ـ حرصنا فى اثبات المكاتبات التى كانت تدور بين الحسين ورجاله على إيرادها بنصها الأصلى من دون تغيير ولاتبديل

الأتراك للعرب وعبثهم بالشريعة الإسلامية، وبعض الأسباب الجوهرية التى حملت سيدنا على القيام. إلى غير ذلك من الأسباب المقنعة، والتى تهم المسلمين عموما والعرب خصوصا فسمحت الحكومة بنشر المقالتين، وكان لهما أعظم وقع حسن، وسنهتم بالكتابة عنها فى أمهات الصحف الإسلامية والمسيحية.

أما المقالة الثالثة وهى التى ذكرت فيها مسألة ضرب الكعبة، فقد منعت الحكومة الإنجليزية نشرها. وهذا دليل على معارضتهم التامة فى هذه المسألة، وعند ما رأيت امتناعهم ابتعدت عن الكلام فيها مخافة سوء الفهم فى العلاقات السياسية الحسنة فما رأى مولاى؟؟».

وفى يوم ٢٣ منه أبرق إليه مانصه:

«أبلغتنى الحكومة الإنجليزية رسميا اليوم أنه يمكن نشر المنشور بدون حذف أدنى شيئ منه، وسأعطيه اليوم لقلم المطبوعات وتنشره الصحف غدا صباحا».

ومع ماتضمنته هذه البرقية من وعد بنشر المنشور كاملا فقد نشر معدلا ومختصرا يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٦ وهذا نصه بعد التعديل ليقابل بالنص الأصلى:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا منشورنا العام إلى كافة إخواننا المسلمين»

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»

كل يعلم بأن أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم هم أمراء مكة المكرمة. رغبة منهم فى جمع كلمة المسلمين، وتحكيما لعرى جامعتهم لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام طاب ثراهم، وجعل دار الخلد مثواهم، بالعمل بكتاب الله وسنة ورسوله صلوات الله عليه وتفانيهم فى انفاذ أحكامهما، ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة لا يزال الأمراء المشار إليهم محافظين عليها، فأنى حملت على العرب بذاتى فى سنة ١٣٢٧ ألف وثلاثمائة وسبعة وعشرين لفك حصار (ابها) محافظة لشرف الدولة، وفى السنة التى أعقبتها جرت عين هذه الحركة تحت قيادة أحد أبنائى. إلى غير ذلك مما هو فى هذا

المعنى، كما هو مشهود ومعهود إلى أن نشأت فى الدولة جمعية الاتحاد، وتوصلت إلى قبض إدارتها وكافة شؤونها بما كانت نتيجته انتقاصها من المماليك ما قوض عظمتها مما عرفه أفراد العالم، وخصوصا بخوضهم بها غمرات الحرب الحاضره، وإيقافهم إيامهم اليوم فى موقف الهلكة التى لا تحتاج لبيان.

كل هذا لمحض غايات معلومة تأبى إحساساتنا البحث فيها، وتستدعى تفطر قلوب مسلمى المعمورة أسى وحزنا على دولة الإسلام، وتمزيق ما بقى من سكان ممالكها بلا تفريق بين مسلمهم وذميهم. فريق منهم بالصلب وأنواع الإعدام، والآخر بإجلائه عن وطنه على الصورة المعهودة والحالة المشهودة. علاوة على ما أصيبوا به فى أموالهم وأنفسهم من آفات الحروب. ولا سيما هذه الأخيرة التى كان للأرض المقدسة منها النصيب الأعظم كما يعلم مختصرا من اضطرار العموم حتى الدرجة الثانية من الأهالى إلى بيع أبواب دورهم وبواليبها وأخشاب سقفها، بعد بيعهم لكافة موجوداتهم، وذلك للحصول على سد. الرمق كل هذا وكأن جمعية الاتحاد لم تره كافيا لغرضها. كما يظهر من تجاوزها على إخلال الرابطة الوحيدة بين السلطنة السنية العثمانية وكافة مسلمى المعمورة. إلا وهى التسمك بالكتاب والسنة. فقد وصفت أحد صحفها الموسومة (بالاجتهاد) الصادرة فى دار السلطنة السنية سيرة الرسول صلوات الله عليه وسلامه بشر السير (نسأل الله العافية) وهذا بمرأى ومسمع من وزير الدولة الأعظم وشيخ إسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها، وشفعت هذه الجرأة بلغو قوله تعالى «للذكر مثل حظ الانثيين» فساوتهما فى الميراث، وعززتهما بالطامة الكبرى، وهى هدم أحد أركان الإسلام الخمس وهو صوم رمضان بالأمر بفطره على الجندى المقيم بالمدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام مثلا، بدعوى أن زميله الجندى الآخر يقاتل فى حدود الروس ولفقت لهذا أقاويل المعارضة صراحة قوله تعالى «فمن كان منكم مريضا أو على سفر» إلى غير ذلك مما يمس بالأساسات الإسلامية من الإقدامات المشتهرة صراحة أحكام مرتكبها بعد أن ضربت على أيدى شوكة السلطان المعظم، وسلبته حتى حق الاقتدار على انتخاب رئيس كتاب (مابين) سلطنته الشريفة أو رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلا عن النظر فى أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد. وما فى هذا من إسقاطهم لشروط الخلافة المطالب بها المسلمون، وجوب البراءة منهم والحالة هذه مما لا مشاحة فيه، ومع هذا فما زلنا نتأول صحة هذه الجرأة هربا وحذرا من نسبة تهمة التفرقة وبواعث الاختلاف، حتى ظهر الخفا وانكشف

الغطا، واتضح بأن الدولة أصبحت فى يد أنور باشا وجمال باشا وطلعت بك يحكمون فيها بما يشاءون ويفعلون بها مايريدون، وأبسط دليل على صحة هذا ماورد أخيرا لقاضى محكمة مكة الشرعية بأن لايحكم إلا بالشهادة التى تحررت فى محكمته بين يديه ولا يلتفت للشهادة التى يكتبها المسلمون فيما بينهم. غير مبالين بما فى آية البقرة. هذا كله من وجهة ومن الأخرى صلبهم فى آن واحد للواحد والعشرين رجلا من عظماء أفاضل المسلمين، وكبراء نوابغ العرب. عدا من صلبوه من قبل، وهم الأمير عمر الجزائرى والأمير عارف الشهابى، وشفيق بك المؤيد، وشكرى بك العسلى وعبدالوهاب الإنجليزى، وتوفيق بك البساط، وعبدالحميد الزهراوى، وعبد الغنى العريسى ورفاقهم المعلومون ولا ريب أنه يصعب حتى على ذوى القلوب القاسية إزهاق نفوس مثل هذا العدد فى آن واحد، ولو كانوا من بهائم الأنعام. وهب أننا التمسنا لهم عذرا وانتحلنا لهم مسوغا فى قتل هؤلاء الأفاضل، فما المسوغ لنفى عائلاتهم البئيسة البريئة من كل ذنب وفيها من الأطفال والشيوخ وربات الخدور من تنفطر لهم القلوب وتذهب إلا نفس حسرات عليهم، وأذاقتهم أنواع العذاب فوق ماقد أجرعوه من سم المصيبة بإتلاف عميدهم الذى خربت بفقده منازلهم، والله تعالى يقول: «ولا تزر وازرة أخرى» وإذا انتحلنا لهذه مسوغا أيضا. فما الذى يسوغ لهم مصادرة أملاكهم وأموالهم التى يأوون إلها ويستغيثون بها بعد أن قضوا على عزيزهم، وسلبوا من أيديهم أسباب عزهم، وإذا تعامينا عن هذا كله أيضا، وقلنا ربما كان لهم مسوغ إليه، فكيف يمكن أن ننتحل مسوغا لجراءتهم على قبر الأمير الابر والمجاهد ألتقى الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الجزائرى الحسنى وإهانته وتحقيره.

هذا ما أبدوه من الأعمال أتينا به مختصرا تاركين الحكم فيه للعالم الإنسانى عموما والعالم الإسلامى خصوصا، وحسبنا برهانا على ماتكنه صدروهم نحو الدين والعرب رميهم للبيت العتيق الذى أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية فى قوله تعالى «وطهر بيتى للطائفين» وهو قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التى بحصن (جياد) أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع، التهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب، واضطرهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وماانتهى أمرهم بهذا، حتى عززوا الاثنتين بثالثة فى مقام إبراهيم، وهذا عدا ما وقع منها فى بقية المسجد الذى اتخذوه هدفهم

الوحيد فى غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة أو الأربعة فى نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت، وفى هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته مانترك القول والحكم فيه أيضا لعموم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها (نعم) نترك الحكم فى هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الإسلامى، ولكنا لا نترك كياننا الدينى والقومى ألعوبة فى أيدى الاتحاديين، وقد يسر الله تبارك وتعالى للبلاد نهضتها كما وفقها بحوله وقوته لأخذ استقلالها وتكليل مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن ضربت على أيدى موظفيها بيننا، ورجال حاميتها، فاستقلت فعلا وانفصلت عن البلاد التى لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما مطلقا بكل معانى الاستقلال الذى لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى، جاعلة غايتها ومبادئها نصرة دين الإسلام والسعى لإعلاء شأن المسلمين وقائمة فى كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف، الذى لا يكون لنا مرجع سواه ولامستند إلا إياه فى سائر الأحكام وكافة أصول القضاء وفروعه. مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة. باذلة كل مافى الجهد والطاقة لاعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ما قد قمنا به لأداء الواجب الدينى علينا. راجين من كافة إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوا فى ذلك ما يرونه واجبا لنا عليهم، لتحكيم روابط الآخاء الإسلامى، رافعين أكف الضراعة لرب الأرباب، ومتوسلين برسول الملك الوهاب أن يتولانا بالتوفيق، ويمدنا إلى مافيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلى الكبير وهو حسبنا ونعم النصير.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن على

فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤

٣ ـ حادث القنفدة

وبينما كان النضال دائرا بينه وبينهم على قضيتى رابغ والمنشور فوجئ بحادث ثالث زاده تذمرا واستياء، ونعنى به حادث القنفدة واحتلال الإدريسى لها.

وبيان ما وقع هو أن السيد محمد على الإدريسى اغتنم فرصة الحرب والثورة فأرسل قوة من رجاله بعد الاتفاق مع الإنجليز هاجمت القنفدة، وهى ميناء صغير واقع على شاطئ البحر الأحمر بين جدة وجيزان، فاحتلتها يوم ١٠ يوليو سنة ١٩١٦ وأسرت حاميتها التركية ورفعت الراية الإدريسية عليها. ولما كان الحسين لا ينظر بارتياح إلى اتساع رقعة هذه الإمارة، ويعتقد بأن القنفدة حجازية، وأن الإدريسى معتد عليه أبرق إلى مندوبه بمصر يوم ٢٨ منه متذمرًا، وطالبًا استصدار الأمر للبارحة الإنجليزية التى وقفت أمام القنفدة حين مهاجمة الإدارسة وسهلت لهم عملهم بمغادرتها.

فرد عليه هذا يوم ٢ أغسطس قائلا «أسترحم من مولاى أن لا يتأثر من استيلاء الإدريسى على القنفدة. فالأحوال الحاضرة تجبرنا على السكوت الآن، وإننى أرى أن يكلف مولاى ويلسن باشا (الكولونيل ولسن معتمد انجلترا فى الحجاز) فقد كلفته حكومته تنفيذ أوامر مولاى بهذا الخصوص لكى يأمر البوارج الحربية فتساعد جنود مولاى على احتلال الموانئ الصغيرة، كالوجه وماشاكل ذلك ليكون العمل أتم».

وقبل أن يتلقى برقية مندوبه أرسل يوم ٢ شوال (أول أغسطس) البرقية الآتية إلى نائب الملك مباشرة وتوجها بكلمة «مستعجل».

«وما صادفته من المعاملات فى حادث القنفدة ما كنت أتصور أن أصادفه من حكومة بريطانيا العظمى بعد عشرين عاما. فضلا عن الحالة الحاضرة. سيما وأن القنفدة المذكورة هى داخل الحدود المقررة»

«اصرارى فى أمرها ليس من حرص جاه أو ما هو فى معنى ذلك، ولكن تيقن يا حضرة الوزير أنها متعلقة بروح المسألة رأسا، ويتأثر منها جوهر الكيان الذى دخلنا فى أسبابه. سيما عكس تأثيراتها فى أمهات المواد والتشبثات بدون مجبر على ذلك وهذا الذى يمنعنى عن المساهلة فإنه ممكن تعويض المذكور باللحية ونحوها ألتمسكم بصورة قطعية تعديلها إلى هذا الشكل».

وفى اليوم التالى أرسل إليه البرقية الآتية أيضا «عقب تحرير تلغرافى لفخامتكم بالأمس أعاد علينا معتمد بريطانيا استيلاء الإدريسى على ولاية عسير عموما. وكان قوام حركتنا ومدارها محصورا تماما فى امداد وإعانة بريطانيا العظمى والله على ما أقول وكيل. أنادى باسم سيادته من مكة وسائر جهاتنا، وحسبى على سلامة

حسياتى من شوائب الحسد والبغض كتاباتى التى هى تحت العدد والتاريخ لكافة مشايخ عسير بمعاونتهم، وطلبى القيام على متغلبة الأتراك. علاوة على ما ستراه فخامتكم فى مصر وما حول القنفدة من القبائل المقيمة لشهامتكم عن واسطة مرخصة بجدة، الذى ألزمنا على إرسال مامورنا درءًا للشقاق. فأن قصدنا وغايتنا حصول النتيجة المرغوبة بأى صورة كانت الإفادة منتظرة لحصر اشتغالاتى الذهنية بما يقتضى الاستحضارات الإكمالية».

وفى يوم ٤ منه أرسل إلى مندوبه بمصر البرقية الآتية:

١ ـ ضرورى اطلاعكم على تلغرافاتى بتاريخ الأمس وقبله لفخامة نائب الملك.

٢ ـ أخرجت الأمر من الرسميات إلى الخصوصيات لزيادة التأكيد أنه لا غاية لنا سوى سلامة العرب بدينهم وقوميتهم بأى وسيلة كانت، ليتحقق لدى الدولة البريطانية ضمائرنا لأننا مبتدئين نحن وإياهم فى معرفة بعضنا البعض، ولسلامة معظم الأمور من هلكة سوء الفهم وقصر الاطلاع. وصرحت هذا فى اجتماعاتنا غير مرة وبسطت يدى لأعاهد من يراه القوم، وإننى أول شهيد تحت رايته.

أروم أن أبعث إليكم كتاب السيد المشار إليه جوابا لنا قبل ثلاثة شهور لترون ما يقوله بأن العرب عصونى، وليس بيدى منهم واحد علاوة على مشافهة مندوبى محمد بن عريفان حتى اضطررت إلى الكتابة إلى كافة المشايخ بإطاعته والقيام معه، ولكن لست من ذوى الكبرياء والتعاظم ولا القصد إلا تأمين المصلحة وقراره لنا فى الحدود من البرك غربا إلى رأس وادى ضلع شرقا المعلوم لمن يعرف حدود البلاد الخصوصية، أما من جهة الجنوب فيأخذ مايشاء».

وفى يوم ٧ منه أرسل إليه المندوب البرقية الآتية:

«لقد تكلمت معهم بصورة غير رسمية فى مسألة القنفدة وفهمت أنهم سيكلفون الإدريسى بالجلاء عنها، والذى أراه إذا كان مناسبا أن تحتلها جنود مولاى عقيب إخلائها لأ القوم يودون أن تبقى تحت حكم مشايخها، وسأصر غدا على ضرورة بقائها بيدنا،

ولعلى استطيع أن أخبر مولاى غدا بما يتم بشأنها».

وكتب إليه يوم ١٧ يقول:

علمت بأن الإدريسى سيقابل الشيخ عريفان (مندوب الحسين) وبعده سيكلف مأموريه بأن يتركوا القنفدة، وقد صرح للانجليز بأنه عدو للأتراك وصديق حميم لمولاى.

٤ ـ اللقب

ماكادت مسألة القنفدة تحل على هذا المنوال وقد احتلها جند الحجاز ودخلت فى حوزته، حتى طرأ طارئ جديد أدى إلى كثير من الأخذ والرد، واستغرق حله بضعة أسابيع شغلت أسلاك البرق بين مصر والحجاز طويلا بشأنه.

وبيان ذلك أنه بعد ما استقرت الحالة فى الحجاز، وزال الخطر عن الثورة رأى رجال مكة أنه لابد من إنشاء حكومة تسوس البلاد وتدبر أمورها، فاجتمع أهل الحل والعقد فى مكة يوم الخميس ٦ محرم سنة ١٣٣٥ ـ ٣ ديسمبر سنة ١٩١٦ وبايعوا الحسين ـ وكان حتى ذلك اليوم يلقب بلقب شريف مكة وأميرها ـ ملكا على العرب. وفى يوم ٧ منه أصدر خطابا ملكيا إلى الشيخ عبد الله سراج مفتى الأحناف فى مكة، وجه فيه إليه منصب قاضى القضاة، وعينه وكيلا عن رئيس الوكلاء، واختار لبقية الوكالات الذوات الآتية أسماءهم:

ولدنا عبد الله بن حسين لوكالة الخارجية، ويكون وكيلا عن وكيل الداخلية (هو الأمير فيصل) أما رئيس الوكلاء فهو الأمير على.

عبد العزيز بن على رئيس أركان حرب، ووكيل رئيس الجند.

الشيخ على مالكى: وكيلا للمعارف

الشيخ يوسف بن سالم: وكيلا للمنافع العمومية

الشيخ محمد أمين: وكيلا للأوقاف

الشيخ أحمد باناجه: وكيلا للمالية[1].

وعلى أثر ذلك أذاع الأمير عبد الله بصفته وكيل الخارجية البلاغ الآتى على وزارات

١ ـ منحهم لقب وكلاء باعتبارهم وكلاء عنه فى إدارة مصالحهم.

خارجية الحلفاء والمحايدين قال:

«بملء السرور أبلغ سعادتكم أن أفاضل البلاد ووجهاءها وعلماءها وكافة طبقاتها قد اجتمعوا فى صباح هذا اليوم وأقروا باتفاق الآراء على مبايعة حضرة صاحب الجلالة والسيادة مولاى الشريف الأعظم حسين بن على بالملك على الأمة العربية، فهو ملك العرب الأعظم. بناء على ما تحققت البلاد من كفاءته وإخلاصه الحقيقى للوطن، ورغبته الصادقة فى نشر ألوية العلم والعدل فى جميع أرجاء هذه البلاد العربية التى غادرتها عصابة الاتحاد والترقى - المعروفة لدى العالم بأسره بالمساعى والمقاصد المخالفة لكل شريعة ونظام، ولتعمدها استئصال كيان البلاد المادى والمعنوى المشهودة آثاره فى طائفة غير قليلة من مسلمين ومسيحيين ودروز ممن لا ذنب لهم غير وطنيتهم الصادقة وصفاتهم العلمية. وأن الأمة العربية لتود من سعادتكم اعتبارها عضوا عاملا فى الهيئة الاجتماعية - كما ستثبت ذلك بعناية الله وتوفيقاته الصمدانية».

لما وصلت هذه البرقية إلى مصر حجزها قلم المراقبة الإنجليزى خمسة أيام ولم يرسلها إليم المندوب . ولما كان الخبر قد اتصل بهذا من مصدر غير رسمى أبرق يوم ٧ منه إلى وكيل الخارجية يقول ما نصه: «اتصل بى من مصدر غير رسمى أن سموكم أنبأتم الحكومة المصرية بأن جلالة سيدنا قد أعلن الملك، ولم يكن لدى علم بذلك. فألتمس من سموكم التكرم بإفادتى» ثم أرسل إليه الكتاب الآتى:

«تلغرافكم المبشر بإعلان مبايعة الأمة العربية لجلالة سيدنا المعظم ملك العرب وصل متأخرا خمسة أيام عن تاريخ إرساله. ولقد تلقيت الخبر بطريقة غير رسمية قبل وصول البرقية، وأرسلت لسموكم مستفهما تلغرافيا عن صحته، ولعل استفهامى هذا هو الباعث على تسليمهم التلغراف إلى».

«وبعد وصول التلغراف لى طلبنى مدير القلم العربى فى السلطة العسكرية، وأشار على بكتمان هذا الخبر وعدم نشره. فأجبته بأن هذا تجاوز على حقوقنا، وأننى ملزم بنشره فرجانى حينئذ أن أتمهل إلى صباح الغد، وأن أقابله ليبلغنى رأيه النهائى بعد مشاورة نائب الملك. فإن أذنوا بنشره نشرته وإلا فأنى من الواجب على أن أحتج عليهم وأستأذنكم تلغرافيا فيما أفعل. وحذرا من أن يؤخروا تلغرافى إليكم قدمت هذه العريضة، حتى إذا وصلتكم ولم يكن قد انتهى إليكم تلغراف عن نتيجة الذى حصل. اسألوا نائب الملك عن

سبب انقطاع مخابراتى، وهل نشر الإعلان أم لا.

«ثم أرجو من سموكم أن لاتظنوا بأننى سأستعمل بهذا الاحتجاج شيئا من الشدة أو ما ينافى الذوق، بل بالعكس سأفرغ أقصى جهدى لسبك الاحتجاج فى قالب سياسى لا ينافى المجاملات».

ثم أرسل إليه يوم ١٣ منه البرقية الآتية:

«فاوضت رجال السلطة الإنجليزية بشأن الإعلان بمبايعة صاحب الجلالة الملك على العرب، وقد انتهت المفاوضات بيننا. إلا أنهم رغبوا التربص إلينا ثلاثة أيام ليدرسوا فى خلالها ما يكون من حالة العالم الإسلامى، وكيفية هذا النبأ، وأنه متى عرف ذلك يمكن إفراغ الإعلان بشكل يلتئم مع الحالة المذكورة ولا أرى بأسا فى هذا».

وفى يوم ٢١ منه أبرق إليه قائلا:

«قابلت بالأمس معتمد فرنسا السياسى بمصر، وبعد المجاملات الرسمية حادثته بشأن الاعتراف بالملك فأجابنى بأن لفظ العرب عامة يشمل أمثال تونس، فقلت بأن هذا الاصطلاح سابق، ولم يؤد يوما ما معنى سلطان الترك، سلطان جميع الأتراك والمقصود به البلاد العربية. ثم بينت له لزوم سرعة اعتراف الحلفاء بهذا الأمر ليشجعونا فى عملنا المشترك، ونحن ننتظر من الحلفاء مثل هذا التشجيع لننشط فى حركاتنا، ثم شرحت لزوم مساعدة الأمة الفرنسوية الكريمة، التى هى بمجدها وتاريخها جديرة بالعطف على أختها العربية، فهما عريقتان بالحرية والاستقلال، فللأمة الفرنسوية أن تنظر للأمة العربية كصديقة وحليفة محترمة مخلصة، لتبنى أساسات السياسة على الصراحة والإخلاص. أما إعلان خبر الاستقلال فلم أوفق إليه».

وفى يوم ٢٢ منه أبرق إليه:

«كررت تشبثاتى مع ولاة الأمور الإنجليز مبينا أن لفظة «ملك العرب» ليست عامة كما يظنون أنها تشمل مصر والجزائر وغيرها، بل المقصود ملك البلاد العربية. وأكدت لهم أنه لايوجد واحد من أصحاب الفكر والرأى فى الأمة العربية يمكن أن يرضى بغير هذا اللقب

الذى هو حقهم الطبيعى. ثم أظهرت أن الإحجام عن تشجيعنا مما يدعو إلى فتور روح الحركة فينا. فقالوا أنهم يأملون أن يرد الجواب فى ظرف أسبوع. لأنهم يشتغلون بالمذاكرة مع حلفائهم، وكرروا أنهم يريدون التمسك بمعاهداتهم مع صاحب الجلالة مليكنا وإننى أرى لزوم إظهار التجلد السياسى».

وفى يوم ٢٥ منه تلقى من مكة البرقية الآتية:

«تلقينا برقيتكم أفيدونا أولا هل أنتم بادأتموه بالبحث أم هم البادئون؟ علمنا من بحثكم أنه كان مع معتمد فرنسا، ولكن بحثكم الثانى مع أى موظف من حكومة جلالة الملك، وإذا عملنا هذا تعين ما يقتضى الجواب عنه».

وفى اليوم نفسه أرسل الحسين إلى المندوب بمصر البرقية الآتية بتوقيع الشيخ فؤاد الخطيب:

«رأى صاحب الجلالة مولاى المعظم أن أبلغكم اجتناب مباحثة مأمورى السياسية بما يتعلق بذلك، وأن بادأوك فعلق جوابهم على طلب تعليماتنا، وما يردك منا تفيدهم به. فتبلغ أولا من ذاكرك بعنواننا الجديد من مأمورى حكومة جلالة الملك جزيل توقيراتى الجدية وأن معلوم كمالاتهم تكليفى بعنوان الخلافة العربية فى مبادئ مذكراتنا فى أمر النهضة. ثم تبليغك إيانا بتاريخ رمضان رغبتهم فى تلقيبنا سلطان العرب وأن غياب ابنى زيد ـ الذى كان يشتغل بالأوراق إذ ذاك يحول دون تعيين يوم وعدد تلك الافادة. فمن الضرورى وجودها وإجابتنا عنها فى قيوداتك. ولذلك فأن تأويلها الآن فى عنواننا المقيد «بالبلاد العربية» عقب سماحهم واستنسابهم لنا عنوان الخلافة العربية وسلطان العرب بما لهما من السلطة الواسعة اعتراف بمغلوبية كمالاتهم ومداركهم السامية. أمام الخيالات المحضة. إذ إن مصر ليست من البلاد العربية وتونس والجزائر بطريق الأولى. ولا شك بأن دوام حدوث مثل هذه الخيالات والذهابات يحكم علينا بالتردد فى العمل ونتيجته إحباط مساعينا وإياهم نحو الحقيقة التى ثقتى واعتمادى عليها بعد المولى ألجأتنى إلى اقتحام ما ذلله البارى من المهالك والمخاطر»

«ولقد أردت ايفاد ابنى عبد الله لإزالة ما عسى أن يحدث من أمثال هذا من سوء

التفاهم ترجيحا على بقائه الضرورى لدينا. ولكن لم تسعفنا الأقدار إلى إعادة حصولنا على هذا الأمل المهم من بشرانا بقدوم جناب صاحب المعالى السردار والحاكم العام للسودان إلى جدة، ليبسر البارى بمذاكراتى لمعاليه زيادة تأمين الوصول إلى النتيجة المقدسة المقصودة، وخدمة البشرية وصيانتها من أمثال هذه الشوائب. فإن المقصد نزيه والغاية شريفة وإننا بحول الله تعالى ممن يحافظ على شعار الوفاء مع الإخاء. فضلا عن حلفائنا الكرام الذين يعجزنا شكر صنيعهم».

وفى يوم ٢٩ منه أبرق المندوب بمصر قائلا:

«بلغت اللازم لحكومة جلالة الملك، وأكدوا بأن لا سبب لتأخير إلا اشتغالهم بالمذاكرة مع سائر حلفائهم لما لهذه المسألة من عظيم الشأن. وأن بريطانيا العظمى تحافظ على شرفها وعهودها وأنها تبذل كل ماليديها فى سبيل هذه الغاية الشريفة وتصرف أقصى جهدها لتبنى سياستها على مكارم الأخلاق ولكن مسألة كهذه هى من أعظم المسائل، وليس من الممكن الجواب عليها بدون تأمل ومذاكرة، لكى يكون جوابهم مطابقا لما يلزم. ومن الطبيعى أن هذا يستغرق زمنا طويلا. وهم شاكرون احساسات صاحب الجلالة نحوهم ويرجون أن هذا التأخير الضرورى لا يزعج مولاى. وأما إفادتى التى كنت قد ذكرتها هى بتاريخ ٩ رمضان والعبارة هى «تباحثت مع نائب الملك لأجل لقب «ملك العرب» فوجدته ميالا لقبوله»».

وفى يوم ٢٠ صفر سنة ١٣٣٥ أبرق وكيل الخارجية إلى المندوب بمصر: أمر استقلال بلادنا قد بلغتنا به بريطانيا وفرنسا فى الأسبوع الماضى بصورة رسمية ودولة روسية بلغتنا بأنها مصدقة على كل ما بلغنا إياها حتى أن حكومة بريطانيا شرعت قبل ثلاثة أيام تخاطب سيدى ومولاى بعنوان ولقب صاحب الجلالة.

وفى يوم ٢ ربيع الأول أرسل المندوب بمصر قائلا:

نشر اليوم فى الصحف البلاغ الآتى: اعترفت الحكومة البريطانية وحكومة جمهورية فرنسا رسميا بشريف مكة ملكا على الحجاز.

وهكذا. وبعد مفاوضات ومكاتبات استمرت نحو ٥٠ يوما اعترف الحلفاء بالحسين ملكا على الحجاز. لا على العرب كما لقبه قومه. فكانت أيضا صدمة جديدة صدمه بها الحلفاء.

وهذا ملخص ما قاله الكولونيل بريمون فى كتابه الحجاز فى الحرب العظمى عن مسألة اللقب وقد اشترك فى المفاوضات التى دارت حولها قال «وفى هذه الفترة وفترة الأشهر الثلاثة الأخيرة من سنة ١٩١٦) حدث حادث ما كان الانجليز ولا الفرنسيون يتوقعون حدوثه مطلقا، وأعنى به المناداة بشريف مكة الأكبر ملكا للعرب. ففى يوم ٢ المحرم (غداة دخول السنة الهجرية الجديدة) دعا الأمير عبد الله إلى اجتماع بحجة تبادل التهانى بالسنة الجديدة، ولما تكامل الجمع وقف الشيخ فؤاد الخطيب مدير جريدة القبلة وأستاذ كلية غردون فى الخرطوم، وسيرد اسمه كثيرا فى هذا الكتاب، وخطب خطابا ملأه بالثناء على الحسين، وتغنى فيه بمجد العرب، وختم بعرض طائفة كبيرة من الكتب زعم أنها وردت من سورية، وأنها اعترفت بالحسين بن على ملكا على العرب فنهض الجالسون ونادوا بالأمير ملكا على العرب، فأجابهم هذا بأنه ما أراد الحرب، وأنه لم يخض غمارها إلا لأجل شعبه وفى سبيله، وأن للمسلمين أن يختاروا فى المستقبل خليفتهم، وأن علينا أن نضع نصب أعيينا فى الوقت الحاضر تحرير العرب وانقاذهم فقط» فرد عليه أحد شيوخ البدو الحاضرين بقوله «إذا كنت لا ترضى أن تكون خليفة فمن يكون الخليفة إذن؟»

«وبعد قليل أبرق الأمير عبد الله وكيل الشؤون الخارجية للملكة العربية إلى البعثة الفرنسوية بخبر البيعة، واتفق الكولونيل ولسن معتمد بريطانيا مع الكولونيل بريمون على الاكتفاء بتقديم التهانى، وكتب هذا إلى وزارة الخارجية الفرنسوية قائلا: لو كان لنا ممثل سياسى فى مكة لما فوجئنا بمثل هذه المفاجأة الغريبة» وقد أدت هذه الملاحظة إلى إرسال ابن عزوز ترجمان القنصلية الفرنسوية فى جدة قبل الحرب إلى مكة بصفة معتمدا لفرنسا

«وعلل السى قدور بن غبريط فى تقرير رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسوية هذه الحركة غير المتوقعة بأنها نتيجة الصمت الذى يلتزمه الحلفاء إزاء ما يطمع به الملك من توسيع حدود أراضيه».

«وقوبل خبر هذه المبايعة باستغراب فى القاهرة ولم يشجع المستر ستورس والكابتن لورانس الأمير عبد الله حينما اجتمعا به يومى ١٦ و ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٦ فى جدة على الاندفاع فى تحقيق هذه الفكرة وقال لورانس قبل عودته إلى القاهرة «لقد نصحنا عبد الله بأن يأخذ المدينة قبل أن يفكر فى أن يكون ملكا على سورية وفلسطين».

«وكانت القاهرة غير مرتاحة إلى ما وقع. لأنها كانت تخشى أن يؤدى هذا التصرف

إلى نفرة الأمراء العرب الآخرين من الشريف وتخوفهم منه. كما أن فشله أو سقوطه يكون عظيم الأثر فى الهند».

«وأبرق السير هنرى ماكماهون إلى الشريف معربا له عن عدم موافقته فأجابه بأنه لم يفعل ما فعله إلا نزولا على رغبة كبار قومه وعلمائهم وشيوخ القبائل، وأنه مستعد للتنازل عنه إذا كانت انجلترا لا تقره».

«وفى يوم ١١ نوفمبر سلم الكولونيل ويلسون والكولونيل بريمون بأمر حكومتيهما، وبعد اتفاقهما، إلى الشريف مذكرة متحدة المعنى فى قضية المبايعة، وتولى ابن عزوز تقديم الرد الفرنسوى إلى الأمير عبد الله فقال له بهذه المناسبة «إن الحلفاء مخطئون بترددهم فى الاعتراف رسميا بلقب والدى الجديد» ثم قال انظروا إلى الألمان كيف يعملون على أعلاء مقام تركيا وزيادة نفوذها. فقيصر ألمانيا لا يخاطب السلطان إلا بقوله «صاحب الجلالة المقدسة» فيجب على الحلفاء أن لا يقتصروا فى مساعدتهم للدولة العربية الجديدة على الماديات. بل يجب أن يتخطوها إلى الأدبيات والمعنويات فيعلوا مقامها ونفوذها، وقال إن العالم الإسلامى كله يتجه بأنظاره نحو الدولة العربية الجديدة».

«وتبادل رجال الحكومتين الإنجليزية والفرنسوية المذكرات بهذا الشأن. ففى يوم ١٧ نوفمبر أبرق سفير انجلترا فى باريس من لندن إلى السردار فى القاهرة يقترح عليه أن يلاحظ على الشريف تسرعه فى قبول البيعة ويقول: إن الحكومات الثلاث المتحالفة تعتبر الحسين رئيسا للشعوب العربية الثائرة على الترك، وأنها تعد نفسها سعيدة بأن تعترف به ملكا شرعيا وفعليا على الحجاز على أن لا يلقب «باللقب الملكى» لأن ذلك يؤدى إلى وقوع الشقاق والانقسام بين العرب. وقد يحول فى المستقبل دون تسوية شؤون شبه الجزيرة تسوية تبعث على الارتياح.

«وختم السفير برقيته بتهنئة العنصر العربى وشكره على جهوده. مؤكدا أن الحكومة البريطانية وحلفاها متفقون على ضمان استقلال العنصر العربى، والمحافظة عليه بكل مايملكونه من قوى».

«ولقد رأى المسيو بريان حين كتابة هذه البرقية أبدال كلمة «العنصر العربى» بالشعوب العربية».

«وبعد أخذ ورد طويلين بين الحكومتين اتفقتا فى أواخر سنة ١٩١٦ على الاعتراف

بالملك ففى يوم ٣ يناير سنة ١٩١٧ زار ابن عزوز الملك وسلمه، كتابا من الكولونيل بريمون قال فيه: إن الجمهورية الفرنسوية تعترف به ملكا على الحجاز، وأن يكون لقبه هكذا «جلالة ملك الحجاز» وقد سلمه أيضا الكولونيل ويلسن فى الوقت نفسه مذكرة بمثل هذا المعنى. فرد الملك على ابن عزوز قائلا أنه لا أهمية للقب الملك فى نظره، وأنه لا يفكر إلا فى خدمة أمته وبلاده، وكلفه ابلاغ شكره إلى حكومته».

وقبل ابلاغ الاعتراف رسميا كتب المندوب العربى بمصر إلى مكة يوم ٢٨ صفر سنة ١٣٣٥ يقول إنه علم بأن الحكومتين الفرنسوية والإنجليزية اعترفتا بصاحب الجلالة ملكا على الحجاز. ولما كان هذا الإعلان يكدر جميع المحبين فهو يسأل عن رأى صاحب الجلالة بما يجب عليه أن يعمله فجاءه الجواب الآتى:

«لا لزوم لمثل هذه المساعى لأنها تخل بما نحتاج لباقى الأعمال وتحدث مواضيع دقيقة».

٥ ـ محاولة استرداد القوة البريطانية من رابغ

فى أواسط شهر أكتوبر سنة ١٩١٦ وصل إلى جدة المستر ستورس السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى بمصر والكابتن لورانس فجاء الأمير عبد الله لاستقبالهما والتحدث معهما، وبعد السلام وتبادل المجاملات المعتادة قال المستر ستورس: أبلغكم، وأنا آسف، أن الحكومة البريطانية قررت استرداد القوة التى أرسلتها إلى الحجاز لهياج مسلمى الهند عليها، وكان للإنجليز بوارج حربية فى رابغ، وكانت رابغ نفسها لا تزال تحت رحمة الأقدار فارتج على الأمير عبد الله، ولم يفتح عليه بشئ يتكلم به فترك المكان وانسحب من دون أن ينبس ببنت شفة ـ فالتقى وهو منصرف باكولونيل بريمون مندوب فرنسا فسأله إلى أين

ـ إلى مكة

ـ ولماذا أراك مستعجلا

ـ لأننا قررنا عقد الصلح والانتهاء من مسألة الحرب. فقد عرض علينا هؤلاء الاعتراف باستقلال العرب، وبما أنّ الاستقلال هو الغاية من حركاتنا فأننا مستعدون للانسحاب فيحل غيرنا محلنا من المعروفين بالميل إلى الترك، وتدور المفاوضات على أساس الاعتراف بالاستقلال وهو المطلوب.

فأسرع الكولونيل بريمون حينما سمع هذا الكلام إلى المستر ستورس والكابتن لورانس

وأبلغهما ما قاله الأمير. فلحقا به وألحا عليه بالرجوع إلى المكان الذى ينزلان فيه لاتمام البحث، فاعتذر وقال إنه ليس باستطاعه البقاء بعد الذى سمعه، وأنه سيبلغه حرفيا إلى والده فهو صاحب الشأن.

فكررا الرجاء والالتماس وقالا: إن هنالك سوء تفاهم، وأن الأمر مجرد اقتراح لا أكثر ولا أقل، فإما يقبل أو يرفض وبما أنه لا يوافق عليه فأنه يعد مرفوضا . فقال أنه بعد الذى سمعه لابد له من ابلاغه إلى والده ليتدبره، وبعد أخذ ورد طويلين وافق على أن يؤجل سفره لمدة قصيرة، ولايسرع فى طريقه إلى مكة ريثما يكاتبان لندن ويحصلان منها على تصريح خطى بأن انجلترا لا تفكر فى استرداد قواها من الحجاز، وأنها ستستمر فى مساعدة الثورة. وهكذا كان

ولم يشر الكولونيل بريمون فى كتابه إلى هذه الحادثة وقد سمعناها من الأمير عبد الله بالذات. مع أنه لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولم يدع نقيصة إلا ألصقها بالعرب وحركتهم.

٦ ـ سعى الفرنسويين للاستيلاء على سورية

فى أواسط شهر إبريل سنة ١٩١٧ وصل إلى القاهرة المسيو جورج بيكو المفوض السامى الفرنسوى لسورية على رأس وفد من رجال فرنسا، كما وافاها من لندن السير مارك سايكس المفوض السامى البريطانى، وهما بطلا المعاهدة المعروفة باسمهما، والمختصان بالنظر فى شؤون البلاد العربية من قبل حكومتيهما.

وخطب الأول خطبة سياسية فى طائفة من اللبنانيين اجتمعوا فى فندق شبرد. مما قاله إنه آن الأوان للنظر فى مصير سورية ولبنان، وأن الحلفاء قد اختاروا فرنسا وصية على لبنان، وأن نظام الحكم فى الداخلية سيكون استشاريا، وأنه كان قبل سنتين فى مصر ثم غادرها إلى أوربا ليعمل لأجل سورية. وقد تحددت مهمته باتفاق جميع الدول. فهو ذو صفة رسمية فى الوقت الحاضر، ولقبه الرسمى «مفوض سامٍ» وأن فرنسا والحلفاء لا يقصدون فتح البلاد، وإنما يقصدون تحريرها. وودع الحاضرين فى الختام بقوله: «أودع مواطنى المستقبل هنا ذاهبا إلى الإسكندرية للاجتماع إلى مواطنى من أمثالكم هنالك».

ولما كانت هذه الخطبة هى الأولى فى بابها. ولما كان المسيو جورج بيكو من الرجال

الرسميين الذين يقام وزن لأقوالهم وتصريحاتهم، وبما أنه جاهز بأن فرنسا ستكون وصية على لبنان، مما يعد خرقا للعهود المقطوعة للعرب، طير المندوب العربى بمصر إلى مكة بالبرق خلاصة ما وقع، وأضاف عليه أن معظم الذين سمعوا الخطبة ما كانوا مرتاحين إلى ما قيل، وأنهم انتقدوا تصرف المندوب وطلب من وكالة الخارجية ابلاغه الخطة التى يسير عليها ازاء هذا الحادث، فجاءه الجواب بأن يقابل نائب الملك ويسأله عن معنى الحركة الجديدة.

هذا من جهة واحدة. أما من الجهة الأخرى فقد أثارت هذه التصريحات ضجة شديدة بين السوريين واللبنانيين فى مصر. لأنها دلت على حقيقة نيات الفرنسويين، وعلى ما يضمرونه لبلاد الشام، وجاءت مصداقا لما كان يشاع عن رغبتهم فى امتلاكها بأى طريقة كانت، وعن الاتفاق السرى الذى عقدوه فيما بينهم وبين الانجليز لاقتسام بلاد العرب وكتموا أمره. ونعنى به اتفاق سايكس - بيكو المشهور وقد نشرناه فى ما تقدم سيما وقد كانت الدلائل تدل على نواح أخرى، خصوصا محاولة الحلفاء صد العرب عن الإيغال فى الزحف نحو الشمال، وتحديدهم منطقة عملهم فى دائرة ضيقة لا تتجاوز الحجاز - على صدق الإشاعات الجديدة.

وقابل المسيو جورج بيكو بعد ذلك بأيام المندوب العربى فى القاهرة فقال له: إن المسائل المتعلقة بالمستقبل يسهل حلها بمفاوضات واتفاقات تعقد مباشرة. ولم يشر بشئ فى هذه المقابلة، وقد نقل المندوب مادار فيها بالبرق إلى مكة عن خطبته، وإنما قال أن العرب جديرون بالحياة الاستقلالية إذا لم يستسلموا للفوضى، وأنه عمل مدة وجوده فى أوربا على تأييد الفكرة العربية الاستقلالية، لما خبره من حالة العرب أثناء وجوده قنصلا لدولته فى بيروت قبل الحرب.

وفى أول مايو سنة ١٩١٧ غادر السير مارك سايكس القاهرة إلى جدة لمقابلة الحسين فبلغها يوم ٤ منه وكان معه فى رحلته هذه الكولونيل ويلسن المندوب البريطانى فى جدة، وقد جاء القاهرة لمقابلته والعودة معه. ويلوح لنا أن الغاية من زيارة هذين القطبين السياسيين للقاهرة فى تلك الأيام، وسفر الأول إلى جدة ومقابلته الملك ثم رجوعه إلى القاهرة واجتماعه إلى زميله جورج بيكو، وسفرهما معا إليها واصطحابهما الأمير فيصل من ميدان القتال، وحضوره الاجتماعات التى عقدت بينهما وبين والده - يلوح لنا أن الغاية من كل ذلك هى ابتكار تسوية تحل الاختلافات التى ظهرت يومئذ على مصير سورية

والعراق وفلسطين ـ لأن الحلفاء كانوا مجمعين على الاعتراف باستقلال الحجاز وبحكومته، وما كانوا يطمعون بالتدخل فى شؤونه مطلقا، أى أن قضيته كانت منتهية من هذه الجهة، ولذلك انحصر الخلاف فى مصير هاته الأقطار.

والظاهر أن الحلفاء كانوا يظنون أن فى إمكانهم الوصول إلى مثل هذه التسوية مع الحسين ـ رغم صراحة العهود المقطوعة له، ولعلهم كانوا يعتمدون على اعترافه فى المكاتبات التى دارت بينه وبين السير هنرى مكماهون، بما لانجلترا من مركز خاص فى البصرة، وتعهده بأن يؤجل الاتفاق على مصير سورية إلى مفاوضات خاصة تدور بعد الحرب.

تقرير ابن غبريط

وربما كان السى قدور بن غبريط رئيس الوفد الفرنسوى الإسلامى السياسى إلى الحجاز فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ أول من نبه الفرنسويين إلى المشاكل التى قد يستهدفون لها فى سورية من جراء اشتداد ساعدة الحركة العربية واتساع نطاقها. فقد قال فى تقرير رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسوية يوم ٢ ديسمبر سنة ١٩١٦ أى على أثر رجوعه من مكة ما ملخصه «لا ينطوى استقلال العرب فى عرف الشريف الذى أعلنه على تحرير الأماكن المقدسة فقط، بل يمتد إلى ما وراء ذلك فهو يطمح إلى إنشاء دولة عربية قوية ذات شأن تشمل حدودها الجغرافية بلاد العرب كلها، وقد قال لى بهذا الصدد أن بلاده لا تستطيع أن تعيش منفردة بسبب ضعف مواردها. بل لابد لها من الاعتماد على الأقطار المجاورة لها، وهو يشير بذلك ضمنا إلى سورية ودمشق. ولايخفى ابنه (يشير إلى الأمير عبد الله) مطامعه من هذه الناحية. ويجب على أن أصرح هنا بأن خلافا مع الشريف قد يجعل استقرارنا فى سورية عرضة لمصاعب، إذا لم نبادر إلى اغتنام فرصة ضعفه الحاضر فنعقد معه اتفاقا يحدد مطامعه، ويعترف بما له من مصالح لا تتعارض مع مصالحنا.

«على كل حال فلابد لنا من مساعدته ماديا وأدبيا. لأننا نخشى أن تؤثر فيه انتصارات ينالها الترك فتحمله على التخاذل، ولقد أبان لى بجلاء، وكان ابنه عبد الله أكثر منه صراحة، بأن تقاعدنا عن مساعدتهم فى حالة الخطر قد يعجل فى حمل الحكومة العربية

على التعاقد مع الترك، وقد يتخذ أعداؤنا المصير السيئ الذى صارت إليه الدول الصغرى التى حالفت فرنسا وروسيا وانجلترا، ثم استهدفت لما استهدفت إليه من مصير سيئ بسبب غزو الألمان لها واستصفائهم بلادها، وسيلة فيشجعوا العرب على اخماد سيوفهم والوقوف فى جانب الترك ضد الحلفاء.

«ولابد لى من القول أن ما يظهره الموظفون الانجليز من عدم اهتمام بمعالجة هذه الشؤن يزعج الشريف وابنه، ويزيد فى مخاوفهما وأسفهما خصوصا بعد ماظهرت آثار الخلاف فى وجهات النظر بين ولاة الأمور المدنيين والعسكريين الانجليز أنفسهم فى القاهرة، وما يجهر به بعضهم من عدم الوثوق بفرنسا وتمثل سياستها فى بلاد العرب بعثة عسكرية أثار وجودها ثائر الحسد فى نفوسهم».

فالغاية التى رمى إليها السر مارك سايكس من رحلته الأخيرة إلى مصر ومن تردده على جدة واجتماعه بالملك - وتقول برقية أرسلتها وكالة الخارجية العربية بمكة يوم ١٠ رجب سنة ١٣٣٥ - مايو سنة ١٩١٧ إلى المندوب العربى بمصر[1] أن السير مارك سايكس قادم بدعوة خاصة وجهت إليه - هى التفاهم مع الملك على مصير تلك الأقطار وما هى عربية فى عرفهم - تضع حدا لسياسة التشاد وقد ازدادت واستفحلت فى خلال السنة الثانية للثورة.

ويقول المندوب العربى بمصر فى برقية طيرها إلى مكة يوم سفر هذا إلى جدة بالذات «يسافر اليوم إلى جدة السر مارك سايكس لأجل مسألة فى غاية الاهمية، ولقد قابلته قبل سفره فافهمنى بعض الأمور التى سيتكلم عنها مع مولاى. ولا شك أن له نفوذا عند حكومته وهو يريد أن يقابله لعدة مسائل أهمها تقرير موقفنا نحن العرب جميعا مع الحلفاء لا سيما مع انجلترا وفرنسا».

«ولاريب أن الأمور التى يتكلم عنها هى تعليمات حكومته. وقد قال بإنه وإن كان بين هذه المسائل ما قد لا ينال ارتياح جلالة الملك إلا أنها فى مجموعها ستسره، وأعرب لى عن لزوم الاتحاد بين الحلفاء. وقال إن هذا أعظم شىء فى نظرهم، وأرى أننا نحن العرب فى أدق نقطة من تاريخنا السياسى».

ويقول الكولونيل بريمون فى صدد زيارة السير مارك سايكس لجده ما ملخصه:

وصل الكولونيل ويلسن والسير مارك سايكس إلى جدة يوم ٤ مايو بالبارحة «لاما»

---

١ - ص ٤٩ من كتاب الحجاز فى الحرب العظمى.

وجاءها الملك من مكة يوم ٥ صباحا ومعه الشيخ فؤاد الخطيب فاستقبل القادم وبحث معه طويلا. وعلى أثر انتهاء هذا الاجتماع قصد السير مارك سايكس دار البعثة الفرنسوية وناط بالملازم ميلى، أن يبلغ الكولونيل بريمون، وكان غائبا فى رابغ، الايضاحات الآتية: - قال:

«إن للمسألة العربية ثلاثة جوانب:

فالجانب الأول خاص بالانجليز والفرنسويين والعرب.

والجانب الثانى خاص بالانجليز والعرب ويتعلق بمصير العراق.

والجانب الثالث خاص بالفرنسويين والعرب ويتعلق بشواطئ البحر الأبيض.

ولقد أحطت بتفاصيل الجانب الأول، وأرجو أن لاينقضى وقت طويل على الكولونيل بريمون حتى يعى هذه الشئون، وسأعود يوم ١٩ منه فأقابله وأحادثه.

«ولن أتكلم عن الجانب العربى - الفرنسوى خوف الوقوع فى الشرك الذى يريد الملك أن يوقعنا فيه. فهو يتظاهر بمقت الإنجليز إذا حادث فرنسويا، ويمقت الفرنسويين إذا حادث إنجليزيا. ولعل من المناسب أن يطلع الكولونيل بريمون الملك تدريجيا على مطالبكم وعلى الامتيازات التى تريدونها ويدخلها فى رأسه بدون إلحاح.

«وليس فى إمكاننا إهمال شأن الملك لما له من مقام عند قبائل عنزة، وكل سياسة يؤيدها ويناصرها تستميل حوران إلى جانبكم، وهى تنفر منكم، وتعطف على الانجليز فى الوقت الحاضر فالدروز يستقبلون كثيرا من الضباط المنهزمين وسيؤدى ذلك إلى تأليف قوة ذات شأن تقف فى جانبنا».

هذا ما أفضى به السير مارك سايكس إلى البعثة الفرنسوية قبل مغادرته جدة مع الكولونيل ويلسن يوم ٥ مايو على أن يعود إليها فى ١٩ منه مع المسيو جورج بيكو مندوب فرنسا السامى فى الشرق، ويقول الكولونيل بريمون إن أحاديث الملك أثرت أثرا طيبا فى نفس السير مارك سايكس.

وفى يوم ١٠ مايو أبرق وزير الخارجية الفرنسوية إلى رئيس البعثة فى جدة معلنا قرب سفر المسيو جورج بيكو (الذى اشترك تقريبا فى جميع المفاوضات التى دارت بشأن سورية) إلى جدة.

وفى يوم ١٦ منه غادرت الطرادة «تورن بروك» الإنجليزية ميناء السويس وعليها السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو والأميرال ويمس والكولونيل ويلسن فقصدت العقبة. فركبها الأمير فيصل. فأبحرت بالجميع إلى جدة فوصلتها فى الساعة ٣ بعد ظهر يوم ١٨ منه.

وفى صباح ١٩ منه وصل الملك إلى جدة، فاجتمع بالقادمين واختلى بهم مليا وعقدت اجتماعات عديدة كان آخرها ذاك الذى تم على ظهر البارجة نفسها قبيل سفرها إلى عدن فى الساعة ٣ من بعد ظهر يوم ٢٠. أما الأمير فيصل فظل فى جدة حتى يوم ٢٣ منه. فعاد بالباخرة لاما ومعه الكولونيل ويلسن، وعاد الملك إلى مكة يوم ٢٤ منه.

ولم يمط الكولونيل بريمون اللثام فى كتابه عما دار فى هذه الاجمتاعات، وعما تم عليه الاتفاق لأنه لم يشهدها بالذات. بل ظل بعيدا عنها كما اعترف، وإنما لاحظ تبدلا فى سياسة بعض موظفى الحكومة الحجازية إزاء الفرنسويين. على أنه نقل فى ص ٣٠٧ أن الأمير فيصل قال فى دمشق للمسيو مرسيه ضابط الارتباط الفرنسوى على أثر احتلالها:

«لقد آثرنا أثناء مفاوضات جدة أن نؤجل البت فى قضية سورية الساحلية. فقد كان مثلى ومثل الإنجليز والفرنسويين أزاءها مثل تجار يسعى كل واحد منهم ليحوز أكبر نصيب من عروض لا توجد بأيديهم».

والذى عليه معظم العارفين أن هذا الاجتماع انتهى بلا نتيجة تذكر لإصرار الملك على المطالبة بتنفيذ العهود المقطوعة له بدون هوادة.

ومما يؤيد هذه الرواية فى نظرنا ما طرأ على موقف الفرنسويين من تبدل إزاء الملك بعد ذلك، وقد كانوا يعلقون عليه آمالا جساما. فقد انتدبت الحكومة الفرنسوية فى تلك الأيام السى مصطفى شرشالى - وكان عضوا فى بعثة ابن غبريط للسفر إلى مكة بمهمة خاصة لدى الشريف، وإن كان سفره بحسب الظاهر للحج - وزودته بتعليمات تسلمها من وزارة الخارجية يوم أول مايو سنة ١٩١٧ وقد جاء فيها «أن فرنسا وهى على تمام الاتفاق مع انجلترا فيما يختص بشئون بلاد العرب لا ترمى إلا إلى صيانة أراضى الدولة العربية كاملة، وتميل كبقية حلفائها الآخرين إلى أن لا يكون لدولة من الدول الأوربية نفوذا ما على الأماكن الإسلامية المقدسة عند المسلمين. مهما كانت صفة هذا النفوذ. وهى مصممة على عدم التدخل فى المسائل السياسية لشبه الجزيرة العربية، وعلى أن لايكون لكل دولة أوربية ما أن تنال مركزا فى بلاد العرب.

«وأما فيما يختص بسورية والبلاد العربية التى وراءها فلن تدع فرنسا إلى الآخرين أمر العناية بتقدم هذه المقاطعات ونموها. فهى من هذه الجهة ما برحت من القديم تهتم بمصير قاطنيها. وفى استطاعتها أن تذكر بما لها من تقاليد وعلاقات قديمة. كما أن المؤسسات والمعاهد ذات الشأن التى أنشئت فيها خلال السنوات الأخيرة هى ثمرة الاهتمام والعناية اللذين نبذلهما فى سبيل هذا الجزء من آسيا الصغرى.

«ولا نرغب فى استعباد سكان هذه المقاطعات واسترقاقهم، وإنما ترغب فى تسهيل تقدمهم ورقيهم. وحكومة الجمهورية الفرنسوية هى على تمام الاتفاق مع الحكومة الإنجليزية للاعتراف بالأنظمة التى يختارونها مع مراعاة الأحوال الخاصة لمختلف المقاطعات.

«وفيما يختص بالولايات التى يقطنها العنصر العربى. فالحكومة الفرنسوية تشجع على إنشاء إمارات فى حلب ودمشق والموصل. على أن يرتبط أمراؤها بملك الحجاز. ومن المتفق عليه أيضا أن تتمتع الحكومة الفرنسوية وحدها بحق تقديم المستشارين الذين قد يحتاج إليهم الأمراء ليقودوهم فى طريق المدنية. وكذلك فيجب أن تطلب من فرنسا رؤوس الأموال اللازمة لاستغلال خيرات البلاد، وأن تناط بها مهمة مباشرة المشروعات الكبيرة لترقية هذه المقاطعات اقتصاديا.

«وأما فيما يختص بالساحل. حيث الشعوب أكثر تعداد واختلاطا فالضرورة تدعو إلى إنشاء نظام خاص تحت إشراف الحكومة الفرنسوية مباشرة».

«ولابد من نظام خاص للقدس وفلسطين يضمن احترام جميع الأديان وسيدعى الشريف إلى الاشتراك فى دراسة هذا النظام».

«فباستطاعتكم بعد الاطلاع على هذه التعليمات أن تكافحوا من دون استشارتى كل اختلاق يظهر فرنسا بمظهر عدم المكترث بشئون سورية، أو يظهرها بمظهر الواقف عقبة فى سبيل توسع الشريف، وتعلنوا إنها مصممة على أن تحسب حسابه فى كل عمل من الأعمال».

وفى يوم ٧ يونيو وصل السى مصطفى الشرشالى إلى جدة. وقبل أن يباشر عمله وأن يطلع الملك على مايحمله أو يصرح بأى تصريح، أرسل وزير الخارجية الفرنسوية يوم ١٧ منه إلى البعثة الفرنسوية بجدة البرقية الآتية:

«كلف المسيو جورج بيكو، ولا شك أنه أطلعكم على محادثاته فى جدة مع الملك أن يطلع السى مصطفى الشرشالى على الخطير منها. ولما كان الموقف قد تبدل بعد ما تسلم هذا التعليمات التى يحملها. فقد أبلغت الأول أن يبلغه بأن لا يكتفى بعدم البحث مع الملك فى الشئون السورية. بل ينكر معرفته لأى شئ يختص بالاتفاق الإنجليزى ـ الفرنسوى إذا ساءله عنه وأن لا يجعل للحكومة الفرنسوية علاقة بقضية الملكية، وأن يقتصر على نقل أجوبتنا إليه. وغنى عن البيان أن إفشاء السى شرشالى للأسرار التى اطلع عليها وهو مايخشى منه فى هذا الموقف، يولد الشك فى نفس الملك من جهة إخلاصنا. ولذلك رجوت المسيو جورج بيكو ابلاغ هذا بأن يكرر على مسامع الملك فى شتى المناسبات الأقوال التى قالها له المسيو جورج بيكو نفسه حين زيارته له وأن يدور فى دائرتها».

«ويلوح لى أن من الضرورى أن يوضح الشرشالى للملك معنى تعبير «سورية المسلمة» وقد ردده هذا فى المشروع الذى سلمه إلى المسيو جورج بيكو. فهذا التعبير لا ينطبق فى نظرنا على المقاطعات الساحلية. حيث الأديان والطوائف مختلفة متعددة. ولئن زعمت حاشية الشريف أن فى الاستطاعة تطبيقه على كل المقاطعات السورية، لعدم وجود أفضلية عددية للعناصر المسيحية. فهذا القول لا ينطبق على لبنان. ولقد أبلغت المسيو جورج بيكو رأيى بأن من مصلحتنا توقع حدوث خلاف فى هذا الشأن، ولن تنسى البيانات التى صرح بها، ولا الأعمال التى عملت حتى الآن فى الداخل والخارج، ولا الامتيازات التى لنا هنالك ولن تهمل. وإنى أرجو أن تسترشدوا بهذه التعليمات فى محادثاتكم الخاصة بهذه الشئون، وفى إبداء آرائكم للشرشالى».

فهذه البيانات السرية الفرنسوية لا تدع مجالا للشك ـ وإن كانت تقول بأن هنالك مشروعا سلمه الملك إلى المسيو جورج بيكو للاتفاق ـ فى فشل المهمة التى جاء المندوبان الساميان إلى جدة من أجلها وإلى بقاء ما كان من تشاد وجذب حول مصير هذه المقاطعات على ما كان عليه.

على أن ساسة الحلفاء مالبثوا أن مزقوا حجاب التقية الذى أشار وزير الخارجية الفرنسوية بوضعه والتستر وراءه، حينما بسم لهم ثغر الحظ، ووثقوا من انتصارهم على ألمانيا وحلفائها فقد عقد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٧ اجتماع كبير فى باريس حضره السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو والمسيو غو من أقطاب وزارة الخارجية الفرنسوية وعدد من السوريين واللبنانيين خطب فيه الأول فقال: «إن بريطانيا وفرنسا متفقتان تمام

الاتفاق على سياستهما فيما يتعلق بالبلدان غير التركية، وأنه لا خلاف هنالك ولا تناقض وأنه يجب على السوريين أن يعملوا متحدين لتحرير بلادهم» وتلاه المسيو غو فقال إنه بلسان وزير الخارجية يؤيد أقوال السير مارك سايكس ويقول إن الدولتين متفقتان تمام الاتفاق فى مايختص بمصير البلدان غير التركية. وفى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ أى بعد ثلاثة أيام خطب المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسوية يومئذ خطبة أشار فيها إلى الحقوق التقليدية التى لفرنسا فى سورية. فأعرب عن ابتهاجه بمالها من الحقوق الخاصة التى تعترف بها معاهدات صريحة غير سرية فى المساعدة على إنهاض شعب يعتمد على فرنسا.

ولم تقف مساعى فرنسا عند هذا الحد. بل انتدبت المسيو مالزاك وهو مستشرق فرنسوى كان يعمل فى القنصلية الفرنسوية بدمشق، ويعرف الشؤون الشرقية معرفة تامة. فجاءت به إلى القاهرة ليساهم فى نشر الدعاية الفرنسوية. فاتصل ببعض اللبنانيين وأخذ يدعو بواسطتهم إلى توسيع حدود لبنان فتشمل بيروت وطرابلس وصيدا وسهول البقاع وإنشاء دولة لبنانية تحت نفوذ فرنسا يكون دوق (فوتنير) الفرنسوى أميرا لها، وبذل كثيرا من الأموال فى هذا السبيل.

ونهض أحرار السوريين لمقاومة الحركة الجديدة والمطالبة باستقلال البلاد العربية استقلالا تاما، يؤيدهم فى هذا المسعى حزب الاتحاد اللبنانى، وخطته العمل لاستقلال لبنان، والمحافظة على امتيازاته، وعدم العبث بها، وكان يرأسه يومئذ المحامى اسكندر عمون نائب رئيس حزب اللامركزية.

وخطب المسيو ريبو رئيس الوزارة الفرنسوية خطبة فى مجلس نواب أمته يوم ٤ يونيو سنة ١٩١٧ قال فيها: إنه ليس لفرنسا أدنى فكرة فى امتلاك سورية أو غيرها من البلدان فوافق مجلس النواب الفرنسوى على قرار بهذا الشأن. فارسل الأحرار السوريون بمصر البرقية الآتية إلى رئيس مجلس النواب الفرنسوى، وقد وقعها اسكندر عمون بصفته رئيس الاتحاد اللبنانى، ورفيق العظم بصفته رئيس حزب اللامركزية ونصها:

بكل احترام ننحنى أمام تضحيتكم التى أجمعتم عليها لأجل استقلال الأمم الصغيرة. وهذا المبدأ الذى دافعت عنه فرنسا مدى الأجيال، وقررته علنا أمام مجلس نوابكم فى القرار التاريخى يوم ٤ يونيو سنة ١٩١٧ فسوريو ولبنانيو مصر واثقون بأن تحرير بلادهم واستقلالها المطلق قد صار الآن مؤكدا. فهم يقدمون احتراماتهم المصحوبة بإعجابهم

وامتنانهم إلى مندوبى الشعب الفرنسوى حامى ذمار جميع الحريات[1].

ولما يئس الفرنسويون من التفاهم مع الشريف، وأدركوا أنه ليس فى إمكانهم حمله على الاعتراف بما يدعونه من حقوق على سورية، وجهوا وجههم إلى ناحية أخرى. فقرروا الاستعانة ببعض الموارنة اللبنانيين من النازلين فى القطر المصرى. فأنشأوا فى سنة ١٩١٧ جمعية باسم جمعية الدفاع عن سورية ولبنان. تولى رئاستها عبد الله باشا صفير اللبنانى، واختير الدكتور أسعد عطية سكرتيرا عاما لها، وكان من أعضائها خليل باشا خياط، وفريد باشا بابا زوغلو وغيرهم من اللبنانيين المعروفين فى مصر والمسلم السورى الوحيد الذى انضم إلى هذه الجمعية وانخرط فى سلكها، هو حقى العظم. فقد نقم على الأمير فيصل عدم تعيينه سكرتيرا خاصا له.

٧ ـ وعد بلفور

وجاء وعد بلفور بعد ذلك ضغثا على إبالة، وقد قطعه الإنجليز من دون استشارة الحسين، ومن دون أخذ رأيه. مع أنه يختص بأقليم عربى، وإذ قيل لنا إنه كتم كبقية العهود والاتفاقات السرية الأخرى، نجيب أن الأمر بالعكس، فقد نشرته جريدة المقطم يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩١٧ أى بعد صدوره بستة أيام فقط، وهو صادر بصفة كتاب من اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية يومئذ إلى اللورد روتشلد.

عزيزى:

«يسرنى جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضا والارتياح إلى المشروع الذى يراد به أن ينشأ فى فلسطين وطن قومى لشعب اليهود، وتفرغ خير مساعيها لإدراك هذا الغرض. وليكن معلوما أنه لا يسمح بإجراء شيئ يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين الآن أو بالحقوق التى يتمتع بها اليهود فى بلدان الأخرى وبمركزهم السياسى»

ومما يستحق الذكر أنه لما دخل الجنرال اللنبى القدس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ رسميا مشى إلى جانبه ممثلو دول الحلفاء، ولم يمثل الدولة العربية الجديدة ممثل فى ذلك الاحتفال الرسمى.

١ ـ يجب أن يلاحظ بأن تاريخ إلقاء هذه الخطبة متقدم على الخطبة المنشورة آنفا. فقد تبدل موقف فرنسا فى خلال الفترة المنقضية بينهما.

٨ ـ الصلح المنفرد ومساعى الترك

كان الأمير سعيد الجزائرى بين الذين نفاهم جمال باشا إلى الأناضول أيام السبى والهجرة، رغم ما كان يظهره من حب للدولة وإخلاص، ورغم قيادته بعض المتطوعين المغاربة فى أوائل الحرب للقتال فى صفوفها، والظاهر أن نفيه ونفى أسرته وبينهم والده الأمير على باشا ـ وكان يومئذ مندوبا عن دمشق فى مجلس النواب العثمانى ووكيل رئيسه إلى بورسة، جرى بموجب المبدأ الذى سنه جمال باشا، وهو نفى أسر وأقارب المشنوقين وكان من جملتهم الأمير عمر الجزائرى عم الأمير سعيد، فقد أعدم شنقا فى دمشق يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ مع الذين أعدموا فيها للأسباب التى سردناها فى الفصل الرابع.

ولما أصيبت سياسة الترك فى سورية بما أصيبت به من فشل وإخفاق واضطر الباب العالى إلى استدعاء السفاح جمال، وتغيير سياسته نحو العرب كان الأمير سعيد وأخوه الأمير عبد القادر فى مقدمة الذين عادوا إلى سورية من العرب المنفيين، فقصد الثانى العقبة سرا، ومنها سافر إلى مكة فأدى فريضة الحج سنة ١٣٣٦ وعاد ثانية إلى سورية. أما الأول وهو الأمير سعيد فأخذ على عاتقه مهمة السعى لعقد صلح منفرد بين العرب والترك يزيل الخلاف من بين الأمتين، ويعيد السلام إلى قراره فى بلاد الشام والحجاز، فقصد السلط فى شهر يوليو سنة ١٩١٨ وقابل جمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع، وكان مقره هنالك، فعرض عليه فكرته. فلقيت منه استحسانا وتأييدا، وفى يوم ٦ أغسطس سنة ١٩١٨ غادر الأمير سعيد السلط قاصدا معان. فركب قطارا خاصا أعده له الترك فاستقبله فيها على وهبى بك قائدها ـ عملا بالأوامر التى تلقاها ـ وجاء له برسول سلمه الكتاب الذى يحمله من جمال باشا الصغير إلى الأمير فيصل ونصه:

قيادة الجيش الرابع فى ٥ أغسطس سنة ١٩١٨

المعروض :

إطفاء لنار الفتنة المشتعلة بين المسلمين أبعث إلى حضرتكم بالنجيب الأمير سعيد، الذى يقوم من جانبنا بمهمة مقدسة، وأنى لعلى اعتقاد بأن حفيد النبى الكريم غير مرتاح إلى هذا الفتور بين المسلمين. وأعتقد أن روح النبى الطاهرة ستكون راضية عن عملى هذا.

وأرجوا الله أن يصون دينه المحمدى ـ كما وعدنا فى كتابه الكريم وأن يوفق العاملين للصلح فيما يسعون إليه:

وأرسل الأمير سعيد أيضا كتابا خاصا منه مع كتاب الباشا هذا نصه:

معان فى ١٧ أغسطس سنة ١٩١٨

كلفنى قائد الجيش الرابع جمال باشا أن أوافيكم إلى مقركم العالى للبحث فى قضية الصلح، وأجد نفسى سعيدا بلقائكم ـ كما أرجو الله أن يوفقنى لخدمة البلاد. فإذا كنتم على استعداد للدخول فى المفاوضات. فأرجو من سموكم تحديد الزمان والمكان فأوافيكم متخذا هذه الفرصة وسيلة لتأييد الأخوة، وأقبلوا فائق احترامى.

وفى يوم ١٨ منه عاد الرسول إلى معسكر الترك فى معان يحمل الرد الآتى من الأمير فيصل:

عين وحيدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٨

عزيزى الأمير سعيد المحترم

«تلقيت رسالتك وسررت لدوام صحتك ـ عسى البارى أن يحفظك، ولولا علمى بصفاء قلبك وخلوص نيتك ما كنت أرى لزوما للرد على كتابك. ولكن بالنظر لما بيننا من الأخوة والمحبة أرى ـ أن كانوا (أى الترك) قد زودوك بما تثق به ويطمئن إليه قلبك فأحضر إلى وادى «عقيقة» هذه الليلة تجد عشرة رجال يحملون فانوسا أحمر. فاعتمد عليهم وهم يقودونك إلينا وأن كنت لا تحمل مايطمئن إليه القلب فلا تتعب نفسك فأنت فى مكانك، والعرب وشأنهم والسلام».

وقصد الأمير سعيد الوادى فى الوقت المضروب مع دليل فلم يعثر على الرجال العشرة، لأنه أضاع نقطة الاجتماع. فعاد إلى معان بعد ما لقى مصاعب، وفى الغد أرسل كتابا إلى الأمير فيصل يخبره بما وقع، ويطلب إليه أن يرسل مندوبا يعتمد عليه، وينتظر قدومه على أكمة تشرف على السهل فيقصد المعسكر العربى متسترا تحت جناح الظلام.

ووصل المندوب فصحب الأمير إلى المعسكر العربى، فكان فى استقباله نورى السعيد وفائز الغصين، فقضى ليلته هناك، وفى الغد اجتمع بالأمير، وسلمه كتاب جمال باشا

فتلاه بامعان وخلا بعد ذلك بنورى وفائز.

فكتب رده ونصه:

إلى حضرة قائد الجيش الرابع:

«تلقيت كتابكم الذى تفضلتم بإرساله مع الأمير سعيد، وبما أن ما تضمره ذاتكم العالية قديما من العواطف السامية نحو المسلمين معلوم لدى الجميع، فليس عندى ما أقوله سوى تبجيل شخصكم الكريم - وبما أن الرسائل التى نتداولها منذ تسعة أشهر بقيت عرضة للتسويف، فلم يبق أمل بالوفاق والاتفاق - غير أن مساعى الأمير سعيد فى هذه المرة أحيت بعض أمل فى نفسى - مع أن الحال والوقت هما فى أقصى درجة من الخطورة، كما أن وضعك العسكرى مهلك، ولا أورد هذا على سبيل التهديد. بل إن وجدانى يسوقنى إلى إسدائكم النصيحة. أن العرب لا يطلبون شيئا زائدا من الترك. بل غاية ما يتمنونه أن يعيشوا أحرارا. وأن يضعوا أيديهم بأيدى الترك، ويكون حالهم من حكومتهم كحال بافاريا من روسيا فإذا كانت حكومتكم مستعدة لقبول هذه الشروط فنحن على أتم استعداد للدخول فى مفاوضات الصلح وإلا سنرجع إلى اصدار الفتاوى المزيفة[1] ونصب المشانق وأقبلوا يا حضرة الباشا احترامى».

وعاد الأمير سعيد إلى معان فعمان فالسلط، وأطلع جمال باشا على ماوقع وسلمه الكتاب فجمع هذا هيئة أركان حربه. فقررت ارسال برقية إلى الآستانة بوجوب الاعتراف باستقلال العرب، وقد وضعت الحكومة مشروعا بذلك رفعته إلى السلطان فأقره ولكنه لم يبلغ إلا متأخرا، أى بعد الهزيمة الكبرى فى فلسطين.

عهد جديد للعرب

ولما وصل كتاب جمال باشا إلى الحسين فى مكة أرسله إلى نائب الملك بمصر عربون إخلاص ومودة، وأصحبه بكتاب ذكر فيه أن العرب لا ينفصلون عن حلفائهم مهما بذل لهم، فأرسل النائب الكتاب إلى وزارة الخارجية البريطانية فى لندن - وفى يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٨ أبلغ المعتمد البريطانى بجدة جلالة الحسين البرقية الآتية التى وصلت إليه من لندن لابلاغها إلى جلالته ونصها:

---

١ - اشارة إلى الفتاوى التى استصدرها أحمد جمال باشا سنة ١٩١٦ من بعض علماء سورية بتكفير الحسين لخروجه على السلطان.

إن الرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم بإرسالكم الكتب التى أرسلها القائد التركى فى سورية إلى سمو الأمير فيصل إلى جناب نائب جلالة الملك كان لهما أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى. وإن الإجراءات التى اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن إلا رمزا يعبر عن تلك الصداقة التى كانت دائما شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية، وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى .

ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التى تنسج عليها تركيا هى إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب. الذين هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالتكم قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القديمة . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون فى الأراضى العربية، وتلقى بأذهان دول الحلفاء أنه يمكن ارجاع العرب عن مقصدهم. ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد.

«إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفائها مازالت واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدى إلى تحرير الأمم المظلومة. وهى مصممة على أن تقف بجانب الأمم العربية فى جهادها حتى تبنى عالما عربيا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى، وتجتث التنافس المصطنع الذى أحدثته السلطات الرسمية التركية وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد سلكت مسلك سياسة التحرير، وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم، بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار، وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين، لينالوا حريتهم. وفى الختام ألتمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات

الحسين يهدد بالانسحاب

ولقد كان الحسين يظن بعد الخدم الجليلة التى أسداها للحلفاء، وبعد رفضه الصلح المنفرد الذى عرضه الترك على قاعدة الاعتراف باستقلال العرب ـ أن هؤلاء يصفون له وينجزون الوعود التى وعدوه بها، والعهود التى قطعوها. بيد أن تتابع الحوادث على المنوال الذى سردناه آنفا، وإصرار الحلفاء على حصر الحركة العربية فى دائرة ضيقة لا تتعدى

الحجاز جعله ييأس ويفكر فى الاستقالة والانسحاب، وإليك نص كتاب أرسله يوم ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٣٦ (سبتمبر سنة ١٩١٨) إلى نائب الملك بمصر قال:

أنى ماطلبت أمام حكومة جلالة الملك ماطلبته من المواد التى تعهدت عظمتها بها رغبة منى فى تأسيس حكومة، أو تشكيل دولة لا ستأثر بحاكميتها، أو حرصا على جاهها، أو رياستها، ولكن عند مادعتنى بريطانيا إلى مادعتنى إليه، وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضا تأمين مصلحة المسلمين عامة، والعرب خاصة. لم يسعنى إلا الإجابة وطلبى أقله تلك المواد المؤدية فى اعتقادى لما يأتى:

أولا ـ لحفاظة الكيان للعالم الإسلامى، بالنظر لما حل وما سيحل بتركيا

ثانيا ـ صيانة العظمة البريطانية من الأستهداف لما سترمى به عكس مقاصدها

ثالثا ـ سلامتى من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة

نعم إنى لم أجد من جناب الفاضل الأريب المستر «ستورس» عنداجتماعى بحضرته فى السنة الأولى بجدة، ثم بعده بحضرة الشهم الهمام السير مارك سايكس، ثم فى السنة الماضية بالقومندان الهمام «هوغرت» الموقر ـ مايشير إلى مايخالف أو يخل بتلك المقررات. غير أن ما فى طبيعة مشروعنا وتتماته الحياتية من الرقة ما يصادف من بعض حالات يستدعى سياقها زيادة تعيين الأمر، وتأكد الحقيقة عن الحدود فقط، وإلا باقى المواد فإنا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها عما لو فهمت الغلط فى مقرراتنا المذكورة أساسا أو حدث ما يوجب تعديلها ـ الأمر الذى لا أقول إنه يمس كيان العالم الإسلامى، ولكن أظن أنه لا يخلو من شئ من ذلك . هذا على فكرى الخصوصى . إلى أن قال:

فإن تعديل مقرراتنا المذكورة بصرف النظر عما فى إخلاله بالغايات المقصودة الأساسية، وعرضتنا لحذر موادنا الثلاثة آنفة البيان، وطمس صحيفة تاريخى. فهو يزيل ويسقطنى من ثقة واعتماد بلادى وأقوامى الأقربين، حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التى أعلنتها لهم، وصرحت بها شفاها وتحريرا فى ظرف هذه المدة، وأسست عليه الأعمال وأكون خدعت نفسى وغششتكم يا أصدقائى بما وراء هذا من اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوها، مما لا يمكن لى معه حتى الاستفادة لذاتى، ومايزيل حسن كل ظن حكومة جلالة الملك بى، وأكيد إخلاصى يجبرنى أن أقول من الآن إن مبادئ هذه الخطرية على وشك التحسس بها بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفة عن أمرهم بإعلان استقلال

بلادهم، ولم أجد ما أدفعهم به إلى قولى أن استقلالى هو استقلال عموم أنحاء البلاد، ولكنهم يقيمون الحجة على دفعى هذا بأوجه أخر. وعليه فإن كان ولابد من التعديل فلا لى سوى الاعتزال والانسحاب إلى أن قال:

أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح - فالجواب عليه من الآن بأن لا علاقة لنا به، ولا مناسبة بنيننا وإياه، حتى ننتظر منه سلبا أو إيجابا.

ولقد سار الحسين على هذه الخطة فى مخاطبة الإنجليز منذ سنة ١٩١٨ ولا سيما بعد اجتماع مؤتمر الصلح، وتحققه من عدم وفائهم له فكان يكرر جملة «الانسحاب والاستقالة» فى كل كتاب يكتبه أو مذكرة يرسلها. متوهما أنه بتهديده إياهم على هذا المنوال يحملهم على التساهل وتعديل خططهم فى بلاد العرب، فكانوا يماطلون ويسوفون. وسننشر نص هذه المكاتبات فى مكانها مراعاة لقواعد التسلسل التاريخى.

مذكرة الحسين إلى أمريكا

وبهذه المناسبة ننشر نص المذكرة التى أرسلتها وكالة خارجية الحكومة العربية إلى الولايات المتحدة على أثر دخول هذه الحرب فى جانب الحلفاء سنة ١٩١٧ وإعلان الرئيس ولسن ما أعلنه من مبادئ، مما أنعش آمال العرب وزادهم تمسكا باستقلالهم ثقة منهم بوعوده وعهوده:

ياسعادة الوزير:

«تئن الأمة العربية من أجيال تحت النير التركى. ولم يأت فى التاريخ ذكر لشعب ذاق من ضروب الاستعباد والتعذيب ما ذاقته هذه الأمة، ولا ذنب لها سوى أنها الأكثرية فى البلاد العثمانية. فكان الترك يعدونها خطرا يهدد سيادة عنصرهم. ولهذا عاملوها معاملة العدو لعدوه اللدود، وبالغوا فى ذلك بعد فقدانهم بعض ولايات تركيا الأوربية. الأمر الذى جعل الأكثرية العربية شيئا لا جدال فيه. وعلى هذا المنوال كان العنصر العربى - وهو محروم من جميع حقوقه وعرضة للمظالم والفظائع - يتضاءل ويضعف فى بلاده أو يبحث فى البلاد العربية الأخرى عن الحياة التى كان الترك يوصدونها فى وجه أبنائه. ولما أعلنت الحرب الأوربية، ولم يبق فى بلاد الترك رقيب على أعمالهم أطلقوا العنان لحقدهم وغضبهم، وراحوا ينفذون خطتهم المنظمة لإبادة العرب فلم تردعهم عاطفة، ولم يصدهم قانون،

واستحلوا فى هذا السبيل كل واسطة محرمة فاستعملوا الشنق والتغريب، والحبس والتعذيب وتفريق العائلات وحجز الأملاك والأحكام الغيابية إلى آخر ما هنالك من المظالم.

«ولقد بذل جلالة مولاى الملك كل ما كان فى وسعه لنصح حكومة الترك والرجوع بها إلى جادة الصواب والعدل، فذهب تعبه سدى. فخلع نير الظلم وأعلن استقلال العرب بصفته رئيسا لبيت قريش. وهو البيت الذى خرجت منه كل البيوت التى تبوأت عرش الملك فى البلاد العربية من أمية إلى بنى العباس إلى الفاطميين فالتف حوله كل شعبه العربى، ولم تمض عليه شهور قليلة حتى أنشأ جيشا، ونظم إدارة، وطرد وأباد كل ما كان تركيا فى الحجاز واكتفى بأن ضرب نطاقا حول المدينة. لأن الصفة الدينية التى عليها تحول فى كل حال دون ضربها بالمدافع لفتحها عنوة وترابط جيوشه اليوم فى الأراضى السورية وتقوم بأعمال تكلل جميعا بالفوز والنجاح».

«فالمملكة الجديدة تجاهد منذ سنتين فى سبيل إنقاذ عنصر جدير بالاحترام لما له من تاريخ مجيد ومن فضل على التمدين الأوربى لا يمكن أن تجد من الأمة الاميركية العظيمة سوى عطف ومودة، وهى تؤمل أن تعترف بها حكومة الجمهورية الكبرى. ولا سيما بعد دخولها الحرب إلى جانب الحلفاء مملكة مستقلة. كما اعترفت بها الدول المتحالفة. ويعلق جلالة مولاى أهمية كبيرة على هذا الاعتراف الذى يكون أول تنفيذ فعل لمبدأ تحرير الشعوب الذى أيده جناب الرئيس ولسن. وقد دخلت بلادكم الحرب لتحقيقه.

«ولا حاجة هنا إلى سرد الظروف التاريخية التى أدخلت الدول فى مصافها، أى فى المجتمع الدولى شعبا مجاهدا فى سبيل حريته واستقلاله قبل انتهاء جهاده، فلا أذكر إلا معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ فقد اعترفت باستقلال اليونان، بينما كان الترك لا يزالون يعتبرونهم من رعاياهم.

«وسيوضع للمملكة العربية حال انتهاء الحرب دستور حر. يضمن المساواة فى الحقوق لجميع السكان بدون أدنى تمييز بين المذاهب والأديان. والبلاد العربية التى تعلن بملء اختيارها وبتمام حريتها بعد انقاذها من النير التركى رغبتها فى الانضمام إلى هذه المملكة تمنح استقلالا داخليا. فتكون مع الحجاز حلفا قائما على المبادئ الديمقراطية الواسعة. ولهذا فالمملكة الجديدة تعتبر نفسها من كل الوجوه ذات حق بعطف حكومة الجمهورية الكبرى ومساعدتها، وأرجوكم يا سعادة الوزير أن تبلغوا حكومتكم أمانى الأمة العربية هذه، وأن تتفضلوا بقبول شعائر احترامى الفائق».

ملاحظات هامة
على سير القضية من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٨

تنتهى بهذا المجلد الحلقة الأولى من سلسلة تاريخ القضية العربية، وتشمل حوادث الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ حتى دخول الجيش العربى إلى دمشق يوم أول أكتوبر سنة ١٩١٨ وإنشاء الحكومة الفيصلية فى ربوع الشام.

ولئن ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار ما حدث فى العهد الحميدى من حوادث فردية لا انسجام بينها ولا ارتباط، كصدور كتابى أم القرى وطبائع الاستبداد، ونشر كتاب يقظة العرب فى آسيا التركية بالفرنسوية فى باريس سنة ١٩٠٥ من مقدمات الحركة العربية وطلائعها، أو إنشاء الجمعية السرية التى أنشئت فى بيروت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. أى فى إبان ولاية مدحت باشا لسورية وكان من أعضائها المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى. فالنهضة المادية الحقيقية لم تبدأ إلا بعد إعلان الدستور فى سنة ١٩٠٨ فقد قامت على دعامتين جديدتين: حرية الكلام وحرية الاجتماع، وقد كفلهما النظام الحكومى الجديد لسكان تلك المملكة. فانطلقت الألسنة والأقلام وارتفع الضغط عن الأفكار وانتشرت العلوم فساعد هذا الانقلاب، وهو خطير الشأن على ايقاظ العرب. فأدركوا أنهم كمية مهملة فى الإمبراطورية العثمانية وأن لهم حقوقا يجب أن ينالوها، وكرامة يجب أن تصان ومجداً يجب أن يعملوا لاحيائه وتجديده.

وصدرت صحف عربية عديدة فى ظل النظام الدستورى فى دمشق وبيروت والقدس ويافا وطرابلس واللاذقية وحلب وجدة وبغداد والبصرة وغيرها من بلاد العرب وفى الآستانة نفسها، وإلى هذه الصحف العربية التى كانت تصدر فى القطر المصرى يعود معظم الفضل فى تكوين الرأى العام العربى وإنشائه، وبث الروح القومية بين طبقاته. ولم يغتفر لها الترك صنعها يوم نصبوا الميزان فى عالية. فكان الصحافيون أكثر الطبقات ضحايا فقد استشهد منهم فى هذا المرحلة عبد الحميد الزهراوى صاحب جريدة الحضارة الاستانبولية وعبد الغنى العريسى والأمير عارف الشهابى صاحبا جريدة المفيد البيروتية وعمر حمد من محرريها والشيخ أحمد طبارة صاحب جريدة الإصلاح البيروتية وسعيد عقل من محرريها، وجرجى حداد محرر جريدة الراوى الدمشقية، وعلى الأرمنازى صاحب جريدة نهر

العاصى الحموية، وشكرى العسلى صاحب جريدة القبس الدمشقية وبترو باولى صاحب جريدة الوطن البيروتية.

وحكم فى هذا الدور بالاعدام غيابيا على فريق من رجال الصحافة السوريين فى مصر نذكر منهم الدكتور فارس نمر صاحب المقطم، والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار وداود بركات محرر الأهرام، ومحب الدين الخطيب المحرر فى المؤيد، وإبراهيم سليم النجار وجورج دومانى ونعمة الله الغانم. وحكم بمثل ذلك على قسطنطين ينى محرر جريدة دليل حمص فى حمص، وخليل زينيه محرر جريدة الثبات فى بيروت، وقد فرا من قبل ونفى آخرون نذكر منهم يوسف العيسى وعيسى العيسى صاحبا جريدة فلسطين اليافاوية، ونجيب نصار صاحب جريدة الكرمل الحيفاوية، ومحمد صبحى عقدة صاحب جريدة أبى النواس اللاذقانية، وعلى الغبرا صاحب جريدة النديم الدمشقية، وأمين الغريب صاحب جريدة الحارس البيروتية. فقد أرسلوا جميعا إلى الاناضول. ماعدا الأول والثالث فقد ظلا فى دمشق، وقبض فى بغداد على إبراهيم حلمى العمر الصحافى العراقى وأرسل إلى دمشق ليحاكم فيها، فقضى بضعة شهور سجينا، ثم أطلق سراحه على أن يبقى فى دمشق.

ومن الذين قدموا إلى المحاكمة فى الديوان العرفى بعالية واعتقلوا شهورا ثم أفرج عنهم نجيب شقير صاحب جريدة بيام، وأحمد عزت الأعظمى صاحب مجلة المنتدى الأدبى، وتوفيق اليازجى محرر جريدة الإصلاح البيروتية.

ويأتى رجال الجمعيات والأحزاب السياسية بعد الصحافيين. ولئن كان ضحايا هؤلاء أقل من أولئك، فما ذلك إلا عجز الترك عن اكتشاف أسرار الجمعيات السرية لما تذرع به رجالها من تكتم عظيم خلال التحقيق والمحاكمة. ومن تحصيل الحاصل القول أن المنتدى الأدبى فى الآستانة كان أكثر هذه الجمعيات ضحايا. لأنه كان أشهرها وأعظمها، ولأنه كان مقر الدعاية العربية فى الآستانة. فانتقم الترك من مؤسسيه ومديريه انتقاما مريعا. فأعدموا عبد الكريم الخليل وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم ونفوا يوسف سليمان مخيبر، ولم ينج من مؤسسيه سوى جميل الحسينى. فقد قبض عليه وسجن أشهر ثم برئ لما ثبت من ابتعاده عن المعترك السياسى فى أواخر ذاك العهد.

ويأتى حزب اللامركزية بعد المنتدى الأدب. فقد فتك الترك بكل من استطاعوا القبض

عليه من رجاله كما حكموا على المقيمين بمصر كافة بالإعدام. ومن الذين أعدموا فى بيروت ودمشق باسم اللامركزية أو بسببها: صالح حيدر وسليم الأحمد عبد الهادى ونايف تللو ومسلم عابدين ومحمود المحمصانى ومحمد المحمصانى ونور الدين القاضى، عبدالقادر الخرسا ومحمود العجم. وحكم بالسجن المؤبد على الشيخ سعيد الكرمى وحافظ السعيد ثم يأتى بعد ذلك عنصر الضباط العرب فى الجيش التركى، وقد أعدم الترك منهم سليم الجزائرى وأمين لطفى الحافظ وعلى النشاشيبى، واعتقل فى عالية من الضباط على رضا البيلانى وجميل الألشى ورضا الخطيب وسالم مظلوم وقد أطلق سراح الأولين وحكم على الأخير بالاعتقال خمس سنوات. وفضلا عن ذلك فقد جروا فى تلك الأيام على طريقة جهنمية فى الانتقام من الضباط العرب المعروفين بالغيرة القومية، فكانوا يرسلونهم إلى خطوط النار فى ميادين القتال ليخلصوا منهم، وقد استشهد كثيرون منهم على هذا المنوال.

ولقد مرت القضية العربية فى هذه المرحلة بثلاثة أدوار:

ويبتدئ الدور الأول بإعلان الدستور، وينتهى بإعلان الحرب العظمى. فقد نهج العرب فى خلاله نهج الأمم الناهضة العاملة للحرية والاستقلال. فألفوا الجمعيات السرية كما ألفت، وأصدروا الصحف كما أصدرت، ونظموا القصائد الحماسية القومية كما نظمت، وأنشأوا الأحزاب السياسية، وعملوا على «التنظيم الداخلى» وإنشاء الروابط بين لجانهم وجمعياتهم وأنديتهم استعدادا للعمل الكبير الذى وضعوا نصب أعينهم القيام به. ولا يسع الباحث فى أعمال هذا الدور إلا الإعجاب بما يشهده من انتظام واتساق وتضامن وتعاون.

أما الدور الثانى وهو دور الإرهاب أو دور مطاردة رجال القضية العربية واحرار العرب ومفكريهم. فيبتدئ من أوائل سنة ١٩١٥ أى من حين وصول جمال باشا إلى دمشق واصداره أمره بإلغاء كتيبة الضباط الشبان من خريجى المدارس العليا، وكانوا يمرنونهم فى دمشق ويعدونهم ليكونوا ضباطا على أثر ما سمعه من أناشيدهم القومية. فأرسلوا إلى ميادين القتال فى شتى الجهات وهلك معظمهم، وينتهى بإعلان الثورة الرسمية يوم ١٠ يونيو سنة ١٩١٦. نعم إن أقطاب الاتحاديين قرروا فى شهر يناير سنة ١٩١٤ أى قبل وصول جمال باشا إلى دمشق بسنة تقريبا اتخاذ تدابير متعددة للقضاء على الحركة

العربية وتتريك العرب .إلا أن تأثير هذه التدابير ظل محدودا لأنها سلبية فى طبيعتها لا تتعدى المقاومة الخفية. ولقد تحول الحال حينما أعلنت الحرب العظمى، وبسطت الأحكام العسكرية، ونصبت المحاكم العرفية وأوقف البرلمان، ووضعت المراقبة، وعطلت الصحافة وانطلقت أيدى الاتحاديين فى البلاد يفعلون ما يشاؤن لا رقيب ولا حسيب.

ويلوح لنا أن اختيار جمال باشا القائد العام فى بلاد العرب ـ وهو المعروف بشدة الشكيمة والميل إلى سفك الدماء وتخويله سلطة لا حد لها ـ ليس من قبيل الصدف بل هو نتيجة خطة أحكم الاتحاديون تدبيرها، وأرادوا من ورائها الفتك برجال العرب ومفكريهم وشبانهم الذين أشربوا الروح القومية، أملا بأن يخرجوا منصورين من الحرب، وكانت الدلائل تدل فى سنيها الأولى على أن النصر سيكون فى جانب الألمان، فينفذوا سياسة التتريك، ويقضوا على كل نأمة عنصرية، وينشئوا امبراطورية تحيى مجد جنكيز خان وتيمور لنك وتعيد عهد الذئب الأغبر.

ولا تلحق تبعة ماجرى فى ذلك العهد الدموى جمالا وحده. بل تشمل أقطاب الاتحاديين الذين كانوا مسيطرين على البلاد العثمانية، وفى مقدمتهم أنور باشا وزير الحربية ووكيل القائد العام الدكتاتور الحقيقى، فقد كان مصدر كل سلطة فى الدولة – وقد استمد نفوذه من تأييد الألمان له، ومن سيطرته على الجيش، ولو أراد لوضع حدا لتلك الأعمال، ولكنه تغاضى عنها، ومنح جمالا كل ما طلبه من سلطة، ووضع تحت تصرفه كل ما أراد من قوى، على أن سير الحوادث وقد جرت على غير مايشتهونه، جعل أنور يعدل عن تلك السياسة فيضيق اختصاص صاحبه، ويسلبه ماكان منحه إياه. يؤيد ذلك ما جرى حين نظر القضية الثالثة (قضية خان الباشا) فهو لم يجسر على إعدام الذين ألح باصدار الحكم بإعدامهم بل أرسل الأعلام إلى ديوان التمييز العسكرى لفحصه، عملا بالأوامر الجديدة، وقد سلبت منه اختصاصاته، فعاد منقوضا يقول إنه لا وجه لإقامة الدعوى على أحد لأن الجرم الذى حوكموا لأجله لم يخرج إلى حيز التنفيذ، ولو فعلوا فى القضيتين الأوليين ما فعلوه فى الأخيرة وأرسلوا الإعلاميين إلى التدقيق لعادا منقوضين ولاكتفوا بإصدار أحكام بسيطة على المتصلين بالقنصليتين الفرنسويتين وحدهم. كما جرى فى قضية نخلة المطران، وقد حوكم قبل وصول جمال، وقبل أن يتدخل فى شؤون القضاء فحكم عله بالنفى فقط.

وينقسم العمل السياسى فى خلال هذا الدور إلى ثلاثة مراحل: فالمرحلة الأولى تبتدئ

من إعلان الحرب العظمى (شهر أغسطس سنة ١٩١٤) حتى (شهر أغسطس سنة ١٩١٥) أى حتى صدور الحكم فى القضية الأولى وتنفيذه، فقد انضم العرب فى خلال هذه المرحلة إلى الدولة قلبا وقالبا وأيدوها رغم ماكان بينهم وبين الاتحاديين، ورغم ظهور دلائل تدل على سوء نية هؤلاء وترقبهم دوائر السوء بالعرب. لأنهم أدركوا أن الاحتلال التركى أهون من الاحتلال الأجنبى وأخف شرا، ولأنهم اعتقدوا أنهم لا يعدمون وسيلة للتفاهم مع أولئك حينما تضع الحرب أوزارها وتنقشع غمامتها. وأطمع هذا العطف الاتحاديين كما غرهم ما كانوا يتمتعون به من قوة ومن سلطان عظيم لم ينالوا مثله فى غابر أيامهم. فقالوا إنها فرصة ثمينة لا يجود الدهر بمثلها. فاقدموا على تصفية حساب الحركة العربية ونصبوا الميزان فى عالية كما نصبوه من قبل فى أشقودره يوم أرسلوا شوكت طورغود إلى ألبانيا فى سنة ١٩١١ للقضاء على الحركة الألبانية فعجلت حركتعم تلك فى إخراجهم من ألبانيا وطردهم من البلقان. كما عجلت حركة عالية على إخراجهم من بلاد العرب وطردهم منها.

ولا يسع المنصف إلا التنويه باخلاص العرب للدولة فى هذه المرحلة، وإذا اضطروا إلى الاتصال بأعدائها بعد ذلك، وتعاونوا معهم على هدمها والقضاء عليها فالذنب ذنب الاتحاديين قبل أن يكون ذنب العرب، والتبعة لاحقة بهم فلو جزوا العرب على إخلاصهم بإخلاص، وصافحوا اليد الممتدة إليهم، وتغاضوا عن كل حادث فى الماضى – وهو ماجرى العرف أن يحدث فى الشدائد، وأى شدة أعظم من تلك الحرب، لما وقع ماوقع ولما كان ماكان.

وتبتدئ المرحلة الثانية بعد إعدام الرعيل الأول فقد كشر جمال باشا عن أنيابه وتنكر للعرب ولبس ثوب الأسد بعد مانزع ثوب الحمل، وأخذ ينادى بأنه لابد له من عقاب الخونة، والخونة فى عرفه هم أحرار العرب والناهضون من رجالهم. مع أنه دعا هؤلاء فى الخطبة التى خطبها فى النادى الشرقى (يناير سنة ١٩١٥) إلى إحياء شهامة العرب وترقية العرب كما مر.

ولابد لنا من الاعتراف بأن العرب فوجئوا بأعمال جمال باشا مفاجأة لم تكن تخطر لهم ببال فتشتتت الجمعيات السرية فى كل ناحية من أنحاء السلطنة العثمانية، بعضهم منفى وبعضهم سجين وبعضهم مقتول، وأرسل آخرون إلى ميدان القتال وجند آخرون فى الجيش وفر غيرهم.

أضف إلى هذا أن كل صلة كانت مقطوعة بينهم وبين العراق والحجاز. فضلا عن العالم الخارجى لصعوبة السفر والانتقال فى تلك الأيام العصيبة، ولوجود مراقبة شديدة على المراسلات. والحقيقة أنه لم يبق خارج القفص فى تلك الأيام سوى عدد ضئيل جمدا كان يقيم فى دمشق على حذر ووجل يترقب القبض عليه من ساعة إلى ساعة، ويودع أهله عند خروجه من المنزل فى الصباح لأنه قد لا يعود فى الظهر، ويودعه فى الأصيل لأنه ماكان واثقا من الرجوع إليهم فى الليل.

فهذه العترة القليلة ـ وكان بقاؤها فى دمشق بفعل عوامل محلية خاصة. فبعضها أقام بضمانة الوالى خلوصى بك كالدكتور عبد الرحمن شهبندر، وبعضها أقام لأن الوحدة العسكرية المنسوب إليها كانت تقيم فيها كالدكتور أحمد القدرى وياسين الهاشمى وغيرهما هى التى اتصلت بالأمير فيصل عند مروره بدمشق فى غدوه إلى الآستانة ورواحه منها وهى التى أطلعته على ما يقاسيه العرب فنقل شكايتها إلى رجال الدولة وعمل ـ كما اعترف جمال باشا وعلى فؤاد باشا ـ على تعديل هذه السياسة فى دمشق وفى الآستانة فلم يوفق. وهى التى نفخت فيه روح الثورة وكان معروفا ـ حتى إعلان الحرب العظمى ـ بمصافاة الترك قائلا بعدم الخروج عليهم مهما كانت الظروف، وهى التى أقنعته بوجوب العمل لإنقاذ العرب من خطر محقق، فضم جهوده إلى جهود أخيه الأمير عبد الله، وكان متصلا بالإنجليز فتقررت الثورة ووضعت أسسها، ومما لا ريب فيه أنه كان للعامل المحلى والشخصى يد لا تنكر فى إعدادها وتكوينها.

وتبتدىء المرحلة الثالثة على أثر عقد مؤتمر الطائف فى خريف سنة ١٩١٥ وقد قرر إعلان الثورة وإعداد معداتها فى الداخل، والاتصال بالإنجليز فى الخارج وقد سارت الأمور فى مايختص بالجزء الأول على أفضل منوال. فأقام الأمير على فى المدينة يستميل القبائل ويأخذ عليها العهود والمواثيق. كما انصرف الأمير عبد الله من ناحيته إلى جمع كلمة قبائل الطائف وإعدادها لليوم العصيب. أما الأمير فيصل فكان يقيم فى دمشق يفتل خيوط الرأى ليجد مخرجا يخرجه من معتقله. فقد استبقاه الترك رهينة يهددون بها والده ويغلون يده عن كل عمل. ولولا تخلصه منهم بتلك اللباقة وإفلاته من قبضتهم الحديدية لتأخر إعلان الثورة ولسارت الأمور فى غير هذا الاتجاه.

وامتدت المكاتبات بين الحسين والإنجليز سنتين وأشهرا وانجلت عن تلك العهود التى بذلها السير هنرى مكماهون للعرب باسم حكومته، وبالإضافة إليها وقد وقف الإنجليز

موقفا غريبا إزاء هذه العهود فكانوا ينكرونها ويتبرأون منها إذا كان مخاطبوهم من العرب ويقولون أنها لم تصدر منهم، يؤيد ذلك ماوراه الأمير فيصل بنفسه عما دار بينه وبين رئاسة الحكومة البريطانية حين زيارته لها فى رحلته الأولى وأثبتناه فى متن الكتاب أما إذا كان المخاطبون من الفرنسويين فينعكس الأمر.ويرفع الإنجليز عقيرتهم منادين بأنهم مرتبطون مع العرب بعهود لا يسعهم إنكارها، وأن هؤلاء حلفاؤهم. كما أن فرنسا حليفتهم فيجب أن يفوا لهم كما يفوا لها.

ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة أنه لما تقرر عقد مؤتمر باريس فى شهر سبتمبر شنة ١٩١٩ - وقد دعى الأمير فيصل لحضوره، كما دعى اللورد اللنبى - نشرت جريدة الديلى تلغراف يوم ١١ سبتمبر - أى قبل المؤتمر بأربعة أيام مقالة بإيعاز المستر لويد جورج قالت فيها أن المساعدة العسكرية الثمينة التى بذلها العرب للإنجليز فى زمن الحرب تقضى على هؤلاء بأن يفوا بعهودهم للحسين وفيصل. فقد قدم العرب للقتال جيشا يتألف من ٣٠ ألف إلى مائة ألف مقاتل. وليس لدولة من الدول - ما عدا العرب - أى فضل فى الانتصار الذى ناله الإنجليز على الجيش التركى بقيادة الألمان. وقد بذلوا فى سبيل هذا الانتصار مليون مقاتل وملايين الجنيهات. وإننا نعتبر أن فيصلا حليفا، كما أن الفرنسويين حلفاؤنا، وبعد ما أسهبت الجريدة فى تفنيد مطالب الفرنسويين قالت:

«ولايطابق الواقع ما يقوله هؤلاء الذين لايعرفون نصوص اتفاق سنة ١٩١٦ ويؤكدون أن المسيو جورج بيكو لم يكن عارفا باتفاقنا مع الحسين. فالحقيقة أن الإنجليز أطلعوه على جميع التفاصيل المتعلقة بخط الحدود الذى تم الاتفاق عليه بينهم وبين الحسين - كما يقضى عليهم - الواجب وقد قبله وارتضاه بموجب اتفاق سايكس - بيكو».

وانخفضت حماسة الإنجليز لعهودهم وتلاشت يوم ١٦ ستيمبر - أى بعد نشر هذه المقالة بأربعة أيام، فعقدوا اتفاق باريس مع الفرنسويين، وقد وافقوا فيه على احلال الجيش الفرنسوى محل الجيش الإنجليزى فى المناطق الواقعة غربى خط سايكس - بيكو أى فى المنطقة الساحلية مع استثناء المدن الأربع، مقابل تنازل الفرنسويين لهم عن الموصل وفلسطين. ولم يعودوا إلى ذكر هذه العهود بل تناسوها وجحدوها.

ولا ريب أن ضعف العرب وتشتتهم وانحطاط مستواهم الاجتماعى وفقد الرجال الاكفاء من بينهم وعدم تمرسهم بالسياسة الدولية هو العامل الجوهرى فى إنكار الإنجليز لهذه

العهود وتجاهلهم إياها، وفى عدم نجاح القضية العربية النجاح الذى كان يرجى لها.

فلو عرف الإنجليز أن هناك شعبا قويا ناهضا لهابوه واحترموه ووفوا له بعهودهم. بل لأعطوه أكثر مما طلب. يؤيد ذلك المصير الذى صارت إليه الأناضول الجنوبية بعد الحرب فقد كانت جزءا من المنطقة الساحلية التى وضعت تحت الحماية الفرنسوية بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو، وكانت تشمل مقاطعة كيليكية حتى ديار بكر وماردين وقد احتلها الفرنسويون عسكريا بعد الحرب، وأنشأوا فيها حكومة عسكرية رئيسها الكولونيل بريمون مندوب فرنسا إلى الحجاز، وطبقوا فيها نفس الأساليب التى طبقوها فى سورية تماما، فاستعانوا هناك بالأرمن كما استعانوا هنا بالموارنة، ويجب أن نعترف أن هؤلاء كانوا ألين عريكة من الأرمن الذين تقلدوا السلاح وقاتلوا الترك جنبا إلى جنب مع الفرنسويين، وأوصلوا أنواع الأذى والاضطهاد إليهم. ومنشأ ذلك ماحدث بين الشعبين من حوادث مؤلمة فى زمن الحرب ومايدعيه الأرمن من ظلم الترك لهم وذبحهم لرجالهم ونسائهم ولم يسئ مسلمو سورية إلى الموارنة فى تلك الأيام السوداء، بل ساعدوهم بقدر ماوصلت إليه طاقتهم، وفتحوا لهم أبواب بيوتهم وتحملوا معهم المظالم والمغارم. ولم يظهر ما ظهر من خلاف بينهم إلا بعد سنة ١٩١٨ بسبب الدعايات الأجنبية. على أننا لا ننكر أن كثيرين منهم انضموا إلى القضية الوطنية، وعملوا باخلاص وجاهدوا أصدق جهاد متأثرين بما هنالك من روابط قومية وجنسية وعنصرية واقتصادية تربطهم بالعرب المسلمين.

ولما رأى الفرنسويون أن الإصرار على قتال الترك فى كيليكية ولم يستطيعوا بلوغ ديار بكر وكردستان كما كانوا يرجون يولد لهم مشكلات عظيمة، وأدركوا أنهم أمام شعر ناهض قوى منظم، يستهين بالحياة فى سبيل بلاده، ولا يستمال بالمال ولا بغيره، جلوا عن كيليكية فى سنة ١٩٢١ وعن البلاد التركية كلها، وأعادوها إلى أصحابها، بعد ما عوضوهم بكميات كبيرة من الأسلحة تركوها لهم مع مساحة ٥٤٠ كيلو مترا من الأراضى السورية ومنحوهم امتيازات داخلية فى سنجق اسكندرونة. ومعنى ذلك أن الترك لم يستردوا بلادهم وحدها بل غنموا غنائم أخرى معها. ونحن فى غنى عن القول أنهم لو خضعوا وخشعوا وتفرقوا أحزابا وشيعا ـ كما فعل العرب ـ لكانت أطنه اليوم عاصمة دولة أرمنية، كما هى بيروت عاصمة دولة مورانية، ولكانت ديار بكر عاصمة دولة كردية، ومرعش عاصمة دولة تركية ولنفذوا فى بلاد الترك ما نفذوه فى بلاد العرب تماما. ولم ينقذ الترك سوى سيفهم

الصقيل وما فطروا عليه من ميل للطاعة وحب للنظام.

ويبتدىء الدور الثالث بإعلان الثورة رسميا ونزول العرب إلى ميدان القتال وينتهي بإرسال الحسين بلاغه الشهير إلى الإنجليز يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٨ يعلن فيه استعداده للانسحاب وتخليه عن العمل، لأنهم لم يفوا للعرب بما عاهدوهم عليه فأحرجوا مركزه في نظر قومه.

والواقع أن القضية العربية كانت في خلال هذه المرحلة، ولعلها أعظم المراحل التي اجتازتها شأنا، عرضة لتيارات مختلفة وعوامل متناقضة، حتى ظن بها كثيرون الظنون واعتقدوا أنه قد لا يكتب لها التغلب على المصاعب التي أحدقت بها من كل جانب. فقد كان جمال باشا يهاجمها من الداخل بكل قواه ويبذل جهده للقضاء عليها والتخلص منها فيتم بذلك عمله الأصلي، ويقضي على كل حركة عربية، وينال إكليل الغار والظفر. ولا ريب أن فشله في احتلال مكة وفي انقاذ الحجاز أفقده ماكان يتمتع به من نفوذ في دوائر الآستانة وجعل حكومتها تنتقص سلطته تدريجيا حتى جردته من كل حول وطول. فطلب أن يقال وكانت الحرب في سنتها الثالثة فأقيل، وعاد حزينا مغموما يعض كفيه حزنا وأسى وقبع في وزارة البحرية ينتظر ماخبأه له القدر، ولم يطل به المطال حتى فر إلى روسيا فعاش شريدا طريدا ومات قتيلا منبوذا وتلك عقبى الظالمين.

ويجب أن لا ننسى المعاملة غير اللائقة التي عامل بها الإنجليز الحسين. وذلك قبل انقضاء الشهر الأول على انضمامه إلى جانبهم رسميا - فقد أخذوا يتنكرون له ويهملون مطالبه، ومن يقابل بين كتب معتمدهم إليه قبل الثورة وبين البرقيات التي أرسلوها إليه بعدها يجد الفرق ظاهرا والتبدل محسوسا، وعندنا أن معظم الفضل في انقاذ الثورة. بل في انقاذ القضية العربية كلها يعود إلى الجهود الخاصة التي بذلها الحسين وأبناؤه في الأشهر الأولى ولولا ذلك لتم لفخري باشا بلوغ مكة واحتلالها والقضاء على الحركة في مهدها.

ومع أن كتب السير هنري مكماهون إلى الحسين صريحة في أن حدود المملكة العربية الجديدة تشمل فلسطين وسورية الداخلية والعراق على أن ينظر في مصير الساحل السوري بعد الحرب، فقد أنكر الإنجليز والفرنسيون على الحسين أن يلقب ملك العرب وأبلغوه رسميا أنهم لا يعترفون به إلا ملكا على الحجاز وحده وما خاطبوه بعد الثورة إلا

بهذا اللقب، وكانوا يلقبونه به فى صحفهم وفى الصحف المصرية، وكان الملك يطلع عيلها، مما لا يدع شكا فى نياتهم. إلا أنه ظل حتى الساعة الأخيرة ينكر عليهم تصرفاتهم، وينادى بأن هنالك وعودا وعهودا يجب الوفاء بها، ويناشد انجلترا أن تفى له بما عاهدته عليه فلا يكون سخرية العالم الإسلامى.

وهنالك ظاهرة أخرى فى صلة الحسين بالحلفاء زمن الثورة. فقد كانت تتأثر بالحوادث فإذا كانت كفتهم راجحة، وكان طالع الحرب باسما لهم أهملوا مطالبه وأزوروا عنه، وإذا كان الأمر بالعكس وكانت كفة الألمان والترك هى الراجحة أجيبت ماطلبه، ولقى عناية واهتماما. ولقد لاحظ القراء أن وزير الخارجية الفرنسوية أرسل تعليمات سرية إلى معتمده فى الحجاز بأن يتجنب البحث مع الحسين فى معاهدة سايكس - بيكو، عن إتيان أى حركة تثير شبهانه من ناحية فرنسا ومطامعها فى سورية. وتبدل الحال بعد ذلك حينما هبت ريح النصر على أعلام الحلفاء وكتب الفوز لهم فلم يعودوا يكتفوا بنشر نصوص المعاهدة وإعلانها رسميا والمطالبة بتنفيذها. بل طبقوها بالقوة. منكرين على العرب كل حق فى إنشاء حكومة مستقلة فى دمشق، وقد منحوا ذلك بموجب تلك المعاهدة.

ومن يقابل بين الاستقبال الذى استقبل به الفرنسويون إعلان الثورة فى سنة ١٩١٦ وكيف هللت له صحفهم، وكيف أرسلوا الوفود والهدايا إلى الحسين وبين المعاملة التى عاملوا بها الملك فيصل فى سنة ١٩٢٠ وكيف انقلبت عليه صحفهم وهاجمته ووالده والعرب كلهم، يرى تأثير المصلحة ظاهرا، ويعجب لمفعولها فهى تجعل الصديق عدوا والعدو صديقا.

ويجب أن لاننسى أيضا ماأقامه الإنجليز والفرنسويون من عقبات فى سبيل توسيع دائرة عمل الجيش العربى، ومحاولتهم حصره فى الحجاز ومعارضتهم فى احتلال المدينة. لكيلا يشجع احتلالها الحركة العربية، ويطلق يد العرب فيندفعون إلى خارج الحجاز. ويزحفون على العراق كما زحفوا على الشام، ولا يقر الإنجليز هذه الخطة بل يعارضونها كما عارض الفرنسويون فى الزحف على الشام، نعم إن هنالك من يزعم أن مطاولة المدينة نشأت عن اعتبارات عسكرية جوهرية. فقد شل حصارها حركة خمسة وعشرين ألف جندى تركى أو أكثر كانوا يقاتلون على أسوارها وعلى طول سكة حديد الحجاز فى مسافة لا تقل عن ألف ومائتى كيلو متر. أقام فيها الترك الجند للدفاع عنها وصونا لمواصلاتهم، وأزعج قيادتهم العليا فى خلال سنتين ونيف، وجعلهم يشطرون قواهم المحاربة فى الشام إلى

شطرين: شطر يحارب فى بادية سيناء، وشطر آخر يحارب فى المدينة وعلى طول السكة الحديد - كما اعترف جمال باشا نفسه - وما كان هذا يتسنى لو تم احتلال المدينة بسرعة ووضع العرب يدهم على محطات السكة من المدينة حتى معان. ومع أن هذه الملاحظة لا تخلو من وجاهة إلا أن نتائجها الأدبية بل والمادية لا تقاس بالنتائج التى كانت تجنى من دخولهم المدينة وغنمهم ما فى يد حاميتها من مدافع وبنادق وعتاد يستعينون بها فى حروبهم فضلا عما يكون لمثل هذا الفوز من صدى فى بلاد العرب نفسها فهو يقوى الهمم ويصقل العزائم ويفتح أمام العرب أبوابا جديدة للعمل وميادين جديدة للنضال.

هذا من جهة أما من الجهة الأخرى فلو وفى الانكليز للحسين بما وعدوه به من إرسال حملة الي العقبة تحتلها وتزحف الى معان فتقطع خط الرجعة على الترك فى باديية الشام لتبدل سير الحرب ولانتهبت بسرعة فى هذا الميدان ولعجل ذلك فى طرد الترك من بلاد العرب كلها لامن الحجاز وحده، ولنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، وما منعهم أن يفعلوه سوى طمعهم فى الاستيلاء على الساحل السورى وعلى المقاطعات التركية الواسعة فى جنوبى الأناضول وشرقية. وقد تم لهؤلاء وهؤلاء تنفيذ خططهم فى بلاد العرب دون بلاد الترك لانه لم يتح للعرب ما أتيح لأولئك من الحصول على كميات كبيرة من الاسلحة والمدافع التى بذلها لهم الالمان بسخاء وبدون حساب فضلا عن ملايين الجنيهات التى مدوهم بها . وعندنا ان مصدر الفرق بين المعاملتين هو عدم وجود مطامع معينة للألمان فى بقعة من بقاع الترك كما هو الحال مع حلفاء العرب الذين كانوا يقترون عليهم فى كل شئ بعكس ما كانوا يعملونه فى الميادين الأخرى فقد كانوا يبذلون بلا حساب.

ومن سوء حظ الثورة العربية أن يكون للإنكليز الذين كان عليهم أن يغنوها بأموالهم ويسلحوها بسلاحهم - وما كانت موارد العرب فى تلك الأثناء تساعد على التفرد بالعمل - مطامع فى بلاد العرب يرون أن نجاح الثورة واتساع نطاقها يحول دون تحقيقها فلذلك ضيقوا دائرة عملها، أن يكون لهم وقد لا نبالغ إذا قلنا إن فائدة الإنكليز من الثورة العربية كانت أكثر من فائدة العرب. فقد سهلت لهم سبل الاستيلاء على فلسطين والعراق وبلاد الشام وضمنت لهم الفوز بعد ماقاسوا الأمرين من الترك فى خلال السنتين الأوليين للحرب فكسرهم الترك شر كسرة فى ميدان العراق وحصروا جيشهم فى كوت الإمارة كما هزموهم فى ميدان فلسطين واضطروهم إلى الإلتجاء إلى ضفة القناة الشرقية، ولم يتسن

لهم اجتيازها والتوغل فى فلسطين والشام إلا بعد اعلان الثورة العربية واشتغال الترك بها.
وما جرى فى هذا الميدان جرى فى ميدان العراق تماما فقد انقلب العرب الذين كانوا يحاربون الإنكليز فى صفوف الترك على هؤلاء حينما أعلنت الثورة ونادى مناديها، فأخذ الإنكليز ينتقلون من نصر إلى نصر. فاحتل الجنرال اللنبى القدس فى نفس الوقت الذى احتل فيه الجنرال مود بغداد تقريبا. ولولا مفعول الثورة العربية لما فاز الإنكليز فى الشرق الأدنى ولا ستهدفوا للهزائم التى استهدفوا للهزائم التى استهدفوا لها فى الدردنيل وفى كوت الإمارة وفى معارك القناة الأولى.

ولابد لنا من القول أن بعض مفكرى العرب وأذكيائهم من الذين وقفوا على أسرار السياسة الأوربية ودخائلها وعرفوا مكر الأوربيين وعدم وفائهم فى معاملة الشرقيين خاصة وأحاطوا علما بما يضمره الإنكليز للعرب وما يعملونه لتضييق دائرة الثورة وجعلها محلية موضعية لاتتعدى الحجاز ولا تخرج عن محيطة، اتصلوا بالحسين فى الأشهر الأولى التى تلت إعلان الثورة ونبهوه إلى المكائد التى تكاد للعرب وإلى الأخطار التى تستهدف لها ثورتهم إذا لم يشدد على الإنكليز ويطالبهم بتنفيذ وعودهم كاملة وبتقديم كميات عظيمة من السلاح لإنشاء جيش وطنى وبإطلاق يد العرب بالعمل فى العراق وفى بادية الشام فكان يجيبهم أجوبة غير صريحة ويقول إنه ليس فى إمكاننا أن نفعل غير مافعلنا وأن إحراجنا لهم قد يضطرهم إلى التخلى عنا فنقع فريسة بين برائن الترك والألمان فيقولون له إن الأمر بالعكس وان تهديده لهم قد يحملهم على إجابة مطالبة كما أن التساهل معهم يطمعهم ويجعلهم يصرون على أساليبهم وخططهم. والمكاتبات الرسمية التى عثرنا عليها لاتدل على أنه اتبع الشدة فى مخاطبة الإنكليز، ولا على ميله إلى التوسل بأساليب العنف. على أنه انصرف فى نهاية الحرب، بعد ما انطبق عليه المثل القائل الصيف ضيعت اللبن - الى تهديدهم بالاستقالة والانسحاب، وقد كرر ذلك مرات فى كتبه ومخاطباته لهم بعد عقد الصلح وما كان يهمهم من أمره شيئا.

وخلاصة القول وجماعه، أنه برغم الهفوات التى ارتكبت فى هذا الدور ورغم وقوع كل ماوقع خرجت الحركة العربية من الحرب العظمى سليمة، وصارت بسببها قوة مادية محسوسة بعد ما كانت خيالا أو فكرة تجول فى بعض الرؤوس وضمنت للعرب إنشاء دولة مستقلة تمام الاستقلال فى الحجاز والاستيلاء على الجزء الداخلى من بلاد الشام فى خط

مستقيم يمتد من المدينة إلى حلب لا يفصل بينه .. وتلك نتيجة مادية لا يستهان بها كما إنها أفادتهم من الوجهة الأدبية فوائد ذات شأن. ولئن لم تحقق آمالهم كاملة فما ذلك إلا لعدم إخلاص الحلفاء، وقد كانوا طامعين فى الأجزاء الثمينة من بلاد العرب كما قلنا ـ ولأن العرب لم يكونوا قد أعدوا ما يلزم للثورة، فقد فاجأتهم الحرب العظمى قبل أن تتضج الحركة الفكرية، وقبل أن يتسع نطاق جمعياتهم وتتكامل نظمهم «تشكيلاتهم» الداخلية، وقبل أن تتصل هيئاتهم وجمعياتهم وتنظم حركتهم التنظيم المطلوب، وقد أدرك الحلفاء هذا النقص فاستغلوه فتحول النضال من جهة إلى جهة. فبعد ماكان العرب يناضلون الترك قبل الحرب صاروا يناضلون الإنجليز فى العراق وفى فلسطين والفرنسيس فى سورية ولبنان، بعدها أى أنه صار عليهم أن يكافحوا خصمين قويين بدلا من خصم واحد، ولم يقصروا من هذه الناحية ـ وسنفصل أدوار هذا النضال فى الحلقة الثانية تفصيلا وافيا.

ومن الله نستمد العون والتوفيق

فهرست الجزء الأول

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة